مكتبة الدراسات التاريخية

الفن الحربى فى صدر الإسلام

بقلم
عبد الرءوف عون



دار المعارف بمصر
١٩٦١

الفن الحربي في صدر الإسلام

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – شارع كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الإهداء

« إلى من هو سر وجودى ، ومن غذا بالطيّب عودى ، إلى من زج بى فى أنوار المعرفة ، وزودنى بحكمته وموعظته الحسنة ، إلى أبى الشيخ عبد الصمد عون ، أهدى باكورة إنتاجى العلمى ، وكذا إلى روح الوالدة الطاهرة ، التى كانت لنا نعم السند والمدد » .

عبد الرءوف عون

تصدير

لقد كانت فكرة هذا الكتاب تراودنى منذ أمد بعيد ، يوم تخرجت ضابطاً احتياطياً ، وقد أخذت بحظ لا بأس به من الفنون العسكرية الحديثة ، وأذكر أن الذى جعل تلك الفكرة تلحّ علىّ ، وتبالغ فى إلحاحها أحياناً ، أنى ألقيت محاضرة فى بعض الأمسيات ، على زملائى وقادتى بالكلية الحربية ، وكان موضوعها : « مواقف تكتيكية من حياة الرسول » وبالرغم من أن المحاضرة لم تعد إعداداً كافياً ، فقد أعجب بها السامعون ، وبخاصة بعض كبار الضباط الذى شرفنى بطلبها منى ، فنسخها ثم أعادها إلىّ شاكراً ، ثم شجعنى بأن طلب منى الاستمرار فى مثل تلك البحوث الحربية الإسلامية ، فنزلت على رأيه ومضيت فى سبيلى .

وفى تلك الفترة ظهر للناس كتاب « عبقرية محمد » لأستاذنا الكبير الأستاذ « عباس محمود العقاد » فكنت من المبادرين إلى قراءته ، وإذا بى أجد فيه فصلا ممتعاً عن « عبقرية محمد الحربية » أجمل فيه كثيراً مما كنت أنوى الكتابة فيه .

وفى الحق أن هذا الكتاب ثبط من همتى إلى حين ، فقد قالت لى نفسى : وماذا عسى أن يغنى كتابك بعد كتاب العقاد ؟ وماذا عسى أن يقرأ الناس لك بعد العقاد ؟

ولا أدرى لماذا داومت الفكرة إلحاحها ، وأخذت معالمها تزداد وضوحاً فى ذهنى ؟ ولا أدرى أيضاً لماذا وجدت نفسى مدفوعاً إلى كتب التاريخ ، أستوعبها وأنقب فى صفحاتها وأقبلت كذلك على قراءة الكتب الغربية ، التى تعرضت للفنون الحربية بوجه عام ، وللفن الحربى الإسلامى بوجه خاص .

ولما طلع على البلاد فجر الثورة المباركة عام ١٩٥٢ ، استبشر الناس بها ، وعلقوا الآمال الكبار عليها ، ووجدت نفسى مدفوعاً إلى بحث الموضوع بنشاط ملحوظ ، وتقدمت به إلى جامعة القاهرة ، لأنال به درجة الماجستير ، محاولا به أن أبرز

أمجادنا الحربية القديمة ، ومهارة أسلافنا الماضين ، فى سياسة الحروب وإدارتها ، وأن أرد عن المسلمين كثيراً من التهم التى ألصقها بهم المستشرقون .

وما إن أوفيت على الغاية ، ودنوت من النهاية ، حتى كان العدوان الثلاثى الغاشم على وطننا الحبيب عام ١٩٥٦ ، فاستدعيت للعمل بالجيش مع زملائى ضباط الاحتياط ، وبقيت أعمل به قرابة عام ، قائداً لإحدى كتائب الحرس الوطنى ، وقد بذلت قبل العدوان وفى أثنائه من المجهود البدنى والعقلى ، ما جعلنى أمرض مرضاً يتطلب الراحة لفترة طويلة ، وبعد أن منّ الله علىّ بالشفاء ، استأنفت العمل بجد ومضاء ، مضحياً فى سبيل ذلك برغبات النفس ، وراحة البدن ، ويعلم الله كم قاسيت من المتاعب ، وكم لقيت من المصاعب ، وكم سهرت الليالى فى تحليل النصوص القديمة ، لاستخلاص الحقائق التاريخية منها ، والمقارنة بينها لتوضيح تضاربها ، وتنسيق تعارضها .

أذكر من ذلك على سبيل المثال ، أنى قرأت عن بعض الأعراب ، أنه كان حارساً لقومه فى بعض الليالى ، فرأى شبحاً يدنو منه فى الظلام ، فأعد قوسه وأطلق عليه بعض أسهمه ، فاختفى الشبح ولم يظهر له أثر ، فظنه الحارس كلباً أو ذئباً ، ثم قال لزوجته التى كانت إلى جواره : « إذا أصبحت فاجمعى علىّ سهامى ، لئلا تمضغها الكلاب » فصرت أتساءل : وكيف تمضغ الكلاب السهام ؟ ولماذا ؟ وأخذت أوجه السؤال لبعض ذوى المعرفة ، فلم أرجع بجواب ناجع ، وظللت مدة قرأت فى أثنائها كثيراً من الكتب التى تعرضت للفنون الحربية ، والتى وصفت السلاح ، وزرت المتاحف الحربية التى تحتفظ بنماذج له ، إلى أن عرفت السبب فى مضغ الكلاب للسهام ؛ ذلك أن نصل السهم يشد عليه عند مدخل الخشب فيه سيور من الجلد القوى ، كما يشد على آخر السهم بعض ريش الطيور ، لتحفظ توازنه عند انطلاقه ، فالكلاب تقبل على السهام ، لما بها من الجلد والريش .

هذا إلى أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، لا يدرك مدى فضيلة الصبر عليها ، إلا من عاناها وزاولها ، وقديما قال الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

فإلى الشباب العربى الناهض ، أقدم كتابى هذا ، ليعلموا مفاخر أجدادهم فيحتذوها، وليقفوا على نواصع أمجادهم فيعيدوها، فإنا فى زمن لا يعيش الحق فيه ، إلا إذا كانت القوة تدعمه وتقويه ، فإلى أسباب القوة يا شباب العرب ، وإلى ينابيع القومية العربية، تحققوا لبلادكم نصراً أى نصر ، ولأنفسكم عزاً أى عز .

وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير الدارين ، وأخذ بأيدينا جميعاً إلى مواطن الهدى والرشاد .

عبد الرءوف عون

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى تلك الآونة التى تشغل أخبار الحرب فيها أذهان الناس، ويعيش العالم على فوهة بركان ذرى ، وتهدده القواعد الصاروخية من كل مكان ، أقدم كتابى عن الحرب عند المسلمين ، فالناس فى حرب ونضال حتى فى أوقات السلام ، التى تعد فترات استعداد واستجمام . وهذه المقدمة تحتوى أبحاثاً ثلاثة هى :

ا – أهداف البحث .

ب – منهج البحث فيه .

حـ – دراسة مصادره ومراجعه .

ا – أهداف البحث

جرت عادة كثير من المؤرخين والباحثين ، أن يدرسوا الحروب عند تعرضهم لها من حيث أسبابها الداعية إليها ، ومن حيث نتائجها المترتبة عليها، صارفين النظر عن الجانب الفنى فيها ، وذلك باستثناء القليل منهم الذى عالجها من تلك الناحية – ولكن فى كثير من الإيجاز والتعميم ، بحيث لا يخرج القارئ مما كتبوا بصورة واضحة لفن الحرب .

وقد لوحظ أن كثيراً من المستشرقين ، أرخوا للإمبراطورية الإسلامية وفتوحها فنظروا بعين الدهشة إلى سرعة توسعها ، ذلك التوسع الذى قضى على نفوذ الفرس والروم – وهما من هما – فى أقل من قرن ، وقد نسبوا تلك السرعة فى التوسع ، إلى اندفاع العرب وراء غرائزهم الحربية ، التى كانت متأصلة فيهم منذ الجاهلية ، كما عللوا لها بضعف الفرس والروم أمام العرب ، نتيجة للحروب التى كانت دائمة بينهما ، على مر القرون .

وقد غفل كثيرٌ منهم أو تغافل عن مهارة المسلمين الحربية ، وأهمل مقدرتهم

الفنية ، كأنهم نالوا ما نالوا من الفتوح ، بمجرد الصدفة المواتية ، أو الحظ الموفق[١] ، دون أن يبرزوا مزاياهم الحربية .

لما تقدم كان من أهم أهداف الرسالة ، أن تبحث النواحى الفنية فى حروب المسلمين ، وتقارنها بنظيراتها عند الأمم المعاصرة لهم ، ليتضح للناس مكانهم من الفن الحربى بين أعدائهم ويعرفوا طرائقهم فى أساليب القتال ودقة التنظيم الحربى ، وإدارة المعارك ، وإقامة الحصون على الحدود المهمة فى مواقع استراتيجية فنية ، لحماية إمبراطوريتهم الفتية .

ويضاف إلى هذا الهدف هدف آخر ، وهو الرغبة فى البحوث الإسلامية لذاتها واستنباط الحقائق العلمية من النصوص الغامضة ، وبخاصة فى صدر الإسلام ، الذى يعد فترة غامضة من حيث الفن الحربى ، راجياً من ذلك المجهود أن يصل بنا إلى نتائج ، قد تضيف للعلم شيئاً نافعاً ، أو تفتح أمام الباحثين أبواباً كانت شبه مغلقة .

هذا ، وقد جعلت عنوان الكتاب « الفن الحربى فى صدر الإسلام » قاصداً به أن يمتد حتى نهاية القرن الثانى الهجرى وذلك لأن نهاية القرن الثانى بوجه التقريب ، هى الفترة التى بلغت فيها الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها ، ووقفت عندها تقريباً موجة فتوحها ، وتحضرت حتى سبقت — فى مضمار الحضارة — الدول المعاصرة لها .

وهى أيضاً الفترة التى بدأ بعدها ، تغلغل النفوذ الأجنبى فى الحكم الإسلامى ممثلا فى سيطرة العناصر التركية والفرغانية ، وغيرها من العناصر التى كانت سبباً فى إضعاف الحكومة الإسلامية وانحلالها ، منذ عهد المعتصم العباسى .

ومما يذكر بالثناء والفضل ، أن بعض أعلامنا السابقين ، سبق إلى دراسة بعض تلك النواحى الفنية فى الحروب الإسلامية ، ولكن واحداً منهم لم يجمع شتات الموضوع فى مؤلف واحد ، ولم يعرض له عرض دراسة نقدية تحليلية .

---

(١) انظر بوجه الإجمال لوبون : حضارة العرب ، تعريب زعيتر ، فيليب حتى : تاريخ العرب : تعريب نافع ، فون كريمر : الشرق فى حكم الخلفاء ، وغيرهم من المستشرقين الذى يكادون يتفقون حتى فى العبارات التى تردد فى كتبهم .

فمنهم مثلا من كتب فى فضل الرمى بالقوس ، ودرس قوانينه وآدابه وفصّل أنواع القسىّ وما إلى ذلك ، كما فعل « ابن القيم والسنجارى » وغيرهما[٢] . ومنهم من كتب فى سياسة الحروب ، ونظم التعبئة قبل الزحف ، وعند اللقاء ، إلى تفصيلات أخرى « كالهرثمى والحسامى[٣] » . ومنهم من كتب فى عتاق الخيل وصفاتها وسهامها مثل « ابن الكلبى والجواليقى[٤] » . ومنهم من كتب فى السيوف وأجناسها وشياتها مثل « يعقوب بن إسحاق الكندى[٥] » . ولكن أكثر هذه المؤلفات عبارة عن رسائل موجزة ، ينقصها فى كثير من الأحيان ، التقصى الكافى ، والبحث العلمى ، وبعضها تغلب عليه المسحة الأدبية ، فهو قليل الغناء فى الناحية الفنية .

ويعد فى طليعة المحاولين لتلك الدراسة حديثاً ، الأستاذ « جرجى زيدان » فى كتابه القيم (تاريخ التمدن الإسلامى) والأستاذ الضابط « نعمان ثابت » فى كتابه (الجندية فى الدولة العباسية) فقد جمع كل منهما مشكوراً حقائق علمية نافعة ، وحاول أن يجعل من كتابه دائرة معارف موجزة ، ولكنهما أهملا الجانب التكتيكى والاستراتيجى ، وكلاهما من فن الحرب بمكان ، بل هما أهم النواحى الفنية فى الحروب .

وقد حذا حذو هذين الفاضلين ، طائفة من إخواننا الضباط المحدثين فكتبوا مشكورين عن النواحى الفنية ، ولكن كتابة أكثرهم جاءت أقل عمقاً مما كنا نتوقع ، فبعضهم مثلا يؤلف كتاباً عنوانه « نظم الحرب فى الإسلام[٦] » ثم تقرؤه فتجده يتحدث عن غزوات الرسول فقط ، غير موضح خصائص تلك النظم ، ثم هو يحاول إخضاع السيرة لمصطلحات العصر الحديث فى بعض العناوين مثل (عاد إلى قواعده سالماً) ، (الأوامر المختومة) إلخ مما لا مكان لها فى التاريخ .

---

(٢) للأول « الفروسية » طبعة دار الكتب سنة ١٩٤١ ، وللثانى « هداية الرامى ، إلى الأغراض والمرامى » مخطوط .

(٣) للأول « مختصر فى سياسة الحروب » مخطوط ، وللثانى « تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين » مخطوط أيضاً .

(٤) للأول « نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام » ، وللثانى « أسماء الخيل وأسماء فرسانها » وهما فى مجلد واحد . ط . ليون ١٩٢٨ .

(٥) رسالته فى السيوف ، إخراج الدكتور : عبد الرحمن زكى . ط . الجامعة سنة ١٩٥٢ .

(٦) للضابط : جمال الدين عياد .

والأعجب من هذا أن بعض الضباط فى الإقليم الجنوبى ، ألف كتاباً عنوانه « تطور القوات المقاتلة[٧] » صفحاته ٤٧٥ صفحة ، تحدث فيه عن جيوش الفراعنة والإغريق والرومان ، ثم تحدث عن مشاة القرون الوسطى ثم عن العصر الحديث ، ولكنه للأسف لم يذكر كلمة عن الجيوش العربية وتنظيماتها .

يحدث هذا منا نحن العرب ، فى الوقت الذى نرى فيه بعض المستشرقين يكتبون عن نظم المسلمين الحربية . وفنهم التكتيكى والاستراتيجى . . ويوازنون بين فنهم ، وفن الأمم المعاصرة لهم ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً المستشرق الألمانى « فون كريمر » الذى أطلعنا على كثير من الحقائق الفنية ، أخذ معظمها من كتاب (Tactica) للإمبراطور الرومى « ليو » ، ويدانيه فى ذلك الصنيع الدكتور « أومان » فى كتابه « تاريخ فن الحرب فى العصور الوسطى » فقد ورد فيه عن العرب قدر معقول ، ودراسة نافعة .

لكل ما تقدم ، أرادت الرسالة أن تجمع شتات الموضوع فى كتاب ، وتبرز النواحى الفنية فى حروب المسلمين ، فى شىء من التقصى والتحليل ليكون أمام الباحث كتاب جامع لشئونهم الحربية المتشعبة النواحى .

على أن الرسالة لم تدخل فى حسابها ، دراسة الفن الحربى فى الأندلس لأنه يعد امتداداً للفن الحربى فى المشرق ؛ لأن السيوف التى فتحته جاءت من ناحية المشرق ، وإذا فرضنا أن الأندلس صار فيما بعد ، ذا فن حربى متمايز ، فمن الراجح أن يكون ذلك التمايز جاء متأخراً ، خارجاً عن نطاق الفترة الزمنية التى تعرضت لها الرسالة ، وهى الفترة التى تنتهى بنهاية القرن الثانى الهجرى .

وقد تحدثت الرسالة أيضاً عن الحروب البحرية ، فخصصت لها مكاناً فى الفصل الخامس الخاص بالنظام التكتيكى ، لأنه فن حربى يطبق على صفحة الماء بخلاف ما جرت به عادة الباحثين قديماً وحديثاً ، من إهمال الحروب البحرية عند الحديث عن الحروب. وبما أن بعض الرسائل العلمية ، قد عالجت هذا الموضوع ، كان من المناسب هنا موازنتها بالحروب البرية ، لمعرفة الفرق بينهما دون توسع فيها ، أو إفاضة فى تفصيلاتها .

---

(٧) للضابط ا . ح : صلاح الدين فرحات : وانظر المراجع فى الرسالة .

هذا ، وإن لوحظ أن الرسالة جاوزت القرن الثانى قليلا ، فذلك لأن التطور الزمنى لأى فن من الفنون ، لا يمكن تحديده بفواصل زمنية ثابتة ؛ لما يحتاج إليه هذا التطور من تداخل زمنى ، بحيث يتم فى سنوات متعاقبة متطاولة ، ولا يتم سريعاً كقيام حكومة وسقوط حكومة ، بل إن وضع حد ثابت له يعد تعسفاً .

وأخيراً يصح التعريف ببعض الرموز التى وردت فى الرساله وهى : حرف (ط) يرمز للطبعة ، والصفحات إذا كانت بالمرجع مكررة فرموزها (ص ص) وإذا كان المصدر مصوراً ، فالرمز للفيلم حرف (ف) .

وقد جعلت الهوامش مسلسلة فى كل فصل على حدة ، اختصاراً فى الأرقام وتسهيلا على من يريد الرجوع إليها .

ب ــ منهج البحث

يستطيع المرء أن يقرر أن أهداف الرسالة كان لها دخل فى توجيه منهجها وتحديد معالمها ؛ ذلك أن محاولة إبراز الناحية الفنية فى حروب المسلمين ، تستدعى ذكر كلمة عن الحروب عند الجاهليين ، لنعرف مكان الفن الحربى منها ، ونعرف ما أدخل المسلمون عليه من تحسين فيما بعد ، ومن ثم جاء تمهيد الرسالة خاصاً بتصوير البيئة العربية ، وحروب العرب فى الجاهلية ، وما كان معروفاً لديهم من نظم حربية .

ولما كان الكلام عن الحروب ، يستدعى الكلام أولا عن مشروعيتها وإعداد الأذهان لقبولها ، وتهيئة الرأى العام لها ، كان الفصل الأول خاصاً بنظرة الإسلام إلى القتال ، وبيان مشروعيته فيه ، والأسباب التى أدت إلى سرعة توسعه ، فإن كل دولة تريد الإقدام على الحرب تبدأ أولا بتهيئة الأذهان لها ، لتظهر للعالم أن حربها مشروعة وأنها ليست معتدية فى القيام بها ، فتجذب الرأى العام لصفها .

ولما كانت خطة الرسالة حريصة على ترتيب المنهج ، ترتيباً منطقياً يتفق والواقع العملى فى الحروب ، كان الفصل الثانى خاصاً بجمع القوات وتنظيمها ، وإمدادها بحاجاتها فى المعركة ، وذلك لأن أول عمل لمن يريد الحرب ــ بعد إعداد الرأى العام

لها – أن يحشد المقاتلين ويعين عليهم قادتهم ، ويعد لهم سلاحهم وتموينهم ، وكل ما يلزمهم قبل الاشتباك الفعلى فى القتال .

وفى هذا الفصل عولج نظام التجنيد الإسلامى، وهل كان إلزامياً أو اختيارياً ، كما عولج التنظيم الدائم للجيوش الإسلامية ، وغير ذلك من موضوعات الإمداد بالحيوان والسلاح ، ومواد التموين ، وكل ما يلزم الجيوش فى العادة ، من أطباء وممرضين ، وقراء وقصاص ، وعمال ورعاة إلخ .

ومن المقرر فى الترتيب الطبيعى ، أن يعد القائد لجنده سلاحهم قبل المعركة ؛ ولذا تكفل الفصل الثالث بالحديث عن الأسلحة ، وجعل القسم الأول منه للأسلحة الخفيفة كالقوس والرمح والسيف وغيرها ، وجعل القسم الثانى للأسلحة الثقيلة ، وآلات الحصار ، كالمنجنيق والدبابة ورأس الكبش ، ووضحت الرسالة أجزاء تلك الأسلحة ، وشرحت كيفية العمل بها وتاريخها ، عن طريق الرسوم المرافقة للكلام .

ومن الواجب على المقاتل ، أن يجهز آلات الدفاع عن النفس ، كما يجهز آلات القتال ، فإن الذى لا يقى نفسه مهزوم لا محالة ، ولذا كان الفصل الرابع خاصاً بآلات الدفاع والوقاية ، وهى أيضاً قسمان :

ا – آلات متحركة خفيفة ، كالدرع وملحقاتها، والقوس بأنواعه الثلاثة .

ب – آلات ثابتة ثقيلة مثل حسك الحديد الشائك ، وطريقة زرعه حول المواقع ، ومثل الخنادق المحفورة ، وبناء الجدران عليها مما يلى العدو وغير ذلك من إقامة الحصون على التخوم ، وبيان طرق تقويتها ، ونظام العمل بها ، وقد تصدى لكل قسم من هذين جزء من الفصل .

يأتى بعد ذلك فى الترتيب دور المعركة نفسها ، مثل كيفية توزيع القوات على جهاتها المناسبة ، ثم تنظيم الكتائب وصف الجند خلال المعركة ، وبيان كيفية بدء القتال ، وعمل القادة والجند عند الالتحام ، ثم عملهم عند انتهاء المعركة ، وقد خصص لهذا الفصل الخامس ، يعالج القسم الأول منه التنظيم الاستراتيجى ، ويعالج الثانى التنظيم التكتيكى .

ولما كانت المعارك تنتهى غالباً ، بجمع الغنائم وأخذ السبايا وهى الأصل فى المساعدات المالية للمحاربين ، ثم تلاها دور الأعطيات والمرتبات ، كان من

المناسب تخصيص الفصل السادس بغنائم الجند ومرتباتهم وبيان ما لحقها من زيادة أو نقص ، حسب التطور الزمنى ، وظروف الدولة المالية ، ثم عالج نظام الأسر ، ومعاملة الأسرى فى الإسلام، باعتبارهم بعض غنائم المعركة، التى يحوزها المقاتلون؛ ثم أبان الفصل السابع فى تفصيل ، السر فى اكتساح الفتوح الإسلامية ، بعد أن يكون القارئ ، قد كوّن لنفسه فكرة ، فى ضوء ما عرض عليه فى الفصول السابقة .

ثم تأتى بعد ذلك خاتمة البحث ، ملخصة أهم ما فيه ، مشيرة إلى ما به من أفكار قد تكون جديدة ، وبحوث قد تكون نافعة .

ثم يأتى بعد الخاتمة ملحقان، احتاج الأمر لهما وإن لم يكونا فى صميم الموضوع .

أولهما : عن النظام الفدائى ، والفدائيين فى الإسلام .

وثانيهما : جدول زمنى لبيان أهم الحوادث ، فى الفترة التى تعرضت لها الرسالة .

حـ ـ دراسة المراجع

إن المصادر والمراجع التى خدمت هذه الرسالة كثيرة منوعة :

بعضها أسهم بمادته فى تأليفها ، وترتيب نتائجها ، وبعضها أفادها فوائد كثيرة ، من قريب أو بعيد ، دون أن يكون أساسيًّا فى تأليفها .

وفى مقدمة هذه المراجع وعلى رأسها ، كتاب الله تعالى ، بسوره العدة التى تعرضت للقتال بوجه ما ، كالأنفال ومحمد والفتح وغيرها ، وتفسير تلك السور لكبار المفسرين الأولين .

وبعد هذا يمكن تقسيم المراجع إلى طوائف ، حسب طبيعة بحثها :

أولا ــ مراجع خاصة بالموضوع الفنى للرسالة ، وأكثرها مخطوط أو مصور على أشرطة بمعهد إحياء المخطوطات ، التابع للجامعة العربية . وأقدم هذه المراجع وأهمها كتاب « مختصر فى سياسة الحروب » تأليف الهرثمى صاحب المأمون وهو يقع فى حوالى ١١٤ صفحة ، من الحجم المتوسط ، وقد تحدث « ابن النديم » عن هذا الكتاب فى الفهرست حديثاً يشعر بأنه كتاب كبير ، مؤلف من عدة أبواب ، وتحت كل

باب فصول ، وفى كل فصل كذا مسألة ، ويظهر أن هذا الكتاب مختصر منه ولكن هل الذى اختصره هو الهرثمى نفسه أو شخص آخر ؟ هذا ما لم أصل إليه حتى الآن ، وأرجو أن أوفق إليه ، أو يدلنى أحد عليه .

أما الهرثمى فلم تذكر عنه كتب التراجم شيئاً ، ويغلب على الظن أنه ينتمى بسبب ما إلى القائد العباسى المشهور « هرثمة بن أعين » الذى كان قائداً للرشيد ، فوالياً على إفريقية له ، ثم قائداً للمأمون ، حتى بعد أيام الفتنة بينه وبين أخيه الأمين .

هذا ويمتاز أسلوب الكتاب بالرصانة العباسية ، والهمزة المتوسطة فيه تبدل ياء فى الغالب « كالطلايع » مثلا ، وهذا الإبدال كان شائعاً فى العصر العباسى ، كما يمتاز بأنه جامع للشئون الحربية ، التى تهم القائد والجندى ، وقد أفاد وفصل القول فى التنظيم التكتيكى وكيفية العمل قبل المعركة ، ثم العمل عند اللقاء فيها ، وذكر كثيراً من النصائح والحيل الحربية ، التى لا يصح لقائد أن يجهلها فى أى عصر من العصور . والكتاب مصور بالجامعة العربية (ف ٨٤٤) وصورته عنها دار الكتب المصرية .

ويدانى هذا الكتاب فى أهميته ، مخطوط بالمتحف الحربى بالقلعة يسمى « كشف الكروب فى أمر الحروب » رقم (١٠٦) عربى ، لصاحبه « موسى بن أحمد اليوسفى » ، ومصور آخر يسمى « هداية الرامى إلى الأغراض والمرامى » وهو منقول عن خط صاحبه « الحسن السنجارى » ورقم الشريط بالجامعة العربية هو (١٠٥٦) ، ومؤلفه ينسب إلى مدينة (سنجار) شرقى العراق .

وهذان الكتابان على تأخرهما نوعاً ، يشرحان كثيراً من النواحى الحربية الفنية : فالأول يعالج أصول المبارزة بالرماح ، ويسرد طائفة نافعة من النصائح الحربية ، والثانى عظيم الفائدة فيما يختص بشرح الأقواس والسهام ، وبيان أنواعها والجيد منها ، وكيفية صنعها وصنع

السهام وإثبات الريش عليها ، كما تعرض لوظيفة الريش فى السهم ، وذكر أنواع الريش وأفضلها ، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه الرامى الحاذق والباحث المدقق ، وهما يشبهان إلى حد كبير كتب تعليم الرمى فى جيشنا الحديث .

ويشبه هذين الكتابين فى الموضوع « غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب » لجلال الدين السيوطى (٩١١ هـ) وهو مصور بالجامعة العربية (ف ١٠٥٦) . ورسالة أدبية فى الرمى بالبندق ، بالجامعة العربية (ف ٧٧٤) لابن كثير الدمشقى (٧٧٤) هـ .

أما كتاب « الفروسية » لابن القيم الجوزى (٧٥١ هـ) فقد كان نافعاً جداً فى بيان الفرق بين الأقواس العربية والتركية ، والفرق بين القوس التى تطلق باليد ، والقوس التى تطلق بها وبالرجل ، ولكن يلاحظ عليه أنه أفاض كثيراً فى ذكر آداب الرمى وقواعده ، من قبض وعقد ومد وإطلاق ، وأتى بمصطلحات كثيرة لم يشرح مدلولاتها ، وهو مع هذا تغلب عليه النزعة الأدبية ، لدرجة أنه عقد مناظرة طويلة بين قوس اليد وقوس الرجل ، تعد فى باب الأدب تحفة رائعة ، ولكنها فى الفن الحربى لا تعد شيئاً مذكوراً ، والكتاب طبعته دار الكتب المصرية : ١٩٤١ م ، وهو يميل إلى النهج الأدبى فى علاج الموضوعات كلها .

ومن الكتب التى كانت عظيمة النفع كتاب « آثار الأول فى تدبير الدول » وهو مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ، لصاحبه « الحسن بن عبد الله محمد » الذى ينتهى نسبه إلى « العباس بن عبد المطلب » بدأ فى تأليف كتابه سنة ٧٠٨ هـ .

ومادة الكتاب وافرة جداً فيما يتعلق بالتجنيد وأسلحة القتال المختلفة ما بين خفيفة وثقيلة ، ويكاد يكون هو الكتاب الوحيد ، الذى فصل القول فى آلات الحصار ، وخير طرقه وشرح كيفية اقتحام الحصون ، كما فصل القول فى الحروب البحرية عند المسلمين ، وهو — وإن كان متأخراً — يمثل إلى حد كبير الفنون التى كانت شائعة قبله وفى زمنه ،

لأن أثر الزمن فى الفنون وتطورها بطىء . وكثيراً ما نقل عنه الأستاذان : « جرجى زيدان ونعمان ثابت » دون أن يشير واحد منهما إليه ، أو يدل أحداً عليه ، مع أهميته العظمى ، فى النواحى الحربية الفنية .

ثانياً : مراجع عامة أفادت الرسالة من عدة نواح ، ويمكن تقسيمها على الوجه الآتى :

ا — كتب السنة المختلفة وفى مقدمتها صحيح البخارى، شرح القسطلانى (٢٥٦) ﻫ ورياض الصالحين للنووى (٦٧٦ ﻫ) فى الأبواب التى تعرضت للجهاد وما يتعلق به . ثم كتب السير والمغازى ، التى تنهج نهج كتب السنة ، وفى مقدمتها « سيرة بن هشام » (٢١٨) ﻫ وهى أصح هذه الكتب على اختصارها ، على ميل فيها إلى جمع الوثائق والآثار الأدبية شعراً ونثراً ، ومثله « عيون الأثر لابن سيد الناس » (٧٣٤) ﻫ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٧٥ .

ويلحق بهذه الكتب « إمتاع الأسماع » للمقريزى(٨٤٥) ﻫ . وطبقات ابن سعد (٣٢٠ ﻫ) والسيرة الحلبية ، وهى كتب وافية جامعة ، ولكن أوثقها « طبقات ابن سعد » وأقلها الإمتاع لأنه ينفرد أحياناً بإيراد بعض الحقائق التى لا يشاركه فيها غيره ، مما يجعل الشك يحوم حول ما ينفرد به دون سابقيه .

وكتب المغازى هذه تكاد تكون نسخة مكررة لمصدر واحد ، ولا تهتم بالجانب الفنى فى الحروب ، وإنما ترد فيها نتف مفرقة هنا وهناك ، وعبارات ذكرت دون قصد ، ولكنها إذا جمعت ورتبت كان فيها خير كثير للباحثين .

ويلحق بهذه المراجع بعض كتب الفقه ، التى أفردت باباً فيها للجهاد وأهمها ، « بداية المجتهد لابن رشد » ٥٩٥ ﻫ ، وكتاب « الأحكام السلطانية للماوردى» (٤٥٠ ﻫ) ، وقد أفاد الأول

بصفة خاصة ، فى بيان توزيع الغنيمة بين الدولة والمحاربين ، وفصل القول فى بيان أسهم الفارس والراجل وكيفية توزيع الخمس الذى هو للدولة ، كما أفاد الثانى فى مسألة التجنيد ، وكيفية اللحاق بالجيش والشروط التى كانت تشترط فيمن يريد ذلك ، وتقسيم الجند إلى نظاميين ومتطوعين ، وبيان الفرق بينهما .

أما كتاب « الخراج لأبى يوسف » (١٨٢ هـ) فهو على ضآلة حجمه جليل القدر ، عظيم النفع ، وبخاصة فى بيان التطوع والنظام ، ومسألة أعطيات الجند ومرتباتهم ، وما كان يعتريها من نقص أو زيادة ، منذ أن وضع عمر الديوان إلى زمانه ، ثم فى بيان تاريخ الأراضى الإسلامية ، وما فتح منها عنوة وما فتح صلحاً ، وكيفية التصرف فيها .

ب — كتب التاريخ العام التى لا تهتم بناحية مخصوصة ، وهى تاريخ « الطبرى » (٣١٠) هـ وابن الأثير (٦٢٩) هـ وابن خلدون (٨٠٦ هـ) والمسعودى فى المروج (٣٤٦ هـ) . وهى كتب واسعة وافية ، جامعة لتاريخ العرب وغيرهم من الأمم ، ولكنها لا تعرض للنواحى الفنية قصداً ، وإنما ترد بها عبارات موجزة ، ذكرت فى غير مواطنها ، يجد الباحث فى جمعها وترتيبها عناء كبيراً ، وهى أحياناً تختلف فى ترتيب الحوادث اختلافاً بيناً يحير من يريد معرفة التطور الزمنى لناحية من النواحى ، ولكنها مفيدة جداً بما فيها من مادة كافية ضافية ، عن العرب وغير العرب من الأمم الأخرى .

حـ — كتب التاريخ الخاصة ، التى تهتم بإقليم من الأقاليم دون غيره ، أو التى تتحدث عن طائفة من الناس دون غيرهم ، يذكر منها على سبيل المثال « فتوح البلدان للبلاذرى » (٢٧٩ هـ) وقد أفاد كثيراً فى بيان تاريخ الثغور والمسالح الإسلامية ، والقواد الذين ملكوها من المسلمين وغير المسلمين ، والأدوار التاريخية التى

مرت بها ، ونظام رباط الجند فيها ، والأموال التى كانت تنفق فى تحصينها وتقويتها ، ودفع مرتبات الحاميات فيها .

ويلحق بهذه المصادر أيضاً « فتوح مصر لابن عبد الحكم » (٢٥٧ هـ) والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن » طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ م وقد كانا مفيدين جداً فى فتوح مصر كلها ، وبخاصة فى بيان سبق النوبة على العرب فى الرماية ، وانتصارهم عليهم ، وبيان كيفية مهاجمة الحصون البيزنطية ، وبخاصة حصن بابليون ، كما ورد فى النجوم الزاهرة الذى كان نافعاً جداً فى شرح العمل بآلات الحصار ، وكيفية اعتلاء الأسوار وغير ذلك من فنون الحصار المختلفة ووصف آلاته المتعددة .

ثالثاً : مراجع عربية حديثة ، أشهرها « تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان » « والجندية فى العصر العباسى لنعمان ثابت » وسلسلة العبقريات للعقاد ، وبخاصة عبقرية خالد ، ومجموعة الدكتور هيكل فى السيرة والتاريخ .

وهذه الكتب الحديثة أكثر ميلا إلى النقد العلمى ، والتحليل الصحيح إلا أن هذه الصفة أقل وضوحاً فى الكتابين الأولين ، حيث وردت فيهما بعض الحقائق التى رُدت عليهما فى صلب الرسالة ، كمسألة التجنيد وإلزاميته ومسألة الأسبقية فى الرمى بالقوس ، ومرتبات الجند وآلات الحصار وغيرها .

ومع هذا فكل من الكتابين يعتبر ذا فضل مشكور ، فى فتح مغاليق تلك الدراسة الفنية ، التى ظلت طويلا قابعة فى زوايا النسيان حتى أخرجاها للنور ، أما العبقريات وما بعدها ، ففيها نظرات ناقدة ، وتحليل علمى نافع لكل باحث .

رابعاً : مراجع إفرنجية : بعضها معرب وبعضها غير معرب .

ا — أما المراجع المعربة ، فأهمها من ناحية التحقيق العلمى « فتح العرب لمصر » تأليف « الدكتور بتلر » وتعريب

الأستاذ « أبو حديد» وهو كتاب فى غاية الدقة والفحص العلمى ، ولكنه مع دقته يجافى العدالة العلمية أحياناً ، فتراه يتعصب على العرب ويتهمهم بالعجز ، وسيوضح ذلك فى الفصل الرابع من الرسالة ، كما لوحظ عليه تعصبه بوجه خاص على الخليفة « عمر بن الخطاب » فى أكثر من موضع لغير سبب ظاهر أو معقول ، وقد لامه كثيراً فى محاسبته عمرو بن العاص ، دون استناد إلى دليل .

ويلحق بهذا كتاب « تاريخ العرب للدكتور حتى » تعريب الأستاذ « نافع » وبه بعض غمزات مغرضة ، نبه إليها المعرب فى هوامشه .

ومن الكتب المعربة القيمة كتاب « حضارة العرب للدكتور لوبون » تعريب زعيتر ، وهو أكثر المستشرقين إنصافاً للعرب ودفاعاً عنهم ، وقد شدد النكير كثيراً على تعصب زملائه الغربيين ، فى أكثر من موضع فى كتابه ، ويقاربه فى هذا المعنى كتاب « حياة محمد لدرمنغم » وللمعرب نفسه ، وقد أراد صاحبه كما قال فى مقدمة كتابه : « أن يرسم لمحمد صورة مطابقة لما وصف به فى كتب السيرة ، ولما يجول فى نفوس أتباعه . ولكنه خلال محاولاته تلك كان يحيد أحياناً عن جادة الحق ، إلى مجاهل التعصب الدينى ، لدرجة أنه نسب للرسول عليه السلام بعض الصفات التى لا تليق به ، وهو منها براء ، ومع هذا فالجانب الخيالى ظاهر فيه ، وفى سرد حقائقه وحوادثه ، ظهوراً يبعد به عن حقائق التاريخ الثابتة .

خامساً : مراجع انجليزية خاصة بموضوع الرسالة ، تعرضت لتلك الناحية الفنية قصداً ، وبطريقة علمية حديثة :

وفى مقدمة هذه المراجع كتاب «الشرق فى حكم الخلفاء Orient under the Caliphs للدكتور كريمر الألمانى ، وترجمه إلى الإنجليزية

الأستاذ «خودا بخش» وقد كان مفيداً جداً في بيان تنظيم الجيوش الإسلامية ، وتكتيكاتها الحربية التي كانت مفضلة عندها ، وقد فصل القول في المرتبات الإسلامية للجند ، وتتبع التغيرات التي كانت تطرأ عليها ، زمن الدولتين الأموية والعباسية ، تبعاً لظروف كل من الدولتين سواء أكانت تلك الظروف سياسية أم اقتصادية ، ولكن في شيء من الإيجاز .

وقد أبطل الدكتور بعض التهم ، التي وجهها للعرب الإمبراطور « ليو » "Tactica" البيزنطي في كتابه وأدحض حجته بأقوى منها ، ولكنه في موضع آخر من كتابه اتهم العرب بأنه لم يكن لديهم جيش دائم Standing Army وقد تعرضت الرسالة لرد تلك التهمة في الفصل الثاني منها ، بأدلة واضحة ، لا تدع مجالا لمرتاب .

ويكاد يقارب هذا الكتاب في منهجه ، كتاب « تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى » A history of the Art of War لصاحبه الدكتور « أومان » الذي عقد فيه فصلا مهماً لحروب العرب مع الروم ، وقد لوحظ أنه يطلق على العرب اسم "Saracen" الذي يحمل معنى الهمجية القديمة ، كما لوحظ أنه يتهمهم بأنهم لم يعرفوا الجيش الدائم المعد للقتال ، وإنما كانوا يجمعون الجند للحرب عند حدوث دواعيها ، ثم يسرحونهم بعدها ، وقد نوقش هذا الرأي كما تقدم في الرسالة ، كما نوقش فيها أيضاً رأيه الذي يدعي فيه ، أن العرب ما كانوا يريدون من غزوهم لآسيا الصغرى ، إلا مجرد النهب وكسب المغانم ، وردت عن المسلمين تلك التهم بأدلة قوية ، وأمثلة مضروبة من واقع التاريخ الثابت .

وقد أفادت الرسالة أيضاً من كتاب « الإسلام والمدنية » Islam and Civilisation لمؤلفه الهندي المسلم الأستاذ « خواجا كمال الدين » فقد عقد فيه فصلا في (آداب القتال) Ethics of War يعد من

أكثر الفصول متعة ، فى بيان المعانى الإنسانية فى حروب المسلمين ، التى تفيض بها كتب الأدب العربى ، والتاريخ الإسلامى العام ، والتى ذكرت عند معاملة الأسرى ، والميل لإطلاقهم .

بقى بعد هذا أن أشير إلى دائرة المعارف الإسلامية ، ودائرة معارف البستانى ، وأمهات الأدب العربى ، التى هى أشبه شىء بدوائر المعارف ، ولكن كلا منها عقد فصلا طويلا خاصًّا بالحرب وآلات القتال وفصل القول فى توضيحها ، وذكر النصوص الأدبية الواردة فيها : أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : « عيون الأخبار لابن قتيبة » (٢٧٦ هـ) « وصبح الأعشى للقلقشندى » (٨٢١ هـ) » « ونهاية الأرب للنويرى » (٧٣٣ هـ) والمخصص لابن سيده (٤٥٨ هـ) وهناك غيرها من كتب الأدب واللغة التى لا داعى لذكرها .

هذا ، وقد رأيت الاكتفاء هنا بالمصادر التى أفادت منها الرسالة فائدة فعالة ، أما غيرها من المراجع اللغوية ، والمعاجم الإنجليزية والفارسية وكتب التراجم والفهارس ، فقد اكتفيت بذكرها فى قائمة المراجع ، وإثباتها فى مواطنها من هامش الرسالة ، ولا داعى للتزيد بذكرها هنا ، كما آثرت حذف كثير من المجلات التى أفادتنى من بعيد ، طلباً للإيجاز ، واقتصاراً على النافع من المراجع .

والله وحده ولى التوفيق فى البداية وفى النهاية .

عبد الرءوف عون

تمهيد

البيئة العربية وحروب العرب فى الجاهلية

ليس الغرض من هذا التمهيد تناول أيام العرب وحروبهم ، والبحث فى بواعثها وأسبابها ، والنتائج المترتبة عليها ، وإنما الغرض منه رسم صورة تقريبية لحروبهم ، من حيث الفن الحربى الذى كان يستخدم فيها لمعرفة ، التطورات التى شملته فى الإسلام ، ومن حيث الأساليب التى كانوا يتبعونها فى القتال ؛ لنرى ماذا كان حظها من التحسين والتهذيب على أيدى المسلمين ، الذين جاءوا بعد الجاهليين .

وليس الغرض منه أيضاً التحدث عن العرب البائدة ، فإن هذا الماضى البعيد يكاد يكون مجهولا لدينا ، لندرة مصادره ، وقلة الوارد لنا عنه ، مع ما لحقه من عبث الرواية الشفوية عن طريق الرواة العابثين ، وإن كان العقل لا يستبعد منطقياً أنهم كانوا أهل علم وحضارة ، فإن هذه الحضارة التى بهرت العالم على أيدى المسلمين ، لا يمكن أن تكون وليدة يومها ، أو قفزت للوجود دفعة واحدة ، بل لا بد أنها سلكت أطواراً زمنية كثيرة فى سبيل النشوء والارتقاء ، كبقية الظواهر الاجتماعية ، التى وصلتنا على أيدى المسلمين مهذبة ناضجة .

وعلى هذا فلا يطعن فى نسبة حضارة إلى أمة ما ، أننا نجهل تاريخ وجودها أو منابع ظهورها ، فكثيراً ما أظهر الكشف العلمى حقائق كنا ننكر وجودها لأننا كنا نجهلها ، وفى هذا الصدد يقول « الدكتور جوستاف لوبون » : « إذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا : إن هذه الحضارة ثمرة ماض طويل ، وإن جهلنا لهذا الماضى لا يعنى عدم وجوده ، وإن مباحث العلم الحديث قد تؤدى إلى عرض ذلك الماضى للناظرين[1] » .

ويجافى الحق من يزعم أن العرب فى جاهليتهم الأولى كانوا فى عزلة عن العالم

---

(١) حضارة العرب له – تعريب عادل زعيتر طبعة الحلبى ص ٩٧ .

المحيط بهم ، وأنهم عاشوا محصورين فى شبه جزيرتهم ، وإنما الحق أنهم اتصلوا بالأمم حولهم ، وبخاصة الفرس والروم : إما عن طريق التوسط التجارى بين الشرق والغرب ، وإما عن طريق إقامة المدن العربية المتاخمة لهم[٢] ؛ وإما عن طريق الاتصال الحربى بهم ، وكان يحتم عليهم هذا الاتصال توسط بلادهم بين قارات العالم القديم : فهى تصل بين (آسيا وإفريقية وأوربا)،وعندها تقترب المياه الشمالية من المياه الجنوبية ، حيث يبسط المحيط الهندى ذراعيه حولها (الخليج العربى شرقاً والبحر الأحمر غرباً) ويكاد يصافح بهما البحر المتوسط[٣] ، الذى كانت تعد دوله وما زالت من حملة لواء التجارة فى العالم قديماً وحديثاً ، والذى يعد حوضه مهد الحضارات العريقة .

أما التجارة فكان العرب من العاملين على رواجها شرقاً وغرباً ، يركبون البحر فى سبيلها إلى الهند والصين ، أو يضربون فى البر إلى العراق وفارس ، أو يترددون بين اليمن والشام ، ناقلين البضائع عبر جزيرتهم بين تلك البلاد ، وكانوا خلال ذلك يضاربون ويربحون كثيراً ، فضربوا بسهم وافر فى ميدان الحضارة ، وكان لمخازنهم من الأهمية ما كان لمخازن البندقية إبان عظمتها[٤] فالتجارة فى بلاد العرب ، كانت مصدر عيشهم ، ومناط آمالهم حتى قال عنهم بعض المؤرخين : العربى إما تاجر وإما سمسار .

وقد اتصلوا بجيرانهم حربيًّا وسياسيًّا كذلك: فالتاريخ يحدثنا بأن الحبشة استعمرت اليمن عقب اضطهاد « يوسف ذى نواس » اليهودى للنصارى بها[٥] وأن اليمن استنصرت بالفرس على الأحباش فنصرتها ، ولكن لتحل محلّ الأحباش فيها وظلت اليمن خاضعة لولاة الفرس ، حتى جاء الرسول (ص) وهى فى أيديهم فأقر حاكمها عليها بعد إسلامه بمجرد وصول الدعوة إليه .

ويرى كثير من المؤرخين ، أن الهجرات البشرية للعرب بدأت من جنوب الجزيرة الغربى قاصدة إلى شمالها ، فاتجهت بعض القبائل إلى وادى الفرات الخاضع

---

(٢) الدكتور « أحمد أمين » فجر الإسلام الطبعة الثانية جـ ١ ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) الدكتور « سليمان حزين » مذكراتى المخطوطة عنه ١٩٤١ م .

(٤) جوستاف لوبون — حضارة العرب المتقدم ص ١٠٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ نقلا عن فجر الإسلام ص ٢٨ .

للنفوذ الفارسى ، وأسست هناك (المملكة اللخمية) واتجه بعضها إلى بلاد الشام حيث النفوذ البيزنطى ، وأقامت هناك (المملكة الجفنية الغسانية) وكثيراً ما كانت نيران الحرب تشتعل بين الفرس والروم، فكان عرب الفرات يساعدون الفرس ، فى حين يساعد الغساسنة الروم ، وكان للعرب أثر ملموس فى ترجيح كفة النصر هنا أو هناك لشدة شوكتهم ، وقوة سلطانهم، ويكفينا هنا ما ذكره « جوستاف لوبون » ، الذى يقول عن علاقة الغساسنة بالروم :

« وقد بلغ من نفوذ العرب فى الدولة الرومانية شأواً بعيداً ، فصار « فيليب العربى » قيصراً رومانيًّا * (٢٤٤ ميلادية (كذا) وقد كان العرب يهددون سلامة آسيا الصغرى ولم يبعدوا عن مجاورتها إلا بهدم (تدمر) وتحويل سورية إلى ولاية رومانية[٦] ».

ثم هو يكرر فى عدة مواضع من كتابه (حضارة العرب) أن الحيرة التى مجدها العرب كانت تنافس عاصمة الروم وعاصمة الفرس ، وأن مملكة غسان لم تقل عن الحيرة أهمية وعظمة .

وحسبنا فى هذا البيان صلات العرب فى جاهليتهم البعيدة بغيرهم من الأمم ، لأن القصد الأول هو تصوير الحالة الحربية للعرب فى جاهليتهم التى سبقت بعثة الرسول (ص) بحوالى قرن ونصف ، وهى المدة التى يطلق المؤرخون عليها (العصر الجاهلى) . وقبل بيان ذلك يحسن معرفة شيء عن طبيعة العربى ، وحياته فى بيئته ، واستعداده الفطرى للقتال وسفك الدماء ، لنهتدى بذلك إلى فهم أساليبه الحربية ، وفنه الحربى .

١ ــ البيئة العربية وبواعث الحرب فيها

جزيرة العرب بلاد صحراوية فى جملتها ، على اختلاف فى تضاريس سطحها ، فهى فى الغرب أعلى منها فى الشرق ، وهى كذلك تتدرج فى الارتفاع من الربع

---

(٦) حضارة العرب ص ص ١٠٣ ، ١٠٧ ، ٣٧٧ .

* من البعيد أن يصير العربى قيصراً رومانياً ، فالعرب لا يعرفون هذا الاسم ووطنية الروم تأبى ذلك . ويظهر أنها شائعات رومية للمودة ، فقد ذكر ابن الأثير فى حوادث ١٨٧ هـ زعم الروم أن الإمبراطور « نقفور » من أولاد جفنة بن غسان ، والزعم مطية الكذب كما يقولون ، وانظر أيضاً ص ص ١٤ ، ١٥ من هذا الكتاب .

الخالى جنوباً إلى بادية الشام[٧] شمالا ، وليست طبيعة البلاد فيها متشابهة فى تكوينها ؛ فبادية السماوة فى الشمال تمتد نحو ١٤٠ ميلا من الشمال إلى الجنوب ، وتمتد ١٨٠ ميلا من الشرق إلى الغرب ، ولكن رمالها غالباً وعثاء يصعب السير فيها ، وليس بها إلا القليل من العيون المائية ، وتخالفها فى ذلك صحراء الجنوب التى تصل بين بادية السماوة والخليج العربى ، والتى قدرت مساحتها بخمسين ألف ميل مربع[٨] فأرضها غالباً مستوية صلبة ، تنتشر فيها الحصباء المختلطة بالرمال ، وتنبت العشب إذا أصابها المطر شتاء ، وبعض صحرائها تتألف من حرّات بركانية تبتدئ من شرقى حوران ، وتمتد متناثرة إلى يثرب (المدينة) التى تقع بين حرّتين من تلك الحرّات ، التى تجعل التربة صالحة للزراعة بخصوبتها .

فإذا عدونا الصحراء التى تؤلف معظم الجزيرة وجدنا غربيها يتألف من جزءين :

الحجاز شمالا : وهى أرض جبلية يتخلل جبالها الوديان التى تمتلئ بالأمطار ، ثم تجف سريعاً فلا تكوّن أنهاراً ، ومناخ الحجاز شديد الحرارة فيما عدا بعض جهاته المعتدلة كالطائف لارتفاعها ، وقد برزت أهمية المدن الحجازية لوقوعها على طريق التجارة الممتد بين اليمن والشام ، من الجنوب إلى الشمال .

واليمن جنوباً : وهى تؤلف الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وقد عرفت قديماً بالخصب والغنى ، وكثرة قصورها وترف ملوكها ، كما فسره القرآن الكريم فى سورة (سبأ) : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور » . وكما فصله « الهمدانى » فى الجزء الثامن من كتابه المهم « الإكليل » .

فى الجزيرة طبيعة قاسية ، حرها لافح ، وماؤها قليل أو نادر ، وجبالها صلدة ، وعواصفها عاتية دائمة ، ووحوشها ضارية ، كل ما فيها يوحى بالقوة ، وينطق بأن البقاء للأقوى ؛ لذا نشأ العربى على غرار طبيعة بلاده جافاً قاسياً ، محباً للعناد ، كثير التحمل للمشقات ، محباً للحرية إلى أقصى حدودها ، فإذا حاولت أن تحدها ،

---

(٧) محاضرات الدكتور حزين المخطوطة ، ومقدمة المستشرق « ليال » على ديوان عامر بن الطفيل ص ١٦ .

(٨) انظر أحمد أمين : فجر الإسلام جـ ١ ص ١ — ٣ ، والرمال الوعثاء هى اللينة التى تغيب فيها الأقدام عند السير ، ويصعب التنقل فيها .

هاج كأنه وحش فى قفص وثار ثورة جنونية[٩] ، والقبيلة عنده هى وحدة الحياة الاجتماعية ، يتعصب لها ويفنى فى سبيلها .

وقبل القول مفصلا فى طبيعة حياة العرب وأثرها فى حروبهم يحسن أن نقسمهم قسمين :

ا ـ عرب البادية ب ـ عرب القرى والممالك

ا ـ أما عرب البادية : فهم قوم ألفوا الرحلة من مكان إلى آخر طلباً لمواقع الغيث ، ومنابت العشب ، حرفتهم الأساسية رعى الماشية يضاف إليها أحياناً ، حراسة القوافل التجارية ، أثناء مرورها بأرضهم ، واحتراف الرعى كان يقتضيهم كثيراً أن يتزاحموا على المشارب ، أو يتسابقوا إلى خصيب المراعى ، أو يعتدى أحدهم على حمى أخيه الذى اتخذه لأنعامه ، ويرى فى الاعتداء عليه إهداراً لكرامته ، واحتلالا لوطنه ، ولهذه الاحتكاكات الدائمة كانت تثور العداوات ، وتدوم الحروب بين القبائل المختلفة ، ولا يبعد أن تكون العداوة التى ثارت بين عرب الشمال ، وعرب الجنوب ، إنما نشأت من أنهم نظروا إلى عرب الجنوب ، نظرة المعتدين عليهم ، المحتلين لبلادهم ، الذين أقبلوا يقاسمونهم أرزاقهم ، ويزاحمونهم فى ديارهم ، ومصادر عيشهم .

وبالاختصار كانت نيران الحرب تشتعل بين القبائل البدوية بسبب التنازع على المراعى ، أو لحماية التجارة التى تعهدوا بها ممن يريد التعرض لها ، فى ذلك حياتهم ، ومقومات عيشهم فى تلك الصحراء الشحيحة القاسية .

ثم إن البدوى يقيم مع أبنائه فى خيام من الشعر ، وسط الصحراء المنبسطة ، فهو معرض وكذا أنعامه لسطو الوحوش ، أو عدوان اللصوص ؛ لعدم احتمائه بالمبانى ذات الأبواب والأسوار ، فكان لزاماً عليه أن يحمى نفسه بشجاعته ، ويحمى متاعه برمحه وسيفه ، ويحارب الطبيعة ويعاندها مدفوعاً بغريزة حب البقاء ، وفى هذا المعنى يقول العلامة « ابن خلدون » : « وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون

---

(٩) أحمد أمين : فجر الإسلام جـ ١ ص ٣٩ .

بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق . . . ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون فى القفر والبيداء ، مدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ(١٠) » .

يضاف إلى ما تقدم أن الطبيعة كانت تضن على العرب أحياناً ، فتجدب الأرض ، ويهلك الخف والحافر ، وتهددهم المجاعات ، فكانت تدفعهم غريزة حب البقاء ، إلى نهب غيرهم ولو كانوا جيرانهم ، وسلب القوافل المارة بهم أيًّا كان نوعها ، ومهما كان أصحابها ، لا يصدهم عن ذلك وازع من خلق أو دين ، فما هو إلا أن تمتد عين البدوى إلى متاع أخيه ، حتى تمتد يده إلى اغتصابه منه ، معتقداً أن ما يملكه هو ما يستطيع انتزاعه من غيره بحد سيفه ، ويعد العدوان مفخرة من مفاخره ، بل كان يعد نقض العهود وخفر الذمم ، أمارة القوة والعزة ؛ لأن الذى لايفعل ذلك فى نظره ضعيف ، فهذا شاعر يهجو قوماً فيعيبهم بالوفاء والعدل فيقول :

قبيلتـــه لا يغدرون بذمـــة ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقد أبان « ابن خلدون » فى مقدمته أن الظلم والعدوان طبيعة فى الأمم البدوية ، وأن ذلك لإرضاء نزواتهم الحربية ، وإشباع غريزة حب التملك فى نفوسهم فيقول :

« وطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس وأن رزقهم فى ظلال رماحهم ، وليس عندهم فى أخذ أموال غيرهم حد ينتهون إليه ، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون نهبوه(١١) » .

وكذلك كان الأعراب إذا عضهم الجوع ، يفعلون ما تفعل قطعان الذئاب فى سهول آسيا الشمالية فيغيرون على القرى القريبة منهم ، يروعون أهلها وينهبون أنعامهم وأموالهم ، فكان يلجأ هؤلاء إلى بعض القبائل المجاورة فيكرونهم بالمال يدفع سنويًّا ، لقاء حمايتهم من إخوانهم البدو ، يقول « جوستاف لوبون » : « ويلقى الأعراب الرعب فى قلوب جيرانهم المتمدنين ، لما فطروا عليه من النهب وحب

(١٠) المقدمة طبعة المهدى ١٩٣٠ م ص ١٠٥ .

(١١) نفس المرجع ص ١٢٥ ، ٢٢٦ .

القتال ، وهم يفخرون بنهب القوافل فخر الأوربيين بضرب المدن بالقنابل وافتتاح الأقطار [١٢] » .

يضاف إلى ما تقدم حب البدوى لحماية الجار ، فهو يرى فى العدوان على جاره عدواناً عليه ، فيهب للذود عنه ، مهما كلفه ذلك من متاعب وسبب له من حروب ، وكثير من أيام العرب كانت تثور لهذا السبب ، فإذا ضممنا إلى حماية الجار ، ما عرف به من حب لقبيلته ، وتعصب لها ، وحبه للأخذ بالثأر ، والتشديد فيه تشديداً يعدو طور التصديق — إذا تأملنا ذلك كله ، استطعنا أن نتصور حياة البدو وعاداتهم ، وما كانت تستلزمه من حروب وغارات ، لا يهدأ لهم بدونها بال ، ولا يقرّ لهم قرار ، وقد كانوا يفخرون بتلك الحروب كما كانوا يفخرون برعى الماشية فى العراء ، ويحقرون الزراعة وأهلها ، ويزرون على المدنيين الزراعيين حياتهم الهادئة المستقرة ، التى لا يشرع فيها الرمح أو يمتشق فيها الحسام ، اقرأ قول « القطامى » فى هذا المعنى :

ومن تكن الحضارة أعجبته   فأىّ رجال بادية ترانا ؟

. . . .

وأحيانا نغير على أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا [١٣]

ب — عرب القرى والممالك :

يقصد بهؤلاء العرب المتحضرون ، الذين كانوا يقطنون القرى العامرة ويعمرون الواحات الخصبة ، كأهل مكة والمدينة والطائف وخيبر فى الحجاز كما يقصد بهم العرب الذين كوّنوا لهم ممالك واسعة على أطراف الجزيرة ، وهم اللخميون فى الحيرة غربىّ الفرات ، والغسانيون فى الشمال على مشارف الشام ، فهؤلاء وأولئك كانت تدفعهم للحرب بواعث البدو السابق ذكرها ، فهم عرب قد ركز فى طباعهم ما ركز فى طباع العرب جميعاً ، ولكنهم انفردوا عن البدو بعامل آخر ، هو تأمين المتاجر وحماية القوافل من عدوان البداة ، إما متاجرين بأموالهم ، وإما حارسين لأموال

---

(١٢) حضارة العرب المتقدم ص ٨٣ .

(١٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ١ ص ١٩١ وروى الشطر الأول فى البيت الأخير فى شرح ديوان الحماسة للتبريزى هكذا (وأحياناً على عمرو أخينا) .

غيرهم لقاء جعل معروف ، وفى كلتا الحالين كانت التجارة تسبب بعض الحروب بين حماتها والمعتدين عليها. وسيأتى الكلام عن البواعث السياسية، عند عرب الممالك بشيء من التفصيل ، فى ذكر مصادر الرزق عندهم .

٢ ـ الحرب ومصادر الرزق عند العرب

١ – كان عرب الحجاز بوجه عام يحترفون التجارة ، ولا يقدمون عليها حرفة من الحرف ، إذا تغاضينا عن أهل « يثرب » الذين كان كثير منهم يحترفون الزراعة ، حيث التربة البركانية الخصبة ، والمياه الموفورة ، ومع ذلك فقد كان بها كثير من قبائل اليهود يحتكرون التجارة ، وبخاصة تجارة الذهب وصنعة الحلى ، ومن المعقول أن يكون بعض أهل « يثرب » قد شاركهم تجارتهم تلك وتعلم فنها منهم ، وهاك بعض أدلة تبين أهمية التجارة عند العرب بوجه عام :

ا – كثرة أسواق العرب التجارية داخل جزيرتهم : فقد كانت بحيث لا يخلو منها شهر من شهور السنة ، فهناك سوق « دومة الجندل » وسوق « هجر وعمان والمشقر وصحار » ، وكانت أهم الأسواق عندهم أسواق الحجازيين الثلاثة : « عكاظ وذو المجنة وذو المجاز » وذلك لتكاثر الوافدين إليها ، ولما فيها من أمن وسلام ؛ لأنها كانت تقام فى أشهر الحج الحرم التى يحرم فيها القتال ، كما كانت تقام فى أماكن قريبة من الحرم المكى الذين تؤدى فيه مناسك تلك الشعيرة المقدسة[١٤] » والذى قال الله فيه ممتناً على أهله بنعمته : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم[١٥] » .

ب – لم يكتف الحجازيون بهذه الأسواق الداخلية ، بل كانوا يطلبون لسلعهم الأسواق الخارجية ، فألفوا رحلة الشتاء لليمن جنوباً ، ورحلة الصيف للشام شمالا ، فى قوافل تشبه الجيوش ، لها طلائعها وحماتها وأدلتها ، وقد ذكر « الطبرى » أن بعض هذه القوافل بلغ عددها ١٥٠٠ بعير[١٦] ، وكيف لا وهى

---

(١٤) الدكتور على عبد الواحد وافى: فقه اللغة ص ص ١١٢ ، ١٣ .

(١٥) سورة العنكبوت : آية ٦٧ .

(١٦) نقلا عن أحمد أمين فى فجر الإسلام جـ ١ ص ١٦ ، وذكر فيها أن الرحالة استرابور رأى بعض هذه القوافل وشبهها بالجيش .

عرضة للنهب فى كل أوان ، فتجب حراستها بالفوارس .

حـ — يفهم من نصوص القرآن الكريم الذى نزل بلغتهم ، أن التجارة كانت عندهم بمكان ، فإنه خاطبهم بلغة البيع والشراء والتجارة فى حوالى خمسين آية ، تدور حول أجلّ الأمور خطراً ، وهو أمر العقيدة والجهاد فى سبيلها ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله . . . » إلخ[١٧] .

وقال فى كساد تجارة المنافقين : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين[١٨] » ، وقال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . . . . . فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به[١٩] » .

وقد سمى العرب أخذ العهد بالرياسة أو الخلافة « بيعة » وهى من أجل أمورهم السياسية خطراً ، وسمّوا عملية التفويض مبايعة تشبيهاً لها بالصفقات التجارية التى كانت تملأ حياتهم ، حيث تتصافح الأيدى لتأكيد العقد ، ولذا خاطبهم الله بجارى عادتهم فى قوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم[٢٠] » . أى يؤكد البيعة ويقويها بحضوره معهم .

وإذا كان هذا شأن التجارة عندهم ، فمن البدهى أن يركزوا نشاطهم حول رواجها ، ويعملوا جاهدين على حمايتها ، وكثيراً ما كانت تتعرض تلك المتاجر لهجمات البدو ، فيدور الصراع بينهم وبين حماتها ؛ ولذا كانت التجارة عاملا من العوامل التى ساعدت على تكرر الحروب فى الجزيرة العربية .

٢ — وأما عرب الممالك على أطراف الجزيرة ، وهم الأسرة اللخمية فى الحيرة ، والأسرة الجفنية فى الشام ، فقد كان معظمهم يقوم بدور الوسيط التجارى بين الفرس واليمن ، وكان بعضهم يتاجر لحسابه الخاص وكان هذا عند اللخميين أوضح منه عند الغسانيين ، الذين يعد تاريخهم غامضاً فى نظر المؤرخين لتناقضهم فيه ،

(١٧) سورة الصف : آيات ١٠ ، ١١ .
(١٨) سورة البقرة : آية ١٦ .
(١٩) سورة التوبة : آية ١١١ .
(٢٠) سورة الفتح : آية ٤٨ .

ولعل السبب فى ذلك كما يرى الدكتور « أحمد أمين[٢١] » أن العرب كانوا أقل اتصالا باليونانيين الذين دونوا تاريخ الغساسنة ، وأن الموالى الذين دخلوا الإسلام من الفرس كانوا أكثر من موالى اليونان ، فلم تصلنا أخبارهم واضحة كأخبار الفرس التى نقلها مسلمهم إلينا ، والذين كثر اختلاطهم بنا نسباً وصهراً .

تحدثنا كتب التاريخ أن لطيمة « كسرى » كانت تخرج من العراق ، فيها البزّ والألطاف توصَل إلى « باذان » عامله على اليمن ، وأن العرب كانت تحرس اللطيمة وتجيرها حتى تبلغ اليمن[٢٢] ، وأن النعمان نفسه كان يجهز كل عام لطيمة يوجه بها إلى سوق « عكاظ » ، وكان يشترى له بثمنها أدم من أدم الطائف[٢٣] ، وأن تعرض بنى عامر لها كان سبباً فى حرب النعمان لهم ، وقد كان السبب الرئيسى فى حرب « الفِجار الثانى » الذى يعد من أعظم أيام العرب أن « البراض » تعرض لتجارة النعمان ، وقتل عروة الرّحّال الذى كان يقوم بحمايتها وتأمينها من هجمات الأعراب[٢٤] .

على أن الباعث السياسى فى حروب المناذرة والغساسنة كان أهم من باعث التجارة ، ذلك أن المناذرة كانوا يقدمون الطاعة للفرس ، ويردون عنها هجمات الأعراب ، فى مقابل إمدادهم بالسلع التجارية ، ووضع الإتاوة عنهم ، فكانت العلاقة بينهما علاقة منفعة متبادلة ، وكذلك كانت علاقة آل جفنة بالروم ، يرى هؤلاء فى العرب حماة تجارتهم ومدنهم من البدو ، ويرى العرب فيهم منابع رزقهم وحضارتهم ، وملاذهم عند الشدة .

وقد كان التنافس الحربى على أشده بين الفرس والروم ، حيث كانتا القوتين المتكافئتين فى العالم حينئذ ، على النحو الذى تراه اليوم من التنافس الحربى بين « روسيا وأمريكا » فكان عرب العراق حيناً يناصرون الفرس على الروم حتى تهزمها وتستولى على الشام ، وكان عرب الشام حيناً آخر يناصرون الروم على الفرس حتى

---

(٢١) انظر فجر الإسلام جـ ١ ص ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢٢) جاد المولى وآخرون . أيام العرب فى الجاهلية طبعة الحلبى ص ٢٧ . واللطيمة: القافلة التجارية ، والبز : الثياب كما فى القاموس المحيط .

(٢٣) نفس المرجع ص ١٠٧ والسيرة الحلبية جـ ١ ص ١٤٢ .

(٢٤) نفس المرجع ص ٣٢٧ والكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٢٨٤ .

تستولى على العراق ، ومن هنا كان التنافس كذلك بين عرب الحيرة وعرب الشام ، يحارب بعضهم بعضًا لصالح حلفائهم ، فإذا انتصر الملك اللخمى على منافسه الغسَّانى قرّبه كسرى وكافأه ، وإذا انتصر الغسانى قرّبه قيصر وكافأه ، يقول الدكتور « فيليب حتّى » : « وقد وصلت دولة الغساسنة شأن منافستها وقريبتها الحيرة أو دولة اللخميين إلى أقصى نفوذها خلال القرن السادس بعد المسيح ، فى هذا القرن ازدهر فى التاريخ العربى كل من « الحارث الثانى بن جبلة الغسانى » و « المنذر الثالث ابن ماء السماء الحيرى » . . . وقد عين الإمبراطور البيزنطى « جستنيان » الحارث الأعرج جزاء وفاقًا على هزيمته لمنافسه الخطر اللخمى المنذر الثالث « سيدًا على قبائل العرب فى الشام[٢٥] » .

يضاف إلى ذلك الباعث السياسى ما عرف به العربى أيًّا كانت إقامته من حماية الجار والغضب للعدوان ، والأخذ بالثأر مهما طال به الأمد ، يفعل ذلك استجابة لداعى العصبية القبلية ، التى تنادى بنصر الأخ ظالمًا أو مظلوماً ، اقرأ قول شاعر الحماسة يلوم قومه ويصور أمنيته :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى	بنو اللقيطة من ذُهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشرٌ خشنٌ	عند الحفيظة إنْ ذو لُوثة لانا
ومنها : فليت لى بهم قوماً إذا ركبـــوا	شنوا الإغارة فرسانًا وركبانا
لا يسألون أخاهم حين ينـــدبهم	فى النائبات على ما قال برهانا
لكن يغيرون أشتاتًا إذا فزعــوا	وينفرون إلى الغارات وحدانا[٢٦]

٣ ـ أيام العرب وفنها الحربى

أيام العرب هى حروبهم التى كانت تدور بينهم ، للأسباب التى سبق توضيحها ، وقد كانت كثيرة فى الجاهلية كما كانت دائمة لكثرة منازعاتهم ودوامها ؛ وسميت أيامًا لأن المعركة كانت تستغرق يومًا أو بعض يوم . ولكن يبدو أن بعض

---

(٢٥) تاريخ العرب ــ تعريب الأستاذ « محمد مبروك نافع » ص ٩٣ .

(٢٦) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ١ ص ١٨٨ ، وأحمد أمين فى فجر الإسلام جـ ١ ص ١١ .

أيام الجاهلية لم تصلنا أخبارها ، إما لعدوان الرواية الشفوية عليها ، وإما لدواعى التعصب القبلى الذى يخنى بعضها ويبرز بعضها ، فقد ذكر صاحب « كشف الظنون » أن « أبا عبيدة » جمع فى كتابه الكبير من أيامهم ١٢٠٠ يوم ، وأن « أبا الفرج الأصبهانى » ألف فيها كتاباً جمع فيه ١٧٠٠ يوم ، ولكن الأيام التى روتها كتب التاريخ والأدب الموثوق بها بلغت ٥٢ يوماً فقط ، وهى التى جمعها المرحوم « جاد المولى » ورفاقه فى كتابهم « أيام العرب فى الجاهلية » على أن بعض هذه الأيام فاقت غيرها فى الشهرة لطول مدتها ، وكثرة قتلاها ، وانتهاك الأشهر الحرم فيها ، كما انتهكت حرمة الأطفال والشيوخ والنساء وهى : (أيام الفجار الأربعة ، ثم يوم بُعاث ، ويوم ذى قار ، وحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء[٢٧]).

هذا ، وقد اختلف الباحثون فى الحكم على قيمة هذه الأيام ، وأهميتها الحربية : فبعضهم يعطيها من الأهمية فوق ما تستحق كالأستاذ « العقاد » مثلا ، الذى يقول عنها : « وعرب البادية لم يفقها قط علم الحرب ، كما علمته دول الحضارة فى عصور الجاهلية العربية[٢٨]. » وبعضهم يهوّن من شأنها ، و يرى أنها ما كانت إلا مناوشات محلية ، كالتى تثور بين بعض الأسر فى بعض القرى المصرية ، وعلى هذا درج بعض المستشرقين ، وتابعهم فى ذلك الرأى الدكتور « على الجندى » فى رسالته حيث يقول : « إن معظم أيام العرب فى الجاهلية كانت أقل شأناً من المعارك الحقيقية ، لقلة المشتركين فيها ، وإنما كانت نوعاً من المصادمات المحلية ، التى تستدعى بطولة فردية فى درجة عالية ، وتعطى فرصاً مناسبة لإظهار البطولة اليدوية[٢٩] » .

وقد يكون من دواعى المبالغة ، أن يصدر المرء حكمه شاملا لأيام العرب كلها ، فى تلك الجزيرة الضخمة المترامية الأطراف ، التى تكاد تبلغ مساحتها مليوناً ومئة ألف من الأميال المربعة[٣٠] ، أى تقارب مساحة الهند العظيمة .

---

(٢٧) انظر أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى و رفاقه ، وتاريخ العرب لحتى ج ١ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٨) عبقرية خالد ص ١٠ .

(٢٩) Mortial Poetry among the Arabs in the Jahiliya p. 13.

(٣٠) خواجا كمال الدين : المثل الأعلى فى الأنبياء ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١١٩ .

وقد مر فى هذا التمهيد أن بلاد العرب مختلفة التضاريس (+)، وفيها الصحارى الهائلة والجبال الوعرة، والحرّات البركانية ، والسهول الخصبة ، ومن الطبيعى أن تختلف تبعًا لذلك عادات السكان ولهجاتهم ، وأساليبهم فى حروبهم المختلفة ، ولذا كان من الصواب أن نقسم أيام العرب عند دراستها قسمين ، كما قسمت البيئة قسمين ؛ لنعرف الفرق بينهما :

ا ــ أيام البادية ب ــ أيام القرى والممالك

ا ــ أيام البادية وأهميتها :

أيام البدو هى الحروب التى كانت تثور بين القبائل الرعوية ، تناحرًا على وسائل الحياة ، أو طلبًا للترات ، أو قصدًا للعدوان لذاته ، وهذه هى التى ينطبق عليها إلى حد كبير قول بعضهم : « إنها كانت تتيح فرصًا صالحة للنهب والغارات ، ولإظهار أعمال البطولة الفردية التى كان يقوم بها زعماء القبائل[٣١] » . وإنما يدعونا إلى ذلك الحكم عليها ، ما نلمس فيها من تفاهة أسبابها ، وقلة الأعداد المشتركة فيها ، وضيق النتائج المترتبة عليها .

حقًّا إن الدارس لهذه الأيام ليدهش ، إذ يرى أن معظمها ثار لمفاخرة بين رجلين ، أو اعتداء على بئر أو ناقة ، أو مطالبة بدم قتيل ، إلى غير ذلك من الأسباب التى تشبه نظائرها عند القرويين فى قرى الإقليم المصرى فكثيرًا ما توافينا الصحف بأن نزاعًا ثار بين فردين ، أدى إلى قتال دموى بين بلدين ، قد يدوم سنوات عدة، وسببه اعتداء حيوان على مزرعة أو نزاع على السبق فى رى الزرع ، إلى غير ذلك من الأسباب الواهية التى لا يعيرها الإنسان المهذب التفاتاً ، ولكنها عند الجاهل كبيرة الخطر تحمل كثيرًا من المعانى ، التى تجعله يمضى فى حدته ، فيخرج عن طوره وينسى إنسانيته، وينقلب فى فعاله وحشًا يحطم كل ما يصادفه ، غير مبال بالنتائج .

ولمن يريد الوقوف على تفاهة أسبابها ، وخلط المؤرخين بينها أن يرجع إلى

(+) انظر صفحة ٤٠٣ .

(٣١) تاريخ العرب لحتى – نافع جـ ١ ص ١٠٥ ورسالة على الجندى السابقة .

ابن الأثير [٣٢] ، والسيرة الحلبية [٣٣] ، وأيام العرب لجاد المولى ورفاقه [٣٤] ، فإنه واجد فيها طرافة تسلّيه وتدهشه ، فمن ذلك على سبيل المثال : أن رجلا من بنى غفار جلس فى سوق عكاظ ، ومدّ رجله منادياً : أنا والله أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف ، فضربها رجل من «قيس عيلان» فثارت الحرب بين الحيين لذلك ، فأية عقلية تلك التى تريق الدماء ، وتقضى على زهرة الشبان ، من أجل تفاخر فارغ ؟

وعلى هذا فقد يكون من المبالغة ما نقله الدكتور « حتّى » من تأكيد المؤرخين ، بأن طلب الثأر كان الباعث الأول على هذه الأيام [٣٥] ، إذ أن طلب الثأر إنما يكون لقتال سابق ذهبت فيه أرواح لأسباب تافهة ، لكنّ الباعث الأول عليها هو ما تستدعيه حياة العربى ، وتدفعه إليه ظروف بيئته ، فلأهل الوبر بواعثهم ، ولأهل المدر بواعثهم ، وقد يتفقون فيها أو فى كثير منها .

أما أعداد المقاتلين فى هذه الأيام ، فإنها كانت من القلة بحيث تجعل المرء يستخف بشأنها ، فما عرفت تلك الأيام الجموع المحتشدة ، ولا الجيوش الجرارة ، وإنما كان متوسط المشتركين فى معظمها يقارب المئة ، فقد روى « ابن قتيبة [٣٦] » أن « عمر بن الخطاب » سأل بعض بنى عبس : كم كنتم يوم الهباءة ، قال : « كنا مئة كالذهب ، لم نكثر فنتواكل ، ولم نقل فنذل » . وروى أيضا أن « عنترة العبسى » سئل يوماً عن عددهم يوم (الفَروق) فقال : كنا مئة لم نكثر فنفشل ، ولم نقل فنذل . إذن فهذا العدد هو المحمود عندهم ، لأن الكثرة مدعاة للتواكل والفشل ، وهو فى نظرهم غير قليل لأن الأقل منه مدعاة للذلة .

وأما نهاية المعركة فى تلك الأيام ، فما كانت تقرر أمرًا خطيرًا فى الغالب وإنما كانت تنتهى بتدخل بعض الخيرين للصلح بين القبيلين ، وتحمّل الديات ، إما من مالهم ، أو من مال الفريق المنتصر ، كما حدث عندما توسط الزعيمان

---

(٣٢) الكامل جـ ١ ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٣٣) جـ ١ ص ١٤١ وما بعدها .

(٣٤) من ص ٣٢٢ — ٣٤٠ ومواضع أخرى .

(٣٥) تاريخ العرب له جـ ١ ص ٣٣ .

(٣٦) عيون الأخبار جـ ١ ص ١٢٥ ، والعقد الفريد جـ ١ ص ١٢١ ، والفروق موضع بديار بنى سعد حدثت فيه معركة .

« الحارث بن عوف وهرِم بن سنان » فى حرب عبس وذبيان مما جعل الشاعر « زهير ابن أبى سُلمى» يقف كثيراً من شعره على مدحهما .

وأحيانـًا كان الأمر يقتصر على تنافر الفريقين وتشاتمهما ، ثم ينتهى بأن يتحاجزا عن القتال ، نظراً لتدخل بعضِ العقلاء منهم ، الذى يوضح لهم أن الخطب يسير لا يستأهل أن تراق فيه الدماء، كما حدث مثلا فى (الفِجار الأول) على اختلاف فى سببه[٣٧] بين المؤرخين .

وينبغى أن نعرف أن بعض الأيام المهمة التى سبقت الإشارة إليها ، كان يسبقها شىء من الاستعداد لها، بعقد الأحلاف مع الجيران، وشراء الخيل والسلاح؛ ولذا كانت أطول أيامهم وأدومها ، يتعاود الفريقان فيها القتال عاماً بعد عام ، ويتواعدون اللقاء فى مشهور أسواقهم ، تنال قبيلة من أخرى فى عكاظ مثلا ، فتواعدها هذه اللقاء فى عكاظ القادم « على قرن الحول[٣٨] » أى فى العام القادم ، فيلتقيان فى الموعد يكون بينهما قتال أولا يكون ، فيعد هذا اللقاء يومـًا من أيامهم ، تنشد فيه الأشعار ، وتنقل عنه الأخبار .

ولعل هذا التواعد فى الأسواق ، هو الذى يفسر لنا امتداد بعض أيامهم سنوات عدة ، فقد دامت حروب « الفِجار » ثمانية أعوام، ويروى أن حرب « بُعاث » دامت عشرين عامـًا، وأن حرب « البسوس » دامت أربعين[٣٩]،وليس هذا ببعيد (إذا كان اللقاء على فترات كما ذكرت) فإن العداوات فى بعض الأسر عندنا ، قد تستمر مثل هذه المدد المتباعدة؛ ولعل تواعد المسلمين والمشركين بدراً من العام القادم ، بعد معركة أحد ، كان عملا بذلك التقليد الجاهلى، الذى كان يتيح لهم فرصاً للانتقام ، ويشبع فيهم رغبتهم الملحة فى طلب التّرات ، وتعويض ما فات .

ب ــ أيام القرى والممالك وأهميتها :

هذه حقـًا هى الحروب التى تستحق الدراسة، لأنها حدثت بين أقوام لهم قراهم ومدنهم وحصونهم ، يعملون الحيلة للمحافظة عليها ؛ ولذا فأيامهم تخالف أيام

---

(٣٧) أنظر الكامل ج ١ ص ٢٧١ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٤١ وجاد المولى ص ٣٢٨ .

(٣٨) أيام العرب لجاد المولى – مواضع متفرقة .

(٣٩) ابن الأثير فى الكامل ج ١ ص ٢٨٥ ومواضع أخرى .

البدو ، من حيث الأسباب ومن حيث النتائج ، وكثرة عدد الجند فيها ، ومن حيث التنظيم الحربى المتقن ، الذى يصدق عليه قول أستاذنا « العقاد » السابق ، وذلك لنقلهم نظم الحرب عن جيرانهم ، فاتصال الغساسنة بالدولة البيزنطية العريقة وتطوعهم فى جيشها لقتال الفرس ، أتاح لهم فرصة الإحاطة بالشئون الحربية الفنية ، وكذلك كان اشتراك المناذرة مع الفرس فى حرب الروم يحقق لهم نفس الغاية ، كما كان يحققها انخراط بعض الفرس فى جيش المناذرة ، كما سنرى .

فيحدثنا « أبو الفرج » أن النعمان كان عامل كسرى على الحيرة(٤٠) ، ويزيد « ابن الأثير » أن كسرى ملّك « النعمان » وألبسه تاجاً قيمته ستون ألفاً(٤١) وأنه كان يخدمه من جيش « كسرى » كتيبتان : إحداهما تسمى « الشهباء » ، والثانية تسمى « الدّوسر » وهو تعريب للكلمة الفارسية (دوشير) المؤلفة من كلمة (دو) بمعنى اثنين ، وكلمة (شير) بمعنى أسد ، وكان شعار الفرس أسدين متقابلين ، يرسمان على أعلامهم ومبانيهم ، والتسمية نفسها تشعر بأن جنود الشهباء كانوا من العرب ، وجنود الدوشير من الفرس . وكفى بهذا اتصالا يجعل العرب يمرنون على فنون القتال ، ويدربون على أيدى الفرس الذين ينافسون البيزنطيين .

وعلى هذا النحو أيضاً كانت صلة الغساسنة بالروم ، فقد كانوا يملّكون من قبل(٤٢) الروم ، فقد عين « الحارث بن جبلة » الملقب بالأعرج بمرسوم من الإمبراطور « جستنيان » وفازمنه بأعلى لقب بعد الإمبراطور(٤٣) وهو لقب (فيلارك وبطريق) (Phylarch and Patricius) وأن الحارث زار الإمبراطور بعاصمته ٥٦٣ م ليفاوضه فيمن يخلفه على كرسيه أثناء اشتغاله بالحروب مع الحيرة(٤٤) . وزيادة على ذلك روى « ابن الأثير(٤٥) » أن الروم يزعمون أن « نقفور » ملكهم من أولاد جفنة بن غسان ، وأنه كان يلى ديوان الخراج قبل أن يملك .

---

(٤٠) انظر الأغانى جـ ١ ص ١٣٢ والفروسية لابن القيم ص ١٠٢ ط دار الكتب المصرية وابن عبد ربه فى العقد جـ ١ ص ٢١٠ .

(٤١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٣٤ .

(٤٢) الكامل جـ ١ ص ٢١٧ .

(٤٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٧٠ .

(٤٤) أحمد أمين فجر الاسلام جـ ١ ص ٢٢ ، والصديق أبو بكر لهيكل ص ٢٠٤ .

(٤٥) الكامل جـ ٦ ص ٦٦ .

وهذه الرواية يحيط بها كثير من الشك ؛ ولذا قال فيها راويها « يزعم الروم » بالتشكيك، ولعلهم زعموا ذلك ليجذبوا إليهم قلوب العرب ، فيظلوا على ولائهم لهم ويكفوا عنهم غارات الأعراب ، ويؤمنوا متاجرهم التى كانوا حراساً على سلامتها .

مقارنتها بأيام البدو :

اتضح لنا آنفاً نوع الصلة التى كانت تربط عرب العراق ، وعرب الشام بأحلافهم من الفرس والروم ، ومما لاشك فيه أن العرب قبسوا عن حلفائهم كثيراً من فنون الحضارة المختلفة ، ومنها النظم الحربية ؛ ولذا امتازت أيامهم بضخامة أعدادها وكثرة قتلاها ، ثم بالتنظيم الحربى الفائق ، ثم بالتجديد فى السلاح ، فقد علم منه العرب ما لم يعلموه من قبل ، وإليك البيان :

١ ـ إعداد المقاتلين فيها :

لقد عرفت هذه الأيام الأعداد التى كانت تعد بالألوف ، وتقسم إلى كتائب ، يروى « ابن الأثير » أن يوم « الكُلاب الثانى » اجتمع له ثمانية آلاف فى عسكر عظيم من بنى الحارث وأحلافهم[٤٦] ثم هو يقول : « ولا يعلم فى الجاهلية جيش أكثر منه ، ومن جيش كسرى بذى قار ، ومن يوم جبلة » .

وفى يوم (ذى قار) جند كسرى أربعة آلاف من الفرس ، وثلاثة آلاف من قبائل العرب الموالية له ، فكان جيشه سبعة آلاف ، فإذا علمنا أن قبائل « بكر ابن وائل » وهى الطرف الثانى فى المعركة، كتب لها النصر فيها استطعنا أن نقدر أنهم كانوا فى مثل عدد الفرس تقريباً ، فيكون عدد المحاربين ١٤ ألفاً ، وهو عدد ضخم بالنسبة لأيام البدو ، الذى كان متوسط العدد فيها مئة كما تقدم .

والذى يدعو للدهشة أن « ابن الأثير » وغيره من المؤرخين يروون أن « الحارث الأعرج » جمع لقتال « المنذر بن ماء السماء » فى معركة « عين أُباغ » أربعين ألفا[٤٧] ، ولا أظن أن مشارف الشام كانت تسمح له بتجنيد ذلك العدد الضخم ، الذى يقارب جيش الإقليم السورى فى العصر الحديث ، الذى زادت فيه كثافة

---

(٤٦) الكامل جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٤٧) الكامل جـ ١ ص ٢٤٦ أيام العرب وجاد المولى ص ٥٢ .

السكان ، فالغالب على الظن أن الروم أمدوه بجند من جنودهم ، كما كان الفرس يمدون ملك الحيرة بجند من جنودهم .

وإذا علمت أن « الحارث » هذا فى يوم (حليمة) أسر من بنى تميم وحدهم مئة فارس، ثم قدرت الأسرى من غيرهم ، وقدرت القتلى من الفريقين استطعت أن تتصور كثرة العدد فى هذه المعارك .

٢ — التنظيم الحربى الفنى فيها :

عرف العرب فى هذه الأيام نظم التعبئة الجيدة ، فقسموا الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب كما حدث فى يوم « حليمة » و « عين أباغ[٤٨] »، وأضافوا إلى ذلك المقدمة ثم الساقة، فصار الجيش مؤلفاً من خمس كتائب ، ولذا كانوا يطلقون عليه اسم (الخميس) لتألفه من خمسة أقسام معروفة .

وعرفوا أيضا بثّ الجواسيس بين أيديهم ، وإرسال الطلائع لرصد تحركات الأعداء حتى لا يبغتوهم، فقد فعل العرب والفرس ذلك فى يوم (ذى قار[٤٩]) كما حدث فى يوم (البَرَدان) وغيره من الأيام المهمة التى استخدم فيها الفن الحربى على نطاق واسع .

وكذلك عرفت هذه الأيام استخدام الكمين لمفاجأة الأعداء ، واستخدام كثير من حيل الحرب ومكائدها ؛ لأن الفرس أهل مكر ودهاء ، بل لقد لعبت هذه الحيل دوراً هاماً فى يوم « ذى قار» أدى إلى نصر العرب على الفرس لأول مرة فى حروبهم معهم ، وحقيقة تلك المكيدة : أن « بنى شيبان » اتفقوا مع قبيلة « إياد » التى كانت تحارب مع جيش الفرس ، على أن تنسحب من المعركة إذا هجم كمين العرب ،وكانوا قد كمنوا للفرس كميناً فى مكان يقال له « الخبىء » فلما تناوش الفريقان يوم المعركة ، حملت ميسرة بكر على ميمنة الفرس ، وحملت ميمنتها على ميسرتهم ، فلما حمى الوطيس خرج الكمين عليهم فتصايح العرب وشدوا على القلب ، فولت « أياد » منهزمة كما وعدتهم فوقع الخلل فى صفوف الفرس

---

(٤٨) ابن الأثير . الكامل ص ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٤٩) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٩٥ وتاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٦ .

وانهزمت ، وتبعتهم قبائل « بكر » تقتل وتأسر كما تشاء[٥٠].

وإليك مثلا آخر يبين كيف كانت الخديعة عندهم تفعل فعلها فى بعض أيام بنى « شيبان » مع « بنى تميم » : وقف « هانئ بن مسعود الشيبانى » وقال لقومه : « إذا أتوكم فقاتلوهم شيئاً من قتال ثم انحازوا عنهم ، فإذا اشتغلوا بالنهب ، فعودوا إليهم ، فإنكم تصيبون منهم حاجتكم[٥١] » . وقد نفذت خطته بإحكام فنجحت نجاحاً باهراً ، وأمسى معظم بنى « تميم » بين قتيل وأسير ، وهى خطة تذكرنا بخطة المشركين فى « أحد » فإنه لا يبعد أن يكونوا قد دبروها حيث سبق استعمالها ، وأضافت إليها الظروف حركة الالتفاف الخلفى من الفرسان لما رأوا الرماة تركوا أماكنهم.

حـ ــ أسلحة القتال عند العرب :

سيأتى تفصيل القول فى هذه الأسلحة ، ووصف أجزائها وبيان تطورها فى الفصل الثالث ، وتكفى هنا كلمة عابرة للإحاطة بها وبنشأتها :

وهى بحسب الاستعمال فى المعركة على هذا الترتيب : القوس ، ثم الرمح ، ثم السيف ؛ ذلك لأن المحارب يرمى أولا بالقوس عن بعد ، فإذا تقارب الجمعان لجأ إلى الطعن بالرمح ، فإذا التحما لجأ إلى الضرب بالسيف والطعن بالخنجر .

١ ــ القوس :

لم يكن الرمى بهذا السلاح شائعاً بين العرب قديماً ، ولكنهم نقلوه عن الفرس ولم يبرعوا فيه براعتهم إلا متأخرين ، وسيأتى بسط القول فى ذلك فى الفصل الثالث ، وحسبنا هنا أن نسمع قول بعض زعماء « بنى شيبان » لإخوانهم يوم « ذى قار » لنفهم منه أن هذا السلاح كان شبه ملك للفرس ، فقد قال بعضهم يومها : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها » ، وقال « حنظلة بن ثعلبة » : « إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء[٥٢] » . وقد أيد « النويرى » امتياز الفرس بالرمى فى قوله : « لم تزل الفرس تفتخر بالرمى فى

---

(٥٠) ابن الأثير فى الكامل حـ ١ ص ٢٢٠ .

(٥١) ابن الأثير فى الكامل ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٥٢) جاد المولى ورفاقه فى أيام العرب ص ٣٠ .

الحروب والصيد[٥٣]» .

أما العرب فكانوا أول أمرهم — وبخاصة بالبادية — يرمون فى معاركهم بالحجارة الصلبة التى شبهها شاعرهم برءوس الحُجَّاج بعد حلقها فى موسم الحج حيث قال :

جلاميد يملأن الأكف كأنها رءوس رجال حلِّقت فى المواسم[٥٤]

فلما رأى العربى الفرس يستخدمون القوس ، عمد إلى فرع شجرة صلبة فحنى طرفيه وشدّ بينهما وتراً من جلد ، أو عصب قوى ، واتخذ له سهماً من نفس الشجر ثم ركب فيه سناناً وصار يرمى به كالفرس .

ومما يدل على عدم انتشار القوس عند العرب ، أن أشعارهم وردت مفعمة بامتداح السيف والرمح والتدقيق فى وصف أجزائهما ، وأكثرت لغتهم من أسمائهما ، ولكنها أقلت جداً فى أسماء القوس ، ولا نكاد نعرف كيف كانت تؤخذ من الشجر الجبلى ثم تسوى ، إلا من قصيدة « أوْس بن حجر » الذى عرف فى الجاهلية بوصف السلاح ، فإنه خصص للقوس أبياتاً أولها :

ومبضوعةٍ من رأس فرع شظيَّة بطَوْد تراه بالسحاب مجللا[٥٥]

يضاف إلى ما تقدم أن العرب كانوا يمجدون شأن الرامى لندرته بينهم ، ويشيدون بذكر من يجيد الرمى فيهم ، لدرجة أنهم نسجوا حوله قصصاً أشبه بالأساطير ، منها تلك القصة التى تفيد أن أعرابيّاً أراد أن يرمى رجلا مسرعاً على جمله ، وقد علق ضبّاً فى قتب البعير ، فرمى أولا دماغ الضّب ففلقه ، ثم رمى ثانياً وسط فقرات ظهره فأصابها ، ثم رمى ثالثاً أصل ذنبه فأصابه[٥٦].

وأظن أن تلك القصة لو صحت لصار فى العرب رماة حاذقون ، ولما جاز للفرس أن يفخروا عليهم فى الرماية والصيد .

٢ — الرّمح :

كان العربى يتخذ العصا دائماً ويستخدمها فى كثير من أغراض حياته حتى

---

(٥٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٦ ص ٢٢٩ ط دار الكتب ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م ، وانظر ص ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ من هذا الكتاب .

(٥٤) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١١ .

(٥٥) الأستاذ « عبد الحميد حسن » فى مذكراته الأدبية — مخطوطة عندى .

(٥٦) القصة بطولها فى العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢١ .

كانت هى والعمامة من خصائصه المميزة له[٥٧] : يقطعها من شجر جبلى صلب ، فيقوّمها ويصقلها ويستخدمها فى شتى أغراضه ، فلما رأى بقر الوحش يدفع عن نفسه بقرونه ، صار يأخذ تلك القرون ، ويركبها على طرف العصا ، يطعن بها عدوه عن بعد ، ثم صار يتخذ لها أسنّة الحديد فى أعلاها وأزجّة الحديد فى أسفلها وسماها بأسماء كثيرة منها الرماح والقنا وغيرها ، ووصفها بصفات متعددة تختلف باختلاف أطوالها فيقال « رمح خَطِل ، ثم رمح نائر ، ثم رمح مخموس ، ثم رمح مربوع ، ثم رمح مِطْرد[٥٨] » إلى غير ذلك من الصفات التى سيأتى توضيحها .

والذى يفهم من شعر « أوس بن حجر » واصف السلاح الجاهلى ، أنهم كانوا يفضلون الرمح الأصمّ ، على الرمح الأجوف ، الذى كان يؤخذ من الغاب الفارسى ، فهو يقول :

وإنى امرؤ أعـددت للحرب بعدما ... رأيت لها ناباً من الشر أعصَـلا
أصمّ رُدينيًّا كأن كعـوبَـه ... نوى القسْب عرّاصاً مزجّى منصَّلا[٥٩]

فهو يمتدح رمحه بأنه غير مجوف ، وأنه مستورد من « رُدَيْنَى » المشهورة بصنعه ، وأنابيبه صلبة كأنها نوى التمر ، وهو مع ذلك لَدْن مَرِن ، له زُجّ فى أسفله ، ونصل فى أعلاه يطعن بهما ، وسيأتى تفصيل القول فى الرماح وأطوالها ، والتحسين الذى أدخل عليها فى الفصل الثالث .

٣ — السيف :

هو سيد السلاح عند العرب ، يفزعون إليه عند الصيحة ، ولا يفارق أحدهم فى حل أو سفر ، يعتزون به ، ويخاطبونه فى أشعارهم كما يخاطبون خيلهم ، ويطلقون عليه الأعلام المختلفة مثل « الصمصامة ، وذى الفقار ، والبتار » وغيرها ، وكثيراً ما كان بعض الأبطال يحمل سيفين يعاقب بينهما فى القتال ، أو ليحل الإضافى محل الأصلى ، إذا كسر أو التوى أو تثلم .

---

(٥٧) الجاحظ فى البيان والتبيين ج ٣ ص ٦٤ .
(٥٨) نفس المرجع ، والمخموس ما طوله خمسة أذرع ، والمربوع ما طوله أربعة .
(٥٩) الأستاذ عبد الحميد حسن فى مذكراته السابقة .

وإن الناظر فى أشعار العرب ليجد فيها تمجيد السيف ، والإكثار من أسمائه كثرة تلفت النظر : وأجودها عندهم السيوف المستوردة من الهند ، أو المطبوعة باليمن أو مشارف الشام ، التى كان يطبعها قين رومى يسمى « سُرَيج » ، ونسبت السيوف إليه فسميت « السريجية[٦٠] » وفى السيف يقول « أوس بن حجر » :

وأبيضَ هنديًّا كأن غِـــراره ‏ ‏ ‏ ‏ تلألؤ برق فى حَبِيّ تَهللا[٦١]

ومما يدل على براعة العرب فى استخدام السيف ، وامتياز الفرس بالقوس قول « أعشى قيس » فى يوم « ذى قار » :

لمّا أمالوا إلى النشاب أيديهم ‏ ‏ ‏ ‏ ملنا بِبيض فظلّ الهامُ يُقتطف

وأخيرا يكفى أن نقرأ النص الآتى ، لنعلم رأى العربىّ فى أنواع السلاح : سأل « عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب » عن السلاح فقال : ما تقول فى الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك فانقصف . قال : ما تقول فى التّرس ؟ قال : هو المِجَنّ وعليه تدور الدوائر ، قال : فالنبل ؟ قال : منايا تخطئُ وتصيب . . . قال : فالسيف ؟ قال : هناك ثكلتك أمك ، فضربه عمر وقال : بل أمك لا أمّ لك[٦٢] .

هذه القصة على فرض صحتّها ، تدلنا على أن السيف كان أهم السلاح عند العرب وأعمه ، وأما النبال فقد تخطئ وقد تصيب ، وأما الرماح فعيبها أنها قد تكسر وقت الحاجة إليها .

د ــ آلات الوقاية عند العرب :

سبق الكلام عن سلاح العربى الذى كان به يقاتل ، وبقى الكلام عن الآلات والعدد التى كان يقى بها نفسه فى المعركة : وأهمها الدرع والمجنّ وإن كان أحيانًا يقى نفسه بجمله أوحصانه ، يتخذ منه ترسًا يضرب من خلفه ويحتمى به .

---

(٦٠) القاموس المحيط « مادة السراج » .

(٦١) غرار السيف حده ، والحبى السحاب الممطر ، وتهلل البرق لمعانه .

(٦٢) انظر الأغانى جـ ١٤ ص ١٣٢ ، وابن القيم فى الفروسية ص ١٠٢ .

أما الدرع فهى حياة ثانية لصاحبها ، لأنها جلد حديدى فوق جلده يقيه طعنات الرماح وضربات السيوف ، ولذا كان بعض عقلاء العرب يقول : « لست أشترى أدراعاً وإنما أشترى أعماراً(٦٣) ». وهى ثوب ينسج من حلق حديدية رفيعة ، يشبه فى نسجه إلى حد ما (الشبكة) التى يضعها رجال الفرسان فى الجيش على أكتافهم ، وأحياناً كانت تنسج حلقاتها مزدوجة ويسميها العرب (الدرع المضاعفة) ، والدرع فى الغالب قطعة واحدة تغطى البدن من العنق إلى الركبتين أو ما دونهما ؛ تشبه إلى حد ما الثوب الذى يلبسه جنود الفرسان اليوم ويسمونه بالإنجليزية Over all ؛ ويلبس جزء من الدرع على الرأس تحت البيضة (الخوذة) ، ويغطى العنق جزء منه من الخلف ، وتتخذ بعض الدروع بلا أكمام ، وبعضها واسع طويل الأكمام ، يغطى الأنامل والأطراف ويسمونها (الدرع الفضفاضة أو السابغة) يقول « أبو قيس ابن الأسلت » فى سلاحه برواية « ابن الأثير(٦٤) » :

أعددت للحرب موضونــة فضفاضة كالنِّهى بالقــاع

ومنها :

قد حصّت البيضة رأسى فـــا أطعم نوماً غير تهجاع(٦٥)

وقد كان بعض المياسير وكبار القواد ، يضاعف بين درعين ، يلبس أحدهما فوق الآخر ، زيادة فى الحيطة والتوقى ، فعل ذلك « الحارث الأعرج » فى يوم « حليمة » ، وفيه يقول « علقمة بن عبَدَه » :

مُظاهر سِرْبالَىْ حديد عليهما عقيلا سيوف مِخْذَمٌ ورَسُوبُ

ومنها :

تُخشخش أبدان الحديد عليهمُ كما خشخشت يُبس َ الحصادجَنوبُ(٦٦)

---

(٦٣) ابن عبد ربه فى العقد الفريد جـ ١ ص ٢٠٩ .

(٦٤) الكامل جـ ١ ص ٣١٣ ، أيام العرب ص ٨٢ .

(٦٥) الموضونة المنسوجة حلقتين حلقتين كما فى القاموس، والنهى النهر الصغير ، وحصت البيضة رأسه أذهبت شعرها .

(٦٦) أيام العرب لجاد المولى ص ٥٧ — ٥٨ ، ومخذم ورسوب علمان على سيفين معروفين ، والجنوب الريح الجنوبية .

وهذا قيس بن الخطيم يذكر أنه لبس فوق البردين درعاً مضاعفة واسعة جداً فيقول :

فلما رأيت الحرب حرباً تجرّدَتْ لبست مع البردين ثوبَ المحارب

مضاعَفةً يغشى الأناملَ فضلُها كأن قتيرها عيونُ الجنادب (٦٧)

وهناك فريق من الفرسان كان يلبس الدرع بلا أكمام ، إما اقتصاداً فى النفقة وإما تخففاً منها عند الطعن ، لتسهل حركة يديه عند القتال ، فكثيراً ما كان الفرسان يقطعون أكمام الدروع ، إذا أرادوا ان تخف أيديهم لإجادة الطعان . يروى « ابن الأثير »(٦٨) عند الحديث عن يوم « ذى قار » أن ٧٠٠ رجل من بنى « شيبان » قطعوا أيدى أقبيتهم من مناكبها ، لتخف أيديهم لضرب السيوف. والأقبية جمع قَباء بالفتح ، والقباء فى الأصل القميص ، والمراد به الدرع هنا .

ولعل هذا هو السبب ، فى أن أطراف الفارس كانت أول ما تقطع فى المعارك لأنها أكثر أجزاء بدنه تعرضاً للضرب ، والضارب نفسه كان يتحرى الأطراف والمفاصل بسلاحه ، فكثيراً ما كانت الأقدام والأكفّ تتطاير فى المعارك الكبرى تطاير أوراق الشجر ، أو كالماء المتدفق من نهر فياض ، كما يقول الشاعر فى هذا المعنى عن الفرس :

وكأنما أقدامهم وأكفهم سَرَبٌ تساقط فى خليج مفعَم

على أن بعض المبرّزين من الأبطال كان يعتز بشجاعته ، فيترك الدرع ويحارب حاسراً ، أنفةً من أن يقى نفسه بغير سيفه ورمحه ، فالفارس الحق عندهم من يعتمد على سيفه دون أى سلاح ، وذلك لخفة حمله ، وسرعة قطعه ، وإجهازه على القتيل ، يقول « قيس بن الخطيم » :

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدى بالسيف مخْراق لاعب

ومن العجيب حقاً أن ترى العرب يفخرون بجودة السلاح ، ودقة صنعه وينسبونه أحياناً إلى صانعه ، وتراهم مع هذا يحقرون صانع الأسلحة ، ويعدونه فيهم غير

---

(٦٧) الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٣١٦ ، والقتير رءوس المسامير التى تصل حلقات الدرع ، والجنادب الجراد كما فى القاموس .

(٦٨) نفس المرجع جـ ١ ص ٢٢٠ .

شريف ولا حسيب ، فإذا استهانوا بأحد نسبوه إلى حرفة (الحدادة) وهجوه بأنه قين أو أن أباه كان قيناً ، فيقول « حسان بن ثابت » يهجو الوليد :

فالحقْ بقينك قين السوء إن له   كيراً بباب عجوز السوء لم يرِم
تلكمْ مصانعكم فى الدهر قد عُرفت   ضربُ النصال وحسن الرقع للبرَم (٦٩)

ثم هو يهجو « بنى المغيرة » جميعاً بأن أباهم كان حداداً وهم مثله فيقول :

عبيـــدٌ قيـــون إذا حُصّـــلا   أبوكم لدى كيره جاثمُ (٧٠)

وقد شاع هذا النوع من الهجاء فى الشعر الجاهلى، ولكنى لم أقف له على تعليل ظاهر ، ولعل السبب أن القائمين بهذه الصناعة، كانوا جميعاً من العبيد والموالى الذين هم فى الأصل من أسرى الحروب ، ولم يرتفعوا إلى درجة العرب الخلصاء .

هـ ـ أسلوب العرب فى القتال :

أما عرب البادية فحروبهم بدائية ، يخرجون فيها للقتال على غير تعبئة خاضعين فى ذلك للنظام الذى يراه شيخ القبيلة ، وكانوا فى العادة يُغيرون بغتة ، ثم يفرون إلى البادية عند مطاردتهم (٧١) . ولكن عرب المدن عرفوا نظم التعبئة ، وتقسيم الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين ، ورأيناهم فى حرب الفرس يقسّمون قواتهم إلى (كراديس) حتى لا تفرقهم سهام الفرس (٧٢) إذا وقفوا صفوفاً ، أو اجتمعوا فى مكان واحد .

وكانت المعركة فى العادة ، تبدأ بطلب المبارزة من أحد الطرفين جرياً على عادتهم ، وذلك بأن يخرج بين الفريقين فارس مشهور ، فيطلب أن يخرج لمبارزته فارس آخر فى مثل سنه ومركزه فى قومه ، وكان الغرض من تلك المبارزة إظهار المهارة الفردية ، والقوة البدنية ، وعرض الفن الحربى أمام النظارة ، ليخلع المبارز بفنه قلوب الأعداء ، ويقوى به قلوب الأصحاب . ثم إنها بما يحدث فيها من قتل

---

(٦٩) ديوان الشاعر مطبعة السعادة سنة ١٣٣١ هـ ص ٣٣٠ ، والبرم جمع برمة وهى الوعاء .
(٧٠) نفس الديوان ص ٣٣٢ .
(٧١) حضارة العرب ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٧٢) الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٢٤٥ . والكردوس فرقة من الجيش تقارب الألف .

متتابع ، تثير فى الفرسان شهوة الانتقام ، والأخذ بالثأر ، فتجيش نفوسهم للقتال ، وتتحرق للطعان ، فهى تعتبر من المشهيات للقتال ، والمحرضات عليه ، كما يقدم الطاعم بين يدى طعامه بعض المشهيات لتغريه به ، وتدفعه إليه .

وفى بعض الأحيان كان يحدث التفاهم بين قائدى الجيشين ، على أن المبارزة تحسم النزاع ، وتحقن دماء الناس ، وعلى أن يكسب القضية من يفوز فيها ، وقد تعاهد على ذلك « الحارث والمنذر » يوم « عين أباغ »[٧٣] ، وقد بقى لهذه الطريقة أثر فى العهد الإسلامى فإن « علياً » طلب إلى « معاوية » فى حرب صفين أن يتبارزا ، ويحقنا دماء الناس ، فمن قتل أخاه رجع بالخلافة ، فلم يقبل « معاوية » ذلك .

وإذا لم يتم الاتفاق على أن المبارزة تحدد نتيجة المعركة ، كان الذى يحدث بعدها أن يتراشق الفريقان بالنبال ، وكان هذا السلاح قليلا بين العرب كما تقدم ، فإذا كانوا يحاربون من هم أمهر منهم فى استعمال القوس ، فإنهم كانوا يبادرون بالهجوم عليهم ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للنبال القاتلة ، يصبها عليهم رماة الفرس من التوابيت الخشبية التى على ظهور الفيلة ، ويرون فى شن الهجوم الخاطف دهشة العدو[٧٤] ، لأنه يكون فى العادة هجوماً عنيفاً قاسياً .

فإذا أفلح هجومهم هذا ، وإلا تراجعوا قليلا ، ليعيدوا تنظيم صفوفهم ثم يعاودوا الهجوم ، وهذا النظام يسمى عندهم (نظام الكرّ والفرّ) وكثيراً ما كانوا يوصون أنفسهم بإتقان الكرة بعد الفرة .

والعربى عند الالتحام مدفوع بطلب الثأر ، فسيفه فى يده يضرب به القريب ، ورمحه تحت إبطه يطعن به البعيد ، وهو خلال المعركة يطلب فارساً بعينه إن كان له ثأر عنده ، وإلا يطلب فارساً فى مثل مركزه وسنه ، فكانت الحرب عندهم حرب فرد لفرد ، وفرس لفرس ، والغرض منها إظهار البطولة الفردية ، وكانت تنتهى معاركهم — وبخاصة البدو — بتدخل فريق ثالث للصلح ، على أن تدفع القبيلة التى قلت خسارتها ، الدية عن العدد الزائد من قتلى أعدائها[٧٥] ، أما معارك الحضر

(٧٣) المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٧ .
(٧٤) أيام العرب فى الجاهلية ص ٣٠ .
(٧٥) حتى — نافع . تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٥ .

فكانت تنتهى بسلب الغنائم وجمع السبايا ، وتفريقها على المقاتلين ، وتتبع المنهزمين ، واحتلالهم ديارهم أو إخضاعهم لسلطانهم ، بحيث يكونون فى قبضتهم .

و — كيفية توزيع الغنائم بعد المعركة

كان العرب يخرجون للقتال ، ومعهم متاعهم وأنعامهم ، ينحرون منها إذا طال بهم المُقام ، ثم تكون فى المعركة حصناً لهم يلوذون به عند الجولة ، وكانوا يصحبون أيضاً نساءهم ، لتحرضهم على القتال وتسقى الظمآن ، وتضمد جراح المجروح ، وتثير فى نفوس الفرسان النخوة والحمية ، لأن الفارس يبذل جهده فى القتال ، إذا علم أن النساء تراقب فعاله ، فيخجل أن يفر ، ويخاف أن تسبى نساؤه إذا انهزم ، فإذا خانه الحظ ولحقت به الهزيمة فإنه كان يفر من أرض المعركة ، تاركاً فيها كل ما معه ، من متاع وأنعام ونساء ، وهنا يبادر المنتصر فيستولى على ما ترك ، بعد أن يبلغ بالنصر مداه ، فيطارد الفلول قاتلا وآسراً فى كل طريق .

أما الغنائم التى تجمع ، فكانت تقسم بين المحاربين بالتساوى ، على أن يفوز القائد منها بنصيب موفور .

حقوق القائد منها :

كان الذى يقود القبيلة شيخها ، والذى يقود القبائل ملكها ، فإذا غاب عن القتال الشيخ أو الملك أناب عنه (رديفه) وهو الوزير الذى يجلس فى المجالس عن يمينه ، وينوب عنه فى غيبته ، ويظهر أن الردافة كانت من الوظائف العربية المهمة فيقول عنها « ابن الأثير » : « وكانت الردافة فى الحيرة لبنى يربوع ، يتوارثونها صغيراً عن كبير ، فلما كانت أيام النعمان طلبها بنو دارم[٧٦] » .

ولقد كان القائد أو الرديف يفوز من الغنيمة بنصيب الأسد ، فكان يأخذ لنفسه الأنواع الآتية :

١ — ربع الغنيمة[٧٧] : وقد خُفض فى الإسلام فصار إلى الخمس ، وكما كان الخمس فى الإسلام ينفق على ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، ومصالح

---

(٧٦) الكامل فى التاريخ جـ ١ ص ٣٠٠ .

(٧٧) انظر جاد المولى السابق ص ٩٤ . والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٩٧ .

المسلمين ، كان القائد أو الرديف ، ينفق كثيراً من رُبعه فى مثل هذه الوجوه على قبيلته ، فهو المدخَر للنوائب ، والحامل الغارم فى الديات ، وهو الراعى لهم ، يعول فقيرهم ، ويزوج محتاجهم لأنه بهذه الخلال استحق أن يكون شيخ القبيلة ، الذى يمثلها فى المعاملات الاقتصادية والمعاهدات ، والأحلاف السياسية والتجارية وغيرها ، ومن هذا الربع أيضاً كان ينفّل القائد من شاء من المقاتلين لبلائهم ، فى يوم « فيف الريح » جعل القائد ثلث المرباع لخثعم ، ومناهم الزّيادة إن هم أحسنوا القتال[٧٨].

كان يحدث أحيانا أن تصادف القبيلة فى طريقها بعض الأنعام ، أو الأموال فتبادر بأخذها ، بقطع النظر عن أصحابها ، سواء أكان ذلك فى أرض العدو ، أم فى أرض غيره من المسالمين ، فالأخذ بالغلبة طبع البدوى ، وكانوا يطلقون على هذه المغانم : (النشيطة) ، وكانت من مخصصات القائد أيضاً ، فله وحده كل ما يصيبه الجيش فى طريقه قبل أن يصل مقصده ، فلما جاء الإسلام نظم أمر النشيطة ، وقصرها على المال الذى يؤخذ من العدو ، عند تسليمه أو هربه بلا قتال وسماه (الفىء) وهو للرسول أو الخليفة ، ينفقه فى وجوه البر المختلفة ، فكل ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، لا حق لهم فيه ، وإنما هو للدولة تضعه حيث تشاء ، وتنفقه فى مصالح المسلمين العامة .

٣ — كان الرئيس يختص بنوع آخر يسمى (النقيعة) وهى بعير كان يتخيره قبل القسمة ، فينحره ويطعمه الناس[٧٩] ، ولعلها هى المرادة بكلمة (حكمك) فى البيت الآتى ، وقد ذكر الحلبى أن الإسلام أسقط النقيعة والنشيطة ، ولكن يظهر أن الأخيرة عدّلت إلى الفىء ، لأن الإسلام يكره العدوان على الغير ، ويقبل ما يؤخذ دون قتال من أرض الأعداء .

٤ — وكان للرئيس أيضاً أن يختار لنفسه ما أعجبه من الغنيمة ، ويسمون هذا

---

(٧٨) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٧٩) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٩٧ نقلا عن التبريزى فى شرح الحماسة .

النوع (صفيَّة) وجمعها صفايا ، وسميت كذلك لأن الرئيس اصطفاها لنفسه ، ولم يرد أن الرسول (ص) استعمل الصفايا إلا نادرا ، فى غزوة بدر اصطفى لنفسه من غنائمها سيفاً يسمى « ذا الفقار » كما اصطفى جملا كان لأبى جهل ، بقى عنده إلى أن ساقه فى هدى « الحديبية »[٨٢] ، تروى كتب السيرة أنه اصطفى لنفسه من سبايا « خيبر » السيدة « صفية بنت حُيىّ » التى أسلمت فأعتقها وتزوجها ، وجعل صداقها عتقها ، لكن يبدو أن تلك الصفايا كانت من سهمه عليه السلام فى الغنيمة ، وإن كان لم يرد فى ذلك نص صريح ، لكن روح التشريع الإسلامى والعدالة النبوية ، تحول دون اختصاصه بشىء من الغنيمة .

٥ – ويظهر أنه كان للرئيس أن يأخذ لنفسه (الفضول) التى لا تقبل القسمة وقد جمع الشاعر العربى ، كل ما يخص الشيخ أو الرديف فى قوله :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[٨٣]

أما بقية المغانم فيظهر أنها كانت توزع على المقاتلين بالتساوى ، دون تمييز للراكب على الراجل ، وإن لم يرد فى ذلك نصوص صريحة ، ويدل على ذلك أن غنائم معركة « بدر » وهى أول معركة فى الإسلام وزّعت بالتساوى ، قبل أن ينزل القرآن بتنظيم التوزيع ، وسيأتى تفصيل ذلك فى صلب الرسالة .

ز – معاملة الأسرى :

تعتبر الأسرى من غنائم المعركة ، يجرى عليهم ما يجرى على الأموال والأنعام ، ويبدو أن نظام الأسرى عند العرب ، كان لا يخضع لقانون معين ، ولا يسير حسب قاعدة معروفة ، وإنما كان السبي يفرّق على المحاربين كبقية الغنائم ، فإذا حصل أحدهم على أسير فهو بالخيار فى أمره :

إما أن يمسكه ليقوم على خدمته وخدمة أنعامه ، ونقل الماء له وسقى النخيل من الآبار المختلفة . وإما أن يجزّ ناصيته ، ويفكّ أسره إذا كان للأسير عنده يد ،

---

(٨٢) تاريخ الخميس للديار بكرى ج ٢ ص ٦٢ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٦ .
(٨٣) أيام العرب فى الجاهلية ص ٩٤ .

أو رغب هو فى العفو عنه لسبب من الأسباب، روى « ابن الأثير »[٨٤] أن الأسير كانت تُجزّ ناصيته ثم يطلق سراحه ، ولا تجزّ ناصية الملوك لما فى ذلك من المهانة ، وكذلك فعل « عامر بن الطفيل » بأسيره الذى أطلقه بعد جزّ ناصيته ، فى نذر كان على أمه .

وأحياناً كان العربى يطلق الأسير تكرماً منه ، أو زهداً فيه لفقره ، أو لتقديم المعروف أو المروءة ، لأنه غنى ليس بحاجة إلى خدمة الأسير . أو فداء يأخذه فيه ، يقول « حسان بن ثابت » يفخر بقومه :

كم من أسير فككناه بلا ثمن ... وجـز ناصية كنا مواليهـا[٨٥]

وكان بعض الناس يحتفظ بأسيره — وبخاصة إذا علم يساره — ليفدى نفسه منه بالمال ، أو يحضر بعض عشيرته لأخذه ودفع فدائه .

وكان مقدار الفداء يختلف باختلاف مكانة الأسير فى قومه ، ودرجة يساره ، ويظهر أنه كان يتراوح بين مئة من الإبل وأربعمئة ، فبهذا العدد الأخير فدى الزعيم « عبد يغوث » نفسه يوم الكُلاب الثانى[٨٦] ، والذى يفهم أن المئة هى المتوسط ، أنها كانت القدر المخصص لدية القتيل عندهم ، وجرى العمل بذلك فى الإسلام .

وأيا ما كان الأمر ، فما كان العربى يسترقّ أخاه العربى أبد الآبدين ، فإن قدمت عشيرته لأخذه بالفداء ، وإلا باعه لغيره ، فإن لم يوفق ، أطلقه ومنّ عليه بالطريقة السابقة .

ح — الحرَم والأشهر الحرم :

من آداب القتال التى كانت مرعية عند العرب ، وبخاصة عرب الحجاز ، احترام الحرم المكى والأشهر الحرم بمنع القتال فيها . فى هذه الأشهر الأربعة ،

---

(٨٤) الكامل فى التاريخ جـ ١ ص‌ص ٣٠٠ ، ٣١٦ .
(٨٥) ديوان الشاعر طبعة ١٣٣١ هـ ص ٣٣٢ .
(٨٦) أيام العرب فى الجاهلية ص ١٢٨ .

وإلى هذا المكان المقدس، يفد الناس من سائر البقاع كل عام ، ليؤدوا فريضة الحج ، ويطوفوا بالبيت العتيق ، فيفيضوا على أهل البلاد من خيراتهم ، وينعشوا حالهم الاقتصادية ، فيحصّلوا من المال ما يكفيهم بقية عامهم فإذا هُدد الحاج فى أنفسهم أو أموالهم ، انقطعوا عن الوفود إلى الحجاز ، ففقد حياته ومات أهله جوعاً وفقراً ؛ ولذا تواضع العرب على تحريم تلك الفترة من العام ، وتحريم هذا المكان بالذات ، بحيث لا يحدث فيه قتال ، لدرجة أن ولى المقتول كان يلتى فيه القاتل فلا يمسه بسوء ، وفى بعض الأحيان كانت تستعر الحروب بين القبائل ، وتثور العصبيات ، ويصادف أن يكون ذلك قرب موسم الحج ، وهم يخشون ضياع الدماء إذا سكتوا عنها فى الموسم ، فكان رؤساء القبائل ، يتفقون على تأخير حرمة بعض الشهور ، حتى يدركوا ثأرهم قبل فواته وسميت هذه العملية (النّسىء) أى التأخير ، الذى عابه القرآن الكريم ، وسماه زيادة فى الكفر حيث يقول : « إنما النسىء زيادة فى الكفر ، يُضَل به الذين كفروا » .

وأحياناً أخرى كان يضعف الوازع الدينى فى النفوس ، وتثور فيهم الشهوة للقتال فينسون حرمة البيت وحرمة الأشهر الحرم ، فيحاربون فيها ، ويريقون الدماء بلا حساب ولذا سميت الحروب التى انتهكت فيها حرمتها « حروب الفجار » لأن الناس فجروا فيها ، وانتهكوا حرمة الشيوخ والأطفال ، وانتهكوا حرمة الزمان والمكان وما إلى ذلك .

فلما جاء الإسلام أقر حرمة الأشهر الحرم بمنع القتال فيها ، لدرجة أن الرسول عليه السلام غضب على بعض قادته لما حارب فيها ، ولكن لما كثُر عدوان قريش على المسلمين ، هوّن الله على رسوله أمر القتال فى الحرم ، وبين له أن الكفر بالله والصد عن سبيله ، أكبر عند الله من القتال فى الأشهر الحرم ، وكذلك احترم الرسول مكة عندما فتحها فى العام الثامن من الهجرة ، ولم يحدث فيها إلا قتال خفيف ، اضطر إليه بعض القادة ، رغم أن الرسول حذر من القتال فيها ، وإراقة دماء الناس فى هذا المكان المقدس من بلاد الحجاز .

الخلاصة

وجملة القول فى هذا التمهيد ، أن العربى محارب بطبعه ، تحتم ذلك عليه بيئته الصحراوية ، ونوع حياته فيها ، وسبل تحصيل رزقه : فهو إما بدوى يرعى الإبل والشاء ، ويحمى لها الحمى حيث الخصب والمطر وعيون الماء ، وهو يحارب من يعتدى على حماه ، وما أكثر العدوان فى خلق البدوى ، وهو فى جهة أخرى حضرى مدنى ، يحترف التجارة ، فيعمل على حمايتها ممن يعرض لها ، وما أكثر المتعرضين لها فى هذه البلاد الواسعة الفقيرة ، ثم هو فى جهة ثالثة فاتك أو قاطع طريق يعيش على سلب القوافل ، ويرى فى ذلك بطولة وعزًّا وشهامة ، وحياة هذه طبيعتها تتطلب فيمن يحياها القوة والشجاعة ، والاستعداد للقتال فى كل أوان ، ومرافقة السلاح فى كل مكان .

والعربى فى حروبه هذى تختلف طرقه وأساليبه ، باختلاف بيئته :

فالبدوى كان يحارب بالحجر والرمح والسيف ، حرب العصابات ، فى أعداد قليلة غير منظمة ، يغير فجأة فيقتل وينهب ثم يتفرّق كذلك فجأة فى رءوس الجبال ، ومنحنيات الوديان ، ليس له دين يردعه أو يهذّبه ، ولا خلق قويم ينظم معاملته مع الناس ، فقد رأينا كيف كانوا يهدرون حرمة البيت الحرام والأشهر الحرم ، كما كانوا يهدرون حرمة النساء والأطفال والشيوخ .

أما الحضرى ساكن القرى والممالك ، فكان يحارب على نظام وتعبئة فى جيوش مقسمة وقيادات مرتبة ، وطبقاً لخطط مدبرة ، كما تعلم من الفرس والروم الذين اتصل بهم من قريب أو بعيد ، وعرف منهم أسلحة جديدة ، وأساوباً منظماً فى القتال ، فقتاله يبدأ تراشقاً بالنبال ، ثم تطاعناً بالرماح ، ثم اشتباكاً بالسيوف يتبع فيه نظام الكرّة بعد الفرّة ، والرّجعة بعد الجولة ، كما عرف أيضاً نظام الأسر والفداء وتوزيع الغنائم وما إلى ذلك .

لذا كانت أيام الحضر هى التى تستحق الدراسة ، وتستأهل العناية بها ، لأن دارسها يخرج منها بمايفيده فى غيرها ، ويصلح أن يكون أساساً لما يأتى بعدها ، من دراسات حربية فى صدر الإسلام . . . .

وإليك الآن أول فصول الكتاب . . . .

الفصل الأول

نظرة الإسلام إلى الحرب ومشروعيتها فيه

لعلَّه قد اتضح من تمهيد الرسالة ، تصوير حياة العرب الجاهليين ، من نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والحربية ، ولعله قد اتضح أيضاً تصوير حروبهم والباعث عليها ، والأساليب التى كانت متبعة فيها ، ولعلنا أخذنا صورة واضحة عن حروب البدو وحروب الحضر ، ولمسنا الفارق بينهما .

ويحق الآن قبل التفرغ إلى دراسة الفن الحربى عند المسلمين ، وبيان ما أدخلوا عليه من تحسين وتهذيب ، أن نعرف نظرة الإسلام إلى الحرب ، ونظرة علماء الاجتماع إليها ، وأن نعرف مشروعية القتال فى الإسلام ، والبواعث عليه ؛ لنعرف السرّ فى هذا الانتشار السريع للإسلام ، ولنعرف السبب الذى حمله على امتشاق الحسام . وقد قسم هذا الفصل ثلاثة أقسام :

١ — نظرة الإسلام إلى الحرب .

٢ — مشروعية الحرب فى الإسلام .

٣ — بواعث الحرب فى الإسلام .

القسم الأول

نظرة الإسلام إلى الحرب

الحرب قديمة فى العالم بقدم البشرية ، لا يخلو منها زمان أو مكان ، وهى طبيعيّة فى البشر ، لا تخلو منها أمة ولا جيل ، وسبب هذا فى الأكثر « إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للمُلك وسعى فى تمهيده[1] » .

والحرب طبيعتها الغلظة والقسوة ، لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، فهى ضرام تأتى على زهرة شباب الأمم ، وتأكل خيراتها ، وتحطم مدنياتها ، وقد قال « عنترة

---

(١) ابن خلدون فى مقدمته : طبعة المهدى ص ٢٢٦ .

الفوارس » فى وصفها : « أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى[٢] » . ومن ثم كرهتها النفوس البشرية ، فهى تنفر من ذكرها ، وتفزع لمباشرة أهوالها ، وقد وصفها بعض أبطالها بأنها «مرّة المذاق إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ، ومن نكل عنها تلِف[٣] » . ولذا رأينا كثيراً من العقلاء يحذّرون الناس من إشعال نارها ، وينصحون لهم بالبعد عنها . والشعر العربى — وبخاصة شعر « زهير » — مملوء بالمنفرات منها ، وتبشيع منظرها .

وإن من يقارن بين طبيعة الحرب قديماً وحديثاً ، يرى أنها اليوم أقسى وأفظع ، لأنها لا تستند إلى قوة البدن ، وإنما تستند إلى قوة الحديد والنار ، ولا يقف أذاها عند المحاربين فقط ، وإنما يعدوهم إلى المدنيين الآمنين ، وعندى أنه من واجب العالم أن يتجنبها بقدر طاقته ، ليجنب نفسه الإبادة والفناء ، بتلك الأسلحة الذرية ، التى تتبارى الأمم المتحضرة فى إنتاجها ، حتى تكون بها نهاية حضارتها ، بل نهاية وجودها .

والحرب مع ما تحمل من شرور ضرورة اجتماعية لا محيص عنها ، ومكروه لا يمكن توقيه ، قرر ذلك القرآن الكريم ، كما قررته الشرائع كلها ، بل إن القرآن يرى فيها إصلاحاً لأدواء المجتمع ، وعلاجاً لاختلال التوازن بين قواه ، إذ هى تصلح من شذوذ الشاذ ، وتردّ إلى الطاغى صوابه ، وهذا معنى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لفسدت الأرض[٤] » . ومع أنه سبحانه يعلم ثقل الحرب على النفوس ، نراه يوجبها على المسلمين لنصرة الحق : « كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم[٥] » . ثم وضّح ذلك الخير بأنه القضاء على الفساد ، فلولا الجهاد لهدم المشركون بيوت الله بطغيانهم ، ولقضت الوثنيات على الديانات السماوية « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً[٦] » ، فى حرب المفسدين بقاء لدين الله .

---

(٢) ابن عبد ربه فى العقد الفريد جـ ١ ص ١٠٩ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٥١ .
(٥) نفس السورة : آية ٢١٦ .
(٦) سورة الحج : آية ٤٠ .

ولتوضيح ضرورة الحرب للحياة الاجتماعية ، يمكن تشبيه المجتمع البشرى بجسم إنسان : أعضاؤه الأمم والدول ، وخلاياه وأنسجته الأفراد ، فإذا أصيب بعض الأعضاء أو الخلايا بمرض ، أسرع صاحبه إلى علاجه ، فإذا أخفق العلاج لجأ إلى كيِّه بالنار ، أو بتره من جسمه نهائياً ، فإن فقدان عضو واحد أهون من فقدان البدن كله ، إذا شاع الفساد فيه ، وإذا كان فى بتر عضو صلاح المجتمع هان بتره ، بل أصبح بتره واجباً ، ليستمر البدن فى عمله وإنتاجه .

الحرب فى نظر علماء الاجتماع :

رأى علماء الاجتماع فى الحرب ما رأى القرآن الكريم ، من أنها إصلاح للكون ، وأنها سنة من سننه ، حتى لقد عدها بعضهم من وسائل تحقيق السلام بقوله : « لكى نحقق السلام ، لا بدّ لنا من أن نكدّر صفو السلام[٧] » . وهى فى رأى ابن خلدون « أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل » ومنشؤها عنده « إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصب لكل منهما أهل عصبته ، فإذا تذامروا لذلك ، وتواقفت الطائفتان : إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب[٨] » .

والحق أنه ما دام فى النفوس حب السيطرة من الأقوياء على الضعفاء ، فالحرب لا تنتهى ؛ لأنه لابد للظالم من قوة تردعه ، وتعيد الحق إلى نصابه فهو لن يرجع عن نزواته إلا بالحروب ، ونزواته لا تنتهى فالسلام لا يتحقق .

استحالة السلام الدائم :

أما هذه المجتمعات الدولية ، التى تدّعى أنها تعمل على إقرار السلام وتعمل على إيجاد التوازن بين القوى ، فما تقوم إلا بمحاولات فاشلة ولهو باطل ؛ وإن أعضاءها فى واقع الأمر يقومون بدور تمثيلى ، يخدعون به الناس ويخدعون معهم أنفسهم ، بل إن أكثرهم يحضر تلك المؤتمرات ، وقد أخفى تحت مسوح الرهبان غدر الذئاب ، ويحمل فى يمناه غصن الزيتون ، بينما يخفى فى يسراه أسلحة الفتك والإبادة والتدمير ، وعلى هذا فالحرب باقية لا محالة والبشرية لا تستغنى عنها لأسباب عدة :

---

(٧) Kamal Eldie n: Islam and sivilization.

(٨) المقدمة ص ٢٢٦ .

أولا — إن أية محاولة لتحقيق سلام دائم مخالفة صارخة لطبائع الأشياء . وخروج على السنن الكونية المألوفة منذ خلق الله الأرض وأهلها؛ لأن المرء بطبعه مفطور على حب التملك وحب الحرية ، والقوى دائما يحاول التسلط على الضعيف ، ليسلبه ماله وحريته ، وحقه فى الحياة، والضعيف بما فيه من غريزة تنازع البقاء يقاوم القوىَّ ، وهنا تتعارض النزعات والأهواء ، فلا يكبح جماحها إلا الحرب ، وما دام فى الكون نظريات اجتماعية متباينة ومذاهب سياسيَّة متعارضة ، فلن تخبو نار الحرب أبداً ، فيوم السلام الذى يتحدثون عنه، هو ذلك اليوم الذى تمحى فيه من الوجود هذه النظريات وتلك المذاهب ، وليس ذاك بمتوقع .

ثانياً — إن الله خلق الرجل نزاعاً لمكافحة الحياة، والوقوف فى وجه الشدائد، ومحاربة مظاهر الطبيعة ، لإثبات وجوده ، وإبراز طموحه فى الحياة، والسلام الدائم يقتل فى الإنسان كل تنازع وتنافس من أجل الطموح ، ويقتل فيه كل صفات النهوض التى هى من مقومات التقدم والرقى .

ثالثاً — الواقع الملموس يشهد بأن السلام الدائم لا وجود له ؛ فالعالم منذ أنشأه الله إلى الآن لم يعرف مجتمعاً كله سلام ، ترفرف عليه أعلام السعادة والوئام ، بل إن أيام الحرب فى التاريخ تعادل أيام السلم أو تزيد ، وهب أن مجتمعاً كهذا أمكن وجوده ، قد جهل أفراده مدلول كلمة الحرب ، وجهلوا آلات القتال ونظمه ، فأى مجتمع يكون هذا ؟ إنه إذن مجتمع رخو ناعم ضعيف، فقد رجاله الشجاعة لفقد بواعثها، والتنافس لفقد أسبابه، وجهلوا فوق ذلك القيم الذاتية للخير والشر والسلام والحرب، وبضدها تتميز الأشياء كما يقولون.

رابعاً — على أن النعيم الدائم ، والسلام الشامل ، قد يكون بين الناس باعثاً على المفاسد ، داعياً إلى الفجور والاعتداءات ، وهى بدورها قد تجر إلى الحرب وتحطم السلام ، وعلى هذا فلن يأتى اليوم الذى ينضوى فيه العالم تحت لواء السلام، إلا إذا خرج عن طبيعة الأشياء فصار أمة واحدة، تقودها عقلية واحدة ، وتحدوها آمال واحدة ، وهذا لن يكون إلا فى عالم ملائكى محض ، أو فى جمهورية كجمهورية « أفلاطون » التى كثيراً ما نادى

بها ، ولكنه عجز عن تحقيقها ، ومات وهو يحلم بها ، تدبر قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم[٩] » ، فإذا خلق الله الناس مستعدين للتنازع والاختلاف ، فكيف ندعى نحن العباد إمكان القضاء على هذا الخلاف ؟ أظن ذلك مستحيلا ، وإنما أملنا الوحيد ، أن تحصر الحرب إذا نشبت فى أضيق دائرة ، حتى لا تمتد ضرامها فتأتى على الحضارة الإنسانية ، وبخاصة بعد المخترعات الذرية وغيرها التى لا تعرف طريق الرحمة ، ولا تفرق بين الظالم والبرىء ، أو العسكرى والمدنى .

القسم الثانى

مشروعية القتال فى الإسلام

١ ـ تأمين الدعوة :

الإسلام لا يعرف حرب العدوان ، ولا يزاولها لبسط سلطان ، وإنما هو يعتبرها تأمينـًا لدعوته ، وإباحة لحرية الاعتقاد ، ويتخذ منها حصنا يقيه اعتداء المعتدين ، ويرد عنه كيد الغاشمين ، ليبلغ للناس كلمة التوحيد التى جاء بها الرسول ، الذى بعثه الله ليعيد ما تناساه الناس من التوحيد الذى جاء به الرسل السابقون ، ويهدم الوثنية عند المشركين ، فكل من يمنعه من تبليغ دعوته ، ويحول بينه وبين نصح الناس يجب قتاله ، ليفسح الطريق أمام الدعوة قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين[١٠] » . وقال تعالى فى أهل الكتاب الذين قاوموا دعوته وكذبوا رسـوله ، « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون[١١] » .

---

(٩) سورة هود : ١١٩ .

(١٠) سورة البقرة : ١٩٣ .

(١١) سورة التوبة : ٢٩ .

٢ ــ رد العدوان :

وقد جعل الله نبيه فى موقف المدافع الذى يرد العدوان ولا يعتدى فقال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين[١٢] » . كما بين له أن طرد المسلمين من ديارهم ومبادأتهم بالعدوان ونقض عهودهم ، كلها أمور كافية لقتال أعدائهم : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ، وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة[١٣] » . بل لقد جعل الله قتال المشركين وسيلة لكف شرهم ، ليكفوا عن المسلمين أيديهم ويعتزلوهم قال تعالى : « وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . » وقال : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً[١٤] » .

وفوق هذا علَّم الله رسوله أن يكتفى برد العدوان فى قوله تعالى: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين[١٥] » . وقد اعتدى المشركون على المسلمين أيما اعتداء ، وحاولوا بالقوة المسلحة أن يقضوا على « محمد » وصحبه ، وهاجموا المدينة مرات لهذا الغرض ، فكان من حق الدفاع الشرعى ، أن تواجه القوة بمثلها ، ليعلم العادون أن للعقيدة ما يشد أزرها ، فيخشوا بأسها ويعملوا على اجتناب طريقها ، ويدعوها وشأنها .

فهل يعاب على الرسول بعد ذلك أن يرد وثنيًّا إلى حظيرة التوحيد ، أو يهدى الضالين إلى سبيل الله ؟ إنه لو لم يفعل لكان مقصراً فى حق دعوته وتبليغها . إذن ما كانت حروب الإسلام لقهر الناس على اعتناقه كما يدعى بعض المغرضين من أعدائه، وإنما كانت لنشر الدعوة ، ردًّا للوثنيين عن وثنيتهم ، وهداية للكتابيين من غوايتهم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء

(١٢) سورة البقرة : ١٩١ .
(١٣) سورة التوبة : ١٣ .
(١٤) الآيتان من النساء مرتبتين ٨٤ ، ٩١ .
(١٥) سورة البقرة : ١٩٤ .

فليكفر ، فإن هداية القلوب بيد الله وحده قال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء[١٦] » .

٣ — دعوى الإكراه على الإسلام :

وهنا يصحّ التعرض إلى نقطة ليست من صميم البحث ، ولكنها تتصل به اتصالا وثيقا ، وهى دعوى الإكراه فى الإسلام ، وحسبنا هنا بعض إشارات للرد على زاعميها ، فليس المقام مقام مناقشتها من كل نواحيها .

أولا — العقائد لا تستقر بالإكراه :

لقد أدرك الرسول وأصحابه جيداً مما علمهم القرآن ، أن العقائد لا تستقر فى النفوس بالقهر والترهيب ، وإنما تستقر بالإقناع والاقتناع ، قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[١٧] » . كما علموا أن العقيدة التى يُكره عليها المرء ، يكون أشد عداء لها ، وأكثر حرصا على هدمها والتخلص منها ، وما على الرسول إلا أن يبين للناس الخير ويحضهم عليه ، والشر ويجنبهم إياه ، ولا يحمل أحدا على طريق بعينه قال تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ[١٨] . » وقال : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[١٩] » . بل كيف يكره الناس على عقيدته وشريعتُه تنفّر من الإكراه وتبطل عقود المكره ، وتجعل يمينه ماضية لاحنث فيها ؟ « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

ثانياً — مهمة الرسول هى الإنذار والتبشير ، ووظيفته توضيح السبيل والإقناع بالحجة ، وليس عليه بعد ذلك أن تبعه قوم وانصرف آخرون ، فلن يُسأل عن ضلالهم ولن يحاسب على اعتراضهم ، قال تعالى فى

---

(١٦) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(١٧) سورة النحل : ١٢٥ .

(١٨) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(١٩) سورة يونس : ٩٩ .

أول سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . وقال فى تحديد وظيفة الرسول : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم[٢٠] » . أفيحق لعاقل بعد هذا أن يرمى الرسول بجهل حقيقة وظيفته ، فينسب إليه استعمال القوة فى نشر دعوته ؟ وكيف وهو الذى كان يقرّ الكتابيين على دينهم ، ما كفوا عنه كيدهم ، كما تفيض بذلك معاهداته التى كان يعقدها معهم .

ثالثاً — يطلق الإسلام على القتال لفظة « الجهاد » والجهاد قد يكون بغير الحرب وسفك الدماء ، إذ هو بذل الجهد فى مدافعة الشر وإفساح الطريق للخير ، وبذل الكثير من القوى الفكرية والسياسية والمادية فى سبيل المجاهدة ؛ ولذا قسم العلماء الجهاد أقساما : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس والهوى ، وهذا الأخير هو الذى سماه الرسول (الجهاد الأكبر) وسمى قتال المشركين (الجهاد الأصغر) فلم يجاهد الرسول لشهوة الحرب ، ولكن لإعلاء كلمة الله ، ورغبة فى السلام ؛ ولذا أمره الله أن يقبل الصلح ويقر السلام إذا رأى فى عدوه استعدادا له ، حتى وإن كان يقصد بالصلح الغدر والمخالفة ، فالله هو الكفيل برد بغيه ومكره . قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين[٢١] » .

رابعاً — انتشار الإسلام فى عهود ضعف أهله :

لو كان الإسلام يستند فى وجوده إلى القوة ، لكان يقوى بها حيث تكتمل ، ويضعف حيث تنكمش ، ولكن التاريخ يثبت أن الإسلام ظلّ يغزو البلاد والشعوب ، حتى فى أيام ضعف حكوماته ، وذهاب قوتها ، بل لقد زالت الأمة الإسلامية الموحدة ، فى الوقت

---

(٢٠) سورة البقرة : ١١٩ .

(٢١) الآيتان من سورة الأنفال : ٦١ ، ٦٢ .

الذى بقى فيه الإسلام فتيا قويا ، فالأمم الإسلامية الآن تشكو ضعفها فى الوقت الذى يشق الإسلام طريقه إلى بلاد الغرب ، يغزو عقول الغربيين و يشهد مفكروهم له بأنه دين الإنسانية ، وذلك لما عرف عنه من بساطة مبادئه وأنه يصل الإنسان بخالقه ، ومخاطبة العقول لإقناعها بالبرهان ، ومخاطبة العواطف لاستمالتها إلى ما فيه خيرها ، ولا أريد الإطالة فى بيان آراء « لوبون وبرناردشو » وغيرهم من فلاسفة الغرب فيه حتى لا أخرج عن القصد ، وبحسبي أن أحيل على كتاب « سماحة الإسلام » للدكتور أحمد الحوفى .

* * *

وهنا يصح التعرض إلى شبهة قد تجول ببعض الأذهان ، وهى حروب « أبى بكر » للمرتدين من العرب ، فإن بعض الناس يعتقد أن العرب ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ، فأعادهم خليفته إليه بالقوة ، والواقع خلاف ذلك ، فإن معظم العرب لم ترتد عن الإسلام إلى الوثنية التى كانت عليها ، ولكن حركتهم كانت ثورة على حكومة المدينة ، وثورة على دفع الزكاة التى كانت عندهم بمثابة الجزية ، التى تأنف نفوسهم من قبولها ، وتأبى حريتهم وعزتهم الإقرار بها ؛ لأنهم يرون فى ذلك مذلة وعارا ، وقد فهموا أن حكومة المدينة تجب طاعتها فى حياة صاحب الدعوة ، الذى نقل السلطان من مكة ذات البيت العتيق ، كما فهموا أن الزكاة حق من حقوقه وحده ، وليس لغيره أن يطالب بها فلما ولى « أبو بكر » بعثوا إليه وفدا يفاوضه فى أن يقبل منهم الصلاة ويعفيهم من الزكاة ، لأن العرب لا تقر لهم بدفع الجزية ، ولكنه أبى وعزم على قتال من يفرق بين الصلاة والزكاة .

إذن فما ارتد الناس عن الإسلام جميعا ، فقد كانوا يقرون بالشهادة وكانوا يقيمون الصلاة وإنما اعتبرهم المسلمون مرتدين ، لأنهم هدموا ركنا من أركان الإسلام وهو الزكاة[٢٢] ، وما كان « أبو بكر » ليرغم ناسا بالسيف على الدخول فى الدين الجديد ، ولكنه كان يرغم المسلمين على القيام بالتزامات الدين وإقامة أركانه ، لأنه ما كان يفرق بين الصلاة التى قبلوها ، والزكاة

---

(٢٢) انظر الصديق « أبو بكر » للدكتور هيكل . من ص ١٠٣ – ١١٢ .

التى رفضوها؛ لأن الصلاة كما قال حق البدن ، والزكاة حق المال ، وبهما يقوم الإسلام؛ ولذا أكد الله سبحانه فرضيتهما فى كتابه العزيز ، وذكرهما مقترنين فى آيات كثيرة ، بحيث لا تذكر الصلاة إلا مع الزكاة ، لأن الأولى طُهرة للنفس ، والثانية طهرة للمال .

وخلاصة القول أن الإسلام لا يعرف الإكراه ، ولكنه لجأ إلى الجهاد لخير الإنسانية ، وحرية الاعتقاد ، وما كان كغيره من الانقلابات الدينية التى ثارت بسببها الحروب ، فكثيرا ما أشعل الإسرائيليون نار الفتن الدينية فى بلاد الشام إلى أن نفاهم منها « بُختنصر » ومثَّل بهم ، ولعلنا لا ننسى عهد الاضطهادات الدينية ، والحروب التى أشعلت للإكراه على مذهب بعينه ، إننا إذا قارنّا الإسلام بهذه الديانات ، لرأينا عنصر الإكراه فيه منعدما تماما .

وتذكَّر هنا ماحدث بين فريقى اليعاقبة والنساطرة قديما ، وتذكر(٢٣) أيضا ما حدث لأصحاب الأخدود باليمن على يد « يوسف ذى نواس » اليهودى من تعذيب وإحراق بالنار(٢٤) ، خلّد ذكره القرآن ، وتذكر أخيرا حركات الاضطهاد الدينى ، التى خلدها التاريخ فى العصور الوسطى ، ولا داعى للإفاضة فيها هنا ، فليس ذلك من موضوعنا .

القسم الثالث

بواعث الحرب فى الإسلام

يمكن تلخيص الدوافع التى دفعت الرسول إلى قتال المشركين ، وامتشاق الحسام فى وجههم فيما يأتى :

أولا — إفساح الطريق للدعوة ، ومنع الفتنة فى الدين :

لقد بعث الله « محمداً » إلى العرب بوجه خاص ، وإلى العالم كله بوجه عام ، وكلفه أن يبلغ رسالته للناس فينفـرهم من النار ، ويبشرهم بالجنة ، وأخبره بأنه إذا لم يفعل ما أمر به فما بلغ رسالة ربه قال ، تعالى: « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ،

---

(٢٣) المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٧٧ وسورة البروج الآيات : ٤ — ٨ .

(٢٤) انظر شارل ديل ملحق فى كتاب الإمبراطورية البيزنطية تعريب حسين مؤنس ص ٣٢٢—٢٥

وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[٢٥]» . فقام الرسول يبلغ للناس ما كلّف تبليغه ، ولكن قريشا وقفت حجر عثرة فى سبيل تلك الدعوة ، ولم يكتفوا بتكذيبه ورفضها ، ولكنهم جهدوا فى القضاء عليها وإطفاء نورها ، فلما لم يفلحوا فى ذلك تناولوا أتباعه بالأذى ، وساموهم سوء العذاب ألوانا ، مما جعلهم يتركون وطنهم المحبوب ، ويهاجرون من طغيان قريش إلى الحبشة مرتين متعاقبتين ، ولكن قريشا تعقبتهم هناك ، وحاولت الإيقاع بهم عند النجاشى العادل ، فأخفقت فى سعيها ، وعاد سفراؤها خائبين .

وبينما كان المهاجرون بالحبشة يقاسون مرارة الغربة ، وقسوة الحياة ، كان الرسول عليه السلام وعشيرته يلاقون أضعاف ذلك فى مكة ، فإن قريشا لما رأت « بنى هاشم » مصرة على حماية الرسول ، وعدم التخلى عنه ، عمل رجالها على عقابهم بالحصار الاقتصادى ، فكتبوا صحيفة فيما بينهم بمقاطعتهم ، وعلقوها فى جوف الكعبة توثيقا لها ، اتفقوا فيها على عدم التعامل مع الهاشميين ببيع أو شراء ، أو صهر أو نسب ، وعزلوهم فى « شعب بنى هاشم » ثلاث سنوات أو أربع ، ذاقوا فيها قسوة المجاعة وأهوال العيش ، فكان أحدهم يخرج ليشترى من السوق طعاما لأولاده الجياع ، فيضعف عليه التجار الثمن بإيعاز من زعماء قريش ، فيعود لهم خالى الوفاض ، وكان الرسول عليه السلام لا ينشط لنشر دعوته ، إلا حيث يتوافر الأمان فى موسم الحج ، فيلاقى قصاد بيت الله يبلغهم رسالة ربه ، وزعماء قريش من خلفه يحذرون الناس سحره ، ويتهمونه فى قوله وعقله .

بل لقد صادر المكيون حرية الاعتقاد ، وحرية التصرف ، لدرجة أنهم حاولوا أن يحولوا بينه وبين المدنيين ، فلما بايعهم سرا بيعة (العقبة الثانية) ووصل إليهم خبرها ، عملوا على اغتياله خلسة ، فلما هاجر سرا حاولوا أن يردوه إليهم ففشلوا ، فصبوا جام غضبهم على من آمن به من الضعفاء والفقراء والعبيد ، فكانوا يضربونهم إلى درجة الهلاك ، ويوثقونهم فى الرمضاء تحت وقدة الشمس المحرقة ، ليردوهم للشرك حتى مات بعضهم بسبب ذلك العذاب وقتل فيه ، كما روى « ابن الأثير[٢٦] » ، فإنه قال : « مات » ياسر » فى العذاب ، وأغلظت امرأته القول لأبى جهل ، فطعنها

---

(٢٥) سورة المائدة : آية ٦٧ .

(٢٦) الكامل له طبعة سنة ١٣٠١ هـ ج ٢ ص ٣٠ .

فى قُبلُها بحربة فى يده فماتت، وهى أول شهيد فى الإسلام. » وقد روى« المقريزى[٢٧] » فى هذا قوله : « ومر الخبيث أبو جهل « بسُميّة أم عمار بن ياسر » وهى تعذب فى الله هى وزوجها وابنها، فطعنها بحربة فى فرجها فقتلها » . وبنفس الطريقة مات « أبو فكيْهة » بيد أمية بن خلف وأخيه أبى[٢٨] » وما قنعت قريش بهذا كله، فإنها تعقبت « محمدا » بالمدينة ، وصارت تغرى به يهودها ، خشية أن يعم دينه ، فينتقل السلطان منهم إليه، ومن مكة إلى المدينة ، ولذا فَهِم الرسول من واقع أمرهم أنهم دائبون على الكيد له ، مصرّون على القضاء عليه وعلى دعوته، مهما اختلفت به البلاد ، ثم أيد الله سبحانه فهمه هذا بقوله : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا[٢٩] » . فكيف لا يدفع الرسول الموانع من طريق دعوته ؟ وكيف يبلغها للناس وهذا الحجر فى طريقه ؟ وكيف يقف مكتوف اليدين وأتباعه يفتنون فى دينهم ، ويعذبون ليعودوا إلى الشرك ؟ لا شك فى أن الرسول كان يتمنى أن تكون له القوة التى تمكنه من وقف ذلك العدوان ، وقد ظل يهدئ نفوس أصحابه كلما ثارت لوقع الظلم، وكلما طلبوا القتال قال لهم: كفوا أيدكم ، وبقى ينتظر الإذن من ربه له فى القتال ، حتى نزل عليه قوله تعالى : « أُذنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله[٣٠] » .

إذن فما شُرع القتال فى الإسلام، إلا لحماية العقيدة ، وحرية الفكر ، وحماية الضعفاء من طغيان الطغاة ، وهذا معنى قوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله[١٣] » . أى حتى ينتهى إرغام الناس على عقيدة بعينها وترك غيرها .

ثانياً – حمل قريش على مهادنة المسلمين :

ويغلب على الظن أن الرسول عليه السلام ، قام بمهاجمة القوافل التجارية لقريش ؛ ليشعرهم بخطره ، فيؤمنوا بوجوده ، ويروا وجوب مسالمته ، فيعملوا على

---

(٢٧) إمتاع الأسماع ص ١٨ ، ١٩ .
(٢٨) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣١ والإمتاع ص ١٩ .
(٢٩) سورة البقرة : ٢١٧ .
(٣٠) سورة الحج : آيات ٣٩ ، ٤٠ .
(٣١) سورة البقرة : ١٩٣ والأنفال : ٣٩ .

التفاهم معه ومفاوضته ، فيقر قرار السلم فى الجزيرة ، ويصل الرسول إلى هدفه السياسى والدينى من أقرب الطرق ، فقد كان هدفه هداية الناس ، وإصلاح مجتمعهم الفاسد . ولا يخفى أن المكيين أهلُ تجارة ، فيها معاشهم ومنها رزقهم ، وهم أدرى الناس بما يصيبها من كساد وبوار ، وأدرى الناس بأثر ذلك فى أصحاب رءوس الأموال عندهم ، وقد كان تعرض الرسول لقوافلهم سبباً فى الإقلال منها وتعريضها للخسارة ، بسبب التماس الطرق الوعرة المطولة ، التى تبعد عن المدينة حتى لا تمر عليها التجارة فى غدوها ورواحها ، فتكون مهددة بالنهب والمصادرة .

والرسول عليه السلام يعلم أن حياة قريش بحياة تجارتها ، فأراد تهديدها ، ليفكروا جادين فى تأمينها ، بالاتفاق الودى مع المسلمين فيضمنوا لتجارتهم رواجها فى فترات سلام طويلة ، يتمكن فيها الرسول من نشر دعوته بين الناس ، فى نطاق من الحرية والأمان .

ثالثاً — الباعث الاقتصادى :

لقد أرغم المسلمون على الهجرة إلى المدينة فرارا بدينهم ، وهربا من عَسْف قريش وظلمهم ، وقد حاول أكثرهم أن يصحب معه ماله فمنع من ذلك ، فتركوا فى أيدى قريش ديارهم ونخيلهم فصادروها واستولوا عليها ، ثم ذهب المهاجرون إلى المدينة فوجدوا أهلها يحترفون الزراعة ، وهم أجهل الناس بها ، لأن حرفتهم الأولى هى التجارة ، ثم إنهم رأوا فى أنفسهم عالة على إخوانهم الأنصار ، بالرغم من الأخوة التى عقدها الرسول بينهم ، ومشاطرة الأنصار لهم فى أموالهم ، فكان بعضهم يزاول التجارة بالمدينة استقلالا بنفسه ، ورغبة فى الأكل من كسب يده .

لهذا العامل الاقتصادى كان المسلمون يخرجون إلى قوافل قريش محاولين أخذها ليستردوا بعض المال الذى فقدوه ، وهو — وإن كان قليلا فى نظر غيرهم — يعتبر عندهم رأسَ مال مهما كان ، يدير تجارة ناجحة ويدر أرباحا كافية ، وإنما يزيد من خطره عندهم أنه صودر قهرا ، وأخذ منهم ظلما ، وقد كانوا بهذه الأموال يستطيعون أن يستقلوا بالعيش ، أو يخفوا بعض الشىء عن الأنصار ، حيث تكون لهم أموال ثابتة ، يعيشون من أرباحها ، ولذا كان الرسول عليه السلام كثيرا ما يدعو

للمهاجرين بقوله: « اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم عراة فاكسُهم[٣٢] » .

ولعل هذا المعنى كان ملحوظا أيضا فى الاجتماع الذى عقده الرسول قبل بدر ، فإنه لما علم بقدوم تجارة قريش من الشام ، جمع أصحابه بمسجد المدينة ثم قال لهم : « هذه عِير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفِّلكموها » .

وكيف يترك الرسول أصحابه فى حال ضيق وعسر ، فى بلدة محدودة الموارد ، لا تكاد تكفى سكانها الأصليين ، وهو يرى عير قريش التى اغتصبت أموالهم تغدو وتروح فى أمن وسلام ، لتَستخدم أرباحها فى الكيد له ودفن دعوته ؟ إنه من الحق أن يسترد المرء ماله من غاصبه ، وأن يغصب المال الذى يستخدم فى حربه والقضاء عليه ، كما أنه من حقه أن يحطم الرمح الذى يشرع إلى صدره .

ويغلب على الظن أن حال المهاجرين الاقتصادية ، وضيق ذات يدهم كان يشغل حيزا كبيرا من تفكير الرسول عليه السلام ، كما كان يشغل تفكيره إثقالهُم على إخوانهم الأنصار ؛ ولذا كان دائما يدعو لهم ، فهم من أجله ضحوا بديارهم وأموالهم ، وهجروا وطنهم الذى فيه درجوا ولعبوا صغارا ، ولهذا السبب نفسه كان الرسول يؤثر المهاجرين بالمغانم ، فى الغزوات الأولى ، ويستميح الأنصار ويرضى نفوسهم ، ولعل موقف الأنصار يوم غنائم حنين ، وغضبهم لحرمانهم منها ، وإعطاء المهاجرين أمر لا يحتاج إلى بيان ، فهو دليل على أن الرسول كان حريصا على أن يؤسس للمهاجرين أموالا غير التى فقدوها يبنون منها ديارهم ، وينفقون منها على عيالهم وسلاحهم .

مما يتقدم يتضح أن بواعث الحرب فى الإسلام كلها بواعث طبيعته فهو لا يلجأ للقتال إلا مرغما ويتجنبه بكل الوسائل ، وكثيرا ما كان الرسول يقول لأصحابه « لا تمنّوا لقاء العدو فعسى أن تُبتَلوا بهم ، ولكن قولوا : اللهم اكفنا وكُفَّ عنا بأسهم[٣٣] » . وما كان الرسول يوما معتديا ، فالإسلام لا يعرف حرب العدوان ، وإنما كان يحارب لتأمين الدعوة ، وإزالة العقبات من طريقها ورد العدوان الواقع على أصحابها ، وإشعار أعدائها بالقوة ، علّهم يثوبون لرشدهم ، ويخافون على تجارتهم ، فيعملون على سلامتها ، بمحالفة الذين يهددونها ومصالحتهم ، فيتحقق السلام الذى ينشده الإسلام .

---

(٣٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦١ .

(٣٣) شرح القسطلانى على البخارى ج ٥ ص ٤ الأخبار لابن قتيبة ١٢٣ ، وعيون الأخبار ج ١ ص ١٠٧ .

الفصل الثانى

جمع القوات وتنظيمها وإمدادها

يعالج هذا الفصل كيفية جمع القوات للقتال ، فيبحث تعيين القادة وشروط تعيينهم ، ونظام التجنيد من حيث التطوع والإلزام ، كما يوضح سنّ التجنيد وسن التسريح ، والتنظيم الدائم للجيوش الإسلامية ، وتزويدها بحيوان القتال والسلاح والطعام ، وما يلزمها من قراء وقُصاص ، وأطباء وممرضات وما إلى ذلك مما يلزم الجيوش فى العادة .

ذلك أن كل محارب لا بد له من أن يجمع القوات قبل الحرب بالطريقة التى يراها ، ويعيّن القواد الأكفاء على هذه القوات ، ليعملوا على تنظيمها وتوجيهها ، ويزودها بكل ما تحتاج إليه لتكون وافية العدة ، صالحة لمواجهة الأعداء ، فى كل الظروف ، وشتى المناسبات .

القسم الأول

القادة ومؤهلاتهم

١ – القيادة بين الجاهلية والإسلام :

ظهر الإسلام وقيادة القبائل العربية إلى شيوخها ، فزعيم القبيلة أو (رديفه) الذى ينوب عنه فى غيابه ، ويجلس عن يمينه فى حضوره ، هو الذى يتسلم اللواء عند الحرب ، لتوافر مؤهلات الرياسة فيه من كبر السن ، وسداد الرأى والشجاعة والنجدة ، والكرم والتضحية ، إلى غير ذلك من صفات الزعامة التى كانت انتخابية أكثر منها وراثية كما يرى الدكتور « فيليب حتى[١] » .

وإذا عرفنا أن قبائل بذاتها كانت تحتكر اللواء كبنى عبد الدار ، وأن رتب الشرف والرياسة كانت موزعة على قبائل معينة ، وأن الإسلام ظهر واللواء فى آل حرب ، استطعنا أن ندرك أن اللواء كان يتوارثه بطون القبيلة الواحدة بحيث لا يخرج

(١) تاريخ العرب تعريب الأستاذ « نافع » ص ١٧٠ الطبعة الأولى .

منها ، أما صاحب اللواء من البطن أو القبيلة ، فكان يُنتخب إليه ، مستوفيا شروط الزعامة السابق إجمالها .

أما الإسلام فلم يجعل القيادة وقفاً على أشخاص ، ولا خاصة بقبائل معينة ، وإنما كان الرسول أول الأمر هو القائدَ الأعلى ، يقود قواته بنفسه إذا خرج معهم ، ويؤمِّر من يراه صالحا للإمارة إذا غاب عنهم ، غير متقيد فى ذلك بعامل الأقدمية فى السن ، فقد سلَّم رايته « لعلى » يوم بدر وهو فى العشرين من عمره كما روى « ابن سيد الناس[٢] » ثم سلمها له فى غزوة « حمراء الأسد » وغزوة « خيبر » وفى الصحابة من هو أسن منه ، وكذلك فعل مع « أسامة بن زيد بن حارثة » حتى لقد غضب غضباً شديداً لما بلغه قول المنافقين : « أمَّر غلاما على جِلَّة المهاجرين والأنصار » فخرج إلى الناس وأفهمهم إصراره على توليته قائلا : « إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبل ، وإنه لخليق للإمارة ، وكان أبوه خليقا لها[٣] » وبذا صرف الرسول أصحابه عن تقدير عامل السن فى الإمارة إلى تقدير الذكاء وحسن قيادة الجند "Man management" فى كل قائد ، وفهم عنه خلفاؤه ذلك فعملوا به ، وقدموا الخبرة الحربية على كل اعتبار ، « فأبو بكر » رفض عزل «أسامةَ» عن القيادة لما تجدد الكلام فيه عقب وفاة الرسول[٤] ، وولى « يزيد ابن أبى سفيان » قيادة جيش موجه إلى الشام ، وفيه من هو أسنّ منه من الصحابة ، ولم يعبأ بنقد الناقدين .

ب — شروط القيادة :

إذن فما هى الشروط التى كانت تراعى فى القائد ؟ إن المؤرخ « جستاف لوبون[٥] » يجمل شروطها فى التقوى والشجاعة ، ورقة الشمائل والقريحة الشعرية ،

---

(٢) عيون الأثر فى فنون المغازى والسير — مخطوط بدار الكتب ورقة ١١٣ . وهو كما فى دائرة المعارف الإسلامية (فتح الدين محمد بن أبى بكر اليعمرى الأندلسى) من كتاب التراجم ولد بالقاهرة ٦٦١ هـ ودرس فيها وفى دمشق ، ثم أصبح معلماً للحديث بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة ، وتوفى ٧٣٤ هـ ١٣٣٤ م .

(٣) ابن الأثير فى الكامل ج ٢ ص ١٥٣ — الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ هـ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦١ ، والإصابة لابن حجر فى ترجمة أسامة .

(٥) حضارة العرب له تعريب « زعيتر » ص ٢٩٧ .

والفصاحة والقوة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب ، ومعنى هذا أن يكون القائد مستوفياً كل خلال الفروسية والزعامة ، وما هذا بميسور لكل إنسان ، ويمكن إجمال شروط القيادة عند المسلمين فيما يلى ، حسب ما يفهم من المراجع العربية :

١ ـ السبق للإسلام والفناء فى العقيدة :

لقد كان لهذا العامل وزن أى وزن ، فى اختيار القادة عند المسلمين إذا توافرت معه الشجاعة والخبرة الحربية ، ولذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمّر على سراياه السابقين للإسلام من أصحابه « كعلى بن أبى طالب » وغيره وأظنه لم يؤمّر « خالدَ بن الوليد » يوم مؤتة ، مع درايته الحربية مراعاة لهذا العامل ، لأنه كان أحدث عهداً بالإسلام من « زيد بن حارثة » ومن جاء بعده فى القيادة ، ولو قد كان سابقاً مثلهم ، لكان أولى بها منهم من الوجهة الفنية .

ويؤيد هذا المعنى أن القرآنَ نفسه ، فضل الذين أنفقوا أموالهم وقاتلوا فى سبيله قبل الفتح ، على الذين فعلوا ذلك بعده ، فهو يقول : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى (٦) » . وهذا تقدير منه للأسبقية فى الهداية .

وكما قدّر الرسول فى القائد عمق الإيمان ، وقوة الروح المعنوية ، التى يفيض منها على جنده ، قدر ذلك أيضا أصحابه من بعده ، فكانت القيادة فى عهدهم للمهاجرين السابقين والأنصار ، فكان المسلمون يؤلفون الجيش وهؤلاء السابقون هم ضباطه (٧) ، ولذا حُرمَ شرفَ الإمارة كل من مسته شائبة فى حروب الردة ، فلم يتول واحد منهم القيادة فى حروب الفرس أو حروب الشام على رغم ما ظهر من توبة بعضهم ، وإرادته التكفير عن زلته ، كما يظهر فى رسائل ووصايا الصديق والفاروق إلى قادتهم وولاتهم .

وكذلك كان الأمويون يختارون للقيادة شديد الإيمان بدولتهم ، الذى يفنى نفسه فى تدعيمها ، ويكون سباقاً إلى تحقيق أهدافها ، كآل المهلب وآل الحجاج

---

(٦) سورة الحديد : آية ١٠ .

(٧) تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان ج ١ ص ١٤٤ .

وغيرهم ، وعلى نهجهم سار العباسيون فاختاروا للقيادة المخلصين لدولتهم المعروفين بشدة الولاء لها ، ولا داعى للإطالة بالتمثيل .

٢ ـــ التجربة والخبرة الحربية :

الحرب خُدعة كما يقول الرسول عليه السلام ، ولذا كان يختار لها المعروفين بالمهارة فيها ، وسياسة معضلاتها ، « كحمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد » وغيرهم من القادة الذى خبروا الحروب ومرنوا عليها ، وقد قال توضيحاً لهذه الحقيقة : « إنى لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب[٨] » . وقد طبق الرسول هذا كثيرا ، وبخاصة فيما يتعلق « بخالد وعمرو » ، وقد بعث عمراً على سرية فيها « أبو بكر وعمر » فلما وصلوا إلى مكان الحرب نهاهم أن يوقدوا نارا ، فغضب « عمر » فنهاه « أبوبكر » وأفهمه أن « الرسول » لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه[٩] ، واقتنع بوجهة نظره .

وقد أثبتت الأيام براعة القادة المسلمين ، وخبرتهم بمكائد الحروب ، فإن الذى يسمع بفعال « خالد وسعد ، أو المثنى أو القعقاع ، أو الحجاج أو قتيبة أو موسى ابن نصير » لا يملك إلا أن يبدى الإعجاب بهم ، ويؤمن بتفوقهم فى الفن الحربى على قادة الفرس والروم وغيرهم .

٣ ـــ الشجاعة وتقوى الله :

إن القادةَ الناجحين فى التاريخ كله « كانوا ممن عرفوا بجرأة الجنان والشجاعة ، فإن ذلك منهم يجعل الجندى الجبانَ شجاعا ، وقوة اندفاعهم تجر الجند وراءهم ، فيأتون بالأعاجيب ، فإذا أضيف إلى شجاعتهم قوةُ الإيمان بالله ، والاعتقادُ الراسخ بأن الموت بيده وحده كانوا مثالا فى المضاء ، ودانت لهم البلاد ، وهكذا كان كثير من قادة المسلمين ، الذين عرفوا بيمن الطالع فكانت تسبقهم شُهرتهم ،

---

(٨) السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ٤١ طبعة مصر سنة ١٣٠٥ هـ .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

ويسارع الناس للتطوع معهم ، لثقتهم بالنصر فى ظلال الفن الحربى الذى شهر به هؤلاء الأبطال ، وفاقوا به معاصريهم[١٠] من الأعداء » .

وأخيراً لا أريد الإطالة فى هذا الشأن ، ويصح الاكتفاء بما أورده لنا « الهرثمى[١١] » فى مخطوطه عن فضائل الرئيس ، فإن كلامه يعد تلخيصاً لمؤهلات القيادة ، قال فى الباب الثالث : « قالوا أفضل الرؤساء فى الحرب أيمنهم نقيبة ، وأكملهم عقلا وأطولهم تجربة ، وأبعدهم صوتا ، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايد ، وأحسنهم تعبئة لأصحابه فى أحوال التعبئة ، وتسييرهم أوان المسير ، وإنزالهم أوان النزول ، وإدخال الأمن عليهم ، والخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وأن يكون حسن السيرة عفيفا ، صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخيا » .

وقد تعرض « الهرثمى[١٢] » لتقوى الله فى الحرب ، وأفرد لها الباب الأول من مخطوطه ، ومما جاء فيه قوله : « فينبغى لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه فى حربه تقوى الله وحده ، وكثرة ذكره والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والفزع إليه ، ومسألته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر » .

حـ — نظام تعيين القادة :

كانت القيادة من واجبات الرئيس ، ولذا كان الرسول والخلفاء يخرجون للمعارك بأنفسهم ، ولكن أوقات الرسول أو الخليفة كانت لا تسمح له بذلك أحياناً ، وكانت تحتم عليه الظروف البقاء ؛ لإدارة دفة الحكم وتنظيم حركات الجيوش ، وإمدادها بحاجتها من الجند والعتاد ، وفى هذه الحال كان ، يبعث مكانه قائداً مستوفياً مؤهلات القيادة ، وذلك بأن يدعوه إليه ثم يعقد له لواءً على رمح طويل[١٣] ينشره أثناء السير

(١٠) الشرق فى حكم الخلفاء — « فون كريمر » — ترجمه للإنجليزية « خودا بخش » ص ٣١٤ طبعة كلكته .

(١١) مختصر فى سياسة الحروب — ألفه الهرثمى للمأمون مصور بالجامعة العربية ورقات ٦ ، ٧ فيلم ٨٤٤ .

(١٢) مختصر الهرثمى السابق المصور ورقة (٤) ، وانظر أيضاً النويرى فى نهاية الأرب سفر ١٥١/٦ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٤٤ .

للمعركة ، على نحو ما كان معروفاً عند الجاهليين ، فإن أحدهم كان ينزع عمامته فيعقدها على رمحه ، جاعلا منها رايته ، اعتقاداً منهم بأن ذلك أهيبُ فى القلوب وأعظم فى العيون[١٤] ، وعدّوها علامة للعقد ، ومرجعاً للجند عند الجولة .

وأول لواء عقد فى الإسلام هو الذى كان يخفق على رأس الرسول عند دخوله المدينة مهاجراً فقد حلف أحد الأنصار ألا يدخلها إلا بلواء ، فنشر عمامته على رمحه وسار أمام الرسول[١٥] . ثم كان بعد ذلك إذا بعث قائداً يعقد له اللواء ويسلمه له بعد تسمية الله والنصح له . فيركزه هذا فى مسجد الرسول ، أو أمام بيته ، ليجتمع عنده الخارجون للغزو بمتاعهم استعداداً للرحيل معه « فالرسول » عليه السلام لما بعث « أسامة » إلى البلقاء، استدعاه وعقد له اللواء رمزاً للقيادة فركزه هذا بالجُرُف خارج المدينة ، وعسكر الناس حوله ، فلما توفى الرسول عاد أسامة باللواء وركزه أمام بيت النبوة ، وظل هكذا حتى بويع بالخلافة « لأبى بكر » فأمر بأن يركز اللواء أمام بيت « أسامة » ليمضى به[١٦] كما عهد الرسول .

وكذلك كان يفعل « أبو بكر » ، فإنه لما ثارت بحكومته القبائل بعد وفاة الرسول عزم على قتالهم ، فركز لواء القيادة بمسجد الرسول ، وحوله اجتمعت القوات وعسكر بالمسجد ، ومنه خرجت بأسلحتها[١٧] ، فأوقعت « بعبس وذبيان » ومن ناصرهم فى معركة « ذى القَصّة » الخالدة ، فلما عاد إلى جيشه بعض المتربصين ، واستراح جيش أسامة بعد عودته ، عزم على قتال من منعوا الزكاة ، فندب الناس للقتال ، ثم خرج بهم إلى ذى القصة ، بعد اجتماعهم بمسجد المدينة وفيما حوله ، ففرقهم أحد عشر فرقة ، وركز لكل فرقة لواء يتسلمه عند الرحيل قائدها الموكل بها ، فعقد اللواء الأول « لخالد بن الوليد » والثانى « لعكرمة بن أبى جهل » والثالث « لشُرَحبيل ابن حسنة » وهكذا جعل لكل قائد لواء[١٨] ، ثم وجه إليهم نصائحه الحربية ،

(١٤) الجاحظ : البيان والتبيين ط ١٣٥١ هـ ج ٣ ص ٧٢ ، ٨٠ .

(١٥) إميل درمنغم : حياة محمد تعريب زعيتر ص ٤ والإدريسى فى التراتيب الإدارية طبعة فاس سنة ١٣٤٦ هـ ج ١ ص ٣١٧ .

(١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى طبعة ليدن حـ ٢ ص ١٣٦ ، ٣٧ .

(١٧) « الصديق أبو بكر » لهيكل ص ١٠٦ .

(١٨) «الصديق أبو بكر» للدكتور هيكل مطبعة مصر سنة ١٣٦١ هـ. و ١٩٤٢ م. ص ١١٣، ١١٤.

كما هى العادة عند تسليم اللواء ، وأصدر إليهم أمره بأن يستنفروا لقتال المرتدين من يمروا به من المسلمين . وقد كان « عمر بن الخطاب » يعقد اللواء ويسلمه بنفسه للقائد ، ثم يقول للجند : « باسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر . . إلخ .

ظل عقدُ اللواء هو مرسومَ التعيين للقائد بعد ذلك ، إلى أن اتسعت رقعة البلاد ، وتفرقت الجيوش الإسلامية شرقا وغربا ، فأصبح الخليفة يعقده للقائد إن كان فى حضرته ، فإن غاب عنه فهو بالخيار : إما أن يرسل له اللواء حيث يكون ، وإما أن يكتفى بالأوامر المكتوبة يحملها البريد ، وكذلك كان الخلفاء العباسيون يفعلون ، فيرسلون اللواء والخلعة إلى الولاة عند تعيينهم ، فإن كان الوالى حاضراً ألبسوه خلعة الولاية ، وإن كان غائباً بعثوا له بكتاب ومعه نفس الخلعة ، فقد أرسل « إبراهيم الأمام » « لأبى مسلم الخراسانى » لواء وراية ، مقلداً إياه قيادة الدعوة إليه فى مرحلتها السرية ، فلما أظهر هذا دعوته عام (١٢٩ هـ ، ٧٤٧ م) عقد اللواء على رمح طوله أربع عشرة ذراعا ، والراية على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعا[٢٠] ، وسار بهما فى البلاد ، يخفقان على جيشه فى معاركه كلها .

وبمضى الزمن وتداول الدول ، صار لكل حكومة أو طائفة إسلامية علم يدل عليها ، ويحمل لوناً خاصا بها ، يسلمه رئيسها إلى قواده عند تنصيبهم ، فاختار الأمويون اللون الأبيض تخليدا لذكرى غزوة (بدر) التى كان لواء الرسول فيها أبيض ، واختار العلويون الخضرة لتذكير الناس ببردة الرسول الخضراء ، التى سجّى بها « عليا » ليلة أن بات مكانه عند الهجرة ، واختار العباسيون السواد تخليداً لذكرى راية الرسول السوداء المسماة « بالعُقاب » ، كما اختار الخوارج اللون الأحمر[٢١] رمزا للدماء المراقة فى سبيل الله ، أما الرسول فلم يختر لنفسه لونا خاصًّا كما كان العرف جارياً فى الجاهلية[٢٢] .

وأيا ما كانت ألوان الأعلام وأطوالها ، فإنها كانت تسلَّم للقادة الممتازين ،

---

(٢٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٤٤ .

(٢١) الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٢١ وسماهم « المحمرة » .

(٢٢) انظر فى ألوان الأعلام : الجاحظ ، فى البيان والتبيين جـ ٣ ص ٨٠ .

المعروفين بقوة الروح الحربية والبطولة ، وكما عرفت أسر عريقة باحتكار القيادة فى الدولة البيزنطية وإمداد جيشها بالضباط جيلا بعد جيل كأسر (فوكاس) « وبرنياس ، ودوكاس[٢٣] » وغيرها عرفت كذلك أسر عربية باحتكار القيادة الحربية ، والعبقرية فيها ، يذكر منها على سبيل المثال « آل المغيرة وبنى الوليد ، وبنى القعقاع ، وبنى ثقيف ، وبنى المهلب ، وبنى نُصير » وغيرها من الأسر التى أمدت الجيوش الإسلامية بقواد أكفاء ، خلد التاريخ أمجادهم .

نخرج مما تقدم بأن الخليفة كان يعقد اللواء للقائد ، فيركزه هذا فى المسجد أو أمام بيته، أو فى فضاء واسع خارج المدينة ، ثم يجتمع الناس حوله وأحياناً كان الخليفة يجمع الجند ، ثم يعين القائد بعد ذلك ، كما فعل « أبو بكر » عند تقسيم الألوية ، وكما فعل « عمر » عند تعيين « سعد بن أبى وقاص » على القوات التى جمعها ليوجهها إلى العراق .

د ـ اللواء والراية عند المسلمين :

لقد عرف العرب اللواء فى الجاهلية والإسلام ، ويرى الأستاذ « جرجى زيدان » أنهم اقتبسوا ذلك النظام من الروم ، فقد قال عنهم[٢٤] : « كانوا فى الجاهلية يسمون رايتهم " العُقاب " اقتباساً من الروم ، لأن شارتهم التى كانوا يرسمونها على أعلامهم ، وينقشونها على أبنيتهم هو " النسر " ، ويظهر أن الروم أغرْموا بالعقاب ؛ لأنهم أول من صاد به كما ذكر المسعودى[٢٥] فرأوا فيه رمز القوة فاتخذوه شعاراً لهم لذلك ، ثم نقله العرب عنهم .

ومن الجائز أيضا أن يكونوا نقلوا الرايات عن الفرس ، فقد اتصلوا بهم فى الجاهلية والإسلام ،ورأوا عندهم نظماً لم يعرفوها ، كما رأوا عند البيزنطيين ، ورأوا الفرس يتخذون الرايات ، فكانوا يخرجون فى معاركهم راية كبيرة من جلود النمر ، تسمى « درفش كابيانى[٢٦] » عرضها ثمانى أذرع ، وطولها اثنتا عشرة ذراعاً كما جاء فى

---

(٢٣) Dr. Oman. A History of the Art of War. p. 190.

(٢٤) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥١ .

(٢٥) مروج الذهب جـ ١ ص ٣١٠ .

(٢٦) اسمها فى معجم اللغة الفارسية للدكتور الهنداوى ص ٢٥٣ «درفش كاويانى» ومعناها العلم الإيرانى.

المصادر العربية(٢٧) ، ولكن الذى يرجح نقل العرب عن الروم ما توحى به التسمية ، فإن « العقاب » كان شعار الروم ، وكان شعار الفرس أسدين كما تقدم » .

وسواء أكان المسلمون فى ذلك مقلدين للفرس والروم ، أم اتخذوا اللواء استقلالاً ، فإنهم جعلوه أمارة القيادة ، ورمز الجيش ، يلوذ به الجند ويحاربون من حوله ، يحملونه عند المسير مطوياً ، فإذا وصلوا إلى أرض المعركة نشروه ، وكانوا يكتبون عليه عبارة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، ثم كثرت الرايات أيام الدولتين ، وصارت من المخمل ، وكتبت عليها عبارات مختلفة ، وزادوا فى طولها وعرضها ، على النحو الذى نراه اليوم عند الفرق الصوفية التى تدعى نسبتها إلى العلويين .

وقد اختلط اسم الراية باللواء عند كثير من المؤرخين واللغويين قدامى أو محدثين فأطلقوا كلاً منهما على الآخر بلا تحديد(٢٨) ، وبلا تبيان للفرق بينهما ، ولكن يبدو بعد مراجعة النصوص أن بينهما فرقاً من وجهين :

١ — أن اللواء يكون كبيراً أبيض اللون ، بقطع النظر عن كتابته ، والراية تكون مختلفة الألوان ، فأهل السير على أن لواء الرسول كان أبيض اللون وأن رايته كانت سوداء ، وقيل إنها كانت صفراء(٢٩) ، فيلاحظ أنهم يذكرون الألوان مع الرايات ، ولم يذكروها قط عند ذكر اللواء ، ويقولون عن اللواء : (كان مكتوباً عليه كذا) والكتابة تظهر واضحة فى البياض لا فى الألوان .

٢ — أن اللواء هو الرمز العام للجيش ومركز القيادة ، أما الرايات فتكون صغيرة دالة على القبائل والوحدات التى يتألف منها الجيش ، فقد كان لكل قبيلة رايتها التى تحمل شارتها ، وكثيراً ما كان « خالد » يقف على الرايات قبل المعركة يحرض أصحابها ، وكان قائد القبيلة يقول لها : الزموا رايتكم فلا تميلوها ، وقد سئل المهدى ذات يوم : كم راية عندك ؟ فقال : لا أدرى(٣٠) ،

---

(٢٧) ابن الأثير . الكامل ج ٢ ص ١٨٤ ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢٨) انظر الكامل ج ٢ ص ٤٨ ، ج ٥ ص ١٤٤ وغيرها ، تاريخ التمدن لزيدان ج ١ ص ١٥١ ، الأعلام لعبد الرحمن زكى ص ٢٦ والقاموس المحيط .

(٢٩) ابن سعد — الطبقات ج ٢ ص ٧٧ ، الواقدى . فتوح الشام ج ١ ص ١٩ ، ٥٢ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٤٢ ، ٩٨ .

(٣٠) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٠ .

والسائل طبعاً يسأل عن عدد الكتائب ، وهذا يدل على أن الراية كانت تشير لفرقة من الجيش ، أما اللواء فكان رمزاً للجيش كله ، يشير إلى مركز القائد العام وقت المعركة ، وعند المسير والنزول .

القسم الثانى

التجنيد ونظمه

بعد الحديث عن القائد وكيفية تعيينه ، والشروط التى يحسن توفرها فيه ، يجدر الكلام عن الجند الذين سيحارب بهم خاضعين لقيادته ، والكلام عن الجندى يكون فى الشروط التى يلزم توافرها فيه ، وسن التجنيد وسن التسريح وشرح نظام التطوع والإلزام ، وما إلى ذلك من الأمور التى لم يوضحها الكاتبون فى الشئون الحربية ، وعذرهم فى ذلك أنه ليس لديهم سجل مفصل واف يوضحها ،وإنما هى شذرات مبعثرة تأتى فى كتب الأقدمين عرضاً بلا قصد ، يجد الباحث عناء كبيرا فى استخلاص الحق منها ، وبخاصة إذا كان بينها تناقض أو خلاف كبير ، أو إجمال وغموض فى بعض النصوص .

١ ــ شروط التجنيد وسنّ المجند :

الحرب أنى وُجدت تقوم على عواتق الشباب ، الذين هم أصبر من الشيوخ على مقاساة أهوالها ، وأكثر منهم ميلا إلى إظهار بطولتهم فيها ، وهم بعد لم يرتبطوا فى الحياة بما يجعلهم حراصاً عليها من زوجات أو أبناء ، فهم لذلك أكثر إقداماً ونشاطا وغناء فى المعارك .

وقد عرفت الدول العريقة تلك الحقيقة فعملت بها ، ولجأت إلى الشباب من أبنائها ، فالدولة البيزنطية كانت تجند الشبان المعروفين بالنظام والشجاعة والقوة ، غير مفرطين فى الصغر أو الكبر ، وقد علل الإمبراطور « ليو » لذلك بقوله الذى نقله عنه « دكتور أومان » : « لأن الشبان ــ مهاجمين أو مدافعين ــ يكونون

أحراراً من حمل هموم أهلهم ، الذين تركوهم وراءهم يفلحون لهم أرضهم[٣١] » .
ولقد حكم الأستاذ « العقاد »[٣٢] بأن الروم كانوا يجندون صغار السن ، مستدلا بأن الجند كانوا يتهربون من الجيش ، ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة ، لأنهم كانوا يستثقلون تمريناته وأسلحته ، ولكن قد يكون الفرار من الجيش للرغبة فى الحرية ، وضعف الشعور الوطنى فى النفوس ، ورغبتها فى التمتع بالغنائم التى تزيد عن مرتبات الجيش ، مع أن عدم الإفراط فى الصغر أو الكبر الذى ذكره « ليو » يفهمنا أنهم كانوا يجندون الشبان بين العشرين والثلاثين تقريباً ، أو الخامسة والثلاثين .

هذا ، وقد درجت الحكومات الإسلامية كغيرها على تجنيد الشباب بوجه عام ؛ فقد كانوا عماد جيش الرسول فى معاركه الشهيرة[٣٣] ، وكان هو أيضا لا يختار المفرطين فى الصغر ولا الشيوخ الكبار ، ولكن ما شروط المجند ؟ وما الحد الأدنى لسن التجنيد ؟ وما حدها الأقصى ؟ إليك البيان .

لا يشترط الإسلام فى الجندى إلا أن يكون مسلماً بالغاً عاقلا ، سليما من الأمراض ، مقداماً غير هياب[٣٤] ، فكل جندى فى عهد « عمر » استوفى هذه الشروط كان يدوّن فى الديوان ، أما الرسول عليه السلام فكان لقلة أصحابه أول الأمر لا يشترط فيهم سوى الرغبة فى الجهاد ، لإعلاء كلمة الله ، لا للشهرة أو المغنم وقد ضمن لمن خرج لمجرد الجهاد فى سبيل الله ، أن يدخله الجنة إذا مات ، وأن يعيده لمنزله بالأجر والغنيمة إذا ظفر[٣٥] ، وما كان الرسول يشترط فى جنده سنّاً معينة ، وإنما كان المدار عنده على الطاقة البدنية ، والقدرة على إجادة القتال فإنه اعتاد فى غزواته أن يستعرض الجند قبل الدخول فى المعركة ، فيجيز منهم من يرى لياقته للقتال ، ويرد من يراه غير لائق له[٣٦] ، ولكن ما هى حدود تلك اللياقة ؟

---

(٣١) Dr. Oman. A history of the Art of War. p. 189.
(٣٢) عبقرية خالد ص ١٦٣ .
(٣٣) شرح البخارى للقسطلانى طبعة بولاق جـ ٧ ص ١٣٢ ، ٣٣ .
(٣٤) وزيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٤٢ ، وثابت فى الجندية ص ٩٣ الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .
(٣٥) انظر النووى : رياض الصالحين طبعة حجازى جـ ٧ ص ٩٩ ، ١٥٤ .
(٣٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٦٢ .

يفهم من بعض النصوص أن الخامسة عشرة كانت السن التى تجيز لصاحبها اللحاق بالجند فقد روى « ابن خلدون » أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاز يوم أحد « سمُرة بن جُندَب ورافعاً بن خَدِيج » فى الرماة وسنهما خمسة عشر عاماً، ورد يومها « أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر » فى نفر غيرهم وسن الجميع يومئذ أربعة عشر عاما ، ثم ذكر فى موضع آخر برواية الشيخين عن « ابن عمر » أنه قال : « ردنى الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ، ثم أجازنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة[٣٧] » . ولكن هناك نصوصا أخرى أوردها « ابن جرير وأبو الفرج » تفيد أن الرسول يوم أحد أجاز رافعا ورد سمرة لصغره، فحزن « سمرة » وأفهم الرسول أنه يصرع رافعا ، فصارع الرسول بينهما، فلما صرعه أجازه هو الآخر[٣٨] ، بعد أن ظهرت له قدرته البدنية .

يفهم من ذلك أن إطاقة القتال كانت العامل الرئيسى فى التجنيد، وأن اللياقة البدنية كانت ملحوظة ، فإن « الرسول » اختار « رافعا » أول الأمر ؛ لأنه قام على خفين له فيهما رقاع ، وتطاول على أطراف أصابعه ، ليبدو طويلا وافيا فى العين ، فلما رآه يافعا أجازه ، ولم يرد فى نص واحد أن الرسول سأل بعض هؤلاء عن سنهم ، فما كانت تواريخ الميلاد عندهم دقيقة بحيث يعرفونها[٣٩] فنحن فى أيامنا هذى نختلف فى تحديدها ، وماذا يصنع القائد بمهزول فى سن العشرين أو الثلاثين ؟ وكيف يترك فتى جلدا فى الخامسة عشرة ؟ علما بأن الأجسام تختلف نماء وقوة ، باختلاف التغذية والسلامة من الأمراض ، ومن هنا لا تكون السن مبدأ مضبوطا ؛ ولذا نراها حديثا قد زيد فيها إلى حد العشرين أو الحادية والعشرين ، لتأكد البلوغ واكتمال القوة .

ويغلب على الظن أن البلوغ فى الجزيرة العربية كان يأتى مبكرا ، لحرارة المنطقة المنشطة للغدد ، وصحية الغذاء والهواء والنشأة ، بحيث حددوا له الخامسة عشرة

---

(٣٧) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢١١ قارنه بما ورد فى التراتيب الإدارية للإدريسى طبعة فاس ج ١ ص ٣٥٧ ، والأغانى طبعة المغربى ج ١٤ ص ١١٥ .

(٣٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٣ ، ١٢٠ ، والأغانى ج ١٣ ص ١٣ .

(٣٩) دليل ذلك أن ابن عمر لم يعرف سنه فى الرواية السالفة ، لأنه جعل أحداً والخندق فى عامين متتاليين، والجمهور على أن أحداً كانت فى العام الثالث والخندق فى العام الخامس بفارق عام بينهما .

تقريبا ، وقد حضر الرسول حرب الفجار ، ينبل على أعمامه ، وهو فى الرابعة عشرة ، لأن البلوغ فى الجزيرة العربية ، كان يأتى مبكرا لما تقدم .

ظل تجنيد الشباب معمولا به أيام الخلفاء ، وبخاصة لما وضع « عمر » الديوان واشترط فى الجندى البلوغ والإسلام ، مع السلامة من الأمراض ، وظل معمولاً به كذلك أيام الدولة الأموية ، فكان القائد ينتخب من الديوان من شاء من الجند[٤٠] ،ولكن يبدو أنهم زادوا فى سن المجند قليلا ، ولذا عاب الناس على « أبى حمزة الشارى » حداثة أسنان أصحابه[٤١] فقد قال فى بعض خطبه : أيها الناس : « تعيبون أصحابى بأنهم شباب أحداث ، وهل كان أصحاب الرسول إلا شبابا أحداثا ؟! » ويظهر أن فى كثرة الجند مجالاً متسعاً للاختيار ورفع السن ، فإذا قلوا كما كانوا أيام الرسول ، لجأ القائد إلى أول مراحل البلوغ ، فقد كان كل من تلفظ بالإسلام يوم الخندق فى العام الخامس ألفاً وخمسمائة[٤٢] ، ولذا جند الرسول كل صالح للقتال ، فلما زاد عدد الجند ، وكثر الراغبون فى الجهاد ، وضع عمر الديوان ، واشترط الشروط السابقة .

ويظهر أن العباسيين درجوا على نفس السبيل ، وبخاصة عندما اتخذ خلفاؤهم الأحراس ، من شباب لهم صفاتٌ بدنية خاصة ، فاختاروا الفتيان من الخراسانيين والمغاربة ثم من الفراغنة والأتراك ، حيث القامة الفارعة والشباب المكتمل ، وكان هذا الحرس يمثل قسما مهما من الجيش ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يطبقون فى الجيش ما يطبق فى الحرس تقريبا .

ولم تصلنا تفصيلات وافية عن أسنان الجنود ، ومدة خدمتهم عند المسلمين ، وإنما كان المهم عندهم اكتمال الفتوة ، وهى لا تتحقق إلا فى طور الشباب ، أما السن فمن الجائز أن يكون مسألة عرفية تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد ، ففى عصرنا الحديث يجند الشاب فى الإقليم المصرى فى الحادية والعشرين أو العشرين ،

---

(٤٠) ابن الأثير فى الكامل جـ ٤ ص ١٥٢ .

(٤١) الجاحظ البيان والتبين جـ ٢ ص ١٠٣ طبعة سنة ١٣٥١ هـ .

(٤٢) شرح البخارى للقسطلانى جـ ٥ ص ١٧٥ .

بينما يجند الشاب التركى فى السادسة عشرة[٤٣] ، وقد عاصر المسلمون البيزنطيين الذين كانوا يجندون فى مثل هذه السن تقريبا قبل أن يتزوج شبانهم ، فمن الجائز أن يسيروا على نظام مقارب لنظامهم ، يوضحه لنا ما أورده « جرجى زيدان »[٤٤] فى قوله : « كان عند المسلمين لاختيار الجند من بين الناس شروط : منها أن من أراد الانتظام فى الجندية يقدم طلبا إلى صاحب ديوان الجند ، وهو ينظر فى أهليته لها ، ولا يكون أهلا لذلك إلا إذا كان حرا[٤٥] بالغا مسلما سليما مقداما ، فإذا استوفى هذه الشروط قبل ، ودوّن اسمه فى دفاتر الجيش ، مع نسبه وطوله ولونه وملامحه ، وسائر ما يتميز به عن غيره . لئلا يحصل لبس فى الأسماء ، عند استدعائها للمعارك ، فإن الإعجام كان مهملا فى الكتابة وقتها ، واللبس كان شائعا .

وكل ما تقدم من مؤهلات التجنيد، إنما هو للذين تدوّن أسماؤهم فى سجلات الجيش ، كالجنود النظاميين الذين يتقاضون مرتباتهم من خزانة الدولة (والذين كتبت أسماؤهم فى دفاتر الجند) أما المتطوعون الذين يخرجون للجهاد رغبة فى الثواب ، فليست لهم شروط محددة ولا أسنان معينة ، فكثيرا ما كانوا يخرجون وهم فى الخمسين أو الستين أحيانا ، فإن لم ينفعوا بأبدانهم ، نفعوا بآرائهم وسابق تجاربهم ، كما كان يخرج بعض الموالى والعبيد ، وغير المسلمين فينفعون بالمساعدة وتكثير العدد ، كما ينتفعون بالمنح التى كانوا يأخذونها من المغانم ، بحسب تقدير القائد لها .

ب – نظام تسريح الجند بعد الخدمة :

يُقصد بهذا النظام شيئان: التسريح المؤقت المراد به إراحة الجند لاستئناف القتال ، والتسريح النهائى الذى به تنتهى مدة الخدمة فى الجيش .

أما فى حياة الرسول عليه السلام فقد كان المسلمون جميعا جنده، يدعوهم للقتال فيجتمعون، وبعد انتهاء دواعيه يتفرقون فى شئونهم الخاصة، فكثير منهم كان يحترف التجارة أو الزراعة ، أو غيرهما من الصنائع ، وما احترف المسلمون الجهاد إلا أخيراً بعد أن كثرت المغانم ، فأقبلت عليه النفوس .

---

(٤٣) نعمان ثابت – الجندية ص ٩٥ .

(٤٤) تاريخ التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٤٤ ، والجندية لثابت ص ٩٨ .

(٤٥) اختلف فى الحرية : فبعض الأئمة يعتبرها ، كالشافعى ، وأبو حنيفة يسقطها فليست شرطاً متفقاً عليه .

وبعد حياة الرسول ثارت الجزيرة بحكومة « أبى بكر » ، وعمت حركة البدو الانفصالية عن السلطان المركزى فى المدينة ، فعزم « أبو بكر » على إخضاع الثائرين وإعادتهم إلى حظيرته ، فكتب يستنفر الناس من جهات الجزيرة ، فاجتمعت له القوات التى قسمها أحد عشر لواء ، وعين على كل لواء قائدا ، ووجه القوات إلى أنحاء الجزيرة المختلفة ، فلما مل القتال جنود « عكرمة » باليمن ، لبعد الشقة وكثرة المشقة ، سرحهم واستبدل بهم غيرهم ، ثم عادوا للمدينة ، ومن ثم سمى الجيش الجديد « جيش البدال[٤٦] » وإن اشتهار هذا البدال فى التاريخ يدل على أنه لم يكن مألوفا ، كما لم يكن منظما يخضع لقواعد ثابتة ، وإنما الأمر لا يعدو أن يكون استبدال طائفة مستريحة ، بطائفة تعبت من القتال .

فلما كان عهد « الفاروق » وانتشرت جنوده فى سواد العراق ومروج الشام ، أخذ على نفسه عهدا « ألا يجمر الناس فى ثغورهم[٤٦] » ولا يطيل مدة غيبتهم فى غزواتهم ، حتى يأمن الفتنة عليهم وعلى نسائهم ويحقق العدالة بينهم ، فكان الغازى لا يمكث فى الغزو أكثر من أربعة أشهر ، ثم يستقدم ويرسل مكانه آخر[٤٧] ، وكذلك نظم الغزو بين أهل البصرة والكوفة ، فكان الجندى يأتى دوره فى الغزو على فترات معينة كل أربعة شهور ، كما كان الجند المرابطون بالإسكندرية يستبدل بهم غيرهم كل عدة شهور ، فى نظام دقيق ينفذه قائدهم « عمرو » مراعيا العدالة بين الجند ، بحيث لا يشكو أحدهم تحيزا أو عنتا .

أما إنهاء مدة الخدمة من الجيش بالتسريح النهائى ، فلم أقف على سن معينة له ، وإن كان الظاهر أنهم كانوا يسرحون من بلغ حد الشيخوخة ، كما كان يفعل البيزنطيون ، والمنطق نفسه يقضى بهذا ، فإن الجيش لو احتفظ بشيوخه ما وجد مكانا للشباب الجدد ، مع قلة غناء الشيوخ فيه ، وشدة الحاجة إلى الشبان .

---

(٤٦) انظر الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ١٩٦ .

(٤٧) الفاروق عمر للدكتور هيكل ص ٩٦ .

(٤٨) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ٣ ص ١٠٨ والجندية لثابت ص ٢٨ ويروى أن السبب فى تحديد تلك المدة ، أن الفاروق كان يمر بحارات المدينة ليلا ، فسمع امرأة فى دارها ، تنشد شعراً تذكر فيه شوقها لزوجها الغائب فى الجهاد ، وتذكر الله والعفة فسأل بنته حفصة : كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها ؟ فقالت : أربعة أشهر ، فأصدر أمره السابق .

هذا عن الجنود المرتزقة ، أما المتطوعون ، فإنهم كانوا يخرجون للغزو أو الرباط ، فإذا حل الشتاء أو هجم البرد تفرقوا إلى بلادهم ، حيث يريحون دوابهم ويستريحون ، وكان « عمر » ينصح لقواده أن يفرقوا فى الناس أرزاقهم قبل أن يتفرقوا فى مشاتيهم[٤٨] وقد كان من الأغراض الاستراتيجية التى قصدها من تأسيس المعسكرين « البصرة والكوفة » أن تعود إليهما القوات الغازية شتاء، فاختار بعض الناس البقاء بهما ، وظلوا فيهما يتناسلون ويتوارثون الرباط هم وأبناؤهم جيلا بعد جيل .

جـ ـ التجنيد بين التطوع والإلزام :

يرى بعض الباحثين فى الشئون الحربية عند المسلمين ، أن التجنيد عندهم كان إلزاما[٤٩] مذ كان، بدون بيان لظروفه أو تطوراته ، ويرى بعضهم أن فكرة التجنيد الإجبارى فكرة إسلامية خالصة[٥٠]، ويرى ثالث أن التجنيد الإجبارى بدأ فى أواسط الدولة الأموية، عندما ولى « الحجاج » العراق ، وألزم الناس الخروج مع المهلّب لحرب الأزارقة[٥١] ، والوجه فى المسألة أنها بحاجة إلى تفصيل وإيضاح لأدوارها التاريخية .

١ ـ الدور الأول فى عهد الرسول وخليفته :

يبدأ هذا الدور بعهد الرسول عليه السلام ، وقد بعثه الله بدينه الجديد، لإعادة الناس إلى حظيرة التوحيد ، ومحو آثار الوثنية من الوجود، فهو مكلف بقتال الوثنيين حتّى يؤمنوا بالله ، ولكنه كان أول أمره فى قلة مضطهدة من أصحابه ، كانوا يأتونه بين مضروب ومشجوج، ويطالبونه بقتال عدوهم فيأمرهم بالصبر ، لأنه لم يستكمل بعد مؤهلات القتال ووسائله ، وكان إذا أراد بعض المتحمسين منهم حمل السيف قيل لهم « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة[٥٢] » فلما كثر عدد المسلمين

---

(٤٨) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٤٥٣ .

(٤٩) رئيس الركن نعمان ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٢٠٥ .

(٥٠) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٤٢ ومواضع أخرى .

(٥١) جمال الدين عياد : نظم الحرب فى الإسلام، طبعة الخانجى سنة ١٣٧٠ هـ . ص ٧٣ .

(٥٢) سورة النساء : آية ٧٧ .

وأصبحوا قادرين على رد العدوان ، والقيام مع الرسول بتحقيق رسالته ، أباح الله لهم القتال فى قوله « أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله[٥٣] .

منذ ذلك الحين حمل الرسول لواء الجهاد ، وأوجب على المسلمين أن ينفروا إذا استُنفروا ، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ما داموا قادرين ، ولهم الأجر والغنيمة ، ولكنه ما كان يلزم أحداً بقتال ، فقد كان يكلُ المسلمين إلى قواهم الدافعة ، وظروفهم المادية ، وكان يكره لهم أن يخرجوا للغنائم فقط فيقول : « لا يخرجنّ معنا إلا راغب فى الجهاد[٥٤] » ويأمر قواد سراياه بألا يُكرهوا أحدا على المسير معهم ، وكان يتخلف عنه الرجل فيذكره الناس فيقول : «دعوه فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه[٥٥] وما ذاك إلا لعلمه بأن مدخول الضمير ، لا يزيد الجيش إلا خبالا وضعفا بما يبدى من جبن ، ولهذا السبب نفسه ، كان يأذن لبعض المنافقين الذى يستأذنونه فى التخلف ، حتى فى أوقات الدفاع عن بلدهم الذى هم أولى الناس بحمايته ، محتجين بأن بيوتهم عورة كما حدث فى غزوتى أحد والخندق وغيرهما .

ولقد كان الرسول أعلم الناس بأصحابه وظروفهم ، ودرجة إيمانهم ، فهم عنده طائفتان : طائفة لا يرجى نفعها فى القتال كالمنافقين وضعاف النفوس المتربصين ، وهؤلاء كان لا يحاسبهم على تخلفهم تاركا لله أمرهم ، بل كان ينهاهم عن الخروج معه أحيانا ، فقد قال يوم « حمراء الأسد » يقصد المخلفين فى اليوم السابق « أحد » : « لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس[٥٦] » .

ويوم فتح مكة تخلفت قبائل بأسرها . فلم يعقد الرسول الألوية ، وينشر الرايات حتى قدم قديدا[٥٧] ، ولم يرد أنه عاقب هؤلاء المتخلفين ، وإنما كان يجدُ عليهم فى نفسه ، إذا علم أنهم تخلفوا عنه بدون عذر ، فكان يمنع خروجهم معه لئلا تمتد

---

(٥٣) سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠ .
(٥٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٢٧ .
(٥٥) سيرة ابن هشام (الحلبى) ج ٤ ص ١٦٧ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ .
(٥٦) الطبرى ج ٣ ص ٢٨ .
(٥٧) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٨ .

عدواهم إلى غيرهم ، فيؤثرون فيهم بضعفهم ، وليحرمهم أيضا من المغانم التى كانوا يحرصون عليها ، ولذا لما جاءه المخلفون يوم الحديبية يريدون الخروج لخيبر رجاء الغنيمة قال لهم : « لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا[٥٨] » .

وقد كفى الله رسوله مئونة عتاب هؤلاء ، فطعنهم فى أعز الأشياء لديهم ، وهى الشجاعة والرجولة ، حيث يقول فى كتابه الخالد : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون[٥٩] » . كما رماهم بصغر الهمة ، والتماس نهب المال إذا كان قريبا سهل المنال حيث يقول : « لوكان عرَضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة[٦٠] » . وبين للرسول أيضا أنهم غُثاء كغثاء السيل ، يزيده قذارة ولا غناء فيه ، بما يذيعون من شائعات تضعف روح الجند المعنوية : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة[٦١] وفيكم سماعون لهم » .

ويفهم من نص القرآن أن هذه الطائفة ، كانت تستأذن الرسول عند الخروج للقتال معه فيمنعهم ، لعدم الاعتماد عليهم ، ولحرمانهم من المغنم . يقول تعالى : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا[٦٢] » . فكان الرسول يكتفى باجتنابهم والإعراض عنهم ، ولا يأذن لهم بالغزو معه .

أما الطائفة الثانية ، فهى طائفة المؤمنين المخلصين ، الذين أخذوا أنفسهم بنصر دين الله ، وعلى المستطيع الغنى من هؤلاء أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا يتخلف عند النفير ، أما الفقير أو صاحب العاهة فلا جُناح عليه ، قال تعالى مبينا الأعذار التى تبيح لصاحبها التخلف : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله . » وقال : « إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء[٦٣] » . وقال تعالى معاتبا المؤمنين : « يأيها الذين آمنوا مالكم ،

---

(٥٨) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٣٦ .
(٥٩) سورة التوبة : ٩٤ . والخوالف النساء .
(٦٠) سورة التوبة : ٤٢ .
(٦١) سورة التوبة : ٤٧ .
(٦٢) سورة التوبة : ٨٣ .
(٦٣) سورة التوبة : آيات ٩١ ، ٩٣ .

إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا ، والله على كل شئ قدير [٦٤] » .

إذن فقد كان الرسول عليه السلام يلزم أصحابه بالجهاد، ويكلفهم الوقوف فى وجه المناهضين لكلمة التوحيد ، إذا علم منهم عمق الإيمان ، وسعة ذات اليد وإنما كان تهاونه فى تجنيد الأنصار قبل بدر ، وفاء لهم بشروط بيعة العقبة؛لأنها كانت تنص على حمايتهم إياه ما دام بالمدينة، لا فى القتال خارجها .

ولقد تغير الوضع قليلا بعد فتح مكة ، فبه أصبحت كلمة الإسلام هى العليا فى الجزيرة، وعرف المرتابون ذلك ، فدخلو فى دين الله أفواجا ، ثم انتوى الرسول عليه السلام تأديب الغسانيين الذين قتلوا رسله إليهم ، وهزموا المسلمين يوم « مؤتة » ليؤمن حدود الجزيرة الشمالية،فقال فى أصحابه قولته المشهورة: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية [٦٥] » ولعل فى مقابلة الجهاد بالهجرة ما يوحى بأنه فرض كفاية ، إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين ، وبخاصة بعد أن كثر عدد المسلمين بعد الفتح، ويفهم هذا أيضا من قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة [٦٦] » وهذه الطائفة هى التى استكملت أسباب الجهاد وشروطه ، وتوفرت فيهم القوة المعنوية الدافعة ، ولذا كان أحدهم إذا تخلف عن الجهاد استأجر بدله أجيرا للقتال ، على شئ معين يدفعه له [٦٧] ، وعلى هذا فالبدل الشخصى كان معمولا به فى الإسلام، كما كان معمولا به فى الجاهلية ، ثم عمل به أيضا فى الدولة الأموية ، فقد جاء للحجاج رجل يقدم ولده عنه ، فقبل ذلك منه وأجازه .

ومع فرضية الجهاد كانت نيات المسلمين تختلف فيه، باختلاف قوة روحهم المعنوية ، ففى الوقت الذى نرى فيه بعض المسلمين يتخلفون عن الرسول ، نرى بعضهم يخرج معه فى غزوة حمراء الأسد وهو مثخن بجراحات « أحد » فى اليوم

---

(٦٤) سورة التوبة : آيات ٣٨ ، ٣٩ .

(٦٥) صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٣ .

(٦٦) سورة التوبة : آية ١٢٢ .

(٦٧) المصدر السابق ج ٥ ص ١٢٧ .

الثانى للمعركة، ونرى بيوتا بأسرها تخرج معه للقتال ، كأولاد عفراء السبعة الذين شهدوا بدرا واستشهد بها منهم ثلاثة[٦٨] وكبيت « نسيبة » التى خرجت مع الرسول يوم « أحد » مع زوجها وولديها ، وكبيت « عمرو بن الجموح » الذى خرج يومها رغم عرجه الذى يعفيه من الجهاد ، مع بنيه الأربعة ، الذين كانوا كالأسد يشهدون المشاهد مع « رسول الله » صلى الله عليه وسلم[٦٩] .

وخلاصة القول أن التجنيد فى عهد الرسول كان مبنيا على الإلزام الأدبى لمستطيعه ، وكان جزاء المتخلف عنه مع قدرته ، الحرمان من المغانم الدنيوية والحرمان من الثواب الأخروى ، نتيجة لغضب الله وغضب رسوله ، الذى كان يكل أصحابه إلى درجة إيمانهم ، فما كان له أن يلزمهم وهم ينفقون من أموالهم الخاصة، ولكنه كان يغضب على الذين يثق فيهم ، فقد ظل زمنا واجدا على « المهاجر بن أمية » لتخلفه بلا عذر ، إلى أن استطاعت زوجه « أم سلمة » أن تأخذ له العفو منه .

أما الرجال السبعة الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، لتخلفهم عن الغزو ، والثلاثة الذين تخلفوا فى غزوة تبوك ، وعوقبوا بالمقاطعة التامة من المسلمين حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فهؤلاء جميعا وكل الرسول أمرهم إلى الله حتى تاب عليهم[٧٠] ، وأغلب الظن أنه اتبع معهم هذا الإجراء التأديبى ؛ لأنهم جاهروا بتخلفهم بلا عذر ، وشاع أمرهم فى الناس ، فلو تركوا بلا حساب لكانوا قدوة سيئة لغيرهم ، وإلا فقد جاء غيرهم فاعتذر له عن تخلفه وحلف فقبل منهم ، لأنه كان يقبل من الناس ظواهرهم ويكل السرائر إلى الله ، وكان يقبل من المنافقين عذرهم وهو يعرف كذبهم .

مما تقدم تظهر لنا المبالغة فى قول بعض الباحثين ، مستندا إلى قصة الثلاثة المخلفين ، والسبعة الذين أوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد ، « إن المتخلف عن الغزو ممن لا عذر لهم ، كان يعاقب بالغرامة والحبس[٧١] » وقد أخذ الغرامة من قوله تعالى

---

(٦٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٥ .

(٦٩) نفس المصدر السابق ص ٢٤٩ وما بعدها . (السيرة الحلبية) .

(٧٠) اقرأ من التوبة آيات ١١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٧١) نظم الحرب فى الإسلام – جمال الدين عياد ص ٧٦ .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وأخذ الحبس من مقاطعة المسلمين للخالفين حتى تاب الله عليهم ، ومن ربط بعض المتخلفين أنفسهم بسوارى المسجد (أعمدته)، وهذا فى الواقع تزكية للنفوس الطاهرة التى ترى جرمها كبيرا ، وليس حبسا يوجبه السلطان، أما الصدقة فالمراد بها الزكاة التى كانت تؤخذ من الناس جميعا ، ليعود فضل الغنى على الفقير ، فتتحقق الاشتراكية الإسلامية التى جاء بها الرسول .

ويغلب على الظن أن التجنيد أيام « أبى بكر » سار فى الطريق الذى رسمه له « الرسول » عليه السلام ، فكان قائما على مبدأ التطوع والانتداب ، المبنىّ على نية الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وكان « أبو بكر » يجمع الجند إليه بالمدينة، ثم يوزع منها القوات كما فعل فى حروب الردة ، ويجعل على الألوية قادة أكفاء، ثم يكل إلى القائد مهمة استنفار القبائل التى يمر بها ، فكان الجيش المنتصر يكثر أتباعه واللاحقون به ، لتيمّن الجند بقائده ، وانشراحهم إلى القتال معه ، ولكنه ما كان يُلزم أحدا بقتال ، فقد كتب إلى قواده عند فتح العراق والشام « أن يأذنوا لمن شاء بالرجوع ، ولا يستفتحوا بمتكاره ، وأن يستنفروا من قاتل أهل الرِدّة ، ومن ثبت على الإسلام بعد الرسول[٧٢] » . وكان يهدف من ذلك إلى حرمان المرتدين من المغانم والأنفال ، وقد أفاد سلاحه هذا معهم، فإن الناس تسابقوا فى الخروج إلى الشام بعد وقعة « اليرموك » ، لما رأوا المغانم التى حصّلها إخوانهم من دولة الروم التى كانوا يهابون قتالها[٧٣] .

٢ — التجنيد بعد وضع الديوان فى عهد عمر :

تسلم « عمر بن الخطاب » زمام الخلافة ، وجيوش المسلمين، تطوى أملاك الفرس ، وتجوس خلال الشام ، ووجد نفسه مقبلا على عمل ضخم ، هو مواجهة الدولة الفارسية والدولة البيزنطية اللتين تنبهتا إلى خطر المسلمين ، فاتخذتا العُدة للقضاء عليهم أو ردّهم عن بلادهم ، فكان بحاجة إلى جند كثيف يواجه هذه القوات ، ثم هو لا يطمئن إلى القبائل المرتدّة ، فليجعل عماده على الأنصار والمهاجرين ؛

(٧٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤ ، ٢٩ وعبقرية خالد ص ١٦ .

(٧٣) فتوح الشام للواقدى ج ١ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

ومن أسلم من القبائل بعد الفتح ، ومن انضم إليهم من غير المرتدّين ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا أول أمرهم يهابون الفرس والروم ؛ لأنهما الدولتان القويتان فى العالم آنئذ ، وليس فى قدرة الخليفة أن يلزمهم الخروج إلى وجه يستثقلونه ، فقد ظلّ بعد وفاة « أبى بكر » يندب الناس للخروج إلى العراق مع « المثنى بن حارثة » ثلاثة أيام فلم يجبه أحد ؛ لخوفهم من قوة الفرس التى قهرت الروم أمامهم ، وهنا رأيناه يترك الإلزام والشدة إلى التذكير بجدب البلاد العربية ، والإغراء بالنوء حيث يقول[٧٤] : «إن الحجاز ليست لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك » .

وقد سلك « المثنى » طريق الترغيب أيضا كما سلكه « عمر » فإنه لما لمس تقاعس الناس خشية الفرس ، قام يهوّن لهم أمرهم ، ويحرّك فيهم الرغبة فى المال فقال : « أيها الناس : لا يعظُمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها[٧٥] » . ثم أخذ الخليفة يخطبهم ، ويذكّرهم بنعيم الله ووعده لهم فى قوله : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون ؛» فاستجاب إلى دعوته فى اليوم الرابع « أبو عبيد بن مسعود الثقفى » فكان أولَ متطوع فولاه « عمر » قيادة القوات ، ثم تلاحق به الناس بعد ذلك تباعا ، وساروا معه إلى العراق .

تعلم « عمر » من هذا الدرس الذى صادفه أول خلافته ، أن التجنيد بحاجة إلى شئ من الحزم والتنظيم ؛ ولذا رأيناه يشتد فى ذلك ، لما علم باجتماع الفرس على «يزدجرد» واستعدادهم للقاء المسلمين ، فأرسل كتبه للأقاليم فيها شئ من الشدة فيقول : « ولا تدعوا فى ربيعة ولا مضر ولا حلفائها أحدا من أهل النجدة ولا فارسا إلا اجلبتموه ، فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه[٧٦] » . وتجرى بعض روايات الطبرى بأنه كتب لقواده : « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ ، والعجل العجل » . فنحن نراه هنا يستعجل الولاة أن يرسلوا أهل

---

(٧٤) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ والفاروق عمر لهيكل الطبعة الأولى ص ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٧٥) نفس المرجع جـ ٤ ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٧٦) نفس المصدر جـ ٤ ص ٨٢ .

النجدة فإن أطاعوا وإلا ألزموهم ، وكذلك فعل فى جمع الجند الذين أرسلهم إلى « سعد » قبل « القادسية »(٧٧) ، فنحن نراه هنا يمزج أوامره بالشدة ، ويدقق فى جمع المقاتلين .

ثم صار بعد ذلك يُضفى على كتبه صيغة الأوامر التى يجب تنفيذها ، فرأيناه يكتب إلى الأمصار بجمع أعداد معينة ، ويؤمر عليهم قائدا بذاته ، ويوجههم إلى مكان يسميه لهم وهو بالمدينة ، ويدير دفة القيادة العليا من مقر الخلافة بالرسل والأوامر(٧٨) ، ولكن هذا الإلزام لم يكن عاما فى عهده ، فإن بعض القبائل كان سلطان المال عليها نافذا ، فكان « عمر » يشبع فيها تلك الرغبة ، فقد جاءه « جرير البَجلى » فى قبيلته « بَجيلة » يريد الخروج ليقاتل الروم بالشام ، وعمر يطلب منه الخروج للعراق ، فتحاورا طويلا ، ثم قبل جرير طلب الخليفة ، بشرط أن يجعل لهم ربع الخمس مما أفاء الله عليهم فى غزاتهم هذه ، فقبل « عمر » شرطه ونفَّذه(٧٩) ، علما منه بأن إغراء المغانم شئ طبيعى فى نفس البدوىّ ، كما علم ذلك فيها « خالد بن الوليد » فاستغله أحسن استغلال ، وحرّضهم بسببه على القتال فى قولته المشهورة : « ألا ترون إلى الطعام كرفْغ التراب(٨٠) ؟ » التى أطمعهم بها فى ريف العراق ، وذكرهم بالجوع والإقلال الذى هم فيه .

وأغلب الظن أن الخليفة فكر وأطال التفكير ، فى تثاقل الناس عن الجهاد فعلم أن ذلك لاشتغالهم بكسب المال وتدبير سبل المعاش ، ثم إنه رأى الأموال تأتيه تباعا من أخماس المغانم ، ومن الجزية والخراج شرقا وغربا ، وهى من الكثرة بحيث كانت توضع أكواما فى مسجد الرسول ، وينام حولها الحراس حتى يأتى ويقسمها ، فلِمَ لا يضمن للناس عيشة راضية من هذه الأموال ، ثم يلزمهم بعد ذلك الجهاد عند الحاجة ؟

وضع « عمر » الديوان بعد أن مضى من خلافته عامان ، لمس فيهما عيوب

---

(٧٧) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٧٨) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٣٩ .

(٨٩) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٧٠ ، ٧٧ .

(٨٠) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٩ .

التطوع والانتداب ، والديوان كما عرّفه « ابن خلدون[٨١] » هو القيام على أعمال الجبايات ، وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج ، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم ، وصرف أعطياتهم فى إبّانها ، والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يرتبها قوَمة تلك الأعمال ، وقهارمة الدولة » .

وسواء أكان « عمر » فى هذا مقلدا الفرس أم مقلدا الروم ، فإنه نظم الديوان وأراد أن يضمن للمسلمين رزقهم ورزق عيالهم سنويا ؛ ليخفوا للجهاد إذا طُلبوا إليه ، غير حاملين أعباء من وراءهم ، فكتب أسماء المسلمين جميعا فى دفاتر ، ورتب لهم فيها أرزاقهم السنوية ، وجعلهم مرتبين حسب قرابتهم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) والسبق فى الإسلام ، والبلاء فى الجهاد ، وجعل الأرزاق السنوية تتراوح بين خمسة آلاف درهم وألف درهم[٨٢] ، وأفرد للجند دفاتر خاصة ، تسمى (ديوان الجند) يدوّن فيها اسم الجندى مع نسبه وقبيلته ، وبيان قدّه ولونه وملامحه ، وسائر ما يتميز به عن غيره ؛ لئلا تتفق الأسماء وليسهل استدعاؤه[٨٣] ، فكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه ، وراتب لأهله وولده ، فى أوقات معينة من كل عام[٨٤] وما دام المسلم قد ضمن عطاءه وعطاء أهله ، فقد لزمه الجهاد إذا دعى إليه واستوفى شروطه ، وليس هذا بمستغرب على عمر ، فقد كان يصنع نفس الصنيع بإبل الزكاة بعد جمعها ، فيدوّنها فى دفاتر خاصة بألوانها وصفاتها وأسنانها[٨٥] .

ومن هنا نعلم أن التجنيد الإلزامى بدأ بوضع « عمر للديوان » لا فى عهد « عبد الملك بن مروان » كما يقرر الأستاذ « جرجى زيدان[٨٦] » مستدلا بشدة الحجاج على أهل الكوفة ، فى الخروج مع « المهلب » لمحاربة الخوارج ، وسيأتى تفصيل ذلك ، مؤيدا بالأدلة التاريخية قريبا .

---

(٨١) المقدمة طبعة المهدى ص ٢٠٤ وحضارة العرب لجوستاف لوبون ص ١٩١ .

(٨٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٢ ، ٦٣ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢١٢ وحضارة العرب لجوستاف لوبون ص ١٦٩ .

(٨٣) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان جـ ١ ص ١٤٢ .

(٨٤) الجندية لثابت ص ٨٦ و ٨٧ .

(٨٥) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٣ .

٣ ــ الجند النظاميون والمتطوعون :

عمد الخليفة « عمر » إلى تنظيم الجيش الإسلامى ، لما كثر الناس واضطرتهم المدنية إلى الاشتغال بغير الجهاد ، فقسمه على الوجه الآتى :

١ ــ الجنود النظاميون ولهم ديوان خاص ، ويصرف لهم عطاؤهم من بيت المال ، فوق أسهمهم من المغانم ، وهؤلاء كانوا موقوفين للجهاد لا يشتغلون بغيره من تجارة أو زراعة أو غيرها ، وإن فعلوا ذلك عوقبوا .

٢ ــ المتطوعون الذين يلحقون بالجيش من البوادى والأمصار ، والبلاد المفتوحة وهؤلاء كانوا يجندون وقت الحرب ويسرّحون وقت السلم ، وحظهم من الجهاد هى سهمانهم فقط ، ولا يمنعهم الخليفة من زراعة الأرض ، أو الاشتغال بأى حرفة أخرى ، وكذلك كان عبيدهم وأتباعهم .

وهذا يفسر لنا تعارض النصوص الواردة فى هذا الموضوع ، فمرّة نرى الخليفة يبيح الزراعة للجند ، وأخرى نراه ينهاهم عنها ، ويعاقب من يشتغل بها[٨٨] ، فقد علمنا أنه كان يحرّمها على النظاميين ، ويبيحها للمتطوعين .

وإذا علمنا أن الذى كان يتخلف عن الغزو زمن « عمر » كان يناله العقاب ، علمنا أن التجنيد فى عهده كان إلزاميا ، فقد روى « ابن الأثير »[٨٩] عن الشعبى قوله : « كان الرجل إذا أخلّ بوجهه الذى يكتب له زمن « عمر وعثمان وعلى » نُزعت عمامته ، ويُقام فى الناس ويُشهّر أمره » . وهذا العمل عند الحر الكريم عقاب صارم ، ورادع قوى ، دونه السجن والإيذاء .

سار التجنيد والتنظيم زمن « عثمان » فى الطريق الذى رسمه له « عمر » ، فلم يطرأ عليه تغير يذكر ، بل لا يكاد المرء يجد تغيرا فيه ، نظرا لتقدم سن الخليفة ، وميله إلى النعيم بطبعه ، وانشغاله بالفتن الأهلية التى عمت فى السنوات الست الأخيرة من

---

(٨٦) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٤٢ ومواضع أخرى .

(٨٨) انظر أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ص ٣١٦ ، ١٧ ، وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٣٣ .

(٨٩) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٥٨ ، وليس المقصود بالإلزام ضريبة الدم ، التى يقدمها كل وطنى ، وإنما هو وجوب التلبية على المرء ، إذا دعى للجهاد أو كلف بعض الواجبات الحربية .

حكمه ، أما فون كريمر فقد علل ذلك بأن مدة حكمه كانت قصيرة جدا[٩١] ، والواقع أنها زادت عن مدة سيدنا عمر ، إذ بلغت ثلاثة عشر عاما تقريبا ، فكيف تكون قصيرة جدا ؟

ظلت الفتوح بعد عمر مدفوعة بدفعته ، وظل الديوان خاضعا لنظامه . . فإذا أراد القائد الخروج للقتال أحضر دفاتر « الديوان » ، فاختار منها المعروفين بالنجدة ، أو أقرع بينهم فيصيرون ملزمين بالخروج معه ، ولا محل لاختيارهم ، يفهم هذا من قول « عثمان » رضى الله عنه « لمعاوية » لما أذن له فى الغزو بحرا بعد إلحاح منه : « لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه وكان يعاقب فى زمن عثمان من يخل بوجهه ، كما كان الأمر زمن « عمر » وظل التجنيد إلزاميا على المرتزقة ، إلى أن أصيب بنكبة الحروب الأهلية بين « على ومعاوية » ، وكانت فتنة عمياء التبس فيها الحق بالباطل ، وكان الجند كذلك قد استنفدوا كثيرا من نشاطهم ، فى فتوح فارس والروم ، فقعد كثير من الناس عن هذه الحرب ، وفترت فى الجند روح الجندية ، ولزم الكثير منهم أعمالهم ، غير منحاز إلى أحد الفريقين ، الا عصبية أو رجاء لنفع سياسى ، وكان فى قعود جلة أصحاب الرسول عنها ، أكبر دافع لغيرهم على القعود كذلك ، خائفين قوله تعالى » ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها . . . الآية » .

لقد كانت هذه الحرب الأهلية جرحا داميا ، أصاب قلب الجندية الإسلامية فبها فترت فى الجند الحماسة للقتال ، لعدم إيمانهم بعدالة القضية التى يحاربون فى سبيلها ، ولعدم وضوح مشروعيتها فى نظرهم ، حتى لقد قاسى « على ومعاوية » مصاعبَ جمة فى جمع الجنود فهذا ابن عباس يستنفر أهل البصرة مع « على » فلا ينفر إلا القليل منهم[٩٢] ، مع أنه كان الوالىَ عليها ، ولما بلغ عليا مقتل « محمد بن أبى بكر » بمصر خطب الناس وحضهم على الخروج لأعدائهم من الشاميين والمصريين ، فلم يخرج معه أحد[٩٣] ، وتكرر منهم ذلك حتى تأفف منهم ، وسئم

(٩٠) الشرق فى حكم الخلفاء ص ٣٠٤ .

(٩١) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٥٢ .

(٩٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٤٧ .

(٩٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة دار الكتب ج ١ ص ١١١ .

عتابهم ، وملّ حسابهم ، كما تنطق به خطبه فى نهج البلاغة .

وكذلك كانت الحال فى معسكر معاوية ، إلا أنه استغلّ بسياسته حب المال فى النفوس ، فبذله مسترضيا به أنصاره ، مستميلا به أعداءه ، وقرّب إليه زعماءهم يحقق لهم الرغبات ، ويمنيهم بالولايات[٩٤] ، وشجع العصبية القبلية فجعل الحرب بينه وبين « على » حربا إقليمية بين عرب الشام وعرب العراق ، وأفاض الأموال على عرب الجنوب ، الذين أخذوا على عاتقهم أن يجمعوا له ألفى فارس ، بشرط أن يدفع لكل منهم ألفى درهم سنويا ، وأن يكون لشيخهم حق إدارة شئونهم « وعلى أن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس ، وكل ما كان من حلّ وعقد فعن رأى منهم ومشورة[٩٥] » ومضى العمل بهذه الشروط فى عهد « يزيد بن معاوية » ورضى بها « مروان الأول » عند ولايته ، مما يشعر بأن التجنيد أصبح اختياريا ، بل إنه كان فى هذه الفترة يُشترى بالمال .

٤ — التجنيد فى الدولة الأموية :

فقد التجنيد عنصر الإلزام أو كاد بهذه النكسة التى سببتها الحروب الأهلية ، وصار المال أداة التجنيد فى الدولة الأموية ، وارتفع صوت الذهب فوق كل صوت ، فكان الخليفة تكثر أجناده أو تقل ، تبعا لكثرة المال فى خزائنه أو قلته ، وكذلك كانت الحال عند العلويين وعند الزبيريين ، وكذلك عند الخوارج[٩٦] ، واختل نظام التجنيد ، وأصبح يندمج فى المقاتلة من يرجو كسر الخراج ، ومن يرجو السلب من اللصوص[٩٧] ، وصار الخلفاء يسترضون الجند بصرف الأموال لهم مقدما[٩٨] ، وعزل من يطلبون عزله من الولاة ، فقد عزل « عبدُ الله بن الزبير » عن البصرة أخاه « مصعبا » لشكوى الجند منه ، إبقاء على مودّتهم[٩٩] وولائهم له .

---

(٩٤) تاريخ جـ ٥ ص ٢٢٨ الطبرى .

(٩٥) المسعودى . مروج الذهب طبعة المطبعة التجارية جـ ٣ ص ٩٥ . والشرق فى حكم الخلفاء « كريمر » ترجمة خودا بخش للإنجليزية ص ٣١٧ ، ١٨ .

(٩٦) الكامل للمبرد طبعة مصطفى محمد جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٩٧) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٥٩ .

(٩٨) نفس المرجع جـ ٤ ص ٤٨ .

(٩٩) الأغانى طبعة الساسى جـ ١٤ ص ١٦٣ والشرق فى حكم الخلفاء ص ٣١٩ . قارنه بما ورد فى الكامل جـ ٥ ص ٢٩ ، ٣٠ والأغانى جـ ١٥ ص ١٨ .

ولم تقف روح التهرب من الجندية عند حد ، نظرا لكثرة الأحزاب السياسية فسرت عدواها إلى الأمصار حتى إلى « البصرة والكوفة » وهما المعسكران اللذان كانا مصدر المدد الحربى للمسلمين ، ومنهما اتجهت الجيوش شرقا حتى اقتحمت على الفرس عاصمتهم ، ووطدت قدم الإسلام فيما وراء النهر إلى حدود الصين ، حتى بلغ عدد الجند فى « خراسان » وحدها أيام « قتيبة بن مسلم » سبعة وأربعين ألفا كما فى رواية « ابن الأثير [١٠٠] » ، عدا ما كان فى غيرها من المقاطعات الفارسية .

نسى أهل المصرين تلك الأيام ، التى كانت تدفعهم فيها الرغبة فى الجهاد ، فلما توافرت لديهم أسباب الثراء ، وألفوا الدعة فى ظلال القصور ، ثقلت عليهم الجندية ، ونمت فيهم الرغبة فى التهرب منها ، مما جعل الحاكم الحازم « عبد الملك بن مروان » يؤلف جماعة سماها « الساقة » واستعمل عليهم « الحجاج بن يوسف » ومهمتهم أن يحشدوا الناس على أثره، خشية أن يقيموا[١٠١] إذا ظعن ، فأحرقوا خيام المتخلفين فى بعض أسفار عبد الملك ، ومنهم بعض خاصته .

ولقد بلغ من تقاعسهم عن الجهاد ، أنهم لم يحملوا السلاح فى وجه الخوارج ، دفاعا عن ديارهم المهددة بهم ، فكان «بشر بن مروان» أيام ولايته على البصرة يلزمهم الخروج للدفاع ، وكان يعاقب المتخلف بصلبه على حائط ودق المسامير فى أطرافه[١٠٢] ، فلما مات تفرق ناس كثيرون عن « المهلب » ، وتسللوا عائدين إلى بيوتهم ليلا ، فلما ولى « الحجاج » الكوفة عام ٧٥ هـ ، ٦٩٥ م ألزم الناس الخروج لحرب الأزارقة بيد من حديد ، واستمهلهم ثلاثة أيام ، وتوعد الخالف منهم بضرب عنقه ، وأنفذ وعيده فعلا بقتل واحد منهم أخاف به العراق كله[١٠٣] ، فخفّ الناس للخروج سراعا ، وكثروا حتى ازدحموا على الجسر ، وسقط بعضهم فى الفرات ،

---

(١٠٠) الكامل جـ ٥ ص ٦ .

(١٠١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٢٢٤ .

(١٠٢) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٥٨ .

(١٠٣) مروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص ص ١٣٨ ، ٣٩ ، وفيها أن شيخاً فانيا أتى الحجاج ليأخذ ولده مكانه ، فلما علم أنه أحد قتلة عثمان ، قال له : تقتل عثمان بنفسك ، وتأتى للخوارج بالبدلاء ؟ ! ثم قتله إرهاباً لغيره .

فأمر صاحب الجسر بأن يعقد لهم جسرا آخر ، ليسهل مرورهم جميعا ، وانطلق الناس إلى « المهلب » على أن يُحضر « العرفاء » كتبا موقعة منه ، تفيد حضور الناس الذين فى عرافاتهم ، وبذلك تبرأ ذمتهم عند « الحجاج » الذى عُرف بالقسوة فى العقاب ، فكان العريف لا يهدأ حتى يسلِّم الناس الذين فى عرافته ، ويوقع له المهلب بالاستلام .

ولعل موقف « الحجاج » هذا من التجنيد هو الذى جعل الأستاذ « زيدان » يقرر أن التجنيد الإجبارى بدأ فى أواسط الدولة الأموية ، وفى خلافة « عبد الملك بن مروان » بالذات .

وقد استبان لنا أول هذا القسم ، أن إلزامية التجنيد بدأت فى عهد الخليفة المبتكر « عمر بن الخطاب » وما صنع « الحجاج » شيئا أكثر من الشدة فى تنفيذ ذلك النظام العمرى ، بعد أن أهمل تنفيذه أو كاد ، وإلا فقد صنع ما يقرب من صنعه ناس من قبله ، ولم ينسب أحد الإلزام إليهم ، وكانوا أولى بهذه النسبة منه ، فقد كان « مصعب ابن الزبير » بالعراق « يعاقب المتخلف الملزَم بعقاب « عمر وعثمان » فينزع عمامته ، ويشهِّر به فى الناس ، وزاد على ذلك حلقَ رأسه ولحيته ، فلما ولى « بشر بن مروان » صار يصلبه كما مر آنفا ، فلما ولى « الحجاج » قال : « هذا لعب . اضرب عنق من يخلّ بمكانه من الثغر(١٠٤) » .

على أن « الحجاج » ما ذهب للعراق للتجنيد العادى ، ولكنه ذهب لإعلان التعبئة العامة كما فى الاصطلاح الحديث ، فإن هجوم الخوارج على العراق كان يتطلب الحشد العام ، ومثلهم فى ذلك مثل النار المشتعلة التى إن تركت أكلت ما فى طريقها ، فيجب لإخمادها أن تتضافر كل القوى الممكنة على العمل جنبا إلى جنب لكفاحهما ؛ ولذا رأينا « الحجاج » يقول لهم : « سيروا بأجمعكم كافة ، فانصرف الناس يتجهزون(١٠٥) » . لأن الظروف قاسية ، والخطر داهم لأهل العراق بالذات ، وإن لم يدفعه عنه أهله فمن الذى يدفع ؟ فما كان « الحجاج » إلا عاملا على تنفيذ قانون أهمل ، ومكلفا من الخليفة بعقاب المخالفين ، فقام بذلك خير قيام ، غير مبالٍ

---

(١٠٤) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٥٨ ، والمراد بالثغور المواقع التى على حدود الأعداء .
(١٠٥) نفس المصدر ص ١٧٤ .

ما أريق فى سبيله من دماء ، وما نزل بالناس من مظالم ، وكلنا يعرف أن التجنيد الإلزامى ، ليس فيه « سيرو بأجمعكم كافة » وإنما يقال ذلك عند الحشد العام ، للدفاع عن الوطن المهدد ، ولا يقال فى التجنيد المعتاد .

٥ — التجنيد فى الدولة العباسية :

أما التجنيد فى الدولة العباسية فقد كان خاضعا للمال ؛ حيث صارت الجندية مهنه « مُرْبحة ، وكان الجند يترقبون المرتبات ، فإن سُلمت لهم فى أبانها وإلا شَغبوا على مَن أخرها ، وربما قتلوه ، كما كانوا لجشعهم ينتهزون أدنى المناسبات للمطالبة بالمال ، والشطط فى ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدما أو أكثر(١٠٦) ، فلما كثر المال فى أيديهم شاع الترف ، وشيوع الترف مفسدة للجند ، وقتل لروح الجندية ، فألف كثير من الناس اتخاذ المخاصر بدل السيوف ، وخضاب الأكف بالحناء بدل الدماء(١٠٧) ، وزالت تقريبا عن العباسيين الصبغة العربية الخالصة ، فضعف فى النفوس الشعور القومى ، والشعور الوطنى ، فتهرب الناس من الجندية ، ولم يجدوا من يلزمهم بها .

وقد عرف الخلفاء أنهم لن يخضعوا الجند إلا بالمال ، فأشبعوا فيهم تلك الرغبة ، وشجعوا القادة على جمع المال ، بأن كانوا يسندون إليهم جمعَ الخراج فى الأقاليم التى يغلبون عليها ، فكانت النتيجة عكسية ؛ لأنهم شغلوا بأمر المال عن أمر الجند والحرب ، ولذا عاب هذا النظام « ابن المقفع(١٠٨) » فى رسالته إلى « أبى جعفر المنصور » فقال له فيها : « إن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » مع أنه رجل فارسى يحب النفع لقومه ، ولكنه كان يرجو إصلاح الجند بوجه عام ، وإذا شاع هذا الفساد فى أيام المنصور ، فما ظنك به بعد ذلك .

ولا أدل على فساد نظام الجند بسبب المال ، من أن الخليفة الأمين » طلب إلى بعض قواده الخروج لملاقاة قائد أخيه « المأمون » فى الحرب التى كانت بينهما

---

(١٠٦) الكامل جـ ٥ . ص ٣١ .

(١٠٧) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ١ ص ٢٩٩ طبعة دار الكتب (والمخاصر العصى القصيرة) .

(١٠٨) الرسالة بطولها فى ضحى الإسلام الطبعة الثانية للأستاذ أحمد أمين جـ ١ ص ٢٠٦ وما بعدها إلى ٢١٠ ، والجندية لثابت ص ص ١٠٨ ، ٩ ، ١٠ .

فاشترط هذا عليه قبل الخروج شروطا قاسية متطرفة ، منها أن يأمر لأصحابه برزق سنة مقدّما ، وتُحمل معهم أرزاق سنة أخرى ، ويزاد أهل البلاء ، وأن يبدّل من فيهم من الضعفاء ، وأن يكون فيهم ألف فارس ، وفى النهاية اشترط ألا يسأله الخليفة عن حساب ما فتحه من المدن والأقاليم[١٠٩] ، وهذا تعسف ما بعده تعسف ولكن الغريب أن الأمين قبل شروطه .

ولعل الإنسان بعد هذا يزايله العجب ، إذا علم أن السبب فى هذا الفساد هى الحروب الأهلية بين الأخوين « الأمين والمأمون » « فهى التى أضعفت روح الجندية ، وجعلت الجنود يبيعون دماءهم بأثمان باهظة ، لمن يقدر على دفعها ، وينحازون إلى صف من يكثّر لهم العطاء ؛ وبذا فسدت أخلاقهم ، وضعفت فيهم الروح الوطنية ، وانهار النظام الذى وضعه « الفاروق عمر » ولم يبق منه إلا شكل الديوان ، تدوّن فيه الأسماء لأخذ العطاء ، إلى أن أبطل فعلا فى عهد « المعتصم » الذى أمر بحذف أسماء العرب من الديوان ، ووقف رواتبهم ، لعدم خضوعهم لنظام التجنيد ، وأحل محلهم أخواله الأتراك والفراغنة ، الذين جعلهم حراسه الأمناء ، ومستشاريه الأوفياء ، فتم على أيديهم تقويض البناء العباسى ، بتدخلهم فى شئون الحكم ، ووضْع يدهم على السلطة كلها ، حتى صار لهم أخيرا عزل الخليفة وتولية غيره ، كلما أرادوا ذلك .

القسم الثالث

الجيش الإسلامى الدائم وتنظيمه

يعالج هذا القسم نقطة « الجيش الإسلامى الثابت » لبيان وجه الحق فيها ، وتوضيح ما إذا كان لهم جيش مستعد للجهاد ، أو كان يجمع عند الحرب ثم يتفرق ، كما يعالج التقسيمات الثابتة للوحدات والكتائب ، ومقارنة ذلك بنظيره عند الفرس والروم ، وأخيرا يعالج الوحدات المدنية التى تلحق بالجيش ، كطوائف المهندسين والعمال ، والأطباء والممرضات والقراء والقصاص ؛ لبيان مهمة كل طائفة منها .

---

(١٠٩) ابن الأثير : الكامل جـ ص ٩١ قارنه بما ورد فى ص ٩٧ ، ١٠٩ .

١ – الجيش الدائم وحرس الخلفاء :

لقد تعرّض لبحث هذه النقطة دكتور « أومان » عند حديثه عن العرب فزعم أنهم « لم يتمكنوا من تجنيد جيش ثابت مُعدّ للجهاد ، ولم يعرفوا مزايا التدريبات والتنظيمات العسكرية ، وإنما كان حرس الخلفاء هو الجيش المعد للجهاد ، وباقى الجيش كان يتألف من أخلاط أخرى تبغى الجهاد لأجل المغانم ، أو من جنود الأقاليم والأمصار[١] » . وقد تعرض لها أيضا المؤرخ « جوستاف لوبون[٢] » عندما قال : « والخليفة كملوك ذلك العصر لم يكن صاحب جيش دائم ، وكانت تقوم بالمحافظة عليه كتيبة قليلة من الحراس ، وإن كان يستطيع أن يجند كل شخص قادر على حمل السلاح من رعاياه » .

أما حرس الخلفاء فلم نسمع به إلا فى عهد « معاوية بن أبى سفيان » فهو أول من اتخذ الحرس بعد المؤامرة التى دبرت لاغتياله ، ثم اتخذه بعد ذلك خلفاء الدولتين ، وتوسعوا فيه كثيرا ، وكانوا يعدونه بعض الجيش ، ولكنه المكلف بإخماد الثورات ضد الخليفة ، لأنه يمتاز بالإخلاص له .

وأما الأمر الذى يصعب تصوره ، فهو وجود دولة واسعة الأملاك بدون جيش ثابت يحميها ، ويقمع الثورات فى البلاد المفتوحة ، وقد استبان من القسم الثانى أن « الخليفة عمر » أول من وضع نظام التجنيد الإجبارى ، ونظمه تنظيما دقيقا ، وجعل للجند النظاميين مرتبات ثابتة ، ونظم خروجهم للحروب وعودتهم منها للراحة ، أما المتطوعون فهم الذين كانوا يخرجون للقتال جهادا فى سبيل الله ، أو طلبا للمغنم ، ثم يتفرقون إلى بلادهم إذا حل الشتاء ، ولعل هؤلاء هم الذين يعنيهم المؤرخان « لوبون وأومان » ولا أدرى لماذا سكتا عن الجند النظامى ؟ مع أنهما يعترفان – كما يعترف معظم الباحثين – بأن العرب اعتادوا أن يقيموا فى البلاد التى يفتحونها مراكز حربية ثابتة ، فى التخوم المهمة التى تجب حمايتها ، وأهم من وضحوا ذلك هو « دكتور كريمر » فى كتابه « الشرق فى حكم الخلفاء[٣] » فقد ذكر أن العرب كانوا يقيمون

---

(١) A History of the Art of War. p. 209.

(٢) حضارة العرب تعريب « زعيتر » ص ٢٩٥ .

(٣) ترجمة للإنجليزية « خودا بخش » ص‌ص ٣٠٦ وما بعدها إلى ٣١٣ .

فى هذه المراكز عددا كبيرا من الفاتحين ، ومعهم أُسرهم؛ يصرف لهم بها عطاؤهم السنوى ، ويتوارثون الرباط بها ، وذكر أن « الخليفة عمر » أقام فى الشام أربعة مراكز حربية ، وأنه أقام فى « مصر » مركز الفسطاط وزود « الإسكندرية » بحامية قوية ، كثيرا ما كان يُستبدل بها غيرها ، بين الوقت والوقت .

على أنه كان هناك مركزان آخران ، أهم مما تقدم ، وهما « البصرة والكوفة » وهما المعسكران اللذان فتحا بلاد الفرس بقواتهما ، فلمَ أقيمت هذه المعسكرات إذن ؟ هل أقيمت عبثا بلا هدف حربى يرجى منها ؟ !

إنها أقيمت فى مواقع استراتيجية مهمة ، على أبواب الطرق المؤدية للبلاد المفتوحة ، لتكون مقرا للقوات المحاربة الثابتة ، التى يتألف من مجموعها الجيش الإسلامى ، يراقبهم الخليفة ويبث فيهم عيونه فيأتونه بأخبارهم ، وكان يشترط فى هذه المعسكرات ألا تُفصل عنه بالمياه ؛ ليتمكن من زيارتها أنى شاء ، وليرى مدى استعدادها لمواجهة الأعداء ، وتحكُّمها فى الطرق المؤدية لداخل البلاد .

هذا وقد روى « ابن جرير[٤] » أن « عمر » كان قد اتخذ فى كل مصر على قدره خيولا ، من فضول أموال المسلمين ، وعُدة لكون إن كان ، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فارس ، وكان فى كل مصر من الأمصار الثمانية كما بالكوفة ، وذكر الغرض من هذه القوات ، وهو أنه كان على كل خيل قَيم (قائد) يتقدم لنجدة المسلمين بها ، إذا نابتهم نائبة ، إلى أن يستعد الناس ويلحقوا بهم ، ثم تتوالى الإمدادات بعدهم .

وإذا كانت المعسكرات الحربية فى عهد « عمر » ثمانية عند « الطبرى » وكان بكل معسكر أربعة آلاف فارس معدين للطوارئ ، استطعنا أن نقدّر قوة الخيالة المرابطة باثنين وثلاثين ألفا ، عدا المشاة والمتطوعة ، وهى قوه ضخمة يصح أن تسمى جيشا ثابتا معدا للدفاع ، ولذا حرّم عليهم الخليفة الاشتغال بالزراعة عن الجهاد .

ثم إن هذه القوات كانت تقوم بتمريناتها الدائمة ، عن طريق المسابقة والتناضل

---

(٤) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٩٦ وتواليها .

بالسهام والقيام بالصوائف والشواتى[٥] وقد خصص الخليفة لتلك الخيول « حمىً[٦] » فى كل مصر، موقوفا لرعيها وتمريناتها، لا يتخطاه أحد من الجند، إلا المشرفون عليها .

وكان القواد يسلحون جندهم فى هذه المعسكرات ، ويقومون بعرضهم فى فترات متباعدة، فمن رأوا منه تقصيرا فى سلاحه ، أو إهمالا لفرسه ، أنقصوا من عطائه عقابا له[٧] ، فإذا تجاوزنا هؤلاء الفرسان، وجدنا أنه كان يقيم بالكوفة عشرون ألفا من عرب الجنوب والشمال ، إلى جانب بضعة آلاف من الفرس الذين هزموا فى القادسية وأسلموا ، فأدرجت أسماؤهم فى الديوان ، وكان « عمر » يرسل إليهم أرزاقهم سنويا[٨] ، فزاد عدد الجند بهم .

ولقد كان الفاروق « عمر » يريد بهذه المعسكرات — فوق ما تقدم من نجدة المسلمين وإعانتهم — أن يحافظ على نقاء الجندى العربى[٩] بحفظه بعيدا عن جند الفرس والروم ومدنهم ، حتى لا تفسد أخلاق العرب وتسوء سمعتهم ، ولذا كان يبيح لهم استصحاب نسائهم ؛ ليعصموا بها عن الدنو من قرى أهل الذمة ، وكان يعاقب من يدنو منها بلا إذن، أو يرزأ بعض أهلها بعض متاعه بيعا أو شراء ، كما كان يهدف إلى المحافظة على صحة الجند ، خشية تفشى الأمراض[١٠] فيهم نتيجة الترف ، لأنه كان يعتقد أن العربى لا يَصلح إلا حيث يصلح جمله ، فى الجو الصحراوى النقى ، الذى لم تفسده مظاهر المدنية والتحضر .

أفيحق بعد هذا كله أن ننكر أنه كان لدى المسلمين جيش ثابت ؟ وإذا كان تفريق هذا الجيش على المعسكرات ينفى عنه صفته ، فلنا أن ننكر وجود جيش ثابت للدولة البيزنطية ، لأنها كانت تفرقه على حصونها العدة « كالمصيصة وطرسوس وأدنة وحمص ودمشق ومصر » وغيرها من المدن ، وحُق لنا أيضا أن ننكر وجود جيش ثابت للدولة البريطانية ، لأنها تفرقه على أنحاء العالم، ولا يوجد فى جزُرُها

(٥) الحملات التى يقوم بها الجيش صيفاً أو شتاء وكانت تسمى زمن (عمر) المدارب جمع مدربة .

(٦) انظر الجندية لثابت ص ٢٥ نقلا عن « خلاصة الوفاء للسمهورى » .

(٧) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٣٠ ، ١٨٢ .

(٨) Orient under the Caliphs. p. 309.

(٩) تاريخ العرب (حتى) — (نافع) الطبعة الثانية جـ ١ ص ٧٥ والجندية لثابت ص ٢٨ ، ٢٩

(١٠) العقد الفريد جـ ١ ص ١٥٤ ، والجندية لثابت ص ٢٧ .

منه إلا القليل ، فهذه الجيوش تشبه الجيش العربى تماما، أيام أن كان منتشرا فى البلاد المفتوحة .

ولقد أظهرت الأيام والحوادث صدق نظر الفاروق فى اختيار هذه المواقع لجنده ، فمنها كان يرسل القوات الإسلامية إلى بلاد الفرس ، وينظم حركاتها وهو مقيم بالمدينة[١١] ، وقد أثنى على أهل الكوفة خيرا ، لحماية حوزتهم وإمداد غيرهم من الأمصار[١٢] ، وقد ظلت هى و «البصرة» حتى نهاية العهد الأموى أهم مصادر المدد الحربى ، للإمبراطورية الإسلامية ، فنهما كانت تتألف معظم قوات « خراسان » أيام الخليفة « سليمان بن عبد الملك » و « هشام ابن عبد الملك[١٣] » ومن بعدهما .

وإذا لم يكن للمسلمين جيش دائم فلم كان التجنيد إذن ؟ ولم كانت تدوّن أسماء الجند فى الديوان ، وتصرف لهم المرتبات الشهرية ؟ وماذا نسمى القوات التى أسست هذه الإمبراطورية الضخمة ، وتغلبت على جيوش الدولتين الفارسية والبيزنطية ؟ ! الحق أنهم كانوا يحتفظون بالجيش الدائم ، ويراقبون تمريناته ويستعرضون قواته ، ولا يعنى عدم وجوده ، أنه كان يوزّع على الأقاليم والثغور للرباط بها والمحافظة عليها ، فقد كان لدى الخليفة « المنصور » من الجند ١٢٠ ألفا مفرقين فى الأقاليم ، حتى لقد ندم يوما على ذلك[١٤] لما ثار عليه بعض الناس ، وفى عسكره الخاص ألف جندى فقط ، وهى قوة لا تكفى لصد أى هجوم مفاجئ ، فأدرك غلطته ، وعزم على ألا يعود لمثلها ، وكذا كان جيش «المأمون» بالعراق يتألف من ١٢٥ ألفا[١٥] ، له وحداته وقواده ، مفرقين على المدن والأقاليم المختلفة .

ب — النظام الدائم لكتائب الجيش :

الجيوش فى كل دولة لا يستقيم أمرها ، ولا تنجح فى تحقيق أهدافها ، إلا بدقة تنظيمها ، وتقسيمها إلى وحدات صغرى يسهل الإشراف عليها ، فوحدات تليها

---

(١١) فتوح البلدان للبلاذرى طبعة أوربا ص ٣٠٢ .

(١٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٩٦ .

(١٣) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٦٧ ، ١٢٥ .

(١٤) نفس المرجع ص ص ٢٢٨ ، ٢٩ .

(١٥) Orient under the Caliphs. p. 336.

فى الكبر وهكذا، حتى يتم تأليف الجيش بقائده الأعلى، الذى يهيمن على من تحته من القواد الصغار ، الذين يشرفون بدورهم على الجنود ، كما نرى فى جيشنا الحديث مثلا : فإنه يتألف من ألوية ، وتُقسم الألوية إلى كتائب ، وتقسم الكتائب إلى سرايا ، وهذه تقسم إلى فصائل ، وهى تقسم إلى جماعات ، تشتمل كل منها على عشرة أفراد تقريبا ، وسيأتى تفصيل ذلك، عند الموازنة بين النظم الإسلامية وغيرها .

وقد كان الجند فى فجر الإسلام ، هم عامة أصحاب الرسول عليه السلام، وكانوا أول الأمر من القلة ، بحيث يسهل عليه جمعهم عن طريق المنادى كما يسهل عليه خطابهم وتنظيمهم ، ولكنه مع هذا كان محبا للنظام وتسلسل القيادة ، وأول تنظيم عرف عنه ، أنه اختار من أصحابه ليلة « العقبة الثانية اثنى عشر نقيبا »[١٦] ، ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس ، فى نشر دعوته الجديدة، وليكونوا نواة صالحة لجيشه المرتقب .

فلما كثر أصحابه ، واشتبكوا مع المشركين فى عدة معارك ، قسمهم عِرافات وجعل على كل عشرة منهم عريفا ، فقد روى (الطبرى)[١٧] فى حديثه عن القادسية أن سعدا « عرّف العرفاء ، فجعل على كل عشرة عريفا ، كما كانت العرافات أزمان النبى صلى الله عليه وسلم » .

وقد بقى العمل بهذا النظام فى خلافة « أبى بكر » وأوائل خلافة « عمر » حيث كانت القوات توزع على أساس قبائلها ، فلما اتسعت الفتوح ، وتبع ذلك كثرة الأجناد وكثرة الأموال ، وضع « عمر » الديوان ، ورتب العطاء للناس جميعا ، وجعل العرفاء[١٨] أداته فى توزيعه ، فكان العريف فى المدنيين ينوب عن القبيلة ، وفى الجند ينوب عن عشرة ، فلما كثر عدد الناس ، جمع كل عدد من العرافات فى « سُبع » عليه أمير ، وسماهم « أمراء الأسباع » فكان هؤلاء يأخذون العطاء ، فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهله فى دورهم[١٩] .

ويبدو أن هذا النظام وضع أولا للمدنيين ، ثم تعداهم للجيش ، مع بعض

---

(١٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ط ليدين جـ ٢ . ق ١ . ص ١١٢ .

(١٧) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ . ص ص ٨٧ ، ٨٨ .

(١٨) تاريخ الطبرى جـ ٤ . ص ٢٢٧ .

(١٩) الطبرى جـ ٤ ص ١٩٤ .

التعديل ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الموازنة بين النظم ، ولم يلتفت إلى هذا المعنى « جرجى زيدان »[٢٠] عندما ذكر أن عمر جعل العريف على ثلاثين من الجند أو أربعين ، وجعل بعض العرفاء على عشرين حسب طبقاتهم ، ولم يذكر لنا مصدره ، فإن هذا النظام كان فى المدنيين ، أما الجيش فله نظام سيأتى .

حـ — مقارنة التنظيم الإسلامى بالفارسى والبيزنطى :

من المعروف بين الباحثين أن الخليفة عمر بن الخطاب ، أول من نهض بالحكومة الإسلامية ، وأول من وضع لها أسسا قويمة راسخة ، وكان الجيش الإسلامى وتنظيمه ، من أهم الأمور التى اختصت بعناية الخليفة الحصيف ، فإنه لما شرع فى وضع الديوان العام ، أفرد للجند ديوانا خاصا بهم ، يضبط أفرادهم بصفاتهم وبلادهم ، ويلزمهم به الجهاد إذا دعوا إليه ، بعد أن ضمن لهم رزقهم ورزق عيالهم فى طول العام[٢٠] .

وكان النظام الذى سنه عمر ، يقضى بأن يُقيم فى كل مصر من الأمصار الإسلامية ، عدداً من الفرسان بخيولهم ، مرابطين فى سبيل الله ، متأهبين لرد أى عدوان ، أو إخماد أى انتقاض ، وقد روى « الطبرى » أنه كان فى كل مصر ، أربعة آلاف فارس مرابطين[٢١] .

وقد كان لهذه القوات تمرينات يومية (طوابير) ، تزاولها خارج المصر فى ميدان خاص بها يسمى (الحمى) لا يجتازه أحد من الناس ، كما روى « ابن قتيبة » الذى أضاف إلى ذلك ، أن الخليفة (عمر) كان يخرج إلى ذلك الحمى ، ويشرف بنفسه على تلك التمرينات ، وأنه كان يصحب معه بيطريا بصيرا بالخيل وأدوائها ، يسمى (سلمان الخيل) فكان يشرف على بيطرتها ، ويُعنى بأمورها[٢٢] .

وليس من المعقول أن يعيش ذلك العدد الضخم من الفرسان — ومثله الجنود المفرقون فى الأمصار — على غير تنظيم ثابت ، يخضعون له عند الاصطفاف ، وعند الخروج للتمرينات ، وعند الانصراف منها ، وعند التعبئة للقتال ، والاشتراك فى المعارك

---

(٢٠) تاريخ التمدن الإسلامى . جـ ١ . ص ١٤٨ .

(٢٠) انظر ص ٧٧ من هذه الرسالة . فصل التجنيد .

(٢١) الطبرى جـ ٤ . ص ١٩٦ .

(٢٢) عيون الأخبار . ط دار الكتب . جـ ١ . ص ١٥٥ .

سنرى حالا أن تلك القوات كانت منظمة، بحيث يكون الإشراف عليها دقيقا عند دفع الأرزاق ، وعند إبلاغ الأوامر وإدارة المعارك ، التى ثبت فيها نجاح نظامهم .

ولكن يحق لنا — قبل أن نعرض لتاريخ النظم الإسلامية — أن نلقى نظرة على النظامين الفارسى والبيزنطى ، لنعرف أوجه الشبه والخلاف بينهما من ناحية ، وبينهما وبين التنظيم الإسلامى من ناحية أخرى .

أما التنظيم البيزنطى فقد أشار إليه « الدكتور أومان » فى كتابه « تاريخ فن الحرب فى العصور الوسطى[٢٣] » كما نقله بتفصيل الأستاذان « جرجى زيدان » « ونعمان ثابت[٢٤] » وقد ظهر من هذا المراجع أن التنظيم الدائم للجيش الرومى ، كان على الوجه الآتى :

رقم	اسم القائد	الجند الذين يقودهم
١	القائد العام (بطريق)	١٠,٠٠٠ جندى
٢	طورماخان	٥,٠٠٠ »
٣	درانجرى	١٠٠٠ »
٤	القومس	٢٠٠ »
٥	القمطرخ	لم يذكر عدده ويظهر أنه ٥٠
٦	الدمرداخ	١٠ جنود

وأما التنظيم الفارسى فكان قريبا من ذلك التنظيم ، على نحو ما سنرى :

(١) طبقة القواد العظام — ويسمى واحدهم (ميرمران) أى أمير الأمراء .

(٢) تحت كل ميرمران أربعة قواد، يسمى واحدهم (أصفهبذ) أى أمير حاكم .

(٣) تحت كل (أصفهبذ) أربعة ، يسمى واحدهم (مرزُبان)[٢٥] أى حاكم إقليم .

---

(٢٣) أومان . ص ١٩٣ .

(٢٤) الأول فى كتابه : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ . ص ص ١٣١ ، ٣٢ . والثانى فى كتابه : الجندية فى الدولة العباسية ص ١٢٣ . يسميه ثابت (طور بخارى) .

(٢٥) تفسير المصطلحات الفارسية فى الرسالة ، مأخوذ من المعجم الفارسى للدكتور هنداوى . وقد كرر ذكره بالهوامش .

(٤) تحت كل مرزبان أربعة سالاريّه ، يسمى واحدهم (سالار) = رئيس .
(٥) تحت كل سالار عشرة (أساورة) أى فرسان مفردة واحدهم (أسوار) وخمسة من (البيادة) = المشاة ، فيكون المجموع ١٥ جنديا .

هذا ولم تذكر المراجع عدد الجند ، الذين كان يقودهم كل قائد ، كما رأينا فى النظام البيزنطى ، ولكن من المستطاع تقدير الأعداد بطريق الاجتهاد ، فقد لوحظ فى ذلك النظام ، أن المرتبة الدنيا تساوى ربع المرتبة التى فوقها ، فكل أربعة سالارية يقودهم مرزُبان ، وكل أربعة مرازبة يقودهم اصفهبذ وهكذا ، وإذا عرفنا أن السالار كان يقود خمسة عشر فردا . فمن الممكن القول بأن نظامهم كان كالآتى :

رقم	اسم القائد	عدد جنده
١	الشاه أو الوزير	يقود ما يشاء بلا حصر
٢	المير مران (قائد عظيم)	٢٤٠ × ٤ = ٩٦٠ أو ١٠٠٠
٣	الأصفهبذ	٦٠ × ٤ = ٢٤٠
٤	المرزُبان	١٥ × ٤ = ٦٠
٥	السالار	١٠ × ٥ = ١٥

وإذا كان هذا التقدير صوابا ، فإنا نلاحظ فيه قلة الأعداد التى يشرف عليها الضباط ، لأنها أقل من الأعداد البيزنطية ، ويتبع ذلك أن نظام الضبط عند الفارسيين كان أدق ، لضبط القيادة ودقتها ، فكلما صغر العدد سهل الإشراف عليه .

أما التنظيم الإسلامى ، فالرسول عليه السلام أول من بدأه ، وذلك عند اجتماعه سرا بأتباعه ، ليلة (العقبة الثانية) ، فإنه اختار منهم إثنى عشر نقيبا ؛ ليكونوا رسله إلى الناس ، ويبلغوا إليهم تعليماته ، وجعلهم يشرفون على العرفاء ، الذين كان كل منهم يشرف على عشرة من المسلمين ، ويتصل بهم دائما .

ثم مضى العمل بذلك النظام . أيام الخليفة المتبع (أبو بكر) وصدرا من خلافة « عمر » المبتدع ، الذى ابتكر للمسلمين نظما لم يألفوها من قبل ، كان هدفه

منها إصلاح الحكومة الجديدة ، والنهوض بها كمعاصراتها .

يروى لنا « الطبرى » كتابا أرسله « عمر » إلى قائده ، « سعد بن أبى وقاص » قُبيل وقعة « القادسية » يقول له فيه[٢٦] : « إذا جاءك كتابى هذا فعشّر الناس ، وعرّف عليهم ، وأمّر على أجنادهم وعبهم ، ومر رؤساء القوم فليشهدوا ، وقدّرهم وهم شهود ، واجعل على الرايات رجالا من أهل السابقة » .

ويفهم من هذا الكتاب فى ضوء ما مضى ، أن العريف كان على عشرة من الجند ، وأن الأمير كان فوق العريف ، وأن رؤساء القوم هم زعماء القبائل ، وأن أصحاب الرايات ، هم قواد الميمنة والميسرة وغيرهما من أجزاء الجيش ، ولم يرِد فى هذا الكتاب ذكر النقباء .

يضاف إلى ذلك أن القائد الماهر « خالد بن الوليد » لما ذهب لمساعدة إخوانه باليرموك (١٣ هـ) وحّد القيادة بعد مشورتهم ، فلما جُعلت له فى اليوم الأول ، قسم الجيش إلى ٣٦ كردوسا ، فى كل كردوس ألف جندى ، لأن جملة من كانوا معه ٣٦ ألفا[٢٧] ، وصرنا نرى بعد ذلك عبارة (أمراء الكراديس) تتردد فى المراجع المختلفة ، ومما لا شك فيه أنه كانت هناك رتب أخرى بين رتبة (أمير الكردوس) الذى يقود ألفا ، ورتبة العريف الذى كان يقود عشرة .

وقد وضح لنا العلامة « ابن خلدون »[٢٨] تلك الحلقة المفقودة ، فقد روى أن العريف كان على عشرة ، وأن الخليفة على خمسين ، وأن القائد على مئة ، والقواد طبعا تحت أمراء الكراديس ، وهؤلاء طبعا تحت (أمراء التعبئة)[٢٩] ، الذين كانوا يقودون الميمنة والميسرة وغيرهما ، وفوق هؤلاء جميعا أمير الجيش الذى يكون فى القلب ، ويقوم بمهمة القيادة العامة .

فإذا ضُمّ ما ذكره الطبرى وابن الأثير إلى ما ذكره ابن خلدون ، استطعنا أن

---

(٢٦) تاريخ الطبرى جـ ٢ . ص ١٨٨ .
(٢٧) ابن الأثير فى الكامل جـ ٢ . ص ٢٠٠ .
(٢٨) تاريخه جـ ٣ . ص ٢٩٩ .
(٢٩) انظر وقعة اليرموك فى الكامل جـ ٢ . ص ٢٠١ .

نذكر تنظيم القواد ، وعدد جندهم على الوجه التالى :

رقم	اسم القائد	عدد جنده
١	أمير الجيش	فوق العشرة آلاف
٢	أمير التعبئة	خمسة آلاف تقريبا
٣	أمير الكردوس	١٠٠٠ جندى
٤	القائد (قائد السرية)	١٠٠ جندى
٥	الخليفة	٥٠ جندياً
٦	العريف	١٠ جنود

وقد روى لنا (المسعودى)[٣٠] تنظيما كان معمولا به زمن المأمون العباسى وقد عزاه للعيّارين ، وهم جنود متطوعون ظهروا فى الدولة العباسية ،وقد ذكرته هنا استئناسا به ؛ لأنه لا يحكم على التنظيم الرسمى للجيش وإن كان يشابهه كثيرا ، وهو :

(١) الأمير — وتحته عشرة قواد ، وجنده ؛ ١٠,٠٠٠ جندى
(٢) القائد — وتحته عشرة نقباء ، « ؛ ١٠٠٠ »
(٣) النقيب — وتحته عشرة عرفاء ، « ؛ ١٠٠ »
(٤) العريف — وتحته عشرة من الجنود تقريباً .

ويلاحظ أن أمير الكردوس والخليفة ، لا وجود لهما فى ذلك النظام العيارى .

ومن ثم فإننا إذا وازنا بين النظام الإسلامى ، والنظامين السابقين له ، — وجدناه أقرب عددا ومراتب من النظام البيزنطى ، وهذا يرجح بلا قطع أنه متأثر به ، لأن المسلمين كانوا يقبسون كثيرا من نظم هاتين الدولتين ، ولكن المرء لا يستطيع أن يحدد بالضبط مصدر هذا النقل .

وسواء أكان المسلمون فى ذلك متأثرين بالروم أم بالفرس ، فقد ثبت لنا أنهم لم يكونوا دونهم فى تنظيمهم ، وأنهم كانوا فوقهم فيما سواه من أمور الحرب الأخرى ، فقد كانت عادتهم أن ينقلوا عن غيرهم ، ثم يهضمون ما نقلوا ، ويهذبون فيه حتى يفوقوا أساتذتهم .

ويصح أن نوازن هنا — إتماما للفائدة — بين الرتب الإسلامية القديمة ورتب الجيش فى عصرنا الحديث ، وسوف يظهر لنا من تلك الموازنة وأعداد الجند ، أنهما

(٣٠) مروج الذهب ط ٢ سنة ١٩٤٨ ج ٣ . ص ٤١١ .

متقاربان جدا ، من حيث الأعداد ، ومن حيث الرتب العسكرية .

رقم	الرتبة الإسلامية القديمة	الرتبة الحديثة	عدد الجند
١	أمير الجيش	القائد العام للمعركة	لاحصر لعدده
٢	أمير التعبئة	العميد أو العقيد(قائدلواء)	حوالى ٢٠٠٠
٣	أمير الكردوس	المقدّم — قائد كتيبة	« ١٠٠٠
٤	قائد السرية	رائد أو نقيب — قائدسرية	« ١٠٠
٥	الخليفة	ملازم — قائد فصيلة	« ٥٠
٦	العريف	العريف	« ١٠تقريباً

هذه بوجه التقريب أهم النظم ، التى كانت تسود الجيش فى الدولة الأموية ، وأوائل الدولة العباسية ، ومن الجائز أن يكون قد شملها بعض التعديل ، بعد تغلغل العناصر الجديدة فى الدولة العباسية ، من عناصر تركية وفرغانية وكردية وغيرها ، ولكنها تعديلات لا تعنينا ، لأنها خارجة عن نطاق القرن الثانى ، وهو نهاية الفترة التى ندرسها هنا » .

أما التمرينات اليومية لجند المسلمين ،فكانت ممثلة فى المبارزة بالرماح ؛لإظهار المهارة فى استخدامها ، والتناضل بالسهام ، الذى يرمى فيه جماعة على هدف واحد ، وسباق الخيل والتمرّن على ركوبها ،وقد كان « عمر » نفسه يخرج إلى مكان التدريب فى الحمى القريب من المدينة ، فيشاهد ركوب الخيل واستعمال الأسلحة عليها[٣١] ،وأما التمرينات والمناورات الجماعية،فكانت تتمثل فى هذه الحروب التى لا تنقضى ،وفى نظام المدارب أيام الخليفة « عمر » حيث كان المسلمون يُدربون إلى عدوهم فى الدروب المختلفة ، ثم فى نظام « الصّوائف والشواتى » الذى ظل معمولا به فى الدولتين الأموية والعباسية، وبخاصة مع الروم،الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه .

ومن وظائف الجيش الثابتة وظيفة « الرّائد » الذى يرتاد مكان نزول الجيش قبل قدومه ، وصاحب الأقباض » الذى يتولى جمع وتقسيم المغانم ، و « الدعاة » الذين يدعون الأعداء للدين، ويعرضون المطالب عليهم، والقضاة والكتبة والمترجمون،

---

(٣١) ابن قتيبة فى عيون الأخبار جـ ١ ص ١٥٥ .

(والوزعة) الذين يصلحون الصفوف ، وأصحاب الساقة الذين يخلفون الجيش لسَوق الناس ، وحفظ ما عساه أن يسقط منهم أثناء السير ، (والسعاة) الذين يقومون بواجب المراسلة على الهجن السريعة ، لحمل الرسائل والكتب بين القواد الخ .

د ـ الوحدات المدنية الملحقة بالجيش :

ولقد كان يرافق الجيوش الإسلامية فى سيرها ، بعض الطوائف المدنية التى تشغل بعض الوظائف فيها ، كطائفة القرّاء والقصّاص ، وطائفة العمال والفعلة وطائفة الأطباء والممرضات وغيرها ، ويصح هنا أن نخص كل طائفة بكلمة موجزة توضح طبيعة عملها المناط بها .

١ ـ القرّاء والقصّاص :

اعتاد المسلمون أول أمرهم ، أن يترنموا أثناء معاركهم بالشعر الحماسى ، جريا على عادة العرب فى جاهليتهم ، متخذين من الرّجز وأنغامه مثيرا لأنفسهم ، ومنشطا لدوابهم ، فكان يفعل فيهم بموسيقاه ومعانيه ، كما تفعل الموسيقى الحماسية فى الجيوش الحديثة ، وقد وجدوا أولا فى شعر « حسّان وابن رواحه » معينا لا ينضب فلما توالى نزول القرآن ونصحهم الله بالذكر فى قوله : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »(٣٢) . صاروا يكثرون من تلاوته وذكر الله فى حروبهم ، يتلمظون به بلا صوت تلمّظ الأفاعى(٣٣) كتعبير الرواية ، ثم عرف جماعة منهم بحفظ القرآن يسمون (القراء) كانوا يخرجون مع الجيش ، ويتفرقون بين صفوفه ، يسمعون الناس سورة « الأنفال » لما فيها من ذكر الثواب الأخروى على الجهاد ، والثواب الدنيوى بذكر المغانم ، وقد كان قَتْل الكثير من القراء فى حروب (اليمامة) سببا فى جمع القرآن زمن أبى بكر .

ثم ظهرت فى الدولة الأموية طائفة القصّاص ، وكانوا ينتشرون بين الجند كالقراء ، يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ، ويلقون عليهم الشعر الحماسى ، فى أوقات سمرهم

(٣٢) سورة الأنفال : آية ٤٥ .

(٣٣) طبقات ابن سعد طبعة ليدن جـ ٢ ص ١٠ .

موقّعا على نغمات الناى[٣٤] أو القيثار ، كما يتغنّون أمام الصفوف بالشعر المطرب ، فتجيش همم الأبطال[٣٥] ويسارعون للقتال .

وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة ، كما يقوم بها القرّاء والقصّاص[٣٦] والشعراء ، لينشروا فى الجند روح الفداء ، ويرفعوا من روحهم المعنوية ، ويزهّدوهم فى الدنيا انتظارا لنعيم الآخرة ، وكذلك كان الجيش البيزنطى يخرج معه كثير من القسس والرهبان ، لنفس الغرض ، ولعل بقاء نظام الوعظ والوعاظ فى جيشنا الحديث ، يعد أثرا من آثار الماضى ، يدل عليه ويشير إليه .

٢ – العمال والفعلة :

كان المسلمون أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد ، كما يقومون بالأعمال الأخرى اللازمة لهم ، من حفر الخنادق وإقامة التحصينات ، وزرع الحسك ورعى الماشية ، يشترك فيها كبيرهم وصغيرهم ، والشريف الموسر منهم كان يصطحب معه خادما يكفيه شئونه « كأبى بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير » ومن إليهم . فلما فتحوا الأقطار وكثر فى أيديهم الأرقاء ، استكثروا من الخدم ، استعانة بهم على أعمال الجهاد الهينة ، كتعهد الجمال والخيل ، وحزم الأمتعة وحراستها فى الحل والترحال ، وتمهيد الطرق ، وحفر الخنادق وردمها ، وسدّ الطرق الجبلية ، وإقامة القناطر والجسور ، وغيرها من الأعمال التى يقوم بها اليوم (سلاح المهندسين) حتى لقد كان بعضهم يخرج ومعه أتباعٌ من الخمسة إلى العشرة ، وأكثر من ذلك[٣٧] .

ويبدو أن العرب استكثروا من الأتباع تقليدا للفرس والروم ، فقد رأوا الجندى الفارسى بالقادسية ، يخدمه الخمسة والعشرة ، إلى ما هو دون[٣٨] ذلك ، لدرجة أن الأتباع عندهم كانوا يقاربون المحاربين فى أعدادهم ، ويفهم من كلام "Dr. Oman" أن ذلك النظام كان متبعا عند البيزنطيين دائما ، فقد ذكر أن قادتهم كانوا يحضرون معهم عددا من الغلمان ، بعضهم أرقاء وبعضهم خدم مأجورون ،[٣٩]

---

(٣٤) Orient under the Caliphs. p. 335.

(٣٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٦ .

(٣٦) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٣٧) مروج الذهب للمسعودى – الطبعة الثانية جـ ٢ ص ٤٠٤ .

(٣٨) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٠٣ .

(٣٩) A History of the Art of War. p. 190.

كما ذكر أن الإمبراطور (ليو) استحسن تلك العادة ، وأوصى بتشجيع الفقراء من الفرسان ، على أن يقتنى كلٌّ أربعة أو خمسة منهم خادما ، وتابعا أيضا إذا أمكن ، لحمل أمتعتهم التى لا يمكن حملها معهم بسهولة .

وأيا ما كان الأمر فقد توسع الأمويون والعباسيون فى استخدام طوائف الفعلة ، الذين يقومون بأعمال هندسة الميدان ، فكان منهم أصحاب الفئوس(٤٠) ، ومنهم الذين يزيلون الثلوج عن الطرق ، والذين يحفرون الخنادق ، والذين يعقدون الجسور على الأنهر ، والذين يَطَمُّون الخنادق لتعبرها الخيالة والدبابات(٤١) ، إلى غير ذلك من الأشغال التى تُيسر للجيش مهمته ، ويقوم بها سلاح المهندسين حديثا .

٣ ـ الأطباء والممرضات :

كان الطب لدى المسلمين ضيعفا فى عهد الرسول ، ولم يكن للمجروح فى القتال من يقوم بعلاج جراحه إلا زوجه ، أو من يلوذ به من أهله ، فقد كثرت الجراحات بالمسلمين يوم أحد ، وانصرف كل إلى بيته يعالجها وكانت « فاطمة » بنت الرسول عليه السلام ، هى التى تضمد جراحه كما رأينا يوم أحد ، ثم صارت هذه المهمة من خصائص بعض النساء المسلمات المتطوعات ، فكان للسيدة « رُفيدة » خيمة بمسجد المدينة يوم الخندق ، تداوى بها الجرحى الذين يذهبون إليها ويومها أمر « الرسول » بأن يعالَج « سعد بن معاذ » فى خيمتها ، حتى يعود من غزو بنى قريظة(٤٢) ، الذين نقضوا معه عهدهم ، فكانت هذه الخيمة كأنها مستشفى الميدان حديثا .

ثم باتساع الفتوح وبعد الأسفار ، صار المسلمون يصحبون معهم نساءهم فكان من أول واجباتهن ، سقى المحاربين والعناية بالجرحى ، وحمل الماء لهم ونقلهم إلى مكان أمين لعلاجهم ، وحفر القبور بالاشتراك مع الأطفال لمن يقتل منهم ، والإجهاز على قتلى أعدائهم ، فكان النساء يطفن بأرض المعركة ومعهن الأطفال ،

---

(٤٠) دائرة المعارف الإسلامية ـ نقل الأستاذ « ثابت » فى الجندية ص ١٦٠ .

(٤١) الجندية فى الدولة العباسية « لنعمان ثابت » ص ١٦١ .

(٤٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦١ .

ومع كل واحدة هراوة (عصا) وسقاء ، فإن وجدت رثيثا من الأعداء أجهزت عليه ، وإن وجدت جريحا مسلما سقته وساعدته[٤٣] .

وقد كانت المرأة المسلمة تقوم إلى جانب ذلك بإعداد الطعام للمحاربين ، وتحريضهم على القتال وقت المعركة ، وتقريع من يفر منهم ،ورده للمعركة ولو بضربه ، وبعض النساء كانت إذا حزب الأمر تشترك فى القتال فعلا وتجيده ، وتسبق الشجعان فيه ، فقد ثبتت (أم سُليم) يوم حنين حين تزلزلت الأقدام ، وأجادت القتال « أم عِمارة » يوم أحد ، وانحازت للرسول (صلى الله عليه وسلم) عند الهزيمة ، تقاتل دونه حتّى جرحت ، ويكفيها قول الرسول فى حقها : « ما التفت يمينا ولا شمالا يوم أحد إلا وجدتّها تقاتل دونى[٤٤] ». وقد قاتلت النساء جيّدا ، باليرموك والقادسية وأجنادين ، ومرج دهشور بمصر ، وغيرها من المعارك الفاصلة .

ولكن هذا لا يدعونا إلى أن نرفع المرأة فى القتال إلى مرتبة الرجل ، ونسوى فيه بينهما كما يرى بعضهم[٤٥] ، فإن هؤلاء النساء اللاتى ذكرن فى المصادر المختلفة ، يصحّ أن تعتبرن من الشواذ ، اللاتى تغلب عليهن بعض صفات الرجولة ، فتبدو بطولتّها فى أوقات الأزمات ، كما يغلب على بعض الرجال عنصر الأنوثة ، فيبدو كالنساء ناعما رخوا فى بعض الأحيان .

على أن النصوص الواردة ، تفيد أن هؤلاء النسوة ، خرجن أول ما خرجن لسقى الجرحى وعلاجهم ، وهذا أول واجباتهن ، فلما رأين الأمر يشتد باشرن القتال ، إلا من كانت تضعف دونه كأم المؤمنين (عائشة) مثلا ، فإنها كانت تسقى الجرحى مع « أم سليم » يوم أحد[٤٦] ، ولكنها لم تقاتل كما قاتلت ، لأنها ليست

---

(٤٣) انظر تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ص ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣٤ والكامل لأبن الأثير جـ ٢ ص ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ والإسلام والحضارة العربية لكرد على جـ ١ ص ٨٥ .

(٤٤) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٨٤ ، ٨٥ تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٠٦ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٤٣ .

(٤٥) يذكر كثال الدكتور أحمد الحوفى فى رسالته للدكتوراه من دار العلوم : « المرأة فى الشعر الجاهلى » ص ٢٧٤ — ٢٨٠ .

(٤٦) صحيح البخارى جـ ٥ ص ص ٨٤ ، ٨٥ .

فى جرأتها ولا قوتها ، وقد استبعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبلى أحد بلاء (أم عمارة) يوم أحد ، فإنه لما رأى فعالها العجيبة قال لها : « من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة[٤٧] ؟ » وهذا دليل على شذوذها فى ذلك الباب ، لتغلب ناحية البطولة عليها ، كما تغلبت على بعض نساء الخوارج مثل « غزالة » زوج « شبيب الخارجى » التى فر أمامها « الحجاج » فعيره الناس بذلك[٤٨] والتى صلت فى مسجد « الكوفة » ركعتين بالبقرة وآل عمران ، وفاء بنذرها[٤٩] الذى نذرته إن هى دخلتها على الحجاج ، فغزالة هذه التى فاقت الرجال ، لا تجعلنا نحكم بتفوق النساء بوجه عام ، أو مساواتهن بالرجال فى تحمل أهوال الحروب فقد كانت تولول إذا مسها ضُرها :

ولكنا إذا صرفنا النظر عن الشواذ من النساء ، وجدنا وظيفة المرأة الأساسية الى كانت كما حددتها « أم عطية » فى قولها : « كنا نغزو مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنداوى الجرحى ، ونمرِّض والمرضى ، وكان يرضَخ لنا من الغنيمة[٥٠] » أى يعطيهن ولا يضرب لهن بسهم كالرجال ، وفى هذا إشارة لعدم التساوى بينهن وبين الرجال أصحاب السهمان .

ثم لما اتسعت ونُظمت الفتوح الإسلامية ، وأبطلت عادة الخروج بالنساء صار يقوم بهذه المهمة أطباء وممرضون مخصصون ، بعد أن حذق العرب الطب عن الفرس والروم ، واتخذوا منهم الأطباء والممرضين ، فصار الجريح يُحمل على ترس طويل ، أو على محمل بين رجلين ، فيوضع فى مكان العلاج ، وقد روى الجاحظ[٥١] » أن « الحجاج بن يوسف » أول من عمل المحامل ، ثم صار الأطباء يرافقون الجيش عند خروجه ، وتخصص لهم خيامهم فى المعسكرات ، كما كان يفعل البيزنسيون بفرق الإسعاف فى كتائبهم[٥٢] ، وكذلك كان العباسيون إذا جهزوا جيشا زودوه بالأطباء ، وبالصيادلة لتركيب الأدوية وإعدادها ، فقد ذكر الأستاذ

---

(٤٧) رسالة الدكتور الحوفى السابقة ص ٢٧٧ .

(٤٨) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ص ١٩٥ ، ٩٦ .

(٤٩) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ص ١٤٦ ، ٤٧ .

(٥٠) بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣١٢ . والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٥١) البيان والتبيين الطبعة الثانية سنة ١٩٣٢ ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٥٢) A History of the Art War. P. 192,

« ثابت[٥٣] » نقلا عن « طبقات الأطباء » أن بغداد وحدها ، كان فيها من الأطباء فى أول القرن الرابع ٨٦٠ طبيبا ، وهو عدد عظيم ، يدل على أنهم عالجوا فنون الطب وتوسعوا فيها من عهد بعيد ، ومن المعقول أن يكون بعض هذا العدد مخصصا للجيش ، يقوم بما تقوم به الآن مشافى الميدان ومشافى الجيش فى العواصم .

القسم الرابع

تموين الجند بالحيوان والسلاح والطعام

الجند فى الميدان يعتمدون على حيوان القتال ، كما يعتمدون على السلاح والطعام والشراب ، وقد يكون الفارس أشد وقعاً على الأعداء من الراجل ، ولذا فهو يفوز من المغانم بما لا يفوز به الراجل وتبعاً لذلك كان المسلمون يهتمون بالجمل والحصان ، كما تهتم الجيوش الحديثة بسلاح الفرسان ، فعملهما واحد فى الأصل .

ا — الجمل :

فهو عماد العربى فى حياته السلمية والحربية ، يساعده على عبور الصحراء فى الأسفار الطوال ، يطعم لحمه ويشرب لبنه ، ويتخذ خيمته من وبره ، ودرعه وترسه[٥٤] من جلده .

ويدربه على القتال فيغزو عليه ، ويحتمى من السلاح به ، ويصفه أرحله حول المعسكر إذا أقام ليلاً ، فيبيت الجند فى حصن من الجمال وأحمالها .

وقد استخدم الرسول عليه السلام الجمل فى غزواته ركوباً وقتالاً ، فكان معه يوم « بدر » سبعون بعيراً وفرسان فقط ، وكذلك كان معظم أصحابه يركبون الجمال يوم « حنين »[٥٥] ، وحارب « أبو بكر » عليها بعض المرتدين الذين

---

(٥٣) انظر الجندية فى الدولة العباسية له ص ١٦٤ .

(٥٤) انظر (الدرع والترس) فى الفصل الخامس ص ٥ ، ٨ .

(٥٥) سيرة ابن هشام طبعة الحلبى ج ٤ ص ٨٧ .

هجموا على المدينة ، وكان من عادة المسلمين كالعرب إذا — عندهم الخيل — ، أن يجنبوها ويركبوا الجمال فى المسافات البعيدة ، فإذا كانت قريبة ركبوا الخيل استعداداً للقتال وجنبوا الأبل .

وكانوا يحملون الظعن (النساء) على الجمال خلف صفوف المقاتلين ، فإذا نزلوا جعلوا من أرحلها حصناً يدور بهم ، وهى فوق ذلك أداتهم فى نقل الخيام والأمتعة الثقيلة ، وآلات الحصار كالمنجنيق والدبابة ورأس الكبش وغيرها ، فما كانوا ينقلون أمتعتهم على عربات التقل أو الخيل والبغال ، كما كان يفعل البيزنطيون[٥٦] المعاصرون لهم ، وإنما على ظهور الجمال ، التى هى عدتهم فى كل شىء ، والتى كانت تثير الفزع بين خيل الأعداء ، وتكثر عدد الجيوش فى رأى العين ، بما يرفرف فوق أرحلها من رايات يحملها الجنود .

هذا وقد عاب الإمبراطور البيزنطى « ليو » نظام النقل على الجمال ، فى كتابه « Tactica » ولا أجد لتفنيد قوله أبلغ مما قاله « الدكتور كريمر » فى الرد عليه فى كتابه « الشرق فى حكم الخلفاء »[٥٧] حيث يقول : أما ملاحظة « ليو » على النقل بالجمال فى الجيوش العربية ، فإنها تستدعى ملاحظة أخرى ، فبينما استخدم البيزنطيون فى النقل الخيل والبغال والحمير والعربات التى تجرها الثيران ، استطاع العرب أن ينقلوا رحالهم ومتاعهم فى أمان تام ، على ظهور الجمال ، حتى عبر الصحارى القاحلة ، التى تناسب الجمل ، ولا تناسب الجيش الإغريقى مطلقاً ، وهذه ميزة عظيمة للعرب ، بل إنى لا أكون مغالياً إذا قررت ، أن العرب أحرزوا معظم انتصاراتهم بفضل جمالهم ، فهذا الحيوان الصبور فتح لهم مصر والشام ، بل إنه فى الحقيقة كتب النصر الدائم للإسلام . ولعلنا جميعاً نذكر حسن استغلال « خالد » للجمال فى عبور صحراء الشام ، وفى ردم الخنادق بالعجائز منها[٥٨] ، ونذكر كيف ساعدته مساعدة فعالة ، فى عبور بادية السماوة ، يوم رحيله من العراق إلى سورية ، لنجدة المسلمين باليرموك .

---

(٥٦) The Orient under the Caliphs. p. 329.

(٥٧) The Orient. pp. 332-33.

(٥٨) انظر الفصل الخامس — اقحام الخنادق ص ١٧ . واقرأ فى كتب التاريخ انتقال خالد من العراق للشام بأمر أبى بكر قبيل معركة اليرموك .

ب — الحصان :

وأما الحصان فقد اعتز به العرب منذ جاهليتهم ، وحفظوا أنساب خيلهم ، وحافظوا على نقائها ، وألفوا فيها الكتب أخيراً ، كما فعلوا بأنسابهم ، ذلك لأن الحصان سيد الميدان ، الصالح للكر والفر فى الأراضى المكشوفة ، وظهره حصن لراكبه ، لخفة حركته عند المجاولة ، وسرعة عدوه عند الفرار ، وهو مصدر غناه فى الجهاد لأنه يفوز بسهمين وحده ، فى الوقت الذى يفوز صاحبه بسهم واحد(٥٥) ، ومن ثم قال عليه السلام : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجرُ والغنيمة (٥٦) » وذلك ترغيباً فى اقتنائها والعناية بها ، وتعليمها فنون الحرب ، كما قال : « عاتبوا الخيل فإنها تعتب » .

ولما عرف المسلمون فضل الفرسان على المشاة ، أكثروا من العناية بالخيل وحفظوا شيات العتيق والهجين منها ، حتى شهر جماعة منهم باسم « نُعَّات الخيل » ، وكان « عمر بن الخطاب » يعنى بخيل المسلمين ، ويذهب إلى الحمى القريب من المدينة ليشرف على تمرينها ، وكان يصحب معه « سلمان بن ربيعة الباهلى » الذى سمى « سلمان الخيل » لخبرته بها ، فكان يشرف على بيطرتها ، ويفرق بعلاماته بين العتيق والهجين منها (٥٧) ، وقد عينه الفاروق للتفتيش على خيول الجيش بالكوفة ، ولما ولى أمر الأقباص يوم « جلولاء » لم يضرب بسهم إلا للعتاق منها(٥٨) ، ليبعد الناس عن إقتناء الفرس المهجَّن الذى اختلط بدم غير أصيل .

وكان قواد المسلمين يعرضون الخيل كاعتراض الرجال ، فمن وجدوا فى فرسه هزالا ، أو فى عدتة نقصاً ، أنقصوا من مرتبه عقاباً له(٥٩) ، ومن عُنى بها زادوا فى

---

(٥٩) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٨ ، ١٨٧ ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٧٧ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١١٠ والبداية لابن رشد ج ١ ص ٣١٤ ، وفتوح الشام للواقدى ج ١ ص ١٤٣ ، والكلبى فى أنساب الخيل .

(٦٠) النووى — رياض الصالحين ج ٧ ص ١٤٢ طبعة توفيق .

(٦١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٥٥ .

(٦٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٨٢ ، والجندية لثابت ص ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٦٣) حسن المحاضرة للسيوطى — نقل ثابت فى الجندية ص ١٤١ وتاريخ التمدن لزيدان ج١ ص ١٥٠ .

فريضته ؛ ولذا كان بعض الفرسان الأشداء يعاقب بين فرسين يحارب عليهما ، ويأخذ أسهمهما ، كما فعل « الزبير بن العوّام » فى حُنين ، وفى حروب الشام المختلفة ، وكثيراً ما رأينا الفرسان يطلقون على خيلهم أسماء معينة تعرف بها ، وذلك اهتماماً بشأنها ؛ لأنها عماد الطلائع والسرايا ، ومنها يتألف جناحا الجيش لحمايته ، على ما سيأتى تفصيله فى الفصل السادس عند ذكر التعبئة ، وعليها تخفّ النجدات لغياث المحتاجين ، ويسرع البريد بالرسائل بين قواد الميدان ، إلى غير ذلك من الفوائد الحربية التى لا داعى للإفاضة فيها ، كما أنه لا داعى لذكر السلاح ، فسيأتى تفصيله وافياً فى الفصل الثالث .

وكل الذى يهمنا هنا أن نعرف كيف كان المقاتلون يزوّدون بهذه الحيوانات وحاجاتها ، وكيف كانوا يمدون بالسلاح الذى يقاتلون به ، وبالطعام الذى يقويهم على القتال .

جـ — الطعام والعلف والسلاح :

فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان المسلمون جميعاً هم الجند ، أخذوا أنفسهم بنصره ونشر دعوته ، للقضاء على الشرك والمشركين ، فكل منهم كان يعد نفسه للجهاد ، فيشترى جمله أو حصانه ، ويشترى سلاحه ، ويحمل معه إذا خرج للغزو زاده ومتاعه ، وقد ينفق أحدهم جلّ ماله فى ذلك .

وكيف لا يفعل وهو يرى المشركين — وهم على الباطل — ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ؟ بل كيف يرغب عن التجارة الرابحة التى دله عليها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم [٦٤] » .

وما كان المسلمون فى درجة واحده من اليسار ، فكان الغنى منهم يساعد الفقير فى جهازه ، أو يسلمه كل ما أعده لنفسه إذا حبسه عن الخروج عذر مشروع [٦٥] فإن لم يجد الفقير من يساعده ، كان يعمد إلى بعض من يعرفه ، فيستعير منه

---

(٦٤) سورة الصف آية ١٠ .

(٦٥) النووى — رياض الصالحين جـ ٧ ص ص ١١٥ ، ١١٧ .

السلاح ، على أن يعطيه النصف مما يغنم ، حتى إنهما ليقسمان السهم بينهما[٦٦]. يأخذ أحدهما النصل مع الريش ، والآخر يأخذ القِدْح ، وكثيراً ما كان الرسول يجهز الفقراء من الصدقات ، وخمس المغنم الذى يقبضه ، والفىء الذى يخصه .

وفى الغزوات المهمة كان أثرياء الصحابة ، يجودون بكل مالهم أو بعضه فى شراء الخيل والجمال للمحاربين ، وإمدادهم بالسلاح والطعام ، وجميع الأمتعة ، كما فعل « طلحة » الذى تكرر تبرعه فى الغزوات المختلفة ، حتى سماه « الرسول » صلى الله عليه وسلم « طلحة الجود أو طلحة الخير »[٦٧] ، وكما فعل « عثمان وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف » وغيرهم عند التجهز لغزوة « تبوك » حتى لقد بعث النساء للرسول صلى الله عليه وسلم ، بكل ما يقدرْن عليه من الحلى[٦٨] ، تطوعاً فى سبيل الله ، ليباع فى تجهيز الجند .

وقد كان التمر أغلب زاد الجند فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، يضاف إليه السّويق واللحوم مقددة أو طازجة ، فكان المحارب يصحب معه طعامه فى رحله فإذا قصر به الفقر كفاه ذلك الأغنياء من إخوانه ، فقد كان « سعد بن عُبادة » خلال حصار « بنى النضير » يأتى المسلمين بالتمر من عنده ، كما أمد المسلمين بلحوم الإبل فى غزوة « حمراء الأسد » فكانوا ينحرون اثنين فى يوم وثلاثا فى يوم[٦٩] ، وقد صنع مثله أغنياء الصحابة وجعلوا الإطعام مناوبة بينهم ، فيوماً ينحر سعد ، ويوماً ينحر غيره ، وكثيراً ما كان الرسول عليه السلام يستعير المال والسلاح من غير المسلمين ، ليزود به المجاهدين ، إذا لم تقم بذلك أموال الصدقات والأخماس .

إذن فقد كان الجندى مكلفاً بتجهيز نفسه من ماله الخاص ، وحظه من المغانم ، ويعين الحاكم الفقراء من فضول أموال المسلمين ، فلما وضع « الفاروق » الديوان ورتب العطاء ، ألزم الجند بالجهاد وما يصلح أمرهم فيه ، وكان يشترى خيلا من أموال المسلمين التى كثرت فى زمنه ، فيسلمها إلى الجند المرابطين فى معسكرات الأمصار ، ليكونوا عُدة لكون إن كان ، كما سبق فى القسم الثالث من هذا الفصل ، وكذلك

(٦٦) فتوح مصر لابن عبد الحكم طبعة أوربا ص ٥٤ .
(٦٧) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥١ .
(٦٨) تاريخ ابن خلدون حـ ٢ ص ٢٤٤ ، والسيرة الحلبية حـ ٣ ص ١٤٨ .

كان يخصص للدولة كثيراً من السلاح يوزعه على المحتاج إليه من الجنود النظاميين ، وكان يجعل عليه « سِمة السلطان » حتى لا يختلط بغيره ، وعنه أخذ « على بن أبى طالب» بناء خزائن السلاح ووسْمَهُ بسمة السلطان(٧٠) ، على الطريقة التى كانت متبعة فى أموال الصدقة ، وهى أن يُكتب على أفخاذ الخيل والجمال كياً بالنار ، كلمة (صدقة) أو كلمة (عُدة) (٧١) .

أما المتطوعون فكانوا يُعدون أنفسهم بمستلزمات القتال ، لأن « عمر » كان لا يدخر شيئاً فى بيت المال ، وكان يفرق كل ما أتاه على المسلمين مهما كثر (٧٢) ، فقد أُثر عنه قوله لما أتاه « أبو هريرة » بمال كثير من البحرين :

« أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلْنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عداً » ، وقد اقترح عليه بعض المسلمين أن يحتفظ فى بيت المال بشىء يكون عُدة للحوادث ، فزجره ولم يعمل بقوله(٧٣) .

مضى العمل بهذا النظام عند المتطوعين فى الدولتين الأموية والعباسية ، فكان المتطوعون يخرجون للقتال بزادهم ، فإذا فرغ منهم عادوا لتجديده ، أو أرسلوا إلى أهلهم فزودوهم وهم بمكانهم(٧٤) ، ولا شأن للدولة بهم .

أما الجيش النظامى فكانت نفقات نقله وتموينه على الحكومة ، بينما يقوم أفراده بإعداد سلاحهم وصيانته ، من مرتباتهم الشهرية ، وأرزاقهم السنوية ، بحيث كان الحاكمُ يُنقص من عطائهم إذا أهملوا ذلك ، وكذلك كانت الحكومة تنفق على إنشاء وإصلاح آلات الحصار ، ونقل الجيوش وتمهيد الطرق الجبلية ، وعلاج المرضى من الجند ؛ ولذا لا ندهش إذا وجدنا « الحجاج » يجهز جيشاً إلى (سِجستان) فينفق عليه مليونى درهم(٧٥) ، عدا رواتب الجند ، وإن كان هذا يعد إسرافاً منه ، فقد

---

(٧٠) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٢٢ .

(٧١) مما يستطرف لهذه المناسبة أن «الحجاج» بعث بعض قواده إلى معركة فعاد منهزماً ، فلما رأى خيله مكتوباً بالكى على أفخاذها كلمة « عدة » أمر بأن تكتب تحتها كلمة (للفرار) .

(٧٢) ابن الأثير فى الكامل جـ ٣ ص ٤٥٣ .

(٧٣) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان جـ ٢ ص ١١ .

(٧٤) مروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص ١٣٨ .

(٧٥) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٦٥ .

لامه عليه الخليفة « عبد الملك » كما لامه على الإسراف فى سفك الدماء[٧٦] .

ولقد رأينا العباسيين يدخلون كثيراً من التحسين على هذا النظام ، فيدّخرون للجيش حاجته من التموين فى مخازن خاصة ، على نحو ما يفعل « مكتب خدمة الجيش » الآن ، ورأينا لهم خزائن لحفظ أصناف الأموال والقماش ، وخزائن للغلال والحبوب ، وخزائن للسلاح[٧٧] ، تحفظ بها الأسلحة والذخائر ، فقد نقل الأستاذ « نعمان ثابت » عن صاحب « آثار الأول » أنه كان بخزائن السلاح أيام « السفاح » خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف ، وخمسون ألف جُوشن ، ومئة ألف رمح ، وأن الخليفة « محمد الأمين » لما تولى الخلافة أمر بإحصاء ما فى الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة ، فكان فيها سلاح كثير يطول ذكر عدده[٧٨] ووصفه ، خصص بعضه للخليفة ومن يحيط به من حرسه الخاص ، وبعضه لطوائف الجند المختلفة ، وتزويدها به عند خروجها للقتال .

---

(٧٦) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٤١ .

(٧٧) الجندية لثابت ص ١٠٠ .

(٧٨) نفس المصدر ص ١٠١.

الفصل الثالث
أسلحة القتال

القسم الأول
الأسلحة الخفيفة

لما كان على كل محارب أن يعدّ سلاحه قبل المعركة ، ويتخذ لها الأهبة قبل خوضها ، كان لزاماً عليّ أن أقدم الكلام على الأسلحة فى هذا الفصل .

وقد اعتاد القدماء من الباحثين وبعض المحدثين ، أن يطلقوا لفظ (السلاح) على كل أداة تستخدم فى المعركة ، حتى على أدوات الدفاع والوقاية ، كالدرع والمغفر والترس وغيرها ، ولكنى رأيت هنا أن أفرق بين الأسلحة التى تستعمل للقتال ، والآلات التى تستعمل للوقاية ، كما رأيت أن أقسم أسلحة القتال قسمين فى هذا الفصل :

ا — أسلحة خفيفة يستخدمها الجندى الواحد ، راجلا كان أو فارساً ، كالقوس والرمح والسيف وما إليها من البلطة والدبوس إلخ .

ب — أسلحة ثقيلة يشترك فى استخدامها أكثر من جندى ، وتحملها فى الميدان حيوانات الحمل ، كالمنجنيق والدبابة والعرادة ورأس الكبش وسلم الحصار وهى آلات الحصار الخاصّة بفتح الحصون .

وقد جعلت الجزء الأول من هذا الفصل خاصًّا بالأسلحة الخفيفة ، وهى على ترتيب استعمالها فى المعركة كالآتى : القوس والسهم ، ثم الرمح ، ثم السيف ، ثم الخنجر والدبوس والفأس .

وذلك أن القتال يكون أول أمره تراشقاً بالسهام عن بعد ، ثم تطاعناً بالرماح عند المبارزة واقتراب الصفوف ، ثم تصافحاً بالسيوف عند الاختلاط ، ثم تضارباً بالأسلحة البيضاء ، وخلساً بالخناجر ، عند الالتحام والاختلاط .(١)

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٦ ص ٢٣٨ ، وقد نص على تأنيث القوس ص ٢٢٧ .

(١) القوس والسهم

وصف القوس وأجزاؤها :

القوس فى الأصل عود من شجر جبلى صلب ، يحنى طرفاه بقوة ، ويشد فيهما وترٌ من الجلد أو العصب الذى يكون فى عنق البعير ، وهو يشبه إلى حد ما قوس المنجدين فى هذه الأيام ، وكان العرب يسمونه الذراع لأنه فى طولها ، ولذا كانوا يتخذون منه وحدة للقياس ، فيقيسون به المذروع ، ومن ذلك قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » أى قدر قوسين عربيَّين أو قدر ذراعين [٢] .

ومنذ أن اهتم العرب بالرماية وصناعة الأقواس ، صارت لهم قسيٌّ عربية معروفه بصلابتها وشدة جفافها ، يأخذونها من شجر (النبع أو الشوحط) ثم تعددت أنواعها عندهم ، فصار منها الحجازية والفارسية والواسطية والشُّريحية وهى المأخوذة من قضيبين فأكثر .

وعلى الرامى إذا أراد الرمى أن يمسك وسط القوس باليسرى ، ثم يثبت السهم فى وسط الوتر باليمنى ، ثم يجذبه إليه مساوياً مرفقه الأيمن بكتفه ، مسدداً بنظره إلى الهدف ، فإذا بلغ الوتر نهايته تركه من أصابعه ، فاندفع إلى وضعه الأول ، دافعاً أمامه السهم إلى هدفه .

أجزاء القوس :

١ — البدن : ويطلق على خشب القوس كله ، ويقال للناحية العليا منه (يد القوس) وللناحية السفلى (رجل القوس) [٣] .

٢ — المقبض : وهو موضع اليد اليسرى منه فى الوسط من البدن .

٣ — السِّيَة : وهى ما انعطف من طرفى القوس وركب فيها الوتر ، فلكل قوس سيَتان وهما اليد والرجل .

٤ — القاب : وهو ما بين المقبض والسية ، ولكل قوس قابان كما جاء فى القاموس المحيط .

---

(٢) القاموس المحيط مادة (قاب) .

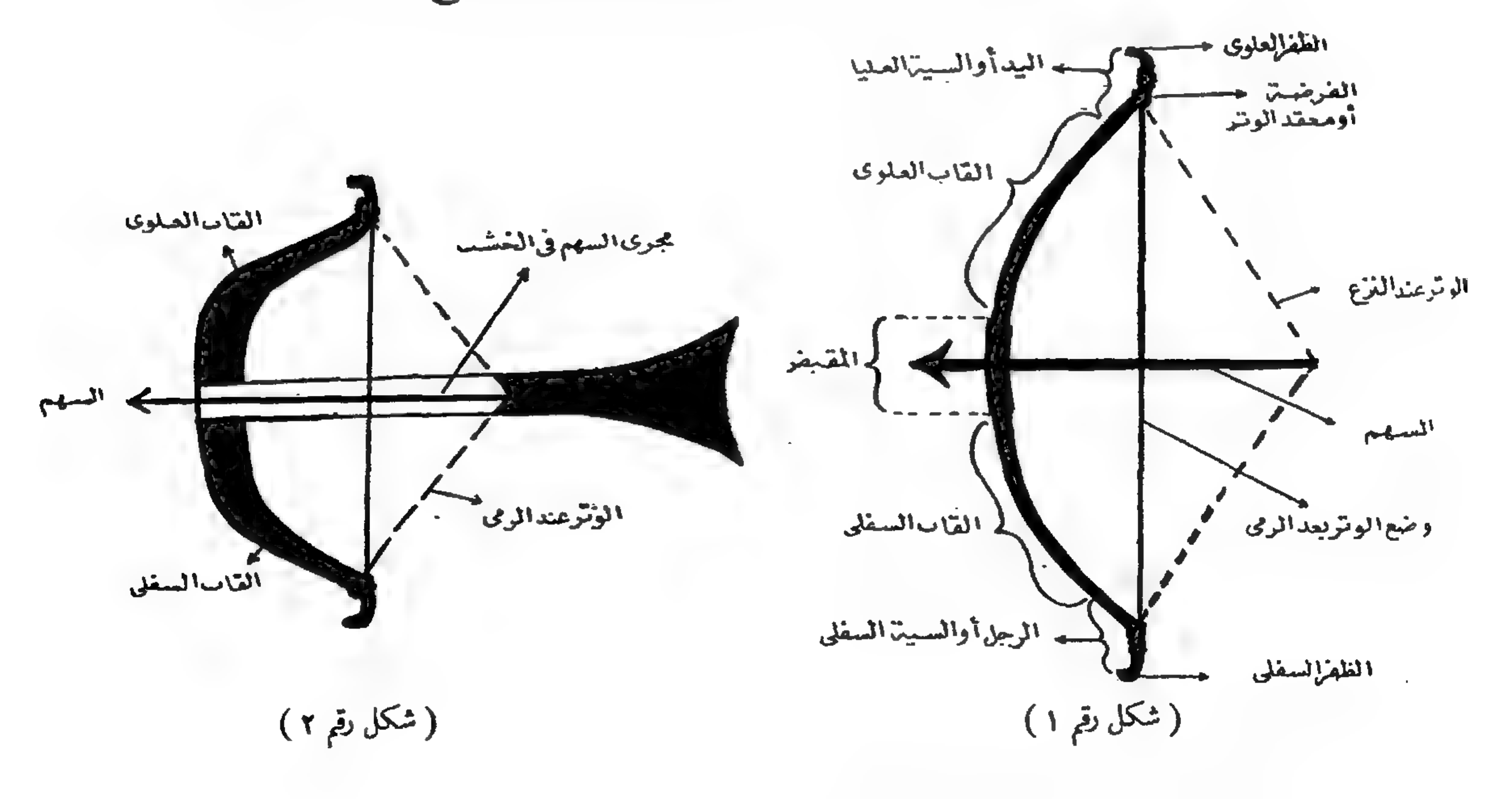
(٣) ابن سيده : المخصص جـ ٦ ص ٤٣ .

٥ — الوتر : وهو ما يتخذ من خيوط مفتولة أو شراك جلد ، ثم صار يتخذ من عصب فى عنق البعير المسن ، أو من وظيف الساق ، وكانوا يسمونه (العـَقب) ولذا يقال : « عقب القوسَ » أى لوى شيئاً من العقب عليها [٤] ، ويقال للوتر (ربذىّ) وإن كان لم يعمل بالرّبذة لأنه فى الأصل عمل بها [٥] ، وهو يفسد بالشمس الحامية أو ماء المطر ، ولذا كان يحفظ منهما بكيس أو نحوه .

٦ — الفُرضة : وهى الحُزة التى يلف عليها طرف الوتر المعقود [٦] ، وذلك طبعاً يكون فى السِّية العليا والسفلى .

٧ — الظُّفر : وهو ما يبقى ظاهراً من طرف السِّية بعد معقد الوتر عليها من أعلى ومن أسفل [٧] .

٨ — الحِمالة : الحمالة من القوس بمنزلة حمالة السيف ، وهى علاقته التى يحمل بها ، يلقيها المتنكِّب فى منكبه الأيمن ، ويخرج يده اليسرى منها ،



(شكل رقم ١)　　(شكل رقم ٢)

---

(٤) ابن سيده : ص ٥٥ والقاموس المحيط مادة (عقب) .

(٥) نفس المرجع ص ٤٥ .

(٦) النويرى نهاية الأرب جـ ٦ ص ٢٢٣ .

(٧) المخصص جـ ٦ ص ٤٣ .

فتكون القوس فى ظهره وقد توشحها توشح السيف ، وربما جعل الحمالة فى صدره وأخرج منكبيه منها ، فتصير على كتفيه [٨] ، وذكر « النويرى » أن العرب تقول تنكّب قوسه إذا ألقاها على منكبه ، وتأتّبها إذا جعلها على ظهره[٩] (انظر رسم القوس شكل ١ ، ٢) .

كلمة تاريخية عن القوس :

أغلب الظن أن العرب أول أمرهم لم يبرعوا فى استعمال القوس براعتهم فى استعمال الرمح والسيف ، وأنهم توسعوا فى هذا السلاح وأتقنوه بعد اتصالهم بالفرس والروم والنّوبة ، حيث كانوا يلاقون منهم أذى شديداً ، بسبب إجادتهم الرمى بهذا السلاح .

والعجيب أن رئيس الركن « نعمان ثابت » ينقل إجماع المؤرخين على مهارة العرب فى استخدام القوس ، فهو يقول فى كتابه[١٠] « لقد أجمع المؤرخون على أن العرب من أمهر المقاتلين فى النزع بالقوس ، وقلما كانت تطيش سهامهم ، وبلغ من إصابتهم فى الرمى ما يكاد يتعدّى طور التصديق ، ولقد كان فى كل قبيلة من قبائلهم مئات من رماة الحَدَق . « والأعجب من ذلك أن الأستاذ « جرجى زيدان » وافقه فى قوله ، وادعى أن العرب سُموا « رماة الحَدَق » لأن أحدهم لو أراد أن يرمى إحدى عينى الغزال دون العين الأخرى لرماها .

ولقد استند كل من المؤلفَين إلى قصة جاهلية ، رواها صاحب العقد الفريد[١٢] ، وهى على شبهها بالخرافة ، تحاول أن تثبت للعرب ما ليس لهم تزّيداً وتعصباً ، وقد كنت أحب أن يكون العرب كما وصَف كل منهما — وإن صاروا فيما بعد كذلك . إلا أن واجب الأمانة العلمية يقتضى الباحث أن يسير وراء النصوص ، مجرداً من تعصبه لجنسه أو أمته ، طالباً الحقيقة وحدها .

وأمامى الآن كثير من النصوص العربية ، يُفهم منها صراحة أو ضمناً أن العرب

---

(٨) المرجع نفسه ص ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٩) نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٢٨ .
(١٠) الجندية فى الدولة العباسية ص ١٥١ .
(١١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٦٩ .
(١٢) انظر الهامش (٥٧) من التمهيد .

كانوا متخلفين عن غيرهم فى استعمال هذا السلاح ، حتى العام الثالث عشر من الهجرة ، فقد روى «البلاذرى» أن الفرس كانوا يشبهون نبال المسلمين يوم القادسية بالمغازل[١٣] ، استهانة بها ، واستخفافاً بشأنها ، وكانت القادسية فى العام الثالث عشر.

ومن قبل ذلك أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الحقيقة ، فامتدح قسى العجم فى حديث رواه « الإدريسى » عن الزرقانى بقوله عن العجم : « هم أقوى منكم رمية[١٤] » ومن ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث الناس على تعلم الرمى ويؤكده أكثر من غيره من فنون الحرب تأكيداً يوحى بضعفهم فيه ، وكان يبين لهم خطره ليهتموا به ، فهو يفسر القوة فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . بقوله : ألا إن القوة الرمى . ويكررها ثلاثا . ومر يوماً هو وصاحباه برماة يرمون ، فقال الرامى : « أصبتُ والله » فأخطأ ، فقال « أبو بكر » حنث يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا : أيمان الرماة لغو ، لا حنث ولا كفارة[١٥] » . وروى عنه أنه قال فى القوس : « ما سبقها سلاح إلى خير قط » وأنه قال : « إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممُد به ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحبُّ إلى من أن تركبوا[١٦] » فما قدم الرمى على ركوب الخيل إلا للعناية به ، وحض المسلمين عليه .

هذا وقد كان الذى يجيد الرماية فى صدر الإسلام ، يشار إليه بالبنان ، ويُرفع ذكره بين الناس « فسعد بن أبى وقاص » كان يرمى بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة (أحد) ؛ لأنه كان من أرمى الناس ، فكان يجمع له الرسول أبويه ، ويقول له : « أرم فداك أبى وأمى[١٧] » وكان يأمر من يمر به أن ينثر لسعد كنانته ، بل لقد كان أحياناً لشدة الموقف ، يناوله السهم لا نصل له فيرمى به[١٨] ، وما ذاك إلا لأن مثل سعد فى أصحابه نادر أو كالنادر .

وكذلك كان من مهرة الرماة يوم أحد « سُهيل بن حُنيف » الذى بايع الرسول

---

(١٣) فتوح البلدان طبعة باريس ص ٢٦٠ وانظر الهوامش ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من التمهيد .
(١٤) التراتيب الإدارية للادريسى طبعة فاس سنة ١٣٤٦ هـ جـ ١ ص ٣٧٨ .
(١٥) ابن القيم الجوزى : الفروسية طبعة دار الكتب ص ١٠ .
(١٦) هذه الأحاديث من نفس المرجع ص ص ١٥ ، ١٦ .
(١٧) النويرى فى نهاية الأرب جـ ٦ ص ٢٣١ .
(١٨) أبو الفرج ؛ الأغانى ط الساسى جـ ١٣ ص ١٨ .

على الموت ، وجعل ينضَح عنه بالنَّبل حتى كشف الناس ، فكان الرسول يقول لأصحابه : « نبِّلوا سُهيلا » أى أعطوه نبلكم ، فلو قد كان فى المسلمين مثل هذين لأجادوا الدفاع ، وهل يترك الناس سهامهم له إلا لدقته فى الرمى من دونهم ؟

يضاف إلى ما تقدم أن رماة المسلمين يوم أحُد كانوا خمسين ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يومها رمى عن قوسه (الكَتوم) حتى صارت شظايا ، فرَمى بالحجر[١٩] ، وأن « سعدا وسُهيلا » أبليا خير البلاء ، وأن أبا طلحة « كسر يومها قوسين أو ثلاثة[٢٠] » ، فلو أن هؤلاء الرماة كانوا لا يكاد يسقط لهم سهم كما يزعم بعضهم ، وفرضنا أن كلا منهم رمى فى المعركة بعشرين سهماً أو نحوها ، لبلغ القتلى والجرحى من المشركين عدداً ضخْماً ، بالإضافة إلى قتلى الرماح والسيوف ، ولتغيرت نتيجة المعركة من تحاجز بين الفريقين إلى نصر للمسلمين ، وهذا لم يحدث فى الواقع .

وفوق كل ما سبق يقرر المؤرخون المسلمون — الذين نقل ثابت إجماعهم على مهارة العرب فى النزع بالقوس — أن الفرس والترك والنوبة كانوا أمهر من العرب ، وأن العرب هم الذين سموا النوبة (رماة الحدق) .

يروى الطبرى أنه « بلغ من مهارة الفرس فى الرماية أن أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكُّها بالنشاب[٢١] » ولا يقال هذا تعصب من الطبرى لقومه ، فهو مسلم معروف بالفطنة والصدق ، وقد روى فى مكان آخر « أن المسلمين لما فتحوا مصر غزَوْا النوبة ، فقفلوا بالجراحات وذهاب الحدق ، من جودة الرمى فسمَّوهم (رماة الحدق) ، فلما ولى (عبد الله بن سعد) صالحهم على هدية عدة رءوس منهم يؤدونهم للمسلمين فى كل سنة ، ويهدى إليهم المسلمون طعاماً مسمى وكسوة[٢٢] » ويتابع الطبرى ابن الأثير حيث يقول : « ولما فتح عمرو » مصر ، غزا النوبة ، فرجع المسلمون بالجراحات لجودة رميهم ، فسموهم « رماة الحدق[٢٣] » .

هذا ولا أكون غالياً إذا قلت : إن جمهور المؤرخين ومن كتبوا فى السلاح ينسبون التفوق فى الرمى إلى الفرس والترك لا إلى العرب ، فابن القيِّم لما تحدث عن

(١٩) ابن سعد فى طبقاته ط ليدن جـ ٢ ص ٢٩ .
(٢٠) البخارى شرح القسطلانى جـ ٥ ص ٩٥ .
(٢١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ١٤٠ .
(٢٢) نفس المرجع ص ٢٣٠ .
(٢٣) الكامل له جـ ٢ ص ٢٣٩ .

أنواع القسيِّ العربية قال : « ولا تكاد ترى هذه القسى إلا بارض الحجاز ، ولا يُنتفع بها فى غيرها من الأماكن .[٢٤] » فهم بعد نقلهم عن الفرس لم ينشروا القوس فى بلادهم كلِّها ، وإنما ظلت مقصورةً على الحجاز .

وقد تعرض « الحسن بن عبد الله[٢٥] » فى كتابه إلى الأمم المختلفة وبيان ما امتازت به من سلاح فى حروبها ، فجعل من مزايا الفرس والترك الرمى بالنشاب ، فلما جاء لذكر العرب قال : « وليس لهم من أنواع الأسلحة إلا الرمح ، ورمى القوس العربى فى بعض طوائفهم ، وهو كالنادر فيهم[٢٦] » وروى فى موضع آخر أن الذى يحسن الرمى بالقوس السودان والفرس والروم وطائفة من العرب[٢٧] ، فلم يذكر العرب جميعاً كغيرهم ، وإذا كانت القوس كالنادر فى أيام الحسن فى القرن السابع ، فما بالك بالقوس قبل ذلك التاريخ ؟

ويقول « ابن خلدون » فى هذا المعنى : « وبُلِّغتُ أن أمم الترك لهذا العهد ، قتالهم مناضلة بالسهام » ويؤيد هذا أيضاً أن « ابن السنجارى » ذكر تاريخ القوس فى كتابه[٢٨] ، فنسب إبداع الرمى إلى ملوك الفرس ، ثم ذكر بعدهم « الرسول » صلى الله عليه وسلم ، وسعد بن أبى وقاص .

هذا ، وليس معنى سبق الفرس والأحباش للعرب فى الرماية ، أنهم ظلوا جميعاً متخلفين عنهم فى ذلك الميدان . فإن بعض قوادهم توسعوا فى استعمال القوس ، وأجادت بعض فرقهم فن الرماية كما هى عادتهم : ينقلون السلاح الجديد عن غيرهم ، ثم لا يلبثون أن يفوقوا فيه أساتذتهم ، ولذا رأينا بعضهم بعد اتصالهم بالفرس يتقدمون كثيراً فى الرماية ، ويستأهلون حقاً لقب « رُماة الحدق » . يذكر « الطبرى[٢٩] » فى حوادث العام الثالث عشر أن أهل الأنبار ، تحصنوا من « خالد بن الوليد » فى حصونهم وخندقوا عليهم ، فتقدم إلى رماته وقال : « إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب

---

(٢٤) الفروسية ص ١٠١ .

(٢٥) ابن محمد بن عمر بن محاسن ابن عبد الكريم ينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب من علماء القرن الثامن بدأ فى تأليف كتابه سنة ٧٠٨ هـ .

(٢٦) آثار الأول فى تدبير الدول مطبوع بها من تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ص ١٦٧ ، ٦٨ .

(٢٧) نفس المرجع ص ١٨٣ .

(٢٨) هداية الرامى بخطوط مصور بالجامعة العربية – فيلم ٦٣٦ .

(٢٩) تاريخه جـ ٤ ص ٢٠ .

فارموا عيونهم ولا توخّوا غيرها، فرموها رشقاً واحداً ، ثم تابعوا الرمى ففُقِىء ألف عين يومئذ» وهذه الرواية على ما قد يكون فيها من مبالغة، تقفنا على التقدم السريع الذى أحرزه المسلمون فى فن الرماية ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً وقوة أن أحدهم كان يعتبر نفسه تيِّساً إذا فقد قوسه فى المعركة ، فلم يرم بها .

ولم يقف تقدم العرب عند القوس وحدها ، وإنما تناولوا سائر الأسلحة بالتحسين ، حتى أدهشوا فى ذلك الفرس والروم ، وقد اعترف بذلك الإمبراطور البيزنطى « ليو » مع ما عرف عنه من تعصب على العرب ، فقد نقل عنه العلامة « فون كريمر »[٣١] أنه قال « إن الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح ، فالأسلحة هى نفس الأسلحة : القوس والسهم ، والسيف والبلطة ، والخوذة وقاية الرأس ، والدرع وقاية البدن ، والحديد يُلبس فى الأذرع والسيقان . »

تطور القسىّ عند العرب :

كان العربىّ أول أمره يتخذ القوس من عود يحنى طرفيه ، ثم يشدّ بينهما وتراً ، فلما تقدم به الزمن تنوعت عنده الأقواس ، فصار لأهل البدو قسىّ متمايزة عن قسىّ أهل الحضر[٣٢] ، وشهرت فى بلاد العرب القسىّ (الحجازية) وهى عود من النبع أو الشوحط يحنى طرفاه وليس لها سيتان ولا مقابض ، وكان منها نوع يصنع من عودين ويسمونها « شُريحية » ولكن الذى من عود واحد كانت عندهم أجود[٣٤] .

ثم تطورت القسىّ بعد ذلك ، فصارت تصنع أجزاؤها منفصلة ، ثم تركب بعد ذلك وتلصق بالغراء[٣٤] ، ولذا كانوا يسمونها (المنفصلة) لانفصال أجزائها ، وصار لها سيتان ومقبض ، وكانوا يطلقون عليها أيضاً (الواسطية)[٣٥] وبها مجرى غائر بالخشب ، تجرى فيه السهام أمام الأوتار .

---

(٣٠) تاريخه ص ١١٧ .

(٣١) The Orient under the Caliphs. p. 328.

(٣٢) ابن القيم فى الفروسية ص ١٠١ .

(٣٣) نفس المرجع ص ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣٤) النويرى فى نهاية الأرب جـ ٦ ص ٢٢٨ .

(٣٥) ليست من عمل أهل واسط كما ذهب بعضهم ، بل هى أقدم من واسط — : السنجارى : هداية الرامى إلى الأغراض والمرامى . فيلم ٦٣٦ ، ويظهر أنها نسبت إلى صانعها .

ثم تطورت القسىّ ، وتعددت أنواعها ، وصارت تنسب إلى البلاد والصناع كالحجازية والدمشقية والواسطية وغيرها ، وأجودها عندهم كما ذكر صاحب « آثار الأول » ما كثر فُوقُها ، وقل خشبها ، وصحّ لحامها ، واشتد جفافها ، وقوى حبلها[٣٦] ، وإذا كانت القوس المنفصلة أقدم من واسط كما فى الهامش[٣٥] فمن الراجح أنها كانت مستعملة فى القرن الثانى الهجرى .

ولم يقف تطورها عند هذا الحد ، فصار إلى جانب القوس التى تطلق باليد ، قوس تطلق بالرجل مع اليد يتمطى فيها الرامى ، فيصد برجليه وينزع بيديه ذكرها « ابن القيم » ولم يوضح لنا كيفية الرمى بها ، ولكنه عقد فصلا طويلا عن تعليم الرمى ، وأوضاع الرامى ، وكيفية العمل بالقوس ، من قبض ومد وعقد وإطلاق ، إلى قواعد كثيرة كالتى يتعلمها جنودنا اليوم لأول عهدهم بالرماية ، كما عقد مناظرة أدبية بين قوس اليد وقوس الرجل[٣٧] ، ليس هنا موضعها ، ولا أدرى على وجه التأكيد ، هل استخدمت قوس الرجل فى تلك الفترة أولا ؟ أنظر شكل (٣) .

مما تقدم نرى أنه لا فرق بين تعليمات الرماية قديماً ، وتعليماتها فى الجيوش الحديثة ولكلٍّ زمان سلاحه ، وما علينا إلا أن نظهر للناس تراث السابقين الذين خدموا الفن الحربى بمؤلفاتهم ، التى لا تزال فى غيابات المكتبات .

وصف السهم وأجزاؤه :

القوس للرامى (كالبندقية) والأسهم كطلقاتها ، ولا بد للرامى من أن يحتفظ فى كنانته الجلدية ، بعدد من الأسهم عند القتال ، والسهم والنَّبل والنشاب أسماء لشىء واحد ، وهو عود رفيع من شجر صلب فى طول الذراع تقريباً ، يأخذه الجندى فينحته ويسويه ، ثم يفرض فيه فروضاً (حزوزا) دائرية ، ليركب فيها الريش ، ويشده عليها بالجلد المتين أو يلصقه بالغراء ويربطه ثم يركب فى قمته نصلا من حديد مدبب ، له سنتان فى عكس اتجاهه ، يجعلانه صعب الإخراج إذا نشب فى الجسم .

---

(٣٦) مطبوع بهامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٨٣ ، ولعل كلمة (لحامها) تصحيف (خامها) واللحام يكون بالغراء .

(٣٧) الفروسية ص ص ١٠٧ — ١٣٤ ، وعلى من أراد التوسعة فليرجع إلى هذا الكتاب ومخطوط السنجارى ، ومخطوط السيوطى ، وآثار الأول السابقة .

وأجود الخشب عندهم للقوس والسهم « ما اجتمع فيه الصلابة والخفة » ورقة البشرة وصفاء الأديم ، وكان طويل العرْق ، غير رخو ولا متنفّش، وأجود الخشب بالمشرق عود الشوحط ، وبالأندلس الصنوبر الأحمر الخفيف[٣٨] .

وللسهم عند العرب أسماء تختلف باختلاف أطوار صنعه، وهى أسماء تبين الطريق التى كان يسلكها حتى يصير سهماً. فهو فى أول أمره (قدْح) فإذا قوّم ونُحت فهو (مخشوب) فإذا لُين للريش والعقب فهو (مخلق) . . . فإذا فُرض فهو (فريض) فإذا ريش فهو (مريش) فإذا عمل له فُوق قلت (فوّقت)[٣٩] » . وإليك توضيح هذه المسميات والمصطلحات ، كما فى المراجع اللغوية .

أجزاء السهم :

١ — القدْح : وهو جسم السهم المتخذ من الخشب الصلب الخفيف والقصير منه فى طول الذراع ، ويسمونه (الحُظوة) وقد يزيد عن ذلك[٤٠] . وقد يكون فى سمك الإصبع ، وقد يكون فى سمك القلم .

٢ — النصل : وهو حديدة يطرقها الحداد، ويلوحها على الجمر حتى تصير زرقاء، ثم تُبْرد بالمبرد، ويجعل له شوكات جانبية تجعل نزعه صعباً إذا نشب ، وله أسماء مختلفة أكثر منها « ابن سيده » ولا داعى للإكثار منها هنا[٤١] ، ويكفينا فى معرفة أنواعها قوله « ومن نصال السهام العريضُ الطويل ، والعريض القصير ، والمدوّر المدملك ولا عرضْ له ، ومنها ما هو كمخيط أو مسلة ، ليست له حروف ولا شفرة ، ومنها ما هو قدر الإصبع ، ومنها ما هو مثل النواة[٤٢] » . وذكر فى موضع آخر أنه قد يكون النصل مشعباً ، ومنه ماله أربع شعب ، وهو سهم طويل بعيد المرمى وسماه « المرّيخ[٤٣] » .

---

(٣٨) مخطوط السنجارى . الهداية .

(٣٩) انظر هداية الرامى للسنجارى السابق باب ٤٥ .

(٤٠) ابن سيدة : المخصص جـ ٦ ص ٥١ .

(٤١) نفس المرجع ص ٦٠ .

(٤٢) ابن سيده : المخصص ص ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٤٣) المرجع نفسه ص ٥١ .

٣ — سنخ النصل: وهو أصله من أسفل، الذى يجوّف ثم يدخل فيه أعلى القدح

٤ — الرُّعظ : وهو مدخل السنخ الذى يوضع فيه القدح .

٥ — العَقب : لفائف من سير جلدى أو عصب، تلفّ حول الرعظ لتمكين النصل من القدح ، ويقال له أحياناً « الرصفة أو الرصافة[٤٤] » .

٦ — الفُوق : وهو تجويف يفرض فى أسفل السهم ، ليثبَّت فيه الوتر قبل الرمى.

٧ — زنمتا الفوق : جاء فى المخصص أن حرفى الفوق يسميان زنمتاه أو رجلاه .

٨ — الشريجة : العَقبة التى يلزق بها ريش السهم ، ليزنه فى سيره ويسرع به إلى الهدف ، ويقال فى اللغة: راش السهم فالسهم مريش، ويقال لها « الطنبة[٤٥] » أيضاً .

٩ — الريش: وهو ريش طير يركَّب على جانبى السهم فى الفروض التى فرضت له، ثم يشد عليه بالعقب فى أسفله، أو يلصق بالغراء إذا كان بلا فروض[٤٦]، وذكر « ابن سيده » أن « عدد الريش غالباً اثنتان أو ثلاث» وظيفتها حفظ توازن السهم وعدم اضطرابه عند السير إلى الغرض، كما ذكر أن بعضهم «حذّر الرامى من أن يجعل ريشتين معاً لظهر أو لبطن أو يجعل ريشتين لظهرهما والثالثة لبطنها فيضطرب السهم فى سيره، كما حذّر من أن تؤخذ ريشة من عقاب، وأخرى من نسر وثالثة من غراب أو رخمة لاختلاف الصلابة[٤٧] » . انظر شكل « ٣ »

وأجود الريش عندهم ريش النَّسر ، ثم ريش العُقاب ، فإن عدم الريش فالكاغَد (الورق) وريش الأذناب خير من ريش الجناحين ، وكانوا يفضلون خوافى الجناحين على قوادمها ويسمونها « الدخل » وهو الذى لا يلى الشمس أو المطر من الطائر ، ولا يلى الأرض منه إذا جثم ، وإنما يقع بينهما ، وذلك لأن الشمس

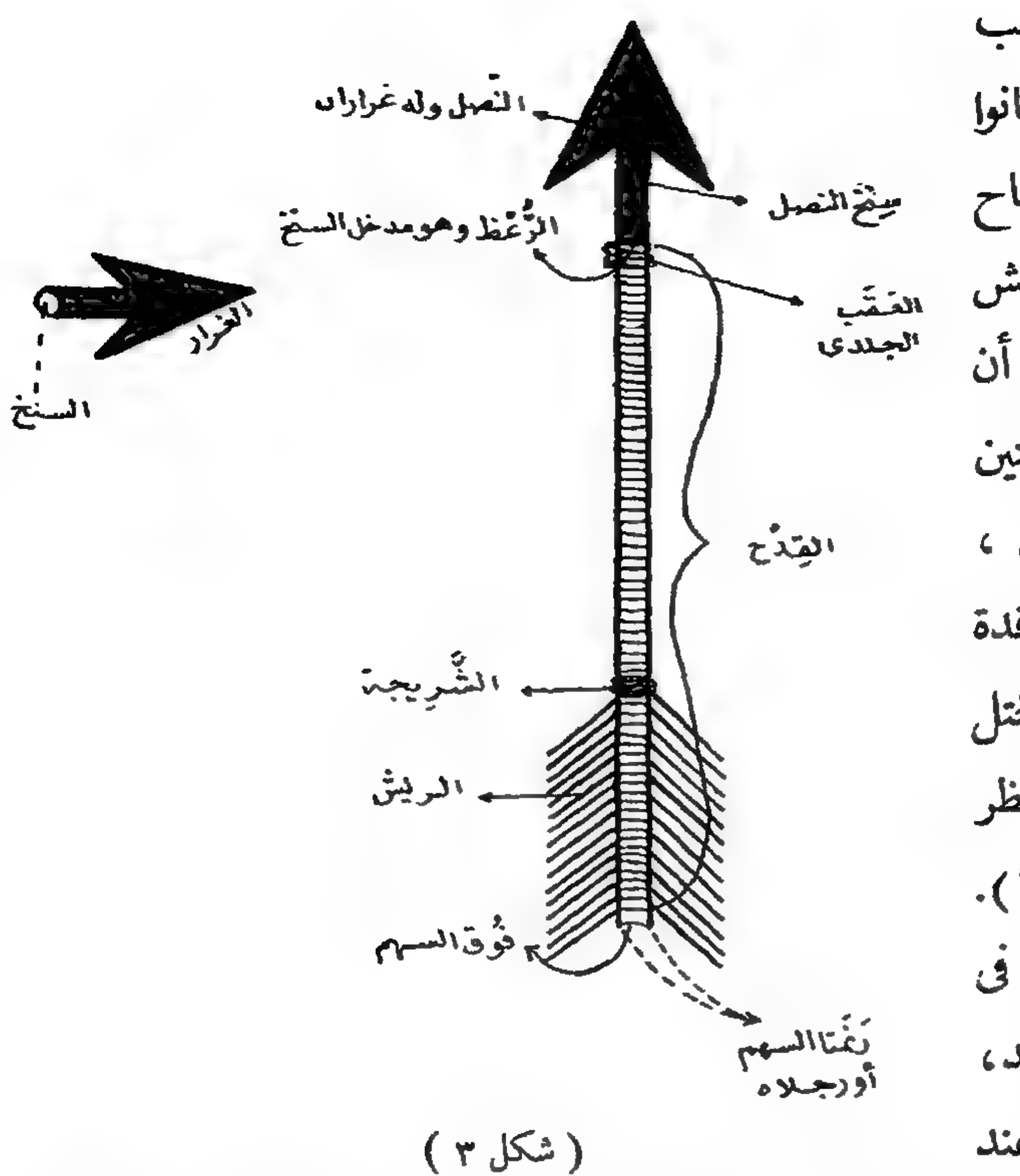
(٤٤) القاموس المحيط مواد (رصف ، رعظ ، ريش ، فوق) .

(٤٥) انظر فى هذه الأجزاء المخصص ، والإفصاح فى آلات القتال ، والقاموس المحيط مادة (شرح وعقب) .

(٤٦) المخصص جـ ٦ ص ٥٦ .

(٤٧) ابن سيده — المخصص جـ ٦ ص ٥٧ .

لا تصيبه، فلا تتشْعب أطرافه إذا رُمى به وكانوا يفضلون ريش الجناح الشمال ؛ لهدوئه عن ريش اليمين ، وحذروا من أن تكون إحدى الريشتين أثقل من الأخرى ، أو تكون إحداهما راقدة والأخرى قائمة ، فيختل التوازن [٤٨] ، (انظر رسم السهم شكل ٣). وكان الرامى يلبس فى إبهام يمناه أنملة من جلد، لئلا يؤذيه الوتر عند



(شكل ٣)

الرمى، وهى أداة تسمى « الخـتَيعة » تشبه الأداة التى يلبسها الحائكون فى أناملهم ، لاتقاء وخزات الإبر .

ومن مستلزمات السهام الكنانة، وهى الوعاء الذى تودع فيها مثل البُلّ الذى يلبسه الجندى ليحفظ فيه الطلقات حديثاً، وهى وعاء من قوائم خشبية ، يوصل ما بينها بالجلد ، أو وعاء جلدى لا خشب فيه ، وفى تلك الحال كانوا يشقون الجلد ثم يخيطونه مرة أخرى ، ليصل الهواء إلى الريش فلا يفسد [٤٩] .

وهناك نوع يرمى السهام الكبيرة ؛ يسمى « البالستا » وهو نوع متأخر ، ذكرهنا للفائدة .

---

(٤٨) المصدر نفسه ص ٥٧ وهداية الرامى باب ٤٥ .

(٤٩) المصدر نفسه ص ٦٩ .

استعمالات السهم :

الأصل فى السهام أن يُرمى بها عن بعد ، سواء أكان ذلك فى ميدان مكشوف أم من وراء الأسوار والحصون ، وهو سلاح قَتّال فتّاك ، وبخاصة إذا سقِى نصله بالسم ، كما كان يفعل رماة الروم بسهامهم [٥٠] ، وقد سبق فى الكلمة التاريخية عن القوس بيان أهمية الرماية [٥١] .

وفى بعض الأحيان كانت السهام تستعمل كأداة للتخاطب ، يكتب عليها راميها ما يشاء ، ثم يرميها لمن شاء ، حفظاً للسرية ، وأكثر ما كان يحدث هذا فى حصار الحصون ، فإذا أراد المهاجم أن ينشر الذعر بين المحاصَرين كتب لهم على السهم أو على ورقة مربوطة به ، أخباراً تحطم روحهم المعنوية أو أخباراً وأمنيات ، تجعلهم يميلون إلى التسليم ثم يرمى به إليهم ، وقد يكون من فى الحصن يرغبون فى التسليم ، فيطلبون الأمان مكتوباً ، ثم يرمون به فى سهم إلى من فى الخارج [٥٢] وأحياناً كانت تدبر المؤامرات والمكائد ، ضدّ بعض القواد بلا علمه ، وتجرى المخاطبات بين أتباعه وأعدائه مراسلة بالسهام [٥٣] ، فتتم المؤامرة فى جوّ من السرية .

روى « ابن الأثير » أن رجلا من المحاصرين فى مدينة « رامهُرمز » رمى إلى المسلمين يستأمنهم بسهم فأمنّوه ، فدلهم على مدخل المدينة ، وأن المسلمين لما حاصروا مدينة « جُنديْسابور » رمى عبد من عبيدهم بالأمان إلى من بها ، ففتحوا أبوابها وقالوا : رميتم لنا بالأمان فقبلناه وأقررنا بالجزية ، فقبلوا منهم [٥٤] . وأجاز القائد أمان ذلك العبد ، وإن كان بدون علمه .

ولأهمية القوس فى القتال والمراسلة والتخاطب ، كانت تؤلَّف لها فرق خاصة تسمى « النبّالة أو النشاشبة » يتقدمون الجيش ، حافظين أوتارهم من الشمس والمطر ، محتفظين بأوتار احتياطية ، ليبدّل أحدهم الوتر إذا ضعف ، ضماناً لجودة الرمى

---

(٥٠) V. Kremer : The Orient under the Caliphs. p. 331.

(٥١) انظر الهوامش ١٣ — ٢٣ من هذا الفصل .

(٥٢) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٥٣) أنظر ابن الأثير فى الكامل جـ ٤ ص ١٤١ .

(٥٤) نفس المرجع جـ ٢ ص ص ٢٣١ — ٢٣٤ .

(٥٥) الناقل الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « الفتوة عند العرب » ص ٢٤٣ .

واستمراره ، كما تبدل مواسير بعض الرشاشات فى الجيوش الحديثة ، خوفاً عليها أن تكسر ، وضماناً لاستمرار الرمى .

السهم والبندق :

نقل بعض الباحثين عن « ابن الأثير » أن العرب استخدموا الرمى بالبندق زمن « عثمان » وأنهم أخذوه عن الفرس[٥٥] ، وقد يظن قارىء الخبر أن هذا سلاح كان يستخدم فى القتال ، والواقع أنه كان رياضة تستخدم فى صيد الطيور ، حيث يجهز قوس به قناة توضع فيها حصَيات ٌ فى حجم (البندق) ثم يقذفها السهم أمامه ، فهى أضعف من أن تقتل الرجال أو تجرحهم .

وهناك بعض الأدلة التى تؤيد أنه كان عملا يقصد به اللهو ، ولا يقصد به القتل :

١ — ما نقله الأستاذ نفسه فى الخبر ، من أن العرب زمن « عثمان » كانوا يعدون هذا العمل منكراً يجب اجتنابه ، ويعيبون على المشتغلين به ، ولو كان عملا حربياً لشجعوه ورغّبوا فيه .

٢ — أنه كان « للرشيد » فرقة تسير بين يديه ، ترمى بالبندق من يقف فى طريق موكبه ، وليس من المعقول أن يبغى الرشيد قتل من يزحم طريقه ، وإنما هى كُراة من طين أو من حجارة تنبه ولا تجرح .

٣ — روى « أبو إسحاق الصابى » فى رسائله ، أن رمى البندق كان يستخدم للصيد ، تلهياً به عند السادة ، وتكسباً عند العامة ، حيث يقول فى وصف رمى البندق وآلاته[٥٦] : « يعتّده الخاصة مسرة وملعباً ، والعامة حرفة ومكسباً ، الصيد الذى فاتحته طِلاب لذة ووطر ، وخاتمته حصول مغنم وظفر ، وقد اشتركت الملوك والسوقة فى استحْماله[٥٧] ، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله ، ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه ، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه ، وهو رائض للأبدان ، وجامع شمل الإخوان»

---

(٥٦) رسائل الصابى : مصور بالجامعة العربية . فيلم ٣١٩٣ ورقة ١٧٤ .

(٥٧) كذا بالأصل ولعلها تصحيف لكلمة (استعماله) .

(ب) الرمح

وصفه وتسمية أجزائه :

كان العربى يتخذ رمحه من فروع أشجار صلبة لدنة ، أشهرها النبع والشوحط وأحياناً كان يأخذه من القصب الهندى المجوف Bamboo الذى يسمى عند العامة (البوص) بعد تسوية عقده بالسكين ، وتركيب نصل من حديد فى رأسه ، وأهم أجزائه هى :

١ — المتن أو العامل : وهو جسم الرمح كله من أعلاه إلى أسفله، قبل أن يُركب عليه النصل .

٢ — الكعوب : هى العُقد التى تكون فى الفرع ، ثم تسوّى حتى تصير ملساء .

٣ — الزُّج : وهو حديدة تركب فى أسفله مدببة الطرف ، تساعد على إثباته فى الأرض ويُطعن بها أيضاً فى المعركة عند الحاجة إليها .

٤ — العالية : وهى الجزء العلوى ، الذى تحت النصل ويسمونه (صدر الرمح) وليس له حد معروف قال زهير :

ومن يعص أطراف الزِّجاج فإنه　　يطيع العوالى ركِّبت كل لهذم

٥ — السنان : وهو الجزء الذى يركب فوقه للطعن به، وكان أولا يُتخذ من قرون البقر الوحشى[٥٨] ، ثم صار يتخذ من الحديد الجيد النقى ، ولذا كانوا يصفونه بالزرقة لصفائه، وله أشكال مختلفة، فمن الأسنة العريض كالكف المدبب من الطرف ، محدد الجانبين ، ومنها ما يكون من شعبتين : إحداهما مستقيمة كالسكين، والثانية متعرجة، ومنها السنان الرفيع الطويل، وعنه نقلت فكرة (السنكى) الذى يركب على البندقية الحديثة ، ومنها الرفيع المعرّج المموج، الذى يحدث فجوة عند الطعن به[٥٩] .

٦ — الثعلبة : وهى الجزء الأسفل من السنان ، الذى يدخل فيه أعلى الرمح .

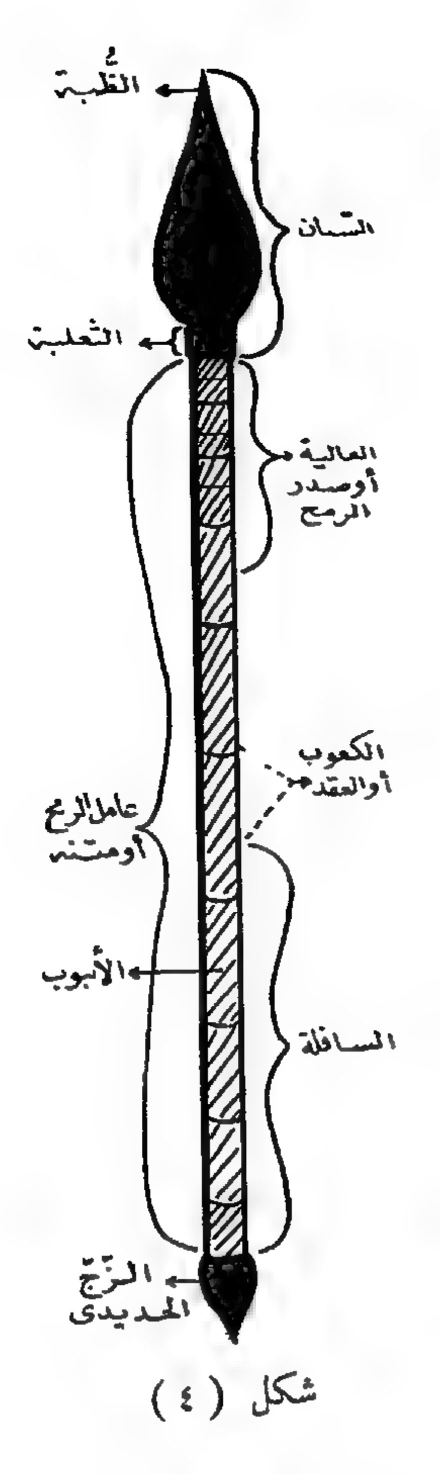
٧ — الظُّبة : وهى نهاية السنان المدبب من أعلاه . انظر الأشكال (٤ ، ٥) .

---

(٥٨) انظر المخصص ج ٦ ص ٣٤ .

(٥٩) زيدان فى تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٧ ، وثابت فى تاريخ الجندية ص ١٨٣ والمتاحف الحربية والإسلامية .

وذكر « البستانى » من أنواع الرماح « الخطاف » وهوقناة طويلة فى رأسها حربة ، أو حربتان مستقيمتان وحربة عوجاء ، كانوا يستعملونها للطعن أو النقب أو لجر العدو عن بعد ، خصوصاً عند الهجوم على الأسوار والحصون[٦٠] .



شكل (٤)

الرمح والحربة :

الرمح سلاح عريق فى القدم ، شاع استعماله عند قدماء المصريين والشعوب القديمة[٦١] ، وكان أكثر شيوعاً عند الأمم التى تسكن الصحراء ، ومنهم العرب ، فهو عماد العربى فى صحرائه الواسعة ، ينشر عليه ثوبه فيستظل به إذا لفحه الهجير ، ويصيد به الوحش إذا جاع ، ويهُش به أوراق الشجر على غنمه ، ويدفع به عن نفسه عدوان المعتدين ، يتخذه الفقير من فروع الشجر ، والغنى من نادر الخشب وكرائم العيدان ، كالأبنوس وألباب الغصون الكريمة[٦٢] . كلٌّ بحسب قدرته المالية ، ومركزه فى مجتمعه ، وقدرته وبطولته بين لداته .

وقد شجع الرسول (ص) المسلمين على اقتنائه بالإشادة به فى قوله لما رأى القوس :

« بهذه وبرماح القنا تفتحون البلاد » وقوله : « جُعل رزقى تحت ظلّ رمحى »[٦٣]

وكان للرمح أطوال مختلفة ، تتراوح بين الأربعة أذرع والخمسة والعشرة وما فوقها ، يشهد لذلك ما رواه « الجاحظ » من شعر العرب ، قال الشاعر :

---

(٦٠) دائرة المعارف له جـ ١٦ ص ٦٩٩ .

(٦١) دائرة المعارف له ص ٦٩٦ .

(٦٢) الجاحظ فى البيان والتبيين ط القاهرة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م جـ ٣ ص ٦٤ .

(٦٣) الحديثان من صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٠٠ ، ونهاية الأرب للنويرى ط دار الكتب سفر ٦ ص ٢١٤ .

وأسمرَ خطيًّا كأن كعوبه نوى القَسْبِ قد أرمى ذراعاً على العشر (٦٤)

فهو يفخر بأن رمحه صُلب العُقد كنوى التمر اليابس، وأنه طويل يزيد على عشرة أذرع ؛ لأن طوله دليل على شدة احتمال صاحبه ، وعامل من عوامل الهيبة فى عين العدو .

ومما قاله الجاحظ فى أطوال الرماح :

« للرماح طبقات: منها « النيْزك » ومنها المربوع ، ومنها المخموس ومنها التام ، ومنها الخطِل، وهو الذى يضطرب فى يد صاحبه لإفراط طوله . (٦٥) . « وأورد لذلك شواهد شعرية لاداعى للإكثار منها .

والذى يفهم من النصوص أن الرماح الطوال ، كانت خاصة بالفرسان حيث تساعدهم الخيل على حملها ، والعمل بها عند اللقاء ، أما « النيازك أو المطارد ؛ وهى الرماح القصيرة فكانت تستخدم فى حالين :

١ — عند مطاردة الهاربين . فربما شد أحدهم على الفارس المولّى فيفوته ، بأن يكون رمحه مربوعاً أو مخموساً ، وعندئذ يستعملون النيازك وهى أقصر الرماح ، فإذا كان الفارسُ الهارب يفوت الفارسَ الطالب، زجه بالنيزك أى رماه به عن بعد .

٢ — أن يخاف الفارس الطاعن من المطعون لقوته ، فإنه فى تلك الحال يرمى بالحربة عن بعد ولا يطعن بالرمح ، وفى هذا يقول الجاحظ : « وربما هاب مخالطته فيستعمل الزّج دون الطعن » .

فى لغة العرب أن« الحربة والنيزك والمزراق والمطرد والعنَزَة ؛ كلها أسماء لشىء واحد » وهى القصار من الرماح التى لم تبلغ أربعة أذرع وهى أشبه شىء بالعصا . وتفيد النصوص أن العرب نقلوا هذه الأنواع القصيرة ، عن الأحباش والنوبة الذين عرفوا بالمهارة فى القذف بها ، فقد روت السيدة « عائشة » أن الأحباش كانوا يفدون إلى المدينة ، فيلعبون بحرابهم لعب الحبشة أما م الرسول وصحبه(٦٧) ، وروى « الطبرى » اختصاص الأحباش بالقذف بالحربة فقال فى

(٦٤) المرجع السابق للجاحظ ص ١٩ .

(٦٥) انظر المرجع السابق ص ص ١٩ ، ٢٠ ، وأصل نيزك بالفارسية « نيزه » ثم عرب كما ورد فى معجم اللغة الفارسية للدكتور هنداوى ص ٣٣٨ .

(٦٦) نفس المرجع السابق (رقم ٦٥) البيان للجاحظ ج ٣ ص ١٩ .

(٦٧) صحيح البخارى ج ٥ ص ص ٩٥ ، ٩٧ .

قاتل حمزة : « كان وحشىٌّ غلاماً حبشياً يقذف بحربة له قذف الحبشة[٦٨] » . وقد اعترف شاعر الرسول نفسه ، بأنها سلاح ما هو بسلاح العرب ، إن صحت رواية « أبى الفرج[٦٩] » . عنه فى غزوة أحد .

وأغلب الظن أن العرب نقلوا عن النوبة استخدام هذا السلاح ولكن فى نطاق ضيق ، فقد أخذ الرسول الحربة من بعض أصحابه يوم أحد ، ثم قذف بها « أبىّ ابن خلف » الذى جاء يطلب قتله ، وفى يوم الخندق رأينا « سعد بن عُبادة » يحمل الحربة فى يده دائماً[٧٠] .

أهمية الرمح وكيفية حمله واستخدامه :

كان العرب يعنون بالرمح ، ويفضلون القناة الصماء على الجوفاء لصلابتها وغنائها فى المعارك ، فيوالون دهنها بالزيت لتحافظ على مرونتها ولدونتها[٧١] ، ويديمون العناية بها ، لتحافظ على لمعانها وجودتها .

وكما نسب العرب السيوف إلى صناعها ، نسبوا كذلك الرماح « فالسمهرية » عندهم الصلبة ، التى تنسب إلى رجل معروف بتقويم الرماح يسمى « سمهر » « والزاغبية » المنسوبة إلى « زاغب » واليزنية المنسوبة إلى « ذى يزن » ، والرمح « الرّدينى » المنسوب إلى امرأة تسمى « رُدينة » وهى امرأة كانت تبيع الرماح[٧٢] معروفة .

ويظهر أن الرماح الجوفاء كانت ترد للعرب من فارس والهند ، لأنه ليس ببلادهم ذلك النوع من القصب ، ولأنهم نسبوا رماحهم الصماء إلى صناعها كما رأيت ، إلا الرماح الخطية ، فإنهم نسبوها للخط وهو كما روى « ياقوت وابن سيده » مرفأ للسفن بالبحرين تنسب إليه الرماح ، وليس بمنبت لها ولكن تحمل إليه القنا من الهند ، كما نسبوا المسك إلى « دارين » وهى مرفأ يحمل إليه من

---

(٦٨) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٠ .
(٦٩) الأغانى ط الساسى ج ١٤ ص ٢٠ .
(٧٠) سيرة ابن هشام ط الحلبى ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٧١) الجاحظ فى البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٠ ونهاية الأرب للنويرى ج ٦ ص ٢٢١ .

الهندأيضاً[٧٣] ، فليس الخط إذاً مكان نموها أو صنعها .

أما طريقة حمل الرمح فكانت فى الغالب « الاعتقال » وهو خاص بالفرسان ولذا كان يقال عندهم : « اعتقل رمحه » إذا جعله بين ركابه وساقه[٧٤] بحيث يكون النصل لأعلى والزج لأسفل ، على أنه كان لبعض قبائل العرب طرائق خاصه فى حمله ، « فبنو سُليم » كانوا إذا ركبوا يضعون رماحهم بين آذان خيلهم » « والأوس والخزرج» كانوا يحملونها عليها مستعرضة ، أما « القرشيون » فكانوا يحملون رماحهم على عواتقهم[٧٥].

وكان المسلمون يقضون وقتاً طويلا فى التمرن على استخدامها ، أما بمطاردة الوحوش وطعنها بها ، وإما بإعداد حلقة من الحديد تسمى « الوَترَة » يتمرنون على الطعن داخلها حتى حذقوا الطعن بها ، وصارت لهم فيه طريقة تغاير طريقة الفرس

وفى كتاب « آثار الأول » تفصيلات وافيه عن طرق المبارزة ، يصح الاكتفاء منا بما يأتى :

« منها (المواجهة) وهى أن تحمل على مبارزك ، وقد أخذت الرمح تحت إبطك ، وجعلته بين أذنى فرسك ، وتقصده مستوياً حتى تقرب منه ، فإن رأيته قد طرح رمحه يَمنةً فاطرح رمحك يسرة ، وإن طرح رمحه يسرة فاطرح رمحك يمنة ، واجتهد أن تبدأ بالحمل عليه وأنت مسدد ، وتحول الرمح يمنة ويسرة كى تدهشه ، فلا يدرى من أين تجيؤه ، فإذا دنوت منه دخلتَ عليه من الخلل الذى لا يكون رمحه فيه ، وإذا أردت أن تبتدىء بالخروج فخذ أسفل الرمح بيدك اليمنى ، ورأسه إلى الهواء ، وهو على عاتقك الأيمن[٧٦] » .

ثم أبدع المسلمون بعد ذلك فى فنون الطعن بالرماح ، وصار لهم طرق فى اللعب بها بين أيدى الملوك ، وفى الاستعراضات العامة ، وصاروا يهتمون بأبطال طعنات الخصم أكثر من اهتمامهم بطعنه ، وعرف عندهم « الطعن الحجازى »

---

(٧٢) انظر النويرى فى نهاية الأرب جـ ٦ ص ٢١٥ ، وابن سيدة فى المخصص جـ ٦ ص ٣٣ .

(٧٣) انظر المخصص سفر ٦ ص ٣٤ ، والخط فى معجم البلدان .

(٧٤) نهاية الأرب السابق ص ٢١٨ .

(٧٥) انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٧٦) الحسن بن عبد الله فى آثار الأول — بهامش تاريخ الخلفاء ص ١٨٦ .

والطعن « الرومانى » والطعن « الفارسى » ومن أراد التوسعة فى ذلك فليرجع إلى « آثار الأول » وكتاب « نجم الدين الرّماح » فى ذلك الفن ، ففيهما تفصيلات طويلة

(جـ) السيف وما يتعلق به

أهمية السيف :

السيف أشرف الأسلحة عند العرب ، وأكثرها غناء فى القتال يحافظ كل عربى عليه ولا يكاد يفارقه ، وقد امتلأت بتمجيده أشعارهم ، وجاوزت أسماؤه المئة فى لغتهم ، وأطلق بعض أبطالهم الأعلام على سيوفهم فمنها (الصمصامة وذو الفقار[٧٧] والبتار والقلعى وذو الخرطوم وذو النون وغير ذلك من الأسماء[٧٨]) ، وبلغ ثمنه عندهم فوق الألف من الدراهم أحياناً .

وهو آخر الأسلحة استعمالا فى المعركة بعد القوس والرمح؛ فهو الذى يحدد مصيرها ، وعلى حسن بلائه تتوقف نهايتها ، ويكتفى لبيان فضله قول الرسول (ص) « الجنة تحت ظلال السيوف [٧٩]» . وهو أعم أسلحة العرب وأكثرها شيوعاً ، يدل على ذلك أن الرسول لما استولى على غنائم (بنى قريظة) كان معظمها السيوف فقد غنم منهم ١٥٠٠ سيف ، ٣٠٠ درع ، ٢٠٠ رمح ، ٥٠٠ ترس ، ولمضاء قطعه والاعتماد عليه ، كان بعض الجند لا يكتفى بسيف واحد ، وقد بالغ بعضهم فرغب فى أن يكون لكل محارب سيفان[٨٠] : سيف فى وسطه وسيف يتقلده ، وذلك لأن السيف قد ينشب فى الترس ، وقد يلتوى أو يتثلم وقد ينكسر — كما حدث لخالد بن الوليد يوم مُؤتة — فقد انكسرت فى يده تسعة أسياف ، ولم يصبر معه إلا سيف يمانى جيد .

---

(٧٧) سمى بذلك لحزوز مطمئنة على متنه كفقار الظهر ، النويرى فى نهاية الأرب جـ ٦ ص ٢٠٦ .

(٧٨) نفس المرجع والطبرى جـ ٣ ص ١٨٤ والقاموس فى المواد المذكورة .

(٧٩) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٥٣ .

(٨٠) انظر كشف الكروب لموسى اليوسفى مخطوط بالمتحف الحربى ورقة ٧ .

أجزاء السيف :

١ ـــ قائم السيف : وهو مقبضه وموضع اليدمنه ، وقد يكون من حديد كالسيف وقد يكون من عاج أو أبنوس ، أو غير ذلك من المعادن الكريمة ، ويسميه النويرى (النِّصاب) .

٢ ـــ النصل : وهو جسم السيف كله ما عدا القائم ، ويكون من الحديد الجيد المطروق .

٣ ـــ السِّيلان : وهو أصل المقبض من نهايته ، مما يلى شحمة الكف ويسميها النويرى « القبيعة » .

٤ ـــ الكُلاَّب : وهو جزء مستعرض فى نهاية القائم ، مما يلى نصل السيف ، فالقائم يكون محصوراً بين السيلان والكلاب ويكون بارزاً من الجانبين ولذا سموه أيضاً (الشاربان) لأنه فى صورة الشارب .

٥ ـــ الشفرة : وهى حد السيف الذى يرقق ويشحذ ، ويقال له (الغرار) أيضاً ومن السيوف ماله (غراران) من الجانبين [٨١] وقد جاء فى شعرهم : « بكل رقيق الشفرتين يمانى » .

٦ ـــ المتن : وهو ظهره المقابل للشفرة ، ويكون أغلظ منها وأقوى ، ويكون فيه غالباً حزوز عرضية ، كهيئة المبرد .

٧ ـــ المضرب : وهو الجزء الذى يضرب به منه ، وهو نحو شبر من طرفه [٨٢] ، وهو القدر الذى يكون مقوساً منه .

٨ ـــ الذؤابة : وهى طرفه المدبب من أعلى ، ويقال لها الذبابة أيضاً .. أنظر شكل (٦)

---

(٨١) النويرى فى نهاية الأرب جـ ٦ ص ص ٣٠٧ ، ٢٠٨ .

(٨٢) نفس المرجع ص ٢٠٨ .

أنواع السيوف وأطوالها :

وسيوف العرب أنواع كثيرة ، تختلف باختلاف صناعها وأماكن صنعها، وأشهرها :

١ — السيف اليمانى : نسبة إلى اليمن التى كانت مشهورة بصناعة السيوف ، ويظهر أن مادتها الخام كانت تأتيها من الهند، ولم تصبر مع « خالد بن الوليد » يوم مؤتة إلا صفيحة له يمانية بعد أن انكسرت فى يده تسعة أسياف .

٢ — الهندى : أو الهندوانى أو المهند وهو المصنوع بالهند وكان يلى اليمانى فى الجودة .

(شكل رقم ٦)

٣ — المشرفى : المنسوب إلى مشارف الشام، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف[٨٣] ، وقد علل الدكتور « على الجندى »[٨٤] تلك التسمية ، بأنها نسبة إلى صانعها ، وهو رجل من ثقيف كان يسمى « مشرف » ولكنه لم يذكر مصدره .

٤ — البُصروى : المنسوب إلى « بصرى » بالشام ، وفى شعرهم (صفائح بُصرى أخلصتها قيونها[٨٥]) . . .

٥ — القَلَعى : نسبة إلى (القلَعة) بفتح القاف واللام ، وهى عند « النويرى » حصن بالبادية ، وعند صاحب القاموس بلد من بلاد الهند ، وإليه ينسب الرصاص والسيوف .

٦ — السُّليمانى : ولم يذكر أحد العلة فى تسميته ، ويظهر أنه سمى بذلك ،

---

(٨٣) المرجع نفسه ص ٢٠٦ والقاموس المحيط مادة (شرف) .

(٨٤) رسالة عن شعر الحرب فى العصر الجاهلى ص ١٥٩ .

(٨٥) نهاية الأرب جـ ٦ ص ٢٠٢ .

لما كان يسقى به من السم (السليمانى) ليزيد فى صلابته ومضائه ، وللسقى بالسم شاهد من الشعر العربى ، يقول الشاعر فى وصف الصمصامة :

أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت به الذعاف القيون[٨٦]

٧ – السُّريجية : نسبة إلى حداد يسمى «سُريج» ويذكر «على الجندى» فى رسالته أنه عبد رومى تنتسب إليه السيوف الرومية ولم يذكر أيضاً مرجعه[٨٧] هذه أهم أنواع السيوف ، ومنها نعلم أن أجودها عندهم ما كان هندى الأصل أو رومى الصنعة .

هذا والذى يفهم من الشعر العربى ، أن المسلمين كانوا يفضلون السيوف المرهفة الخفاف على الغلاظ ، وكثيراً ما كان «حسان ابن ثابت» وغيره يشبهون لون السيف بالملح فى شدة صفائه وبياضه ، ولا داعى لذكر الشواهد خشية الخروج عن القصد[٨٨] .

وقد صرح الأستاذ «جورجى زيدان» بأن السيوف العربية أكثر قطعها فى اللين ، فإذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت ، وفضل عليها سيوف الروم التى كانت تسقى لدرجة أنها تبرى الحديد[٨٩] ، ولكن الآثار الواردة تفيدنا أن السيوف العربية كانت صلبة قاطعة ، تبرى الأذرع والسيقان، وتفلق الهام ، قال (حسان بن ثابت فى سيف : –

إذا ما يصادف صُمّ العظام لم يَنْبُ عنها ولم ينثلم

وورد أيضاً أنها كانت تقطع حديد الدرع ، وتقطع مغاليق الحصون الحديدية وغيرها ، كالسلاسل والقيوم ونحوها ، ولا أدرى علام بنى الأستاذ «زيدان» حكمه هذا ؟ أما أطوال السيوف فلم يُكتب لى التوفيق فى تحديدها، ولكن الذى يفهم من النصوص المختلفة أن بعض السيوف كان طويلا ، وبعضها كان قصيراً ،

(٨٦) نفس المرجع ص ٢١٣ .
(٨٧) الرسالة السابقة ص ١٦٠ .
(٨٨) اقرأ ديوان حسان طبعة ١٣٣١ هـ ص ص ٢١٠ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٢٥٧ .
(٨٩) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥٦ .

ويساعدنا فى ذلك الحكم نماذجها المحفوظة بالمتحف الحربى ، والمتحف الإسلامى ، فإنها مختلفة الأطوال ، وقد ورد أن بعض القبائل كانت معروفة بطول سيوفها « كبنى عبد المطلب »[٩٠] وأن بعضها كانت تفضل قصر السيف على طوله ، للدلالة على الشجاعة والإقدام ، قال الشاعر :

إذا قَصُرت أسيافنا عن عُداتنا مددنا خطانا نحوها فتطول

وكان « علىّ » رضى الله عنه ينصح لأتباعه ، ، أن يصلوا السيوف بالخطا ، لإظهار الإقدام والشجاعة[٩١] .

ويصح بعد ذلك أن نعرف ما إذا كانت سيوف المسلمين معتدلة أو مقوسة ، أما النماذج الموجودة بالمتاحف فلا توضح تلك الحقيقة ، رغم أنها جميعاً من العصور المتأخرة ، إذ يندر جداً أن يبقى سيف معرّض للصدأ ، من القرن الثانى الهجرى حتى الآن ، ولكن الذى يفهم من بعض النصوص أنها كانت مستقيمة ثم اعتراها التقوس أخيراً ، يشهد لذلك أن بعض الجند يوم أحد ذبّ فرسه بذنبه ، فأصاب كُلاَّب سيف لجاره ، فاستله من غمده[٩٢] ، ولو كان سيفه مقوساً أو منحنياً ما نزع بمثل هذه السهولة ، وقد أفتى الخبراء المختصون بدراسة السلاح الإسلامى بأن سيوف المسلمين كانت معتدلة لا تعرف ا لانحناء[٩٣] .

حلية السيف وطريقة حمله :

كان الجاهليون يُحلّون سيوفهم، برسم صور الحيات والأسماك عليها بطريقة التكفيت ، وهو إما بالنحاس أو الفضة ، أو غيرها من المعادن الثمينة ؛ ولذا كان من سيوفهم ما يسمى : « ذو الحيات وذو النون[٩٤] . ، ولكن المسلمين الأولين كانوا لا يحفلون بحلية سيوفهم، امتثالا لنهى الرسول عليه السلام عن التصوير والتمثيل ، الذى يعيد للأذهان ذكرى الوثنية الجاهلية ، فقد أهدى إليه فى بعض الأيام

---

(٩٠) المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٩١) نفس المرجع ص ٣٨٩ ، وكشف الكروب المخطوط لليوسفى ورقة ١٠ .

(٩٢) الأغانى ج ١٤ ص ١٤ .

(٩٣) الدكتور عبد الرحمن زكى فى حديث شفوى معه .

(٩٤) الدكتور على الجندى فى رسالته ص ١٥٨ ، ونهاية الأرب ج ٦ ص ٢٠٨ .

ترس فيه صورة عقاب أو كبش فأزالها منه[٩٥] .

لهذا ما كان المسلمون يُحلون سيوفهم بالذهب ولا الفضة ، وإنما كانت حليتهم على جفون سيوفهم الرصاص والعلابى والحديد[٩٦] . لا يزيدون عليها وإن رخّص لهم الإسلام فى تحليتها بغير الصور ، فقد ورد أن السيف الذى أعطاه الرسول عليه السلام أبا دجانة يوم أحد ، كان مكتوباً على إحدى صفحتيه قول الشاعر:

فى الجبن عار وفى الإقبال مكرُمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر[٩٧]

وكان ذو الفقار سيفُ الرسول له حلية من الفضة على مقبضه ، كما كانت حلقته وعلاقته من الفضة[٩٨] . ؛ وهذا يدلنا على القدر المسموح به فى الحلية الإسلامية .

فلما اتسعت فتوح المسلمين ، وسال فى أيديهم النُّضار والذهب ، وبعد عهدهم بالوثنية ، صاروا يقلدون الفرس والروم فى تحلية سيوفهم وأغمادها وحمائلها ، بسيور وفروع شجر من الفضه والذهب ، وبخاصة أعلى مقبض السيف[٩٩] ، وبعد أن كان المسلم يلف على سيفه خرقاً تقوم مقام الغمد ، صار يتخذ له الغمد من الجلد ، ويحلى (نعله) وهو أسفل الغمد بالفضة ، ويجعل حلقاته من الفضة[١٠٠]

و بِمُضى الزمن والبعد عن زمن الرسول ، توسع المسلمون فى حلية السيوف ، بالكتابة عليها وتكفيتها بالمعادن ، ورسم الصور والتماثيل عليها ، وبخاصة السيوف اليمانية[١٠١]

وبفحص بعض السيوف الإسلامية بالمتحف ، وُجد أنه قد كُتب على بعضها بالنحاس أو الذهب هذه العبارات « لا إله إلا الله ، لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا على » كما رُسم على بعضها زخارف لأغصان شجر وهى — وإن كانت

---

(٩٥) القسطلانى : المواهب اللدنية جـ ١ ص ٣١٢ .
(٩٦) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٩٨ . والعلباء عصب فى عنق البعير يشد به المقبض .
(٩٧) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٣٥ .
(٩٨) نفس المرجع جـ ٣ ص ٣٦٦ .
(٩٩) نهاية الأرب النويرى جـ ٦ ص ٢٠٨ .
(١٠٠) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٦ ونهاية الأرب جـ ٦ ص ٢٠٩ .
(١٠١) آثار الأول ص ١٨٤ وفى الخطوط ص ١٦١ .

ترجع غالباً إلى عصر المماليك ــ تقفنا على ما كان معروفاً قبلهم فى تحلية السيوف وزخرفتها ، فإن التقليد فى العادات يرسخ طويلا، ولا يتطور كثيراً مع الزمن .

أما عن طريقة حمل السيف ، فقد جرت عادة المسلمين بتعليقه فى أكتافهم وعواتقهم؛ ولذا يقال : تقلد سيفه ، أى جعله كالقلادة ، وذلك بحمله على كتفه الأيمن ، وتركه متدلياً فى جنبه الأيسر ، بخلاف الفرس الذين عرفوا بتعليق السيوف فى أوساطهم[١٠٢] ، وقد ذكر صاحب التراتيب الإدارية « أن الرسول تقلد سيفه فى أحد ، فجعل علاقته على كتفه الأيمن وهو تحت أبطه الأيسر[١٠٣] .

أما إذا كان الفارس يحمل سيفين ، فإنه كان يتقلد بأحدهما ويجعل الآخر فى وسطه على الطريقة الفارسية ، وقد علق كلا فى حمالته محفوظاً فى قرابه الجلدى .

د ــ الأسلحة الصغيرة

وهناك بعض أسلحة صغيرة ، كانت تستخدم عند الالتحام اليدوى والاختلاط وهى تلحق بالسيف بوجه عام ؛ لأنها من نوعه :

فمنها الخِنجر :

وهو معروف يحمله المحارب فى منطقته، أو تحت ثيابه، فإذا اختلط بآخر طعنه به خلسة ، وقد كانت بعض نساء المسلمين تحمل الخِنجر فى الغزوات[١٠٤] المختلفة تحت ثيابها للدفاع الشخصى .

ومنها الدبوس :

وبعضهم يسميها «المِطرقة» وهى عصا قصيرة من الحديد، لها رأس حديدية مربعة أو مستديرة ، وهى فى العادة للفرسان يحملونها فى سروجهم[١٠٥] ويتقاتلون بها عند الاقتراب ، وقد قال عنها صاحب « نُظم التعبئة »: « أما ما كان من أمر

---

(١٠٢) انظر مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٨٥ وتاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧٥ .

(١٠٣) الأدريسى جـ ١ ص ٣٤٤ طبعة فاس .

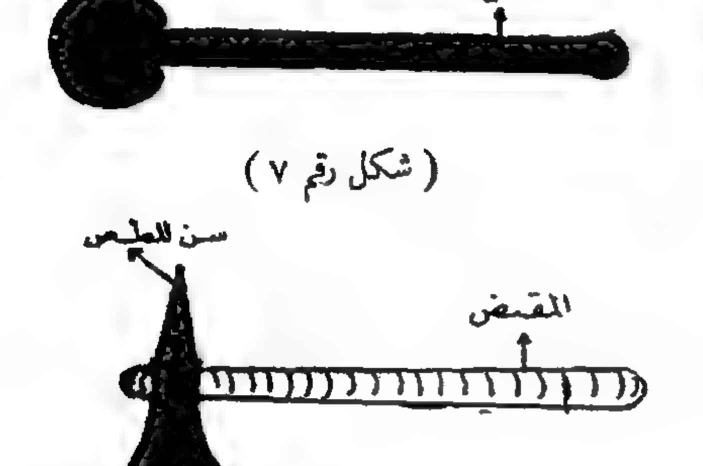
(١٠٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١٠٥) انظر دائرة معارف البستانى مجلد ١٦/٦٩٦ .

الدبوس ، فتظاهرت به الفرس زمن « كسرى أنو شروان » وكان فى جيشه عشرة آلاف يقاتلون بها[١٠٦] » . انظر شكل (٧) .

ومنها الفأس أو البلطة :

وهو سلاح منقول عن الفرس كالدبوس ، له نصل من الحديد مركب فى قائم من الخشب ، كالبلطة العادية ، بحيث يكون النصل مدبباً من ناحية ، ومن الأخرى رقيقاً مشحوذاً كالسكين ، وقد ذكر « البستانى » أن نصلها كان يُصنع من النحاس أو الحديد أو الفولاذ أو الخشب[١٠٧] . انظر شكل (٨)



(شكل رقم ٧)

(شكل رقم ٨)

هذه جملة الأسلحة الخفيفة ، التى كان يستخدمها المسلمون فى معاركهم ، وضّحتها على قدر طاقتى ، مستعيناً فى ذلك بالرسوم الموضحة ، فقد يغنى رسم صغير عن مقالة طويلة ، ويحق الكلام بعد ذلك عن الأسلحة الثقيلة وهى موضوع القسم الثانى .

---

(١٠٦) مصور بالجامعة العربية فيلم ٩٤٦ ، والبهلوان بالفارسية هو الفارس .

(١٠٧) نفس دائرة معارفه السابقة ونفس الصفحة .

القسم الثانى

الأسلحة الثقيلة

آلات الحصار

لقد جُعِل لهذا النوع من السلاح جزء خاص به ؛ لأهميته فى الميدان ، وبخاصة فى حصار المدن ، ولأن أسلحته تمتاز بالضخامة ، بحيث تحمل على الجمال والبغال ، وتحتاج إلى عدة جنود فى إدارتها واستخدامها عند القتال بها ، وأهمها : المنجنيق والعرّادة وهى نوع منه مصغر ، والدبابة وهى الضّبر وجمعه ضُبُور ، ثم رأس الكبش ، وسلالم الحصار .

١ـ المنجنيق "Mangonel." والعرّادة :

هذا السلاح شديد النكاية بالأعداء ، بعيد الأثر فى قتالهم فبحجارته تُهدم الحصون والأبراج ، وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات ، فهو يشبه فى أيامنا هذه مدفعية الميدان الثقيلة ، وعمله كعملها تماماً. والعرادة نوع منه مصغر ، ولم تذكر المصادر معلومات كافية عنها ، ولكن الذى يُفْهَم أنها كانت تستخدم لرمى السهام الكبار دفعة واحدة ، إلى المسافات البعيدة والأهداف النائية ، التى لا تصل إليها رميات الأقواس ، فكانت توضع فيها عدة سهام كبار ، ثم يرمى بها مرة واحدة فتبعد وتصيب ، كما ذكر الأستاذ « جرجى زيدان[١] » ولعل منها (البالستا) المخصَّصة لرمى السهام الكبار .

وصفه وكيفية العمل به :

إن الناظر فى المصادر المختلفة لا يستطيع أن يرسم فى ذهنه صورة واضحة عن المنجنيق ؛ لأنها لم تتعرض له بالوصف التفصيلى ، ولم تذكر كيفية الرمى به ،

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى له جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٩ .

ولا طرق الوقاية منه ، ولعل أقدم كتاب تعرض له بالتفصيل والتوضيح المناسبين هو كتاب « آثار الأول فى تدبير الدول » لصاحبه « الحسن بن عبد الله » ثم ألفت فيه الكتب الخاصة به بعد ذلك ومن أشهرها كتاب « الأنيق فى المجانيق » لصاحبه « أرنبُغا الزَّردكاش » كما ألفت كتب فى تركيب عيارات النِّفط التى يرمى بها ، ووصف عناصر تلك العبارات ، وذكر أنواعها ، مما لا شأن لنا به هنا[٢]

ولقد حاول صاحب « آثار الأول » أن يعطى القارئ فكرة واضحة عن هذا السلاح ، ولكنه لم يوفَّق تماماً ، لإجمال عباراته واختصارها ، فهو مثلا يقول[٣] بعد أن بين أنه أنكى الأسلحة وأشدها فتكاً بالعدو : « منه ما هو بلوالب ، ومنه ما هو بدائرة وفيه تقالات من الرصاص ، إذا دار فيها الرجال رفعت السهم ، فإذا تُركت رمت ، فلا تحتاج إلى رجال كثيرة ، وقد يتخذ بقسىّ كبار موتورة ، وتُجعل قبضاتها إلى الأرض مشدودة فى قواعد المنجنيق ، وفى أوتارها حبال مشدودة إلى حلقة المنجنيق ، وتحرك بزيادة قائم حتى تُفتح أوتارها ، ويحرك الحجر بالكفة ، ثم يرمى فيخرج أشدما يكون ، وإذا أراد الرمى بقدور النفط أو العقارب أو ماشاء فعل ، فإن كان ضعيفاً ثقّله بالرصاص والأحجار ، وإن كان يرمى بالنفط والنار اتخذ له كفة من الزرد وحبلا بسلاسل .

وقد حاول أيضاً الأستاذ « جرجى زيدان » وصف المنجنيق ، فما جاء بأكثر مما جاء به « الحسن بن عبد الله » ويبدو أنه نقل عنه وإن لم يُشر إلى مصدره ، فإن نص عبارته فى هذا المعنى[٤] « منها الكبير والصغير ومنها ما يُشد بلوالب وأقواس ، ومنها ما يدار شبه المقلاع ، وهى تستخدم إما لرمى السهام أو الحجارة أو قدور النِّفط والعقارب أو نحوها من آلات الأذى ، فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص ، وإن كانت من السوائل كالنفط وغيره اتخذوا له كفة كالكأس علقوها بسلاسل . »

---

(٢) انظر المصورات بالجامعة العربية أفلام (٩٧٠ ، ٧٦٢) .

(٣) ص ٣١٤ بهامش تاريخ الخلفاء ، والجندية لثابت ص ١٩١ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٩ .

ولكن أوفى كتاب تعرض لهذا السلاح هو «الأنيق فى المجانيق[٥]» وفيه كثير من الرسوم الدقيقة لأجزائه ، واصطلاحات غريبة لأهل الصنعة، وتفصيلات وافية عن الطرق التى بها يضبط الرامى رميته ، وكيف يُبعد الرمى أو يقربه ، إلى غير ذلك من التفصيلات التى يحتاجها المختص فى صناعته .

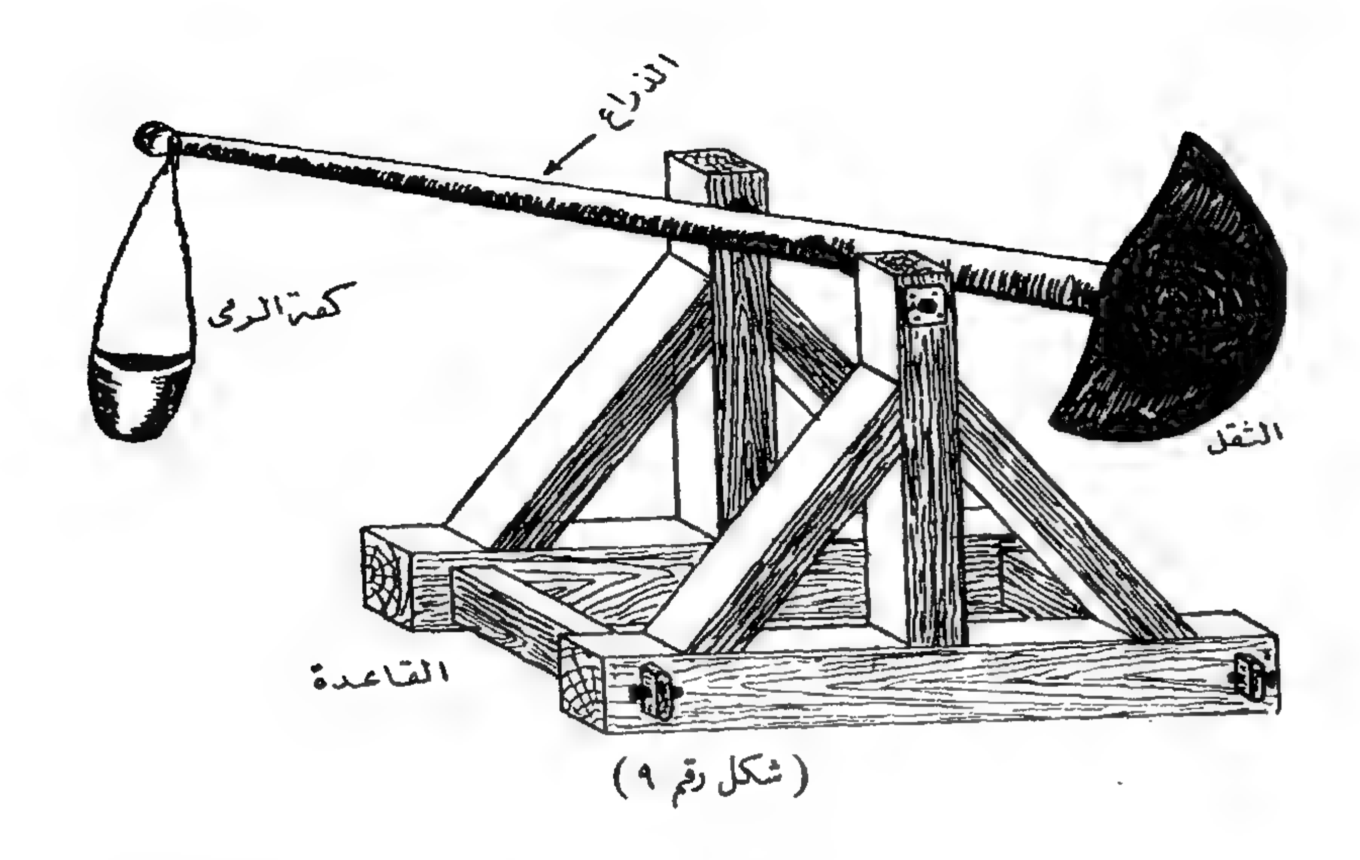
وفى الإمكان بعد مطالعة الكثير عن هذا السلاح ، ومشاهدة نماذجه عدة مرات بالمتحف الحربى ، تقريبُ صورته للأذهان ، وتوضيحُ أنواعه والتطور الذى لحقها ، والتحسينات التى أدخلت عليها .

كان الإنسان أول أمره يحارب بالحجر يرميه بيده فيصيب ، ثم اتخذ المقلاع بعد ذلك لتكون رميته بعيدة قوية ، ثم فكر فى طريقة لرمى حجارة أكبر ، ولهدف أبعد ، فهداه تفكيره إلى المنجنيق ، فاتخذه أولا على هيئة «الشادوف» الذى يَسقى بعض الفلاحين زرعهم ، وهو عبارة عن رافعة محور الارتكاز فيها فى الوسط والقوة فى ناحية، والمقاومة فى أخرى ، على أن يكون ثقل الحجارة هو المحرّكَ له، بحيث إذا هوى الثقل ارتفع الشىء المرمى فى كفته .

١ — فجعل أول أمره على شكل قاعدة من الخشب السميك، مربعة أو مستطيلة، يرتفع فى وسطها عمود خشبى قوى، ثم يُركب فى أعلاه ذراع المنجنيق قابلا للحركة كذراع «الشادوف» بحيث يكون ربعه تقريبا ناحية السفل ، يتدلى منه صندوق خشبى ، مملوء بالرصاص والحجارة والحديد أو نحوها ، ويختلف حجمه باختلاف المنجنيق، وتكون ثلاثة أرباع الذراع من ناحية العلو، تتدلى من نهايتها شبكة مصنوعة من حبال قوية، يوضع فيها الحجر المراد قذفه، وعند القذف به يُجذَب أعلى الذراع إلى الأرض بقوة الرجال، فيرتفع الثقل المقابل من الحجارة والرصاص والحديد ، الذى بالصندوق ثم تُترك الذراع فجأة فيهوى الثقل ، ويرتفع أعلى الذراع بالشبكة قاذفاً ما فيها من الحجارة إلى الهدف المعيّن (انظر شكل ٩)

---

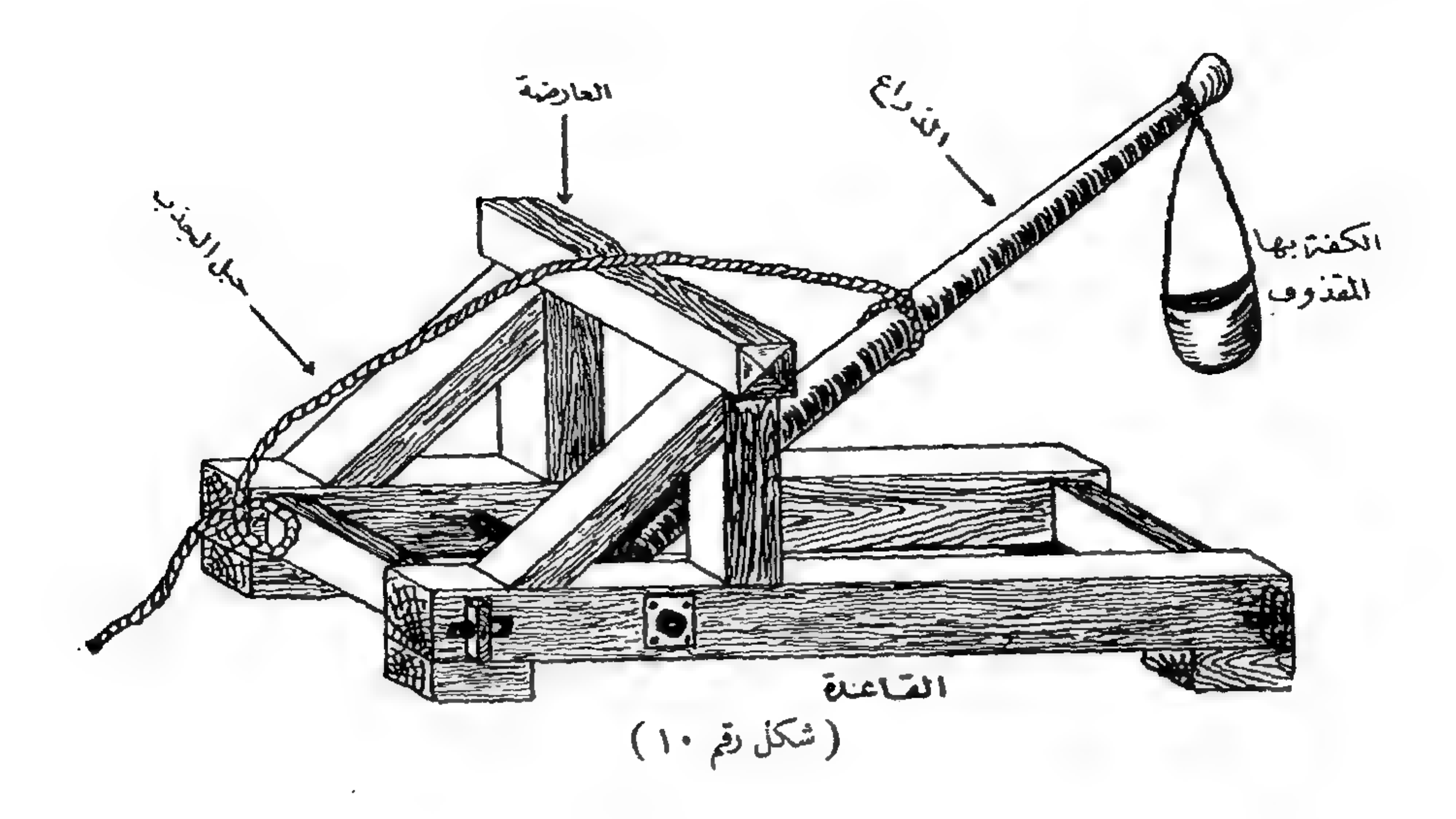
(٥) لصاحبه «أرنبغا الزردكاش» أى صانع الزرد .



(شكل رقم ٩)

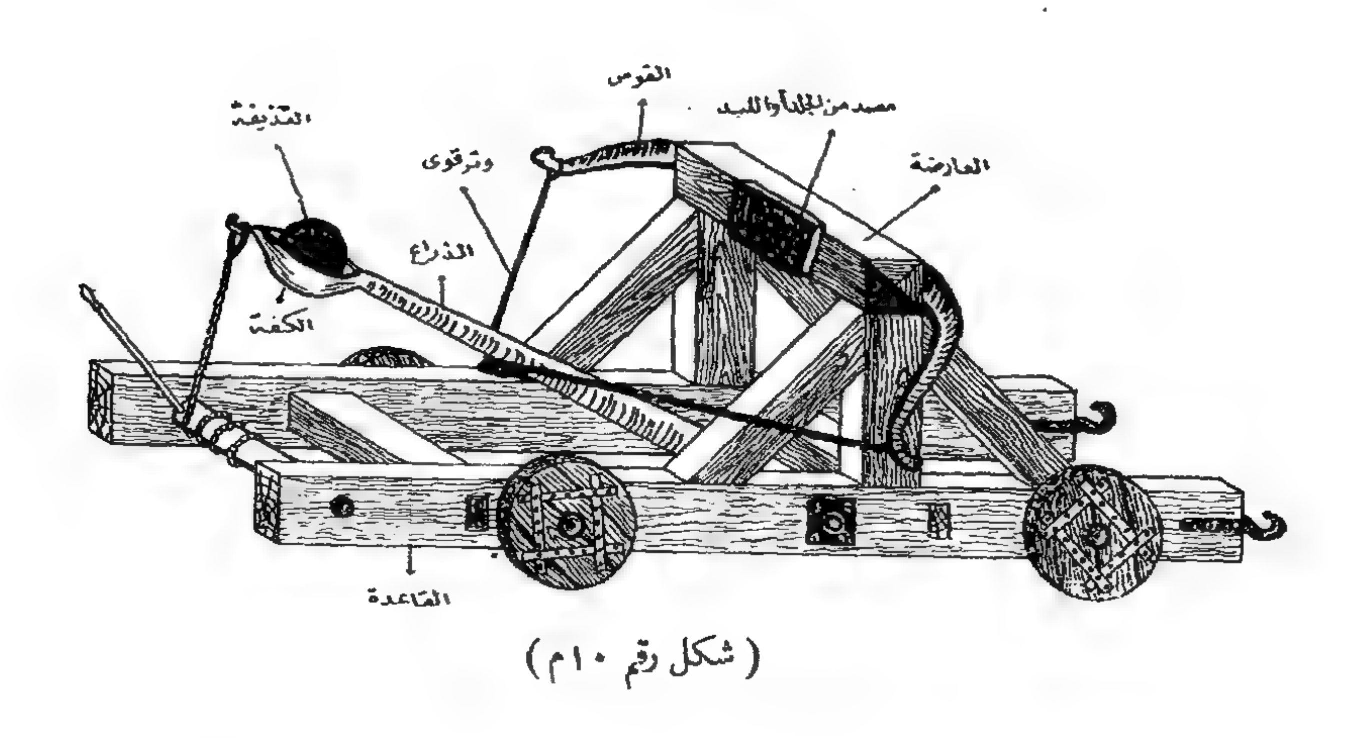
٢ — بمرور الأيام شمل التحسين هذا السلاح، فصار يُصنع من نفس القاعدة المتقدمة ، وفوقها قاعدة أخرى على شكل مربع ناقص ضلع من أسفل أو على شكل حرف A ، ثم تركّب ذراع المنجنيق فى وسط السطح العلوى لهذه القاعدة، بحيث تكون قابلة للحركة، وبحيث يكون ثقل الرصاص فى الناحية القصيرة السفلى ، ثم يُجذب الذراع كما سبق وتترك فجأة فيهوى الثقل بشدة، وتصدم الذراع بالعارضة السفلى فى المربع ، فتقذف الشبكة ما فيها بشدة؛ لاصطدام الذراع بالحائط الخشبى) . (انظر شكل ١٠) .

بعد أن شاع استعمال هذا السلاح، لحقه كثير من التحسين والتهذيب فعُرف منه نوع قوى يعمل بقوة الأوتار ، وهذا يصعب على الباحث تحديد تاريخ ظهوره، أو تعيين من أدخل عليه هذا التحسين، ولكن الثابت أن الحجاج قاتل به وهو عبارة عن قاعدة مصنوعة من كتل خشبية ضخمة؛ تُجر بقوة الرجال على الزحافات، أو العجلات الصغيرة، وقد ارتفعت القاعدة من ناحية على شكل جدار خشبى ،وقد ثُبتت الذراع فى أسفل القاعدة قابلة للحركة،وخلفها وتر قوى مُستعرَض يمنع سحبها للخلف، بينما ربطت بحبال مثبّتة إلى مؤخر القاعدة تجذبها للخلف ، وعند الرمى يلف الرجال العمود الخشبى المربوط به حبل الذراع ، فتُجذب الذراع إلى



(شكل رقم ١٠)

الخلف ، فيمتد الوتر الذى خلفها إلى نهايته ، ثم يوضع الجسم المراد رميه فى كفة الذراع ، ثم تفك الحبال الخلفية مرة واحدة ، فيجذبها الوتر بقوة عند انكماشه فتصدم الذراعُ بالحائط الخشبي المثبت أمامها بقوة ، فترمى رميتها كأبعد وأقوى ما يكون الرمى . (انظر شكل ١٠ م) .



(شكل رقم ١٠م)

وهذا النوع هو الذى عناه صاحب «آثار الأول» بقوله وقد يتخذ بقسيّ «كبار موتورة الخ » وهو آخر تطور وصل إليه المنجنيق فى القرن الثانى ، وإن كانت

حجومه تختلف باختلاف الحصون المحاصَرة وقوة الصانعين، وقد عمل المسلمون على تكبير الروافع الخشبية لإبعاد المرمى، وصنعوا المجانيق الضخمة، لدرجة أن «الحجَّاج» جهز بعض جيوشه بعدد كبير من المجانيق، منها واحد يقال له «العروس» وكان لضخامته يعمل عليه خمسمئة رجل، يقومون بنصبه وجرّه ونقل الحجارة إليه، وما إلى ذلك[٦]، وأظن أن هذه المجانَيق الضخمة كانت من النوع الذى يعمل بقوة الأوتار الموضَّح فى الشكل السابق.

طرق الوقاية منه:

كان أكثر استعمال هذا السلاح فى حالات الحصار، ولم يكن هناك سبيل للوقاية منه إلا بالبعد عن وحجارته، وذلك بأن يحال بينه وبين الحصون بالخنادق الواسعة، وأحياناً كانت تُملأ الخنادق بالمياه، وتبنَى عليها الجدُر مما يلى العدو لمنع تقدمه، فإن تمكن العدو من طمّ الخندق وعبوره بالمنجنيق، عمل أصحاب الحصن على رمى الذين يجرونُه ويعملون به بالسهام، من وراء شرفات حصنهم؛ ولذا كان القائد المهاجم يصفّ أمام جند المنجنيق جنوداً آخرين، يحمونهم بتروس طويلة تستر تقدمهم[٧]؛ أو يحمله على عربة لها ستائر واقية من خيش أو قماش غليظ تضعف فعل الحجارة إذا رُمىَ بها.

وكان من وسائل الوقاية منه عندهم: أن يكسَى الجزء العلوى من السور بالخشب الصلب[٨]، الذى لا تضره الحجارة كخشب العَرْعر، لأن خط رمية المنجنيق يشبه قوساً شديد الانحناء، على نحو ما هو حاصل فى قنبلة مدفع «الهاون» الذى هو أقرب المدافع شبهاً بالمنجنيق فى سهولة الرمى به وتقوس مرماه، فكانت هذه الأخشاب تحمى السور من حجارته إذا كسىَ بها.

وأحدث الطرق فى الوقاية منه، أنهم كانوا يسمّرون فى أعلى السور زوايا خشبية مائلةً للخارج، كالتى نراها على أسوار السجون والمعتقلات، ثم تتدلىّ من هذه

---

(٦) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان جـ ١ ص ١٦٠، والجندية لنعمان ثابت ص ١٥٨.

(٧) انظر الكلام عن الترس فى الفصل الخامس.

(٨) الجندية لثابت ص ١٥٨ نقلا عن فتوح البلدان للبلاذرى، والعرعر شجر السرْو كما فى القاموس المحيط.

الزوايا ستائر من البُسط الغليظة أو اللبود، أو شباكاً من الحبال الغليظة ، ويشدونها بعيدة عن حائط السور نوعاً ، فإذا رمى بالحجر أصاب تلك الستائر ، فترده عن الحائط ، وإذا وصل كان ضعيفَ الأثر فاقد القوة[٩] ، فلا يضره بشىء .

تاريخ ظهوره وتطوره :

يغلب على الظن أن الجاهليين لم يستخدموا هذا السلاح ، فإن أشعارهم التى هى سجل حياتهم ، لم تذكر عنه شيئا ولو إشارة عابرة ، تفيد أنهم عرفوه أو عملوا به ، ولو قد كان ذلك لتناولوه بالوصف ، ونسبوه إلى صانعيه ، وأماكن صنعه ، كما فعلوا بسائر سلاحهم ، وما شاع لديهم من أدوات القتال .

وقد قرر الأستاذ «زيدان»[١٠] أن العرب لم يستخدموا هذه الأداةَ إلا فى أواسط القرن الأول للهجرة ، بعد مخالطتهم الفرس والروم ، ولكن جمهور المؤرخين على أن الرسول عليه السلام ، قاتل أهل الطائف بها ، وأنه أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق[١١] ، وذكر « المقريزى » أنه صُنع بإشارة « سلمان الفارسى » وقبل عمله[١٢] بيده ، وهى رواية يحيط بها الكثير من الشكوك لأن الرجل غادر بلاده صغيراً ، ونشأ يتنقل فى أوساط مسيحية ، لا شأن لها بالقتال ، حتى وصل إلى المدينة عبداً وظل يعمل فى مزارعها ، إلى أن قدمها الرسول فلزمه ، وتبع دينه الذى كان يسعى باحثاً عنه .

ومن ناحية أخرى نقل « الحلبى عن المقريزى » أن الرسول (ص) استخدمه قبل حصار الطائف ، فهو يروى أن الحراس قبضوا على يهودى فى الليلة السادسة من حصار « خيبر » فجاءوا به الرسول فطلب منه الأمان ، فأمّنه فأخبره بأن اليهود يتسللون الليلة من حصن «النّطاة» الذى يحاصره ، إلى حصن «الشقّ» استعداداً للقتال ، وأخبره بأنهم يخزنون فى بيت تحت الأرض منجنيقاً ودبابات وسلاحاً كثيراً ، وأشار عليه باستخراج هذه الآلة بعد فتح الحصن ، كما أشار عليه بنصب المنجنيق

(٩) أثار الأول للحسن بن عبد الله ص ٢١٥ .

(١٠) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥٩ .

(١١) انظر الطبرى جـ ٣ ص ١٣٣ ، وسيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٦ والكامل جـ ٢ ص ١١١ .

(١٢) امتاع الأسماع طبعة لجنة التأليف سنة ١٩٤١ ص ص ٤١ ، ١٨ .

على « الشق» ودخول الرجال تحت الدبابات ، وحفر الحصن على من فيه . وقد نُفذت الخطة التى أشار بها ذلك اليهودى فنجحت .

وقد يقرّب للفهم هذه الرواية ، أن اليهود كانوا يعلمون بَعثة نبى جديد وكانوا يهددون به أعداءهم ، فمن الجائز أنهم اختزنوا هذا السلاح ، ليقاتلوا به مع النبى المنتظر الأوس والخزرج كما كانوا يزعمون ، ومن الجائزِ أن يشتروا هذا السلاح ويكتموا أمره ، كشأنهم فى الاحتفاظ بالسرية التامة فى تاريخهم كله ، فلما جاء الرسول حاربوه فحاربهم ، وأخرج هذا السلاح من حصونهم ، التى كانوا يُخفونه فيها .

ويمكن التوفيق بين هذه الرواية ورواية «ابن هشام» المتقدمة ، بأن الرسول عليه السلام نصب المنجنيق فى خيبر تهديداً ، ولكنه لم يرمْ به فعلا ، كما رمى به حصون الطائف ، ويرجح هذا الرأى أن « ابن خلدون[١٣] » روى أن الرسول همّ بنصب المنجنيق على « خيبر » فلما أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح ، ولهذا المعنى استعمل الحلبىُّ فى حصار « خيبر » التعبير « نصب المنجنيق » وفى حصار الطائف استعمل التعبير « رمى أهل الطائف بالمنجنيق » وقد ينصبه الرسول تهديداً ولا يرمى به فعلا فى خيبر .

ولكن من أين للرسول بهذا السلاح ؟ وإذا كان أخذه عن اليهود فمن أين جاءوا به هم ؟

يرى الدكتور « فون كريمر »[١٤] . أن العرب نقلوا عن البيزنطيين استعمال المنجنيق والعرادة ، لرمى الكتل الصخرية ، والأخشاب المشتعلة ، على المدن المحاصرة وأشار إلى أن العرب أدخلوا عليه كثيراً من التحسينات ، بتكبير الروافع وضخامة الآلات ، ويوافقه فى هذا الرأى الدكتور « أومان[١٥] » عند كلامه عن آلات الحصار ، ولم أر داعياً لذكر النص الأخير ؛ لقربه من الأول قرباً يشعر بأنه نقل عنه ، أو أنهما نقلا معاً عن مصدر واحد .

---

(١٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٤١ والسيرة الحلبية جـ ٣ ص ص ٤٨ ، ١٣٤ .

(١٤) The Orient under the Galiphs. p. 327.

(١٥) A History of the Art of War. p. 219.

وأما صاحب «الآثار الأول» فقد نسب اختراع هذا السلاح إلى الفرس ، فى أكثر من موضع فى كتابه ، فهو يقول عن الفرس[١٦] : «وأهل مدنهم مثاقفون يرمون بالحجر المصيب ، والمنجنيق من استنباطاتهم ويقال : إنه ظهر فى زمن «النمروذ» وأعقاب دولتهم . «ويشير فى موضع آخر إلى أنه من وضع الفرس ، ولعل فى التسمية نفسها (المنجنيق) ما يرجح ذلك الرأى ، فإن اللفظة يبدو عليها أنها فارسية معربة ، وقد نص على ذلك صاحب «القاموس[١٧] المحيط» فذكر أنها معربة عن العبارة «جه نيك» أى أنا ما أجودنى ، كما نص على ذلك صاحب «المعرب» من كلام العرب فقال[١٨] «والمنجنيق فارس معرب» واختلف فى زيادة النون والميم فيه . «ويقوى ذلك أن المخصص ونهاية الأرب لم يذكراه عند الكلام عن آلات الحرب .

ومن ناحية أخرى يروى «ابن هشام والطبرى[١٩]» أن «عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة» لم يشهدا حنيناً ولا حصار الطائف ، لأنهما كانا «بجرش» يتعلمان صنعة الدباب والضبور والمجانيق ، إذن فقد كانت تلك الصناعة معروفة فى ذلك العهد ، وشهر بها ناس معروفون ، وبخاصة سادة ثقيف ، كما ذكر «ابن خلدون[٢٠]» الذين كانوا يتلقون دروسها فى «جرش» ويتعلمون صنعها هناك .

وبالرجوع إلى «معجم البلدان[٢١]» ظهر أن «جرش» مدينة عظيمة تقع شرقى جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل «دمشق» ، وما دامت «جرش» من أعمال «دمشق» التى يملكها البيزنطيون ، فمن الجائز أن يكون العرب نقلوا هذا السلاح عنهم ، وقد سبقهم اليهود إليه واحتفظوا به سرياً كعادتهم فى السرية ، ليفاجئوا به العرب عند إظهاره .

---

(١٦) أنظر آثار الأول ص ص ١٦٧ ، ٢١٤ .

(١٧) باب القاف فصل الجيم والحاء ج ٣ ص ٢١٨ .

(١٨) الجواليقى . المعرب طبعة دار الكتب ص ص ٣٠٥ ، ٣٠٧ .

(١٩) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٩ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٢ .

(٢٠) تاريخه ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢١) مادة (جرش) ج ٣ طبعة سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م أما (جرش) بضم الجيم فهى من مخاليف اليمن بجهة مكة وقيل مدينة عظيمة باليمن كما فى ياقوت .

وسواء أكان هذا السلاح بيزنطى الأصل أم فارسى الأصل ، فقد ثبت أن المسلمين استخدموه، وأدخلوا عليه كثيراً من التحسين والتهذيب ، وكثر حصارهم به للمدن المحصنة ، ذات الأسوار العالية ، فى حروب العراق والشام زمن الخليفة « عمر » وما بعده ، حتى لقد نصبوا على المدائن « عند حصارها عشرين منجنيقاً فشغلوا أهلها بها ، وكذلك حاصر « أبو عبيدة وخالد » أهل « دمشق » سبعين ليلة حصاراً شديداً ، بالزحوف والترامى بالمجانيق[٢٢] وقد صنع « عمرو بن العاص » المنجنيق بمصر عند فتحها[٢٣] ، لأنه كان فى عدد قليل لا يسمح له بحمل آلات الحصار معه ، كما لا تسمح له به سرعته فى السير التى تعمدها ، ليدخل البلاد المصرية بسرعة ، وقد كان عدد حملته قليلا ، لا يسمح له بحمل آلات الحصار معه .

ولكن الدكتور « بتلر » قرر فى كتابه : أن العرب الذين فتحوا مصر « كانوا لا علم لهم بحيل الحصار ، وليس معهم من عدته شيء[٢٤] ؛ ثم ذكر فى نفس الصفحة : أنهم غنموا بعض آلة الحرب فى غزاة الفيوم ومنوف ، وأنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا طرق إصلاحها إذا اعتراها الفساد ، ثم هو يعود فيقرب بنا من رواية السيوطى السابقة التى تظن فيها المبالغة ، فيقرر أن المسلمين رموا حصن « بابليون » بالحجارة حيث يقول « وكانت مجانيق الروم أقوى أثراً ، مما كان يرميه المسلمون إلى الحصن من حجارة وسهام[٢٥] » . إذن فالمعقول أنهم كانوا يصلحون الآلات التى تقع فى أيديهم ثم يقاتلون بها ، وهذا هو ما جعل « السيوطى » يفهم أنهم كانوا يصنعون المجانيق بمصر ، وإلا فكيف كانوا يرمون للحصن هذه الحجارة ، إذا لم يكن الرمى بآلات الحصار التى كانوا يستولون عليها بعد إصلاحها ؟ !

وقد لوحظ فى النصف الثانى من القرن الأول ، أن قذائف هذا السلاح ، شملها كثير من التجديد ، وأدخل على كفة ذراعه تعديل كبير ، فبعد أن كانت مهمته مقصورة على رمى الحجارة لهدم الأسوار ، صار يرمى من كفته بمشاقة

---

(٢٢) انظر تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٦٨ ، الكامل جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٢٣) السيوطى فى حسن المحاضرة ط مصر سنة ١٢٩٩ هـ جـ ١ ص ١٦٤ .
(٢٤) فتح العرب لمصر ص ٢٢١ .
(٢٥) فتح العرب لمصر — تعريب « أبو حديد » ص ٢١٨ .

الكتّان فيها الجمر ، وبالأخشاب المشتعلة ، وبقدور النفط وغير ذلك ، وهذا لا يكون ممكناً بأمان ، إلا إذا كانت كفة الذراع مصنوعة من الحديد ، أو الخشب المبلل بالخل ، أو اللبود المبللة به ، لمنع اشتعال النار فيها ، أو بأن تتدلى القذيفة فى الكفة من الذراع ، بسلاسل من الحديد لا تضرها النيران . فقد رمى « الحصين بن النمير » الكعبة بالأحجار والنار والنفط ومشاقة الكتان ، وغير ذلك من المحرقات ، وبسببه صُدّعت الكعبة واحترقت كما روى « المسعودى »[٢٦] .

ومن المحتمل أن يكون « الحجاج بن يوسف » اتبع نفس الطريقة فى حصار الكعبة ، عندما رماها[٢٧] بالمنجنيق من جبل أبى قبيس ، لما لجأ إليها « عبد الله بن الزبير » عند مطالبته بالخلافة ، أيام عبد الملك .

وما إن بدأ القرن الثانى الهجرى ، حتى كان المنجنيق شائع الاستعمال عند المسلمين ، وبخاصة فى حصار المدن ، ثم صار فى نهايته سلاحاً عادياً ، يتخذه القواد جميعاً ، ويكثرون منه فى معاركهم ، يروى « ابن الأثير » أن « مرْوان بن محمد » حاصر « سعيد بن هشام » ومن معه فى مدينة « حمص » عشرة أشهر ، ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً[٢٨] ، يرمى بها بالليل والنهار ، كما يروى أن الأمير « عبد الرحمن » بالأندلس سار إلى « سَرقُسطة » بنفسه ، فحصر بها « الحسين ابن يحيى » وضايقها ، ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقاً فملكها عنوة[٢٩] .

وأظن مثل هذه الأعداد الضخمة من مدفعية الميدان الثقيلة ، لا تتوافر فى الجيش ، ما لم يكن لديه دار لصناعتها ، وفرق تقوم على تجهيزها ، وإعداد القذائف لها ، والعمل على صيانتها وحفظها سليمة صالحة للاستعمال ، وإذا أضيف إلى ذلك أن هذه الأعداد لم تكن كل عتاد الجيش ، فهمنا أن الخزائن ودور الصناعة كانت تخرج من هذا السلاح أعداداً وافرة ، تكفى حاجة الجيش

---

(٢٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٨ .

(٢٧) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٤٦ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ص ١٦٤ ، ٦٨ .

(٢٨) الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٣٤ .

(٢٩) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤ .

فى معاركه الكثيرة .

أما العباسيون فقد افتنوا فى إحداث قذائف المنجنيق ، فاستخدموا النار الإغريقية فيها ، كما حدث فى الفتنة التى كانت بين « الأمين والمأمون » فى عام ١٩٧ هـ ٨١٣ م حاصر المأمون « بغداد » وتبودل فيها الرمى بالمجانيق بين الفريقين ، حتى درست المنازل ، وكثر بها الخراب(٣٠) ، وشبت الحرائق فى كل مكان ، وقد تردد على لسان شعراء ذلك العصر ، وصف الخراب الذى أصابها ، فقال فيه بعضهم :

أصابتهــا من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقــوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق(٣١)

ولقد شاع أمر هذه النار فى أيام « الرشيد » فقد كان « حملة النفط أو (النفاطون) فى جيشه ، يتقدمون مشاة نحو رماة العدو الذين فى مقدمته ، ثم يرمونهم بتلك النار ، فتشتعل فى صفوفهم ، بينما يتقدمون هم فيخترقون تلك الصفوف المحترقة ، وقد لبس كل منهم رداء خاصاً ، يمنع اشتعال النار فيه أو وصولها إليه ، كما ذكر « أبو الفرج الأصبهانى » والعلامة « فون كريمر »(٣٢)

من هذه النصوص المتقدمة يستطيع المرء أن يفهم ، أن ذلك السلاح كان عاماً عند المسلمين خلال القرن الثانى الهجرى ، وأنه كان كمدفعية الميدان الثقيلة ، ومدفعية الحصار ، وأن المسلمين تفننوا فى قذائفه حتى أدهشوا أعداءهم بها ؛ كأنهم كانوا يظنون قصورهم فيها .

وأما العرادة فهى نوع صغير منه ، كان يستعمل لإلقاء الحجارة والسهام ، فهى أشبه شىء بالمدفعية الخفيفة ، التى توجه قذائفها إلى مواقع العدو فى الميدان ، وأقرب المدافع منها شبهاً مدفع « الهاون » كما مرّ ذكره آنفاً ، ولم يكتب لى العثور على صور أو نماذج لها ، وإن كان يغلب على الظن أنها مثل « البالستا » المعدة لرمى السهام الكبار (انظر نموذجها بالمتحف الحربى) .

---

(٣٠) الكامل فى التاريخ ص ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣١) عصر المأمون لأحمد رفاعى طبعة سنة ١٩٢٨ م جـ ٣ ص ٣٠٥ ومحاضرات الخضرى الطبعة الأولى ص ٢٣١ وهذا أول شعر يذكر المنجنيق فيما أعلم .

(٣٢) الأغانى طبعة الساسى جـ ١٧ ص ٤٥ .

(ب) الدبابة

١ — اسم الدبابة لغةً مشتق من (دبّ يدبّ) دبيباً) إذا مشى على مهَل، كما فى كتب اللغة ، ولذا نسبوا الدبيب إلى الشيخ المسنّ لأنه يمشى متمهلا ، وسمّوا تأتيَ «امرئ القيس» إلى صواحبه دبيباً لذلك، فهى سميت بذلك لأنها تدب حتى تصل إلى الحصون ، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها فى ثقب أسوارها بآلات الحفر ويظهر أن «الضّبر» نوع منها، أو هي الدبابة نفسها مع ترادف الأسماء ، ففى القاموس المحيط أن الضّبر جلد يغشىٍّ خشباً فيه رجال ، تقترب إلى الحصون للقتال، والجمع ضبور(٣٣) وليست الدبابة شيئاً غير هذا، كما سنعرف من وصفها . وطريقة العمل بها .

وصف الدبابة والعمل بها :

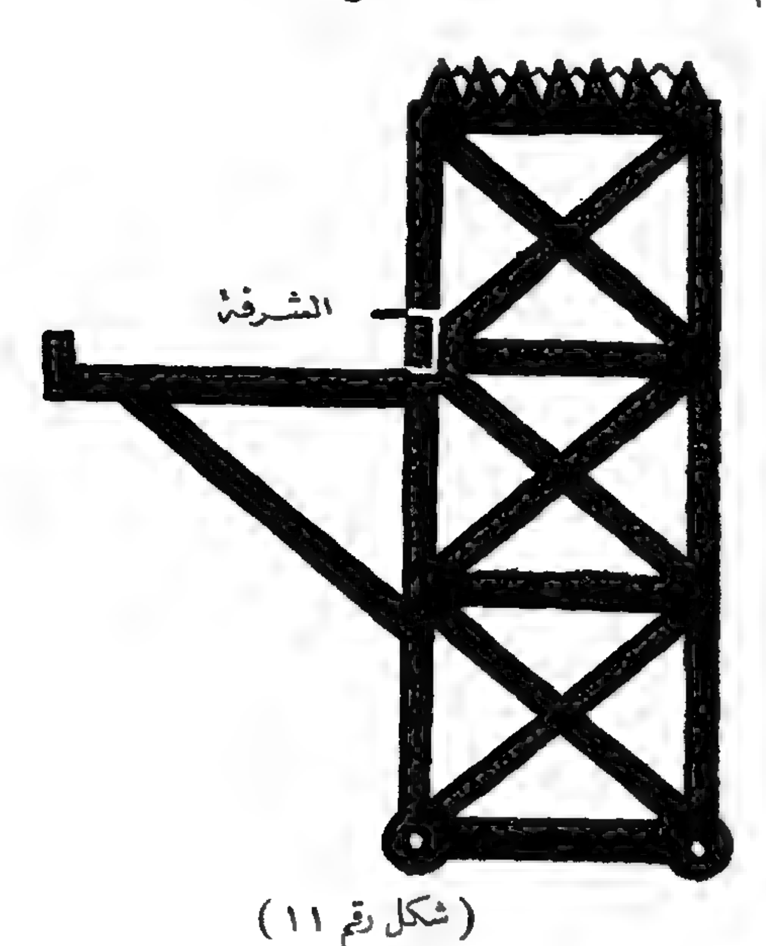
كثيراً ما يذكر المؤرخون اسمها ولا يصفونها ، أو يوضحون أجزاءها ، وذلك إما اعتماداً على أنها كانت معروفة لديهم عن طريق المشاهدة ، وإما لأنهم كانوا لا يحيطون خُبراً بتفصيلاتها ، والذى يُفهم مما كتبوا عنها ومن مشاهدة نماذجها أنها كانت أول الأمر عبارة عن هودج مصنوع من كتل خشبية صلبة ، على هيئة برج مربع ، له سقف من ذلك الخشب، ولا أرض له، وبين كتل البرج مسافات قليلة يستطيع الرجال العمل من خلالها ، وقد ثُبت هذا الهودج على قاعدة خشبية ، لها عجلات أربع أو أكثر ، أو بكرات صغيرة كالعجل ، فإذا أراد الرجال العمل بها دفعوها أمامهم على العجل، متخذين منها درعاً يقيهم سهام الأعداء من فوق الأسوار، أو دفعوها وهم بداخلها، فإذا ألصقوها إلى السور عملوا من داخلها بمساعدة آلات الحفر الحديدية ، على نقض حجارة السور ، من الموضع الذى أوهنته حجارة المنجنيق ، وكلما نقضوا منه قدراً علقوه بدعائم خشبية ، حتى لا ينهار السور عليهم، فإذا فرغوا من عمل فجوة متسعة فيه ، دهنوا الأخشاب بالنفط ثم

---

(٣٣) القاموس مادة (ضبر) .

أشعلوا فيها النار وانسحبوا إلى الدبابة ، فإذا احترقت الأخشاب انهار السور مرة واحدة ، تاركاً ثغرة صالحة للاقتحام منها[٣٤] (انظر شكل ١١) .

تعلم المسلمون فى القرن الأول صنعة الدبابات[٣٥] ، ثم أدخلوا عليها كثيراً من التحسينات ، حتى صارت ضخمة كثيرة العجل ، فجعلوها برجاً مرتفعاً بارتفاع السور ، وبداخلها سلالم مستعرضة تنتهى إلى شرفات فيها تقابل شرفات الحصن ، فيصعد الرجال فى أعلاها[٣٦] ، ويستعلون على السور ويتنقلون من شرفاتها إليه، ثم يطردون منه رماة الأعداء .



(شكل رقم ١١)

وبمرور الزمن زاد المسلمون فى حجم الدبابة ، فصاروا يصنعونها كبيرة بحيث تجر على ست عجلات أو ثمان عجلات ، وتتسع الواحدة منها لعشرة[٣٧] رجال من المقاتلين أو أكثر ، يعملون بها على نقب السور ، فهى سلاح يتعاون مع المنجنيق ، كما تتعاون المدفعية الحديثة مع الدبابات ، حيث تقوم الأولى بتطهير المواقع وهدم التحصينات ، ثم تقوم الثانية بعملية الاقتحام من نقط الضعف التى فتحتها الأولى فالتمهيد دائماً يكون بالمدافع ، ثم يكون الاقتحام بالدبابات .

السلاح المضاد لها والوقاية منه :

كانت الدبابة تقاوَم بأن ترمى بالنار من فوق الأسوار ، أو يُصب فوقها الحديد المصهور المذاب ، فيحرق خشبها ومن فيها ، وكذلك فعلت ثقيف بدبابة الرسول (ص)

(٣٤) انظر آثار الأول للحسن بن عبد الله ص ٢١٤ .
(٣٥) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣ .
(٣٦) جرجى زيدان . تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٦٠ .
(٣٧) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٩ .

يوم حصارهم ، فخرج رجالها منها فتلقفتهم الرماة بنبالهم ، فجُرح منهم عدد كبير [٣٨] ومنذ ذلك الحين صار المسلمون يغطون أخشابها باللبود ، أو الجلود المشبعة بالخل ، لأنه يقاوم النار فلا تشتعل فيه .

ومن الأسلحة المضادة لها الخنادق ، فإنها تحول دون تقدمها ، وحتى فى حالة ردمها بالرمال ، كانت تغوص فيها عجلاتها ، فلا تخرج منها إلا بشق الأنفس ، ويكون رجالها هدفاً ثابتاً لسهام المدافعين فوق الأسوار من رماة العدو .

وكثيراً ما كانت تُرمى الدبابة بحجارة منجنيق يضبط عليها من فوق السور ، ويرميها حتى عند تحركها ، فكان رجالها يدفعون هذه الحجارة عنها ، بأن يعلقوا عليها الستائر من البسط الغليظة ، بحيث تكون بعيدة عن خشبها ؛ لتُضعف فعل الحجارة كما مر ذكره فى حماية الأسوار منها[٣٩] ، وفى هذا المعنى يقول « الحسن بن عبد الله » : « وأما الدبابة فدفعها بمنجنيق معين وزنه عليها ، فإن كانت ببرج خسفها ، وإن كانت بستائر فرّق مَنْ خلفها ، وإن غفلوا عن الجلود واللبود المبللة بالخل ، فالنفط يُلقى فى جميع ذلك[٤٠] » لإشعال النار فيها وفى رجالها .

كلمة تاريخية عن تطورها :

يحسن هنا الإحالة إلى ما سبق ذكره عن أوَّلية المنجنيق ، فالدبابة أخته فى وظيفتها وصنعها ، وهى سلاح ليس بعربى مثله ، لأنه لم يرد لها ذكر فى أشعارهم الجاهلية ، وكانوا عند ظهور الإسلام يتعلمون صنعها فى « جرَش » كما تقدم وقد استخدمها الرسول عليه السلام مع المنجنيق فى حصار الطائف الذى فيه يقول « مولاى محمد على »[٤١] : « وقد استعان المسلمون بالأسلحة الحديثة ، التى أمدّتهم بها القبائل الأخرى » . ولعله يقصد بذلك الأسلحة التى استخرجها الرسول من بعض حصون « خيبر » وإلا فما كان لقبائل العرب معرفة فى ذلك الحين بآلات الحصار .

---

(٣٨) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٩٩ .

(٣٩) انظر الهوامش ٧ ، ٨ ، ٩ من هذا القسم .

(٤٠) آثار الأول ص ٢١٥ .

(٤١) كتابه « محمد رسول الله ترجمة مصطفى فهمى » ص ١٦١ وسيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٦ .

وتجرى بعض الروايات بأن « سلمان الفارسى » كان يصنع للرسول بيده الدبابات والمجانيق ، وليس فى تاريخ الرجل ما يثبت أنه نشأ ملما بالشئون الحربية ، بل إنه كان فى بلاده سادناً لبيت من بيوت النار ، ثم ظل يتنقل بين الرهبان المسيحيين ، حتى ألقى عصا التسيار فى يثرب ، حيث آمن بالرسول الجديد ، وهو فى حدود الثامنة عشرة من عمره[٤٢] ، فكيف لمثل هذا الشاب الراهب بصناعة الأسلحة الثقيلة وآلات الحصار ؟

هذا ولم يتعرض صاحب « آثار الأول »[٤٣] لأصل الدبابة . ولم ينسبها إلى قوم بذاتهم كما صنع بالمنجنيق، واكتفى عند ذكرها بقوله: « أما الدبابة فهى آلة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز ، وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة فى الخل، لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك وتجر ، وربما جعلت برجاً من خشب ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر . »

وأياً ما كان الأمر فقد عرفها المسلمون ، وأدخلوا عليها كثيراً من التحسينات وأقاموا لها المصانع ، يعمل فيها صناع ماهرون ، تخصصوا فيها ، فكانت تحمل أخشابها على الجمال ، ثم يتم صنعها فى مكان المعركة ، ثم يستخدمونها بمهارة ، فكانت تأتيهم بنتائج فعالة .

(ج) رأس الكبش وسلم الحصار

ظهر رأس الكبش خلال القرن الثانى ، للعمل مع الدبابة على هدم الأسوار وفتح أبواب الحصون ، ولكن بطريقة مباشرة وبجهود أقل ، وقد فهم الأستاذ « جرجى زيدان » أنه نوع من الدبابات حيث يقول : « وقد يستخدمون الدبابة لهدم الأسوار ، فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ، ويجعلون رأسها محدداً (كذا) ويصدمون بها الأسوار حتى تنهدم[٤٤] » وأثبت فى موضع آخر أن رأس الكبش كالدبابة، منه الصغير والكبير ، ظناً منه أنه كالدبابة الحديثة تصدم الموانع

---

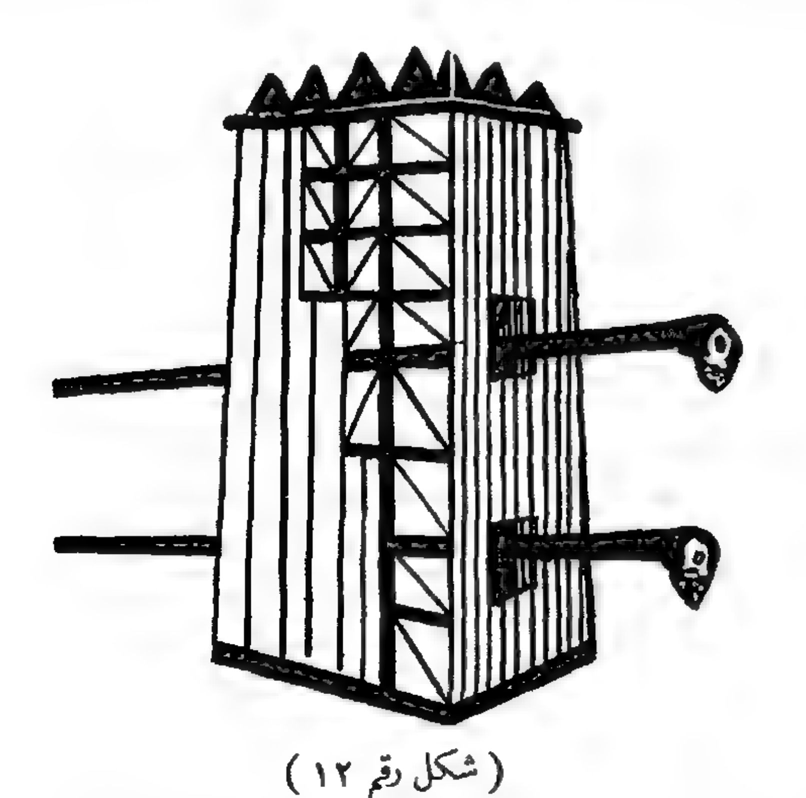
(٤٢) انظر ترجمة فى الإصابة لابن حجر ، ففيها تفصيل كثير .

(٤٣) ص ٢١٤ منه ، والخشب المتلزز الملصوق بعضه إلى بعض القاموس مادة لز

(٤٤) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٦٠ .

فتهدمها ، وليس من المعقول أن تَهدم الأخشابُ الحجارة وهى أصلب منها ، كما لم يرد فى أخبار الدبابة ونماذجها ، أنهم كانوا يصنعون لها رأساً محدداً ، وأنهم كانوا يحركونها للخلف وللأمام لهدم الأسوار .

وحقيقة الأمر أن رأس الكبش يُحمل داخل برج خشبى ، أو داخل دبابة ، وهو عبارة عن كتلة خشبية ضخمة مستديرة ، يبلغ طولها حوالى عشرة أمتار أو أكثر ، قد رُكب فى نهايتها مما يلى العدو ، رأس من الحديد أو الفولاذ ، تشبه رأس الكبش تماماً بقرونها وجبهتها ، كما يركّب السنان الحديدى على الرمح الخشبى ، وتتدلى هذه الكتلة من سطح البرج أو الدبابة، محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين ، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب قربوا البرج منه، ثم وقفوا داخله على العوارض الخشبية، ثم يأخذون فى أرجحة رأس الكبش للخلف والأمام ، وهو معلق فى السلاسل، ويصدمون به السوار عدة مرات حتى تنهار حجارته، فيعملون على نقبه[٤٥] وهدمه. وقد استخدمها «الجُنيد بن عبد الرحمن» فى هدم حصون الهند[٤٦] سنة ١٠٧ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك (انظر شكل ١٢) .



(شكل رقم ١٢)

وفى كثير من الحالات كان رأس الكبش يحمل داخل الدبابة الكبيرة ذات البرج ، فى الجزء السفلى منها ، لاستخدامه عند الحاجة إليه ، ولعل هذا هو الذى جعل الأستاذ «زيدان» يقرر أن الدبابة كان لها رأس محدد تُهدم به الأسوار ، وقد عرفنا أن ذلك من وظيفة رأس الكبش الذى تحمله الدبابة .

---

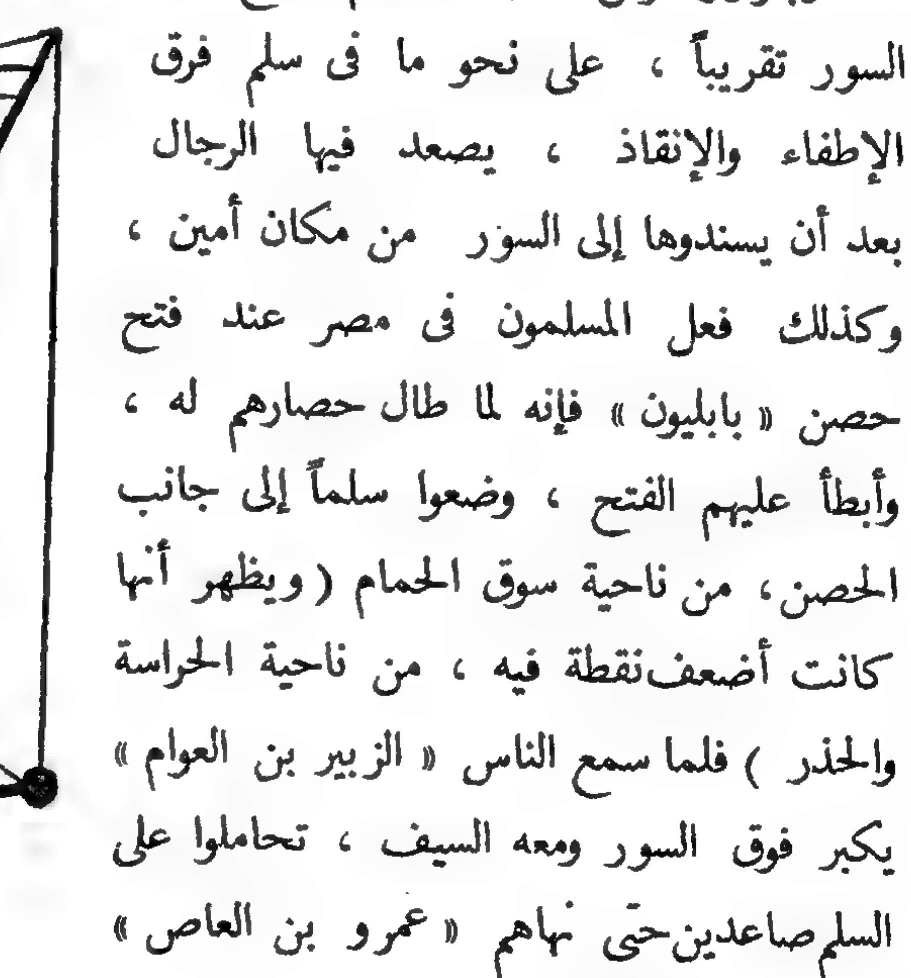
(٤٥) انظر النماذج بالمتحف الحربى .

(٤٦) الجندية لثابت ص ١٩٤ ، ٩٥ ولم يذكر مرجعه .

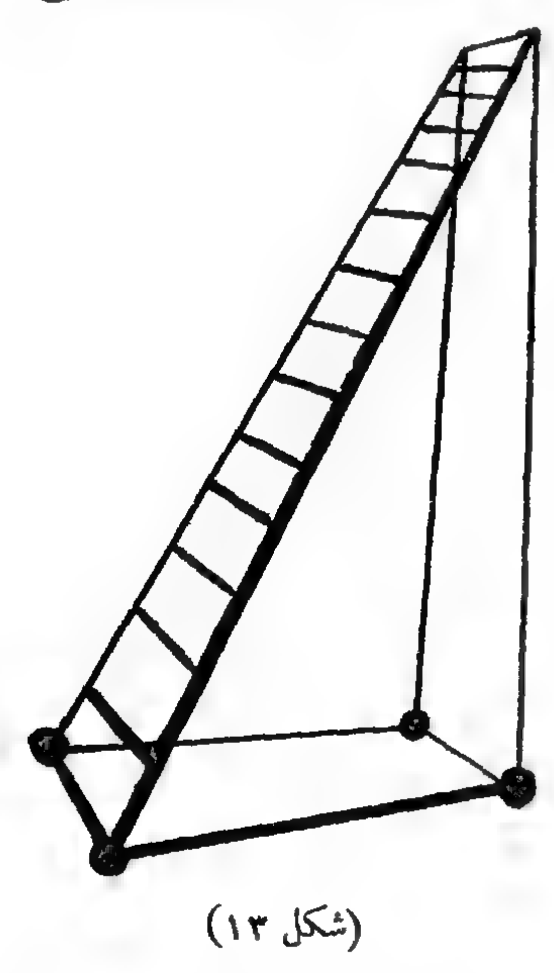
السلم :

السُّلم من آلات الحصار أيضاً، وهو يساعد المحاصِر على اعتلاء الأسوار وفتح مغاليق الحصون ، وأول من استخدمه من المسلمين فى الحصار بكثرة هو القائد الفذ «خالد بن الوليد» فإنه كان يتخذ حبالا كهيئة السلاليم، ثم يجعل فى طرفها أوهاقا[٤٧] ويرميها على شرفات السور ، فتعلق بها فيصعد إليها من يثبّتها ليصعد الناس بعده، وبهذه الطريقة اعتلى خالد أسوار «دمشق»[٤٨] وفتحها، وبمثل هذه الطريقة نفسها صعد « الزبيرُ بن العوام » سور حصن بابليون عند فتح مصر ، فما شعر به الروم إلا وهو على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده[٤٩] . فوقع الرعب فى قلوبهم ، وتبعه إخوانه فى اقتحام الحصن .

وبمرور الزمن صارت السلالم تصنع من الأخشاب والحديد ، مرتفعة بارتفاع



السور تقريباً ، على نحو ما فى سلم فرق الإطفاء والإنقاذ ، يصعد فيها الرجال بعد أن يسندوها إلى السور من مكان أمين ، وكذلك فعل المسلمون فى مصر عند فتح حصن « بابليون » فإنه لما طال حصارهم له ، وأبطأ عليهم الفتح ، وضعوا سلماً إلى جانب الحصن، من ناحية سوق الحمام (ويظهر أنها كانت أضعف نقطة فيه ، من ناحية الحراسة والحذر) فلما سمع الناس « الزبير بن العوام » يكبر فوق السور ومعه السيف ، تحاملوا على السلم صاعدين حتى نهاهم « عمرو بن العاص »



(شكل ١٣)

---

(٤٧) الوهق محركة ويسكن الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان ، والجمع أوهاق — القاموس المحيط ، وهو يشبه تماماً عقدة الأنشوطة التى يستعملها الكشافون فى صيد الحيوان أو غيره .

(٤٨) انظر الطبرى، جـ ٤ ص ص ٥٧ ، ٥٨ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٨٠ .

(٤٩) بتلر : فتح العرب لمصر نقلا عن خطط المقريزى ، والنجوم الزاهرة .

خوفاً من أن ينكسر بهم[٥٠] (انظر شكل ١٣)

هذه القصة وأمثالها ــ على ما يقال فيها ــ تقفنا على الدور المهم الذى كان يؤديه السلم فى ذلك الوقت، من حيث اعتلاء الأسوار واقتحام الحصون، الأمر الذى جعل المسلمين يهتمون به ويحسّنون فيه، فقد صار السلم بعد ذلك يصنع على قاعدة خشبية كبيرة، تساعد على إثباته، وأحياناً كان يقام عليها سُلَّمان يلتقيان فى النهاية العلوية، ليدْعم كل منهما الآخر، وجعلوا لهذه القاعدة بكرات من خشب أو عجلات ثابتة، ليَسهل بها نقله من مكان إلى آخر، كما يشاهد فى نماذجه ورسومه، ثم أكثروا من أعداد السلم فى الجيوش، وصار من أهم آلات الحصار كالمنجنيق والدبابة وغيرهما.

(٥٠) حسن المحاضرة للسيوطى طبعة مصر سنة ١٢٩٩ هـ ج ١ ص ٦٥، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ١٠.

الفصل الرابع

وسائل الدفاع وآلاته

كما قسمت الأسلحة فى الفصل الثالث إلى خفيفة وثقيلة ، يحسن هنا أيضاً تقسيم وسائل الدفاع قسمين :

ا — آلات متحركة يحملها الجندى الواحد ، لحماية نفسه فى المعركة كالدرع والخوذة والترس .

ب — آلات ووسائل ثابتة يشترك الجند فى إعدادها ، أو يقوم بها طوائف العمال والفعلة ، كحفر الخنادق ، ونثر حسك الحديد ، وإقامة الجدران والموانع ، وبناء الحصون والقلاع والثغور ، وما إلى ذلك من وسائل الدفاع المختلفة .

القسم الأول

آلات الدفاع المتحركة (الخفيفة)

(ا) الدرع وملحقاتها

١ — وصفها وتطورها :

آلات الوقاية كآلات القتال ؛ قديمة بقدم البشرية وقدم الحروب ؛ فالإنسان بطبعه يدفع الخطر عن نفسه مدفوعاً بغريزة حب البقاء ، وقد كانت الدرع مستخدمة عند قدماء المصريين ، وعند اليونان والرومان ، فقد ذكر « البستانى[1] » أن «هوميروس» نسب إلى أبطال طروادة ، دروعاً من الحديد ونسيج الكتان والنحاس وذكر أنهم كانوا يصنعونها شقتين : إحداهما للصدر والأخرى للظهر ، وأن « الإسكندر » نزع من جنوده الشقة الظهرية ، منعاً لهم من الهزيمة من وجه العدو

---

(١) دائرة معارفه : مادة (شكة) مجلد ١٠ ص ٥٢١ .

وذكر عن العرب أنهم لبسوا الدروع ، ولكنهم لم ينزلوها منزلتها عند اليونان والرومان ، وكانت لهم كمن تقدم دروع مختلفة الألوان[٢] .

ومما يدل على قدم الدرع ، وورود ذكرها فى القرآن الكريم أكثر من مرة فقد علّم الله نبيه « داود » كيفية صنعها من الحديد ، محكمة وافية، قال تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا : يا جبال أوّبى معه والطيرَ وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السَّرد . » وقال الألوسى فى تفسير الجملة الأخيرة : « أى أحكم حلقها فى الوضع والمقدار، بحيث لا يُنال صاحبُها من خِللها[٣] . » وقد ذكر الله فضلها فى الحرب فقال عن داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم[٤] . » كما امتن بها على عباده فى قوله: « وجعل لكم سرابيلَ تقيكم الحرّ ، وسرابيل تقيكم بأسكم[٥] . »

مما تقدم من النصوص الدالة على قدمها ، يظهر لنا ضعف ما رواه الأستاذ « جرجى زيدان » من أنها من صنع الفرس أو الروم فى الغالب[٦] حيث ظهر لنا بوضوح أنها كانت معروفة لدى سائر الأمم القديمة قبل الفرس والروم، فإن داود عليه السلام أقدم منهما جميعاً .

ظلت الدروع معروفة منذ القِدم ،حتى أدركها الجاهليون فاستخدموها، وذكروها فى أشعارهم على نحو ما تقدم فى التمهيد، ثم استخدمها المسلمون أيضاً، فكانوا يصنعونها من حلقات الحديد ، ويلبسونها فوق قميص من الكتان يقال له «الشليل»[٧] ولعله هو القَباء الوارد فى رواية « الطبرى » فقد ذكر أن « أبا بكر » استدعى « خالد ابن الوليد » بعد قتله «مالك بن نُوَيرة» فدخل المسجد وعليه قباء عليه صدأ الحديد معتجراً بعمامة له قد غرز فيها أسهماً[٨] » .

---

(٢) نفس المرجع ص ٥٢٤ .
(٣) تفسير القرآن له . سورة سبأ ، آيات ١٠ ، ١١ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٨٠ .
(٥) سورة النحل آية ٨١ .
(٦) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥٨ .
(٧) انظر الإفصاح فى فقه اللغة ، ورسالة الدكتور « على الجندى » عن شعر الحرب فى الجاهلية ص ١٧٠ .
(٨) تاريخه جـ ٣ ص ٢٤٣ .

ولنُدرة معدن الحديد فى جزيرة العرب ، واستيراده من بلاد الهند ، كانت الدروع غالية ، والحصول عليها صعباً ، إلا على سادة الناس ومياسيرهم ، أما سائرهم فكان يتخذ درعه من جلود الإبل التى تكثر فى جزيرتهم ، ولعل هذا النوع هو الذى كان يسمى « الدِّلاَص » بخلاف ما فهم الأستاذ « زيدان » من أن هذا الاسم كان يطلق على درع الجلد ، أو درع من الكتان الغليظ (٩) ، فقد علمنا أن الكتان ونحوه كان يلبس تحت الدرع لمقاومة صلابتها ، وذكر « ابن سيدَه (١٠) » أنه ربما لبُس تحت الدرع العليا ، درع صغير داخلية تقوم مقام الشليل ، وجاء فى وجمعها دلاص أيضاً . »

وقد فهم الأستاذ « البستانى (١١) » ، أيضاً ، أن من بين الدروع قميص الكتان وقال : « ولعلها (السَّنوَّر) المذكور فى كثير من شعرهم كقول أبى الطيِّب المتنبى :

ورسائل قطع العداة سحاءها فرأوا قَنًا وأسنَّة وسنَورا .

ولكن « ابن سيده » (١٢) يرد عليه هذا الفهم فى قوله : « والسنوَّر الدروع ولا يقال للواحد ، وإنما يقال لبس القوم السنور . « وعلى هذا فهو ليس نوعاً خاصًّا من الدروع ، وإنما هو اسم جامع لها على اختلافها .

وعلى أية حال لقد لبس العرب الدروع على اختلاف موادها ، وأكثرها ما كان زرداً من الحديد أو النحاس أو الفولاذ ، ولا يزال بعض زعماء العشائر العربية يستعملونها حتى الآن ، مما يدل على تأصل تلك العادة فى أجدادهم ، وبعد أن كان عامة المسلمين أول أمرهم يحاربون مجرَّدين ، صاروا بعد اتصالهم بالفرس والروم يلبسون الدروع المعدنية ، ذات الصدور والسواعد والسيقان (١٣) ، كما قلدوهم فى كثير فى تنظيماتهم الحربية .

والدرع فى غالب أمرها قميص ينسج من حلق حديدية رفيعة ، فإن نُسجت حلقة داخل حلقة سميت (مفردة) وإن نسجت حلقتين داخل حلقتين سميت

---

(٩) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٨ .

(١٠) المخصص ج ٦ ص ٧٠ .

(١١) دائرة معارفه ، مجلد ١٠ ص ٥٢٤ .

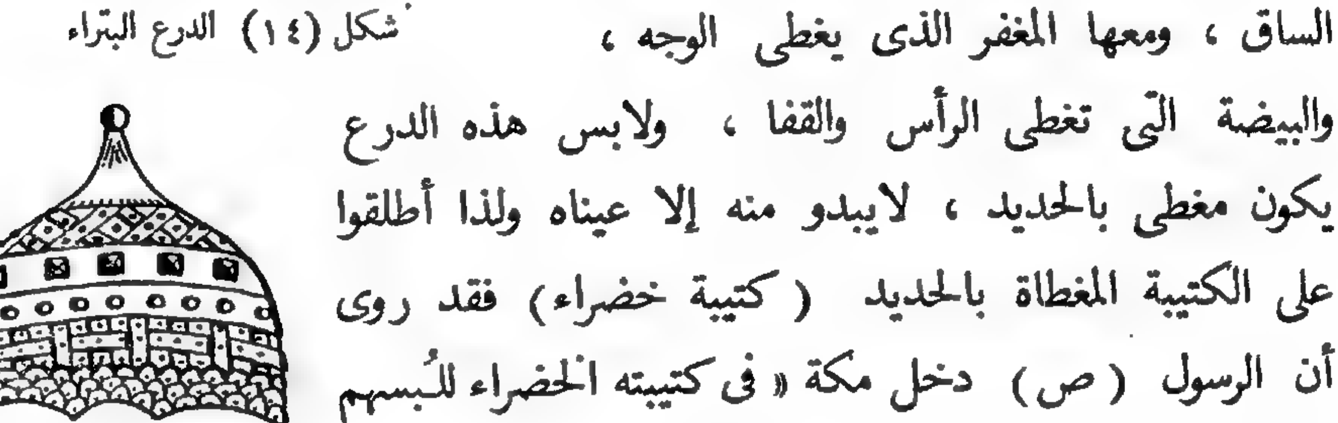
(١٢) المخصص ج ٦ ص ٧٠ .

(١٣) Dr. Oman : A History of the Art of War. p. 209.

(مضاعفة) وفى المخصص أنها تسمى (الموضونة) أيضاً ، وحلقاتها توصل بمسامير تسمى (الغلائل) بحيث تشبه الشبكة التى يلبسها رجال الفرسان فوق أكتافهم .

وهى نوعان سابغة وبتراء ، انظر شكلى (١٤)

أما الدرع السابغة فهى الفضفاضة التى تغطى البدن ، بأكمامها الطويلة حتى الأنامل ، وحاشيتها التى تصل إلى نصف الساق ، ومعها المغفر الذى يغطى الوجه ، والبيضة التى تغطى الرأس والقفا ، ولابس هذه الدرع يكون مغطى بالحديد ، لايبدو منه إلا عيناه ولذا أطلقوا على الكتيبة المغطاة بالحديد (كتيبة خضراء) فقد روى أن الرسول (ص) دخل مكة « فى كتيبته الخضراء للبسهم الحديد ، لايرى منهم إلا الحدق[١٤] .



الدرع حلقات منسوجة
شكل (١٤) الدرع البتراء

الخوذة
(شكل رقم ١٥)

والدرع السابغة كانت تلازم القاده وحملة الأعلام ، وأهل الخطر فى الحروب الذين تجب المحافظة على حياتهم ، وهى لطولها كانت تعوق صاحبها أحياناً عند المبارزة أو المجاولة ، ولذا جرت عادة صاحبها ، أن يلبس عليها فى وسطه نطاقاً من جلد، ليجمع ذيلها وفضولها فيغرزها فيه عند العمل ، كما يفعل بعض القرويين اليوم ، إذا جمعوا ذيول ثيابهم إلى أوساطهم ، وذكر « الإدريسى[١٥] » أنه « كان للرسول منطقة من جلد مبشور ، فيها ثلاث حلق من فضة ، والإبزيم والطرف من فضة » ويبدو أن هذه الحلقات فى النطاق كانت لتعليق فضلات الدرع بها ، لتكون مشمورة خفيفة عند القتال ، يؤيد هذا المعنى

(١٤) انظر الطبرى ج ٣ ص ١١٧ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٩٤ ، وفيها أن العرب تطلق السواد على الخضرة ، كما تطلق الخضرة على السواد .

(١٥) الإدريسى : التراتيب الإدارية طبعة فاس ١٣٤٦ هـ ج ص ٣٤٤ .

ما رواه « الطبرى[١٦]» من أن مرْوان بن الحكم فى يوم حصار « عثمان » خرج من الدار يطلب المبارزة ، وقد رفع أسفل درعه فجعله فى منطقته ، وبمرور الزمن وتطوره صار بعض الفرسان يجعل فى منطقته بدل الحلقات مشابك ، يشبك بها أطراف درعه إذا أراد العمل ، وكان يسميها (ذات الأزمّة) كدرع « خالد بن جعفر البرمكىّ »[١٧] التى كان لها عرى تعلق بها .

أما الدرع البتّراء: فهى القصيرة التى بلا أكمام، بحيث تصل إلى أسفل الركبة أو فوقها بقليل ، وهذه قليلة الحماية لأطراف صاحبها ، ولذا روى فى سبب مقتل الصحابى « سعد بن مُعاذ » أن درعه يوم الخندق لم تكن سابغة ، قد خرجت ذراعه كلها منها ، فرُمى بسهم قطع منه الأكحل فمات به[١٨] . وكثيراً ما نقرأ فى أخبار الفتوح تلك العبارة : « ضربه ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه ، وقال الطبرى فى الفارس الماهر الذى يتّبع مفاصل المضروب ، « هو أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور »[١٩] وهذا يذكرنا بذلك البيت الذى سبق فى التمّهيد:

فكأنمـــا أقدامهم وأكفهـــم   سرَب تساقطَ فى خليج مفعَم

كما يزيل الغرابة عن رواية « ابن الأثير »[٢٠] التى رواها عن « وقعة الجمل » من أن الناس فى مكة والمدينة ، وفيما بينهما وبين البصرة ، علموا بخبر الوقعة قبل ورود الرسل، بما كان يُنقل إليهم النسور من الأيدى والأقدام، وما يسقط منها من أطراف لأناس يعرفونهم .

ولذا جعلوا من مهارة الفارس أن يتحرى الأماكن المكشوفة والمفاصل من عدوه ، وقد نصح « الحسن بن عبد الله » لكل محارب بقوله : « ولا تضرب الخصم إلا فى المكان الذى لا سلاح فيه ، وعليك بالأطراف فقليل الجراح فيها كثير ، ولا تضيعّ الضرب فى الدرَق أو الترس ، فربما نبا السيف أو نشب أو التوى[٢١] .

ومع تأمين الدرع لصاحبها ، فإن إصابته قد تكون من نقطة فيها واهية، أو

---

(١٦) تاريخه جـ ٥ ص ١٢٤ .

(١٧) زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥٨ .

(١٨) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٥٢ والأكحل عرق فى باطن الذراع

(١٩) تاريخه جـ ٤ ص ١٣٥ .

(٢٠) الكامل جـ ص ١١٢ .

(٢١) آثار الأول : مخطوط بالمتحف الحربى ، ورقة ١٦١ .

فتحة نسيها أو عند انكشافها عنه فجأة «فحمزة» عم الرسول طُعن فى ثُنَّتِه، لأنه عثَر عند القتال عثرة كشفت الدرع عن بطنه[٢٢] ، فانتهز وحشيٌّ الفرصة وقذف حربته فيها فأصابها، وكذلك طعن «الرسول» يومها أُبيّ بن خلف فى ترقوته، لما أبصرها من وفرجة فى سابغة درعه فأصابها[٢٣] ، بعد أن سدد الضربة إليها .

وقد كان بعض الفرسان إذا رأى درع خصمه حصينة ، يحاول أن يُحدث فتقا بها؛ ليسهل عليه طعنه منه ، روى «المسعودى وابن قتيبة» واللفظ للأول خبر مبارزة بين فارسين يوم صِفّين ، يصح إيرادها هنا لتوضيح المعنى ، روى عن بعض الفرسان قوله : « بينما أنا واقف بصفين ، إذ مرّ بى العباس بن ربيعة » مُغفراً بالسلاح، وعيناه يبصان من تحت المغفر، كأنهما شعلتا نار أو عينا أرقم ، وبيده صفيحة له يمانية يقلبها ، والمنايا تلوح فى شفرتها ، وهو على فرس صعب ، فبينما هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته ، إذ هتف به هاتف من أهل الشام، يا عباس : هلمّ إلى النزال قال: فالنزول إذن فإنه إياس من الحياة ، فنزل إليه الشامى . . . ثم عصر فضلات درعه فى مِحْزمه (منطقته) ودفع فرسه إلى غلام له أسود ، كأنى أنظر إلى فلافل شعره ، ثم زحف كل منهما إلى صاحبه . . . وتصافحا بسيفيهما مليًّا من نهارهما، لا يصل واحد منهما إلى صاحبه، لكمال لأمته، إلى أن لحظ العباس وهْناً فى درع الشامى ، فأهوى إليه بيده فهتكه إلى ثُندؤته (أسفل بطنه) ثم عاد لمجاولته وقد أفرج له مفتق الدرع ، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره ، فخر الشامى لوجهه[٢٤] » .

هذا، على أن بعض الفرسان الذين عرفوا بالبسالة واحتقار الموت، كانوا يلبسون الدرع صدراً فقط بلا ظهر ولا أكمام ، ويسمون هذا النوع (الجوْشن)[٢٥] ، وذلك لإظهار بطولتهم ، وإياساً لأنفسهم من الفرار ، لأن ظهرهم فيه سيكون عرضة للسلاح، وقد كانت درع (على) رضى الله عنه كدروع « الإسكندر »

---

(٢٢) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٣٨ والثنة أسفل البطن .

(٢٣) نفس المصدر ص ٢٤٤ والفتوة عند العرب ص ١٤٨ .

(٢٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ص ٢٧ ، ٢٨ وعيون الأخبار جـ ١ ص ١٨٠ .

(٢٥) الجوشن هو الدرع بالفارسية، ويقال للمتدرع « جوشن و ر » كما فى المعجم الفارسى للدكتور هنداوى ص ١١٣ .

صدراً لا ظهر له ، فسئل فى ذلك فقال : إذا استمكن عدوّى من ظهرى فلا يُبقى[٢٦] . ويؤيد هذا المعنى فيه ما رواه « المسعودى[٢٧] » . من أنه كان يرتب أصحابه يوم « صفين » كأنما يغرسهم غرساً ، وهو على فرس أشقر حاسر الرأس استهانة بالموت واعتداداً بالشجاعة ، ولذا قال فيه بعض أتباع « معاوية » لمّا رأوه على تلك الحال « من طلب عظيما خاطر بعظيم » ويظهر أن طريقة الإمام هذه شاعت فى الناس بعده فعملوا مثله ، فقد ذكر صاحب « كشف الكروب[٢٨] » أن بعض الأوائل ممن كان له رغبة فى الموت كان يلبس « الجوشن والكبِر » صدراً من غير ظهر ولا أكمام ، حتى لا يُطمع نفسه بتولية ظهره .

وباتساع الفتوح وقوة الروح المعنوية ، تطورت فكرة التخفف من الدروع ، وبالغ فيها بعض البارزين من الأبطال ، فكان أحياناً يحارب عارى الجسد « كضِرار ابن الأزور » الذى عرفه الروم بأنه الرجل العارى ، الذى يهجم مرة برمح ومرة بنَبْل[٢٩] كما روى « الواقدى » .

وقد يكون « الواقدى » أضفى على هذا الخبر بعض المبالغة التى عُرِف بها .

ولكن الذى يقرّبه للفهم ما رواه المؤرخان « ابن الأثير والمسعودى » من اشتهار طائفة « ببغداد » فى أواخر القرن الثانى ، كانوا يحاربون مجردين ، ولذا سموهم « العراة أو العيارين[٣٠] » لا سلاح معهم إلا الحجارة فى المخالى والمقلاع ، يرمون به أجودَ من رميهم بالسهام .

ومن طريف ما يروى عنهم أن بعض القواد الخراسانيين « لطاهر بن الحسين » خرج يوماً إلى القتال فى « بغداد » فنظر إلى قوم عراة لا سلاح معهم ، فاستهان بأمرهم واحتقرهم ، وتقدّم إلى بعضهم وفى يده (باريّة مُقيَّرة) وتحت بطه مخلاة فيها حجارة ، فجعل الخراسانى كلما رمى بسهم استتر منه العيار ، فوقع فى باريّته

---

(٢٦) عيون الأخبار جـ ١ ص ١٣١ .

(٢٧) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٠ .

(٢٨) موسى اليوسفى : مخطوطة بالمتحف الحربى ورقة ١١ ، والكبر الطبل كما فى القاموس المحيط والمراد به الجلد هنا .

(٢٩) الواقدى : فتوح الشام جـ ١ ص ٣٣ .

(٣٠) الكامل جـ ٦ ص ص ٩٩ ، ١٠٠ ومروج الذهب جـ ٣ ص ٤١٤ . والعيار كما فى القاموس المحيط الكثير المجىء والذهاب والذكى الكثير التطواف .

أو قريباً منها ، فيأخذه ويصيح: « دانَق » أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه ، فلم يزالا كذلك حتى فنيت سهام الخراسانى ، ثم حمل عليه العيار ، ورمى بحجر من مخلاته فى مقلاع فما أخطأ عينه ، ثم خرّ فكاد يصرعه ، فانهزم وهو يقول : ليس هؤلاء بناس ، وقد روى « المسعودى[٣١] » أن هؤلاء العيارين كانوا يقاتلون عُراة ، فى أوساطهم التبابين والميازر ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص وسموها (الخوَذ) ودرقاً من الخوص والبوارى قد قيرِّت وحشيت بالحصى والرمل .

هذه القصة على فرض صحتها تدلنا ، على أن تطور الفكرة كان يميل إلى التحلل من الدروع عند بعض الفرسان ، وإن ظل كثير منهم محافظاً عليها إلى أيامنا الحاضرة.

٢ ــ أهمية الدرع :

مما تقدم يتضح أن الدرع من أهم وسائل الوقاية الشخصية ، وبها يقاتل صاحبها آمناً قوى القلب ثابته، كما قال ذلك الأعرابى الذى رآه ــ « الإمام على » فى بعض المعارك وقد لبس لباساً ثقيلا ، فسأله : أخشيتَ الموت يا أعرابى ، فقال : لا ، ولكنى أقى به نفسى ، وأثبت به جنانى وأقوى به قلبى[٣٢] » . ومن ثم كان الفرسان يحافظون على اقتناء الدرع ، حيث تساعدهم الخيل على حملها، أما المشاة والرماة فقليل منهم من كان يلبسها، لأنها تثقل الراجل، وتعوق الرامى عن حرية الحركة؛ ولذا كان بعضهم يقطع أكمامها، وقد ذكر « دكتور أومان[٣٣]» أن رماةَ الروم كانوا يتحصنون بها وقت التمرين فقط ، فإذا تحققت مهارتهم نبذوها لأنها لا تتفق وتحريك اليدين بحرية عند الرّماية ، وأغلب الظن أن المسلمين كانوا مثلهم .

والدليل على أهميتها عند العرب ارتفاع ثمنها ، فقد غنم بعض المسلمين درعاً يوم « حُنين » فباعها بسبع أواق ، اشترى بها بستاناً فى « بنى سلمة[٣٤]» على أن

---

(٣١) مروج الذهب جـ ٣ ص ص ٤١١ ، ٤١٥ ، والبوارى جمع « بارية » وهى الترس ، ويظهر أن اللفظ فارسى نسبة إلى « بار » وهى بلدة بنيسابور أو إلى « باره » بالشام كما فى القاموس المحيط (البور) والدانق فارسى معرب وهو يساوى ربع مثقال كما فى معجم الدكتور هنداوى ص ١٤٧ . ويظهر أن اسم باريه مأخوذ منها .

(٣٢) اليوسفى : كشف الكروب المخطوط ورقة ١١ .

(٣٣) A History of The Art of War. p. 189.

(٣٤) القسطلانى : إرشاد السارى جـ ٥ ص ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

دروع القادة والسادة كانت أغلى من هذا بكثير ، فنى يوم « بدر » أسر المسلمون « الوليد بن المغيرة » وطال كلامهم فى فدائه لغناه ولعداوة أهله للإسلام ، فطلب آسرُه أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبى (ص) ألا يقبلوا فدية له غير شِكّة أبيه ، وهى درع فضفاضة وسيف وبيضة[٣٥] وهى لا تقل قيمة — إن لم تزد — عن الآلاف الأربعة ، فلو جعلنا ثمن السيف ألفاً أو نحوها على أنه سيف جيّد، بقى للدرع والبيضة ثلاثة آلاف درهم ، وهو ثمن مرتفع ، لأنه يساوى بالعملة المصرية ١٢٠ جنيهاً ، لأن الدرهم يساوى فرنكاً تقريباً .

ورغم ارتفاع ثمن الدرع كان الناس يحرصون عليها ، فقد روى « الطبرى[٣٦] » أن الدارعين يوم « أحد » من المشركين كانوا ٧٠٠ ومن المسلمين ١٠٠ ، ولما رأى الرسول عليه السلام قلة الدارعين فى أصحابه يوم «حنين» استعار لهم من «صفوان بن أمية » ١٠٠ درع بما يكفيها من السلاح ؛ ليزيد فى تحصينهم[٣٧] . وكان المسلمون يقدمون الدارع فى الصفوف الأمامية ، ويؤخرون الحاسر ، ولذا
قال بعض القادة : « ما رأيت رجلا فى الحرب ملتثماً إلا كان عندى رجلين ولا رأيت حاسرين إلا كانا عندى واحداً » ، وعلل « ابن قتيبة[٣٨] » لأهميتها بقول بعضهم : « أما تراهم ينادون عند الصريخ : السلاح . السلاح ، ولا ينادون الرجال الرجال ؟ وهذا طبعاً استدلال خطابى ، ولكنه يدلنا على ما للدرع عندهم من قيمة .

ولتحصين الدرع لصاحبها كان بعض الرؤساء ، وبعض القادة وحملة الأعلام يلبسون درعاً فوق الأخرى ، وذلك لجلال خطرهم ، وشدة الحاجة إلى حياتهم ، وكان الرسول عليه السلام يضاعف بين درعين فى غزواته . وروى « الطبرى »[٣٩] أن تلك كانت عادته عليه السلام فى حروبه كلها .

(٣٥) العقاد عبقرية خالد ص ٤٢ .
(٣٦) تاريخه جـ٣ ص ١٢ .
(٣٧) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٣ والطبرى جـ ٣ ص ١٢٧ .
(٣٨) انظر عيون الأخبار جـ ١ ص ١٢٩ .
(٣٩) الديار بكرى : تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٢١٠ والطبرى جـ ٣ ص ١٨٥ .

٣ ـ ملحقات الدرع :

ا ـ المِغفر : وهو نسيج من الحديد كالدرع ، يلبس تحت البيضة على الرأس ، ليكون واقياً لها إذا وقعت أو انكسرت ، ويتدلى جزء منه على الوجه لحمايته وهذا معنى قولهم « وعيناه تبصان من تحت المغفر » وقد دخلت حلقتان منه فى وجنتى الرسول (ص) يوم أحد ، بضربة من المشرك[٤٠] « ابن قمئة » فلو لم يكن المغفر أمام الوجنة ما أصابها ، وكان للرسول مغفر يلبسه تحت القلنسوة من الزرَد ،[٤١] وقد يكون المِغفر سابغاً من الخلف أيضاً بحيث يغطى القفا ، ويتصل بالدرع بواسطة بعض العُرى ، وكان الفارس يلبس فوق البيضة العمامة العربية أو القلنسوة .

ب ـ البيضة : وهى الخوذة من الحديد أو الفولاذ ، تبطنها بعض المواد اللينة كالقطن وغيره ، وهى مستديرة باستدارة الرأس لها مقدم يسمى (القونس) ولها مؤخر من الزرد المتصل بها ؛ ليطرحه الرجل على ظهره[٤٢] ، فيقوم مقام المغفر ، وهى تنتهى من أعلاها بقمة مدببة ، لتنبو السيوف عنها إذا صادفتها وليمكن نزعها ولبسها منها .

فلما اتصل العرب بالروم أحدثوا بعض التعديل فى خوذاتهم ، فصار لها إفريز محيط بها من أسفل ، وجزء نازل على الصدغين منها ، وكرة صغيره فى قمتها ، وإذا كنا قد علمنا أنه لا يكاد يوجد فرق بين الجندى العربى والرومى ، استطعنا أن نعرف وصفَ الخوذات العربية ، مما كتبه « دكتور أومان » عن الجندى البيزنطى ، فهو يقول : « أما ملابس الفرسان الثقيلة » فى عصر « موريس وليو » فكانت عبارة عن خوذة حديدية محاطة بإفريز صغير ، ودرع طويلة تمتد من العنق إلى الفخذين » ، وذكر أيضاً أن هذه الخوذة كانت مدببة ، ولها إفريز محيط بها عند المشاة[٤٣] .

---

(٤٠) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٤١) الديار بكرى : تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٢١٠ .

(٤٢) ابن سيدة : المخصص جـ ٦ ص ص ٧٠ ، ٧٣ .

(٤٣) Dr. Oman. A History of the Art Of War. pp. 187-91.

جـ ـ الأذرع والسيقان والأكف : يروى الطبرى[٤٤] . أن المسلمين غنموا من الفرس أسلحة بعد فتح المدائن « فيها درع كسرى ومغفره وساقاه وساعداه، وأدراع قوادهم وسيوفهم » ، ويذكر « أومان[٤٥] ». عن فرسان الروم أنهم « كانوا يلبسون فى أرجلهم أحذية حديدية طويلة ، أما سواعدهم فغير محصنة ،وأما أعضادهم فكان الكثير منهم يقيها بسُوار ضيق من المعدن» .

إذن فقد شاهد المسلمون أعداءهم يحصنون أطرافهم بالحديد، ومما لا شك فيه أنهم غنموا دروعاً كثيرة من الفرس ، وعجبوا لسوارىْ « كسرى » وسيقان أساورته ، ووجدوا مثل ذلك عند الروم ، فمن الطبيعى أن يقلدوهم وقد كثرت الأموال فى أيديهم ، وما هم بأقل منهم فى أية ناحية من النواحى الحربية ، ولذا صارت الدروع تلبس ومعها السواعد والسيقان أيضاً يذكر « المسعودى[٤٦] » أن الفرسان كانوا فى الحرب بين« الأمين والمأمون » يلبسون مع الجواشن والدروع السواعد والدرق التِّبتية، نسبة إلى بلاد التبت، وذكر « ابن سيده » ما يفيد أنهم كانوا يستعماون السواعد وغيرها حيث يقول: « الطِّراق الحديد الذى يعرّض ثم يدار ، فيجعل بيضة أو ساعداً أو نحوه[٤٧]» . ولكن الذى يبدو غريباً أن بعض المسلمين فى أوائل القرن الثانى، كانوا يلبسون فوق أكفهم كفاً حديدية ، ولم ترد لها إشارة فى تاريخ الفرس أو الروم على ما أعلم ، ذكر « ابن الأثير » خبر القتال الذى كان بين « مسلمة بن عبد الملك » ، ويزيد بن المهلب » بالأنبار فى حوادث ١٠٢ هـ ٧٢١ م ثم قال: « فخرج رجل من أهل الشام فدعا للمبارزة فبرز إليه « محمد بنُ المهلب » وضربه بالسيف، فاتّقاه الرجل بيده، وعلى كفه كف من حديد ، فقطع الكفَّ الحديد ، وأسرع السيف فى كفه فانهزم[٤٨] .»

من هذه النصوص المتقدمة نستطيع أن نفهم ، أن الفارس فى الصّدر الأول ، كان يخرج للقتال وقد أخفى بدنه بالحديد ، وأنه نقل عن الروم والفرس الأذرع

(٤٤) تاريخه جـ ٤ ص ١٧٦ .
(٤٥) المصدر السابق ص ص ١٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ .
(٤٦) مروج الذهب جـ ٥ ص ٣٣ .
(٤٧) المخصص جـ ٦ ص ٧٣ .
(٤٨) الكامل جـ ٥ ص ٣٣ .

والسيقان ، وما كان ذلك ليثقله ، لأن فرسه يحمله عنه ، أما المشاة والرّماة فكانوا يتخففون من الحديد ، لتتحقق لهم خفة الحركة وحرية العمل .

(ب) الترس وأنواعه

الترُّس أو المجَنُّ آلة دفاعية يقي بها المقاتل نفسه ، من رميَات الأعداء وضرباتهم سواء أكانت بالسهام أم بالرماح أم بالسيوف ، فلكل سلاح — كما سنعرف — ترس يناسبه ويستعمل ضده ، والترس كالدرع قديم عند كل الأمم ، وكما أن السيف لا يفارق يمين المحارب ، فكذلك الترس لا يفارق يساره عند القتال ، أو ظهره عند حمله ، وقد استعمله قدماء المصريين ، وكذلك اليونان والرومان والفرس « ويرجح فى الذهن أنّ أقدم المجَانّ ، إنما صنعت من درق السلاحف الكبيرة ، لقيامها بالغرض ، ثم تفننوا فيها ، فصنعوها من ألواح الخشب والجلود القاسية ، ثم من المعادن[٤٩] .

١ — الترس عند المسلمين :

عرف المسلمون أول أمرهم الدّرق والحَجَف ، جمع درقة وحَجَفة ، وهى كما فى « الإفصاح والقاموس المحيط » ترس من جلد الإبل أو البقر ليس فيها خشب ولا سيور من الجلد أو العصب[٥٠] ، ولكن ورد فى شرح البخارى ما يفيد ، أن الدرقة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تصنع من الخشب ثم تُلصق عليها جلدة مساوية لها[٥١] ، وقد أيد « ابن سيده » ذلك النص بقوله : « طِراق الترس أن يُقَدّ جلد على مقداره فيلزق به[٥٢] . وهذه النصوص تساعدنا على فهم ما رواه (الطبرى) من أن بعض الجند « بالقادسية » كان معه حَجَفة من جلود البقر ، إذ أن الجلد لا يثبت وحده أمام طعنات السلاح ، إلا إذا كان مستنداً إلى جريد أو خشب يقويه ، ويشد قوامه .

كان هذا شأن بعض الجند فى الترّس ، أما عامتهم فكانوا يُترّسون بأشياء

---

(٤٩) دائرة معارف البستانى مجلد ١٠ ص ٥٢١ .

(٥٠) أنظر الإفصاح ط دار الكتب ص ٢٩٨ والقاموس مادة (ترس) .

(٥١) إرشاد السارى للقسطلانى جـ ٥ ص ١٠٥ .

(٥٢) المخصص جـ ٦ ص ٧٥ .

مختلفة ، حسب درجاتهم في اليسار أو الفقر : يقول الطبرى : « وعامة جُنن المسلمين يوم (القادسية) كانت براذع الرحال ، قد عرّضوا فيها الجريد يترسون بها عن أنفسهم ، وما عامة ما وضعوه على رءوسهم إلا أنساع الرّحال ، يطوى الرجل نِسع رحله على رأسه يتقى به ، والفُرس في الحديد واليَلامق[٥٣]. وهذا طبيعى لأن الله لم يكن قد فتح على العرب كنوز العراق والشام ، فكانوا يُعدون آلات القتال مما يجدون.

فلما فتح الله البلاد عليهم ، وكثر المال في أيديهم ، رغبوا في تقليد أعدائهم ، فتركوا الجلد والجريد ، وصاروا يصنعون أتراسهم من الحديد والفولاذ ، وتوسعوا في استعمالها باتساع فتوحهم ، وقد ذكر الأستاذان « زيدان وثابت »[٥٤] أنهم كانوا ينقشون عليها الآيات القرآنية والحكم والأشعار ، مثل (لا غالب إلا الله) ومثل (لا إله إلا الله) وتميزت أتراس كل بلد بشكل خاص بها ، فمنها الترس الدمشقى ، والترس العراقى ، والترس الغرناطى وغيرها . وانفرد « المسعودى » بذكر الترس (التبتية) المنسوبة إلى بلاد التبت في أواخر القرن الثانى[٥٥] ، وهى جزء من بلاد الهند الواسعة .

٢ — أنواع التروس :

زاد تقدم المسلمين الحربى باتساع فتوحهم ، فجددوا في السلاح وآلات الوقاية وصارت التروس عندهم تتميز بالبلد الذى تصنع فيه ، وتنسب إليه ، شأنها في ذلك شأن السيوف والرماح وغيرها ، وجعلوا لكل سلاح ترساً لا يحسن استعماله إلا معه.

وأول من تكلم عن التروس بتفصيل ، هو صاحب كتاب «آثار الأول» الذى نقل عنه كثيراً الأستاذان « جرجى زيدان ، ونعمان ثابت » دون أن يشير واحد منهما إليه فإنه بعد أن قال : «لا يتبغى أن يدخل في حرب بسيف إلا ومعه ترس ، إلا عن ضرورة . » قسّم الترس أقساماً : فجعل منه المسطح الذى يُتقى به الرمح ، ويكون النظر للعدو من جانبه ، ومنه المستطيل المخصّر الوسط ، وبه يُتقى النشاب لأن رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه ، والنظر يكون من التخصير الذى في وسطه .

---

(٥٣) تاريخه جـ ٤ ص ١٣٩ والنسع بالكسر سير الجلد عريض تشد به الرحال ، كما في القاموس المحيط ، واليلامق الحديد اللامع الجيد .

(٥٤) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥٧ والجندية في الدولة العباسية ص ١٨٨ .

(٥٥) انظر الهامش ٤٦ السابق .

ومنه المقبب المنحنى الأطراف إلى خارج ، وهذا لا يُتقَى به الرمح ، لأنه قد يثبت فيه فيصرع حامله ، وإنما يُتقى به النشاب والسيف[٥٦] .

هذه أنواع ثلاثة من التروس ، فهل كانت كلها مستعملة عند المسلمين فى تلك الفترة ؟

أما الترس المستدير فكان أعم هذه الأنواع ، وأكثرها شيوعاً ، وقد كان كذلك شائعاً بين الروم ، رماة ومشاة وفرساناً ، وإن كان يختلف فى الحجم واللون باختلاف الفرق[٥٧] ، ويفهم من النصوص العربية أنه كان منحنى الأطراف جهة حامله ، وله قمة بارزة إلى الخارج تسهل انزلاق الرمح عنه إذا أصابه ؛ ولذا كان بعض أتراس الرسول صلى الله عليه وسلم يسمى « الزّلوق[٥٨] » وروى فى صحيح البخارى أن « الرسول » لما جُرح فى غزوة « أحد » كان « على بن أبى طالب » يحمل له الماء فى مجنّه ؛ ليغسل به جروحه ، وحمل له الماء فيه مرة أخرى ليشربه لما اشتد به العطش[٥٩] ، فهذا المجن الذى يحمل الماء لغسل الجراح ، أو يُحمل فيه العلف للفرس لابد أن يكون له قاع منخفض يجعله أشبه شىء بالإناء « انظر شكل ١٦ » .

وأما الترس المستطيل الذى يستر جسم حامله كله ، فقد ذكر « البستانى » أنه كان مستخدماً عند قدماء المصريين ، ونقل عن « هوميروس » أن اليونان فى معاركهم كانوا يحملون القتيل أو الجريح على ترسه[٦٠] ، وهذا يشعرنا بأنهم كانوا يستخدمون الصنف المستطيل ، وقد يفهم من النصوص العربية أن المسلمين استخدموا ذلك الصنف ، فقد روى أن « الرسول وأبا طلحة » يوم « أحد » كان يحتميان فى ترس واحد[٦١] ، وإذا علمنا أن أبا طلحة كان يرمى بين يدى الرسول ، وأنه أمر الناس أن يعطوه نبالهم ، فهمنا أن الرسول كان يمسك بالترس له وهو يرمى من ورائه ،

---

(٥٦) انظر النسخة المخطوطة ورقة ١٦١ والمطبوعة ص ١٨٥ وتاريخ التمدن لزيدان جـ ١ ص ١٥٧ .

(٥٧) Dr. Oman : pp. 190-91.

(٥٨) القسطلانى : المواهب اللدنية جـ ١ ص ٣٠٢ .

(٥٩) البخارى — شرح القسطلانى جـ ٥ ص ٩٥ ، ٩٦ ، والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٤٩ ، ٥٠٢ .

(٦٠) دائرة معارفه مجلد ٩ ص ٥٢١ .

(٦١) المرجع السابق ص ٩٥ .



شكل (١٦)
الترس المستطيل

لأنّ الترس المستطيل لا يصلح لستر رجلين متجاورين ، وكان أبو طلحة ينهى الرسول إذا أطل من جانب الترس ، خوفاً عليه ، ويؤيد هذا المعنى أن « الحسن بن عبد الله » ذكر أن فرق الجند التى كانت تكلف بجرّ حبال المجانيق ، أو بجر الدبابات أو بردم الخنادق ، كان يسير أمامها صف من الجند ، يحملون تلك التروس المستطيلة أو الستائر الغليظة(٦٢) ، لتقيهم وتقى من يعملون سهام الأعداء « انظر شكل (١٦)

وأما الترس المحدب — ويسميه الحسن المقبب وهو الذى يكون بروزه جهة حامله ، فقد ذكره صاحب « آثار الأول » وبين أنه يُستخدم لرد السيف والنشاب ؛ لأن السيف قد يلتوى أو ينشب فيه إذا صادف أطرافه ، ولا يُتقى به الرمح لأنه قد يشتبك فيه فيعطل حامله عن القتال أو يصرعه ، وليس عندى نص يثبت استعمال ذلك النوع غير هذا . وهو وإن كان من رجل متأخر يطابق المعقول ، ويتسق وطبيعة العرب ، لأن معظم قتالهم بالسيوف التى يناسبها ذلك النوع من التروس . (انظر الشكل ١٧) .

(شكل رقم ١٧)
الترس المقبب

ويصح الاستئناس هنا بما رواه « البستانى(٦٣) . من أن التروس الإسلامية تعدّدت بتمدن المسلمين ، وذهبوا فى اصطناعها مذاهب شتى ، وأكثروا كاليونان من ترصيعها بالقتير (المسامير المضغوطة) فكان عندهم المجن الكبير والصغير والخفيف والثقيل والفارس والراجل ، وهذا يجعلنا لا نرفض تقسيم « الحسن بن عبد الله » فطبيعة التطور الزمنى تجيزه ، وإن لم نقف على مراحل ذلك التطور لانعدام النصوص التى تبينه وتفصله ، فليس من المعقول أن يوجد التحسين طفرة ، قبل أن تسبقه مراحل درج فيها ، وتطور على مسارها .

---

(٦٢) آثار الأول ص ٢١٤ .

(٦٣) دائرة معارفه . مجلد ١٠ ص ٥٢٢ والقتير المسامير المعدنية (المبرشمة) فى التروس والدروع .

القسم الثانى

وسائل الدفاع الثابتة

(أ) الخنادق

١ ــ تاريخها وتطورها :

الخندق من وسائل الدفاع القديمة عند الفرس والروم ، يحفرونه حول مدنهم وحصونهم للدفاع عنها من خلفه ، وكان ذلك عندهم كالمبدأ المقرر ، ولكن العرب لم يعرفوه إلا عن الفرس ، بدليل أن اسمه فارس معرّب ، فاسمه بالفارسية (كنده) بمعنى محفور[٦٤] ، وأول من استعمله من العرب هو الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة الأحزاب ، فإنه لما علم بخروج قريش وحلفائها من البدو ، جمع أصحابه فى مجلس حربى واستشارهم ، فأشار عليه « سلمان الفارسى » بحفر خندق حول المدينة ، جرياً على عادتهم فى بلادهم ، فاستحسن الرسول الفكرة وخرج فى ثلاثة آلاف من أصحابه ، وارتاد موضع الخندق ، وبعد التدبر استقر رأيهم على أن يُحفر فى الجهة الشمالية من المدينة ، وهى الجهة المكشوفة منها ، التى لا تحميها البيوت العالية[٦٥] ، فجعل الرسول جبل « سَلع » خلف ظهره ، وحفر الخندق ممتداً من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية « بعد أن قسم حفره بين أصحابه ، وخصص لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً ، وخطّه لهم حتى لا يعدلوا عنه »[٦٦] .

ولقد تجلت عقلية الرسول الحربية فى سرعة إنجازه ، فإنه جعل كل أصحابه يعملون فيه ، وساعدهم بآلات حفر كثيرة استعارها من « بنى قريظة » وأخرج الرمال والصخور ناحية المدينة ، ليضمن عدم ردم الخندق بها إذا أخرجها جهة العدو ، وليضمن لأصحابه ساتراً كافياً يحاربون من خلفه ، ويرمون عدوهم وهو فى أرض

---

(٦٤) المعجم الفارسى للدكتور هنداوى. مطبعة مصر ، والمعرب من كلام العرب للجواليقى ص٩٦.

(٦٥) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٤٥ .

(٦٦) نفس المرجع والصفحة والإدريسى فى التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٧٦ .

مكشوفة أمامهم ؛ ولذا فوجيء الأحزاب بالخندق لما شاهدوه وقالوا : « هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها » .

ولقد ضرب الرسول يومها أروع الأمثال للقائد القدير الحكيم ، بأن شارك أصحابه فى الحفر ونقل الرمال ، استنهاضاً للهمم ، وتشجيعاً على العمل(٦٧) فأتموا حفره بهمة فائقة ، فى مدة متوسطها عشرون يوماً ، مع اختلاف الروايات ، وبعمق خمسة أذرع (ثلاثة أمتار تقريباً) كما روى « الحلبى(٦٨) » أما عرض الخندق فلم أوفق لنص صريح فيه ، ولكن المفهوم أنه عُمل ليحول بين الخيل والمدينة ، وأظن أن قفزة الجواد الجيد تقارب الأمتار الستة ؛ ولذا فيرجّح أن عرضه كان فى حدود ذلك المقياس ، لأن بعض الخيل استطاعت عبوره ، فقُتلت وقتل أصحابها .

وإذا علمنا أن الرجل خصه فى حفر الخندق أربعة أذرع ، وأن الجند كانوا ثلاثة آلاف(٦٩) يومها ، استطعنا أن نعرف أن طول الخندق كان حوالى ١٢ ألف ذراع ، أى حوالى ستة كيلومترات أو يزيد ، حفرت فى عشرين يوماً ، بعمق ثلاثة أمتار وعرض ستة أمتار ، ومن هنا نعلم مقدار الجهد الذى بذل فيه .

وقد قام الرسول بتخطيط خندقه ، وعمل فيه بيده مع جنده ، فلم يجعل الحفر قاصراً على العبيد ، كما كان يفعل البيزنطيون ، وبث الحرّاس حوله بعد الفراغ منه ، وكان هو يحرس بعض النقط المخيفة بنفسه ؛ لأنه كان يحب أن يكون قدوة لجنده فى العمل .

وأول من استخدم الخنادق فى خلافة «أبى بكر» وأكثر منها ، هو « العلاء بن الحضْرمى » أثناء قتاله المرتدين بالبحرين ، فقد روى « الطبرى وابن الأثير »(٧٠) وغيرهما أن المسلمين والمرتدين هناك ، كانوا يحفرون الخنادق يتحصنون بها ، ثم يتراوحون القتال منها .

---

(٦٧) ابن أبى جمرة : بهجة النفوس ط الصاوى سنة ١٣٥٣ هـ جـ ٣ ص ١١٢ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٦٨) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ص ٣٣٤ ، ٣٥ .

(٦٩) انظر الهامش ٦٦ السابق .

(٧٠) أنظر الطبرى جـ ٣ ص ٢٥٨ والكامل جـ ٢ ص ١٥٥ .

وفى خلافة « عمر بن الخطاب » ومن بعده ، اتسعت الفتوح وكثرت الجيوش الموجهة شرقاً وغرباً ، فكان لابد من العناية بالتحصينات ، التى تكون مانعاً من البيا ت والمفاجأة ، وكثيراً ما نصح الخلفاء قوادهم بالتزام الخنادق خشية البيات[٧١] ، فصاروا إذا نزلوا ليلا فى موقع خندقوا حول عسكرهم بالطريقة الرومية ، تاركين للمرور بابين أو أربعة ، متحصنين بالجسور والخنادق المائية[٧٢] ، وكانوا إذا حاصروا عدواً مخندقاً على نفسه ، وأرادوا إشعاره بدوام الحصار ، ضربوا خندقاً حول خندقه ؛ ليبأس من فك الحصار ويبادر بالتسليم ، وقد طبقت هذه الخطة فى حصار مدينة « هيت » على شاطىء الفرات ، فأسرع أهلها بالتسليم[٧٣] .

ومن القواد الذين عرفوا بالتزام الخنادق فى الميدان « المهلب بن أبى صفوة » فى حربه للخوارج ؛ لأنهم كانوا أهل جرأة ومكر فى حروبهم. وأحياناً كان القائد يغتر بقوته ويهمل حفر الخنادق فينال منه عدوه و يوقع به لغفلته[٧٤] .

وبتقدم الزمن لم يقف استخدام المسلمين للخنادق عند هذا الحد ، بل صاروا يحفرونها حول المعسكرات الدائمة ، وحول المدن والثغور المهمة ، فكان الوالى إذا بنى مدينة مهمة ، جعل لها خندقاً يحيط بسورها ، وأحياناً كانوا يحفرون خارج السور خندقين أو أكثر « فالحجاج بن يوسف » لما فرغ من بناء مدينة « واسط » بين البصرة والكوفة حصنها بسور وخندقين ، وأنفق عليهما وعلى قصره والمسجد الجامع ٤٣ مليون درهم[٧٥] وفرغ من بنائهما بعد عامين .

بل لقد تدارك بعض الخلفاء ما فات أسلافهم ، فحصنوا المدن التى أقيمت فى مراكز «استراتيجية» هامة ، قبل شيوع فكرة الخنادق ، التى كانت تستغرق كثيراً من الوقت والمال ، فالخليفة « أبو جعفر المنصور » خندق على الكوفة والبصرة فى عام ١٥٥ هـ – (٧٧٢ م) وضرب عليهما سوراً ، وجعل ما أنفق على

---

(٧١) الكامل جـ ٥ ص ١٦٧ .
(٧٢) كريمر : الشرق فى حكم الخلفاء ص ٣٠٦ .
(٧٣) الطبرى جـ ٣ ص ١٨٨ والفاروق عمر لهيكل ص ١٧٥ .
(٧٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ص ١٦٤ ، ٦٥ .
(٧٥) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٨ ونعمان ثابت : الجندية ص ٣٠ .

ذلك من أموال أهلهما[٧٦] ، وكانتا قد بنيتا فى عهد « الفاروق عمر » بلا خنادق ولا أسوار .

وقد بنى بعد ذلك بثلاث سنوات مدينة الرُّصافة ومسجدها ، وحفر حولها خندقها[٧٧] ، وكذلك كان الشأن فى المدن الهامة ، تحاط بالخنادق والأسوار تحصيناً لها .

استمر العمل بنظام الخنادق أيام الدولتين ، الأموية والعباسية حتى نهاية القرن الثانى ، وأدخلوا على الخنادق كثيراً من التحسين ، فصاروا يبنون عليها الجدُر العالية ، وصاروا يحفرون حول المدينة أكثر من خندق ، ويبنون على كل خندق سوراً ، وصاروا فى حالة الخوف يحفرون حول الخندق حفائر تغطّى بالقصب والقضبان والتراب[٧٨] ، لتقع فيها قوات الأعداء ، ولقد روى « ابن الأثير » أن « طاهر بن الحسين » كان يخندق فى بلاد فارس ، وأنه أثناء حصاره « بغداد » فى الحرب الأهلية بين « الأمين والمأمون » كان إذا استولى على دربْ خندق عليه وأقام الحيطان[٧٩] .

أما متى أبطل نظام الخنادق : فهذا موضوع تعرَّض له « فون كريمر » وقرر أنه أبطل فى عهد « المأمون » العباسى ، ولا أدرى مدى هذا القول من الصواب ، فإن صاحب « آثار الأول » وصاحب « كشف الكروب فى أمر الحروب » أكثرا من ذكر الخنادق ، وطريقة ردمها بالمخالى المملوءة بالتراب ، وهما متأخران عن القرن الثانى ، مما يدل على استمرار العمل بذلك النظام بعد المأمون .

٢ ــ طرق اقتحام الخنادق :

ما من أحد يجهل موقف قريش وأحلافها أمام خندق « الرسول » الذى حفره حول المدينة ، فكل محاولاتهم لاقتحامه كانت محاولات بدائية ، كأن يدور حوله

---

(٧٦) تاريخ الطبرى ط المطبعة الحسينية جـ ٨ ص ٢٨٥ ، والكامل ط ١ جـ ٦ ص ٢ وفى مختصر تاريخ البصرة للأعظمى أنه كتب بذلك إلى الهيثم فقام به ط بغداد ١٩٢٧ .

(٧٧) أنظر الكامل جـ ٦ ص ٤٥ ، والمختصر لأبى الفدا جـ ٢ ص ٦ الطبعة الأولى .

(٧٨) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ٢١٥ .

(٧٩) الكامل جـ ص ص ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ حوادث سنة ١٩٧ هـ .

أبطالهم « كخالد » وغيره ، ليقتحمه بجواده من أضيق أماكنه ، ولم يفكر أحدهم فى العمل على ردم جزء منه وعبوره؛ لإنه كان مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها .

فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول ، أكثروا من استخدام الخنادق ، ومارسوا القتال منها كثيراً مهاجمين ومدافعين ، ففُتحت أمامهم سبل الحيل فى التغلب عليها ، وعرفوا طرق عبورها ، فكان « خالد بن الوليد » إذا صادف خندقاً للعدو ، يسرع بذبح الإبل المسنة التى معه ، ثم يرميها ومعها رحالها فى أضيق مكان منه ، ثم تعبر قواته فوقها ، كما فعل فى عبور خنادق الفرس فى فتح « الأنبار(٨٠) » وغيرها ، وكان يهدف من ذلك أيضاً إلى التخلص من تلك الإبل المسنّة ، التى كانت تعوق تقدم الجيش بحمل أولادها عليها .

ثم رأينا المسلمين بعد ذلك ، يضنّون بلحوم الماشية أن تضيع فى الخنادق ، فكانوا يأكلون لحومها ، ثم يملئون جلودها بالرمال ، ويرمونها فى الخندق حتى يمتلىء ويتم لهم عبوره ، وكان بعضهم يُطم الخندق بالبراذع والرحال ، والزُبل المملوءة بالرمال(٨١) .

وكثيراً ما رأينا « خالد بن الوليد » فى فتح دمشق وغيرها ، يصادف الخنادق المملوءة بالمياه ، فيعبرها سباحة على القرب المملوءة بالهواء بعد إحكام غلقها ، فإذا أرادوا أن تعبر القوة الخندق ، ألقوا فيه حُزماً من فروع الأشجار ، بعد ربطها بحجارة تجعلها ترسب فى قاعه ، حتى يمتلىء الخندق ، ثم يعبره الجند ، بعد أن يمهدوا طريقهم فوق الفروع بغرائر الرِّمال(٨٢) ، فإن كان الخندق قليل العرض ، طرحوا عليه الأبواب والألواح الخشبية ، وجعلوا منها قنطرة ، يعبرون فوقها(٨٣) .

ولكى نعرفَ أثر التطور الزمنى ، فى فكرة عبور الخنادق ، يصح أن نستعرض هنا موقف قريش الذى مرّ آنفاً أمام خندق الرسول ، ثم نقرأ ما رواه — « ابن الأثير » ،

---

(٨٠) أنظر تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٠ ، والكامل جـ ٢ ص ١٦٥ ، وعبقرية خالد ض ١٨٠.

(٨١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ص ٦٠ ، ٩٥ ، جـ ٦ ص ١٧٩ ومواضع متفرقة والزبل هى القفف .

(٨٢) آثار الأول ص ٢١٤

(٨٣) نفس المرجع والصفحة .

وأبو الفدا(٨٤) » عن ذلك الخندق نفسه فى أواسط القرن الثانى ، فقد ذكر أن « محمد ابن عبد الله المحض » لما خرج بالمدينة عام ١٤٥ هـ — ٧٧٤ م عمل على تحصينها ضد قوات القائد العباسى « عيسى بن على » فأعاد حفر خندق الرسول حولها ، وبنى عليه جهة العدو جداراً ، وقف عليه حرّاس من أصحابه يدفعون عنه ، فلما جاءت القوات العباسية ، لم تقف حائرة أمام الخندق وقفة قريش ، ولكن بعض قواد « عيسى » تقدم إلى جداره فى مئة من جنده ، فهدموه وانتهوا إلى الخندق ، فنصبوا عليه أبواباً خشبية ثم عبروه ، فلما جاء « عيسى » فى الجيش بعد قائده المتقدم ، ألقى فى الخندق الحقائب وغيرها ، ثم طرح عليه الأبواب الخشبية ، وعبرت فوقها الخيل والرجال .

وأحياناً كان يشتد الدفاع عن الخندق ، فيرمى أصحابه الذين يهاجمونه بالسهام وحجارة المجانيق ، وفى تلك الحال كان المهاجم يبعد عنه ، ثم يحفر تحت الأرض نفقاً يوصّله إليه ، فإذا انتهى إلى حائط الخندق عمل على ردمه ، أو ثقب سور الحصن ، ويظهر أن هذه الطريقة استخدمت بعد القرن الثانى ، فإن راويها(٨٥) لم يحدد تاريخها ، ولم يعين القائد الذى فعلها .

ب — الحسك الشائك

أصل الحسك فى اللغة نبات له ورق كورق الرِّجلة ، تعلق ثمرته بصوف الغنم ، ويظهر أن هذا الشوك كان كثير الوجود ببلاد العرب ، فقد ضربوا بشوكه المثل فى الصلابة ، وله شوك صلب ذو ثلاث شعب ، ويعمل على مثال شوكه أداة للحرب من حديد(٨٦) ، وأشهره حسك السعدان ، وقد استخدمه المسلمون فى حروبهم كما استخدمه الفرس والروم فى تحصين خنادقهم وحصونهم .

والرسول عليه السلام أول من استخدمه فى الإسلام ، وذلك فى حصار « الطائف فإنه كان يجعله من خشبتين تسمّران على هيئة صليب ، بحيث تتألف منها أربع

---

(٨٤) الكامل جـ ٥ ص ص ٢١٩ ، ٢٢٠ والمختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٣ ط المطبعة الحسينية .

(٨٥) آثار الأول ص ٢١٤ ، وراجع فكرة القرب الهوائية بالكامل جـ ٥ ص ٢٠٩ فى فتح دمشق .

(٨٦) القاموس المحيط . مادة (حسك) والإفصاح فى فقه اللغة ص ٢٩٨ .

شعب مدببة ، فإذا رُمى فى الأرض بقيت شعبة منها بارزة ، تعطب بها أقدام الخيل والمشاة ، روى « ابن سعد والمقريزى »[٨٧] . أن الرسول حاصر الطائف ثمانية عشر يوماً ، ونصب عليهم المنجنيق ، ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن وحول عسكره .

ولا يبعد أن تكون فكرة الأسلاك الشائكة مأخوذة من هذا الحسك، فإنّ عقد السلك بهذا الوصف ، والغرض منها هو الغرض منه ، ولذا رأينا المسلمين فيما بعد يصنعونه من أصابع حديدية مدببة، لها شعب ثلاث أو أربع ، فيبثونه حول الخنادق لمنع تقدم الخيل والرجال[٨٨] ، كأنه الألغام فى الجيوش الحديثة

ويروى الضابط «نعمان ثابت» [٨٩] . أنه كان من الحسك ما له ستُّ شعُب ، وأن أول ما عرفه العرب كان فى معركة (نهاوند) الفاصلة ٢١ هـ — ٦٤٣ م مستنداً إلى ما رواه (الواقدى) من أن قائد المسلمين « النعمان بن مقرّن » بعث بعض رجاله يتسمع ليلا ، فلما دنا من القلعة ، قام فرسه من تحته ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فنزل الرجل وبحث فى أرجله ، وإذا بحسكة من الحديد قد تعلقت بيد الجواد فنزعها ، ثم رجع للنعمان ، وأخبره أن أرضهم مفروشة بهذا الحسك ، وقد اتضح لنا أنه استُخدم فى زمن الرسول ، وإنما كان من الخشب فقط .

وقد ذكر صاحب « آثار الأول »[٩٠] ما يفيد أن العرب أجادوا ذلك النوع من وسائل الدفاع ، وصار للحسك عندهم صناع يُعدونه ، وعمال ينقلونه على الدواب ، ويبثونه فى الطرق التى يحتمل قدوم العدو منها ، وأنه كان يرمى كيفما اتفق ، فحيثما وقع كان منه سن مرتفع ، وقد علمتُ أن هذا النوع نفسَه استخدم فى حملة « فلسطين » ضد العربات[٩١] والسيارات المصفحة ، ومن مراجعة المصادر المختلفة ، يستطيع المرء أن يعرف ، أن المسلمين كانوا يستخدمون ذلك الحسك فى إحدى حالات ثلاث :

---

(٨٧) الطبقات جـ ٢ ق ١ ص١١٤ و إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤١٨ .

(٨٨) الكامل جـ ٢ ص ٢٢٠ والطبرى جـ ٤ ص ١٨٠ .

(٨٩) الجندية ص ١٦٢ نقلا عن الواقدى.

(٩٠) ص ٢١٥ .

(٩١) حديث شفوى مع بعض الزملاء الذين حضروا حرب فلسطين ١٩٤٨ م .

١ ــ عندما كانوا ينزلون فى أرض العدو ببعض المواقع ، فإنهم كانوا خشية البيات ــ يحفرون حولهم خندقاً ، ثم يفرشون الساحة التى أمامه بالحسك ، تاركين للمرور طرقاً لا يعرفها سواهم ، ليقوموا منها بالهجوم المضاد إذا دعت الحال ، على نحو ما نفعل اليوم فى زرع القنابل وبث حقول الألغام حول المعسكرات ، وفى طرق الاقتراب وغيرها .

٢ ــ كان يزرع أحياناً خارج خندق الأعداء المحصورين ، ثم يناوشهم المسلمون ويفرّون أمامهم ؛ ليخرجوا من خنادقهم ، فإذا بعدوا عنها كرّوا عليهم ، وضيقوا عليهم المسالك حتى يعودوا من الطريق المزروع بالحسك ، وبذا يقعون فيه ، فتأخذهم سيوف المسلمين من خلفهم ، وبذا يكون سلاحاً معاوناً لأسلحة الجيش.

٣ ــ كان القائد إذا صف جيشه لمعركة فاصلة ، وأراد أن يحملهم على الثبات زرع الحسك الشائك خلفهم ، فلا تحدثهم نفوسهم بالتراجع ، فكان الحسك يقوم مقام «المجبوذة» وهى القوة التى كانت تكلف برد المنهزمين إلى ميدان المعركة[٩٢] ، وتحضهم على الثبات .

(جـ) الحصون والأسوار

كان عامة العرب فى الجاهلية رحّلا أهل بداوة ، لا يعرفون الحصون أو الاحتماء بالأسوار ، وإنما حصونهم هى ظهور خيلهم ، وشفرات سيوفهم ، وقد عرف الحصون منهم أهل الحيرة لمجاورتهم الفرس ، وأهل الشام لمجاورتهم الروم ، ثم عرفها أهل الحجاز عن طريقين بعد ذلك .

١ ــ عن طريق رحلتهم إلى اليمن ذات القصور الشاهقة ، التى من أهمها قصر « غُمدان » الذى حدثنا عنه « الهمدانى » بأنه كان عشرين سقفاً ، غُرفاً بعضها فوق بعض ، وأنه كان فى زواياه الأربع أربعةُ أسود من نحاس أصفر ... إذا هبت الريح فى أجوافها زأرت كما يزأر الأسد[٩٣] ، ومما لاشك فيه أن عرب

(٩٢) نعمان ثابت : الجندية . . . ص ١٦٤ .

(٩٣) انظر الإكليل جـ ٨ ص ص ١٥ ، ٢ وقد وصف الهمدانى به كثيراً من قصور اليمن ، وذكر أنه كان تحت كل قصر (صهريج) منحوت فى الحجر للمياه وأن أعمدة تلك القصور كانت تصل إلى نيف وعشرين ذراعاً ، ولا يحصن الواحدة منها إلا رجلان ، ومن أراد السعة فليرجع إليه .

الحجاز تمنوا أن يبنوا مثل هذه القصور .

٢ ـ عن طريق اليهود الذين نزحوا إليها من الشام ، بعد أن طردهم الرومان منها ، فإنهم أدخلوا إليها نظام الآطام والحصون ، التى بلغ عددها نحو سبعين[٩٤] ورأينا العرب يقلدونهم فى ذلك ، فرأينا إلى جانب حصن « كعب بن الأشرف وأبى رافع » اليهوديين ، حصوناً أخرى « لحسان بن ثابت » « وبنى حارثة » وغيرهم من العرب ، وصاروا عند القتال يضعون فيها الذرّية والنساء والشيوخ ، كما كان اليهود يحتمون بها من المسلمين ، وكثيراً ماحاصرهم الرسول فيها ، كما حاصر قبيلة ثقيف» فى حصونهم بالطائف[٩٥] ، وأظن فتح حصون خيبر السبعة لا يخفى على أحد .

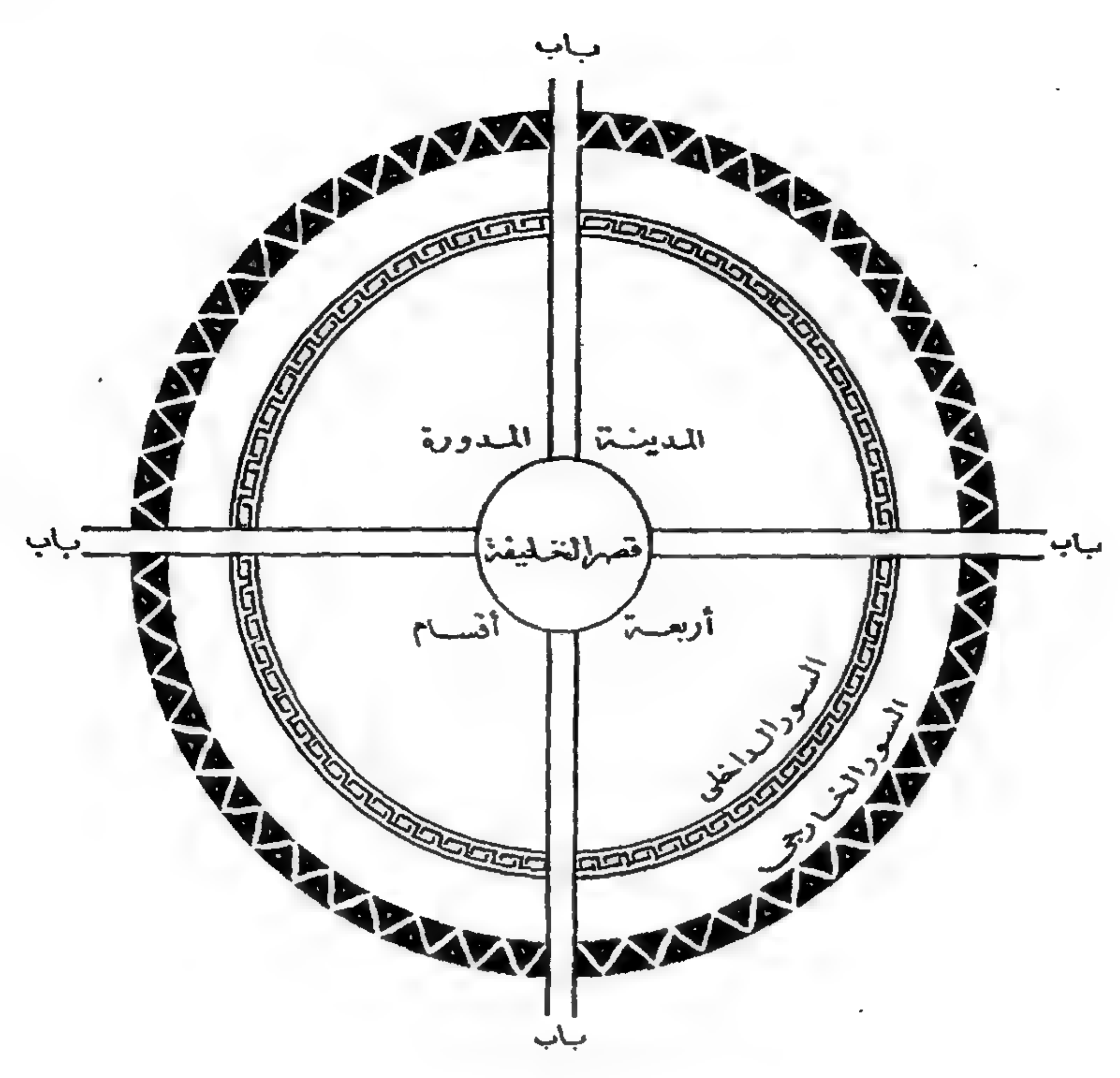
ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ، وأسس المسلمون المدن المختلفة متاخمة للأعداء عملوا على تحصيلها ببناء الأسوار العالية والأبراج كما حصنوها بالخنادق التى سبق الحديث عنها ، وصار للمدن المهمة أسوار عريضة عالية ، بها أبراج لحراسة الجند المدافعين ، نذكر منها « بغداد » على سبيل التمثيل ، فإن الخليفة « المنصور » لما بناها ، جعلها مستديرة وجعل لها سورين ، أحدهما من داخل وهو سور المدينة وارتفاعه ٣٥ ذراعاً ، وعليه أبراج كثيرة ارتفاع الواحد منها خمسة أذرع ، وله شرف تحيط به ، وعرضه من أسفل نحو ٢٠ ذراعاً ، ثم يليه سور خارجى يفصل بينهما أرض عرضها ستون ذراعاً[٩٦] ، وأغلب الظن أن ترك هذه المساحة الواسعة بين السورين ، كان لاستغلالها فى زراعة الخضر التى يحتاج إليها المحاصَرون أثناء الحصار ، وقد عمل لها الجغرافى «لاسترانج» رسما بديعاً نقلته عنه وفيه جعل لها سورين كالخضرى ولكن العلامة « طه الراوى » فى كتابه « بغداد مدينة السلام » ذكر أن المنصور بنى حول مركز المدينة سوراً داخلياً ثالثاً ، فيتألف من مجموع الأسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد . وأغلب الظن أنه أقام هذا السور الثالث ، ليبتعد بأهله وخدمه عن عامة الناس ، وليكون الدفاع عن قصره أكثر أحكاماً وتحصيناً ، فيما إذا هوجمت المدينة ، (انظر شكل ١٨) .

---

(٩٤) محمد كرد على الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١١٩ والمراد بالحصون هنا القصور العالية ذات الأبواب .

(٩٥) انظر الطبرى جـ ٣ ص ص ٤ ، ٤٩ وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٢٢ .

(٩٦) محاضرات الخضرى : الدولة العباسية ص ١٠٣ .



شكل ١٨ — بغداد المستديرة

وكيف لايحصن المسلمون مدنهم بالأسوار ،وقد وجدوا غيرهم يفعلون ذلك؛ فقد روى العلامة « بتلر » عن حصن « بابليون » أن ارتفاع سوره كان نحو ٦٠ قدماً، وسمكه ١٨ قدماً، وعليه أربعة أبراج بارزة، بينها مسافات متساوية(٩٧)، وأن بقايا الأسوار القديمة التى يمكن مشاهدتها الآن لدليل على صحة هذا القول، فإن مدن العصور الوسطى كلها كانت تحصن بالأسوار ، ومثلها المدن الإسلامية .

(د) الثغور الإسلامية

من المبادئ التى وضعها « عمر بن الخطاب » لجنده ، ألا يقيموا داخل المدن التى يفتحونها، وأن يظلوا فى ضواحيها ،خشية أن يظلموا أهلها إذا اختلطوا بهم ،واتظل طباعهم العربية نقية سليمة من الشوائب ، ولكنه وجد الفتوح قد اتسعت ، والمسلمون

---

(٩٧) فتح العرب لمصر = تعريب أبو حديد ص ٢١٠ .

يقيمون فيها طويلا مع أسرهم ؛ فرأى أن يؤسس مدناً لإقامتهم ، مراعياً فيها أن تكون مراكز حربية فى مواقع استراتيجية ، على الحدود بينه وبين البلاد المفتوحة ، لترد أى عدوان وتخمد أية ثورة ، وقد سمى المؤرخون العرب هذه المراكز « بالثغور » وكان فى طليعتها مدينتا « البصرة والكوفة » فى مجاورة الدولة الفارسية ، كما أسست ثغور أخرى على سواحل « مصر والشام » لترد هجمات الروم من البحر[٩٨] ، الذى كانوا فى ذلك الوقت يملكون ناصيته ، وكانوا يغيرون منه كثيراً على الشواطىء الإسلامية .

صار المسلمون بعد ذلك كلما تقدموا فى الفتح ، أقاموا فى نهاية توسعهم ثغراً يحرس الحدود ، ويُشحن بالجند ، ويتولى أمره قائد من أكفأ القواد ، حتى لقد بلغت ثغور الكوفة » وحدها عام ١٧ هـ — ٦٣٨ م أربعة ثغور كما روى « الطبرى » :

١ — حلوان وعليها « القعقاع بن عمرو » .
٢ — ما سبذان وعليها « ضِرار بن الخطاب » الفهرى .
٣ — قرقيسيا ، وعليها « عمرو بن مالك » .
٤ — الموصل ، وعليها « عبد الله بن المعتَم » وكان لكل قائد خليفة ينوب عنه فى ثغره إذا غاب عنه .

وقد ذكر الأستاذ « ثابت » أن الفاروق عمر لما زار الشام عام ١٧ هـ ٦٣٩ م جال فيها كثيراً وزار ثغورها ، وأشرف على « أنطاكية وتيزين وكورس ومنبج » وغيرها ، ووضع فى هذه الأماكن الحاميات من الجند ، كما وضعها فى المدن الساحلية نظراً لوجود الأسطول الرومى[٩٩] ، وقد يحيط بهذا الخبر بعض الشك ؛ لأنه لم يُعرف فى مراجع التاريخ الموثوق بها ، ولكنه على أية حال يدل على عناية المسلمين بالثغور ، لتأمين حدود دولتهم .

ولقد كثرت هذه الثغور باتساع الفتوح الإسلامية ، زمن الدولتين الأموية والعباسية وقد أفاض «ياقوت» فى ذكر تاريخ كل ثغر ، وما تعاقب عليه من الحكام ونقل عنه المؤلفون « كريمر » ، وجرجى زيدان ، وثابت » ففصّلوا كما فصل ،

---

(٩٨) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٣١ .

(٩٩) ياقوت فى معجم البلدان : ترجمة هذه المدن ، وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٧٢ ، والجندية ص ٢٩ — ٣١ .

ولكن الذى يهمنا معرفته ، أن المسلمين حصنوا حدودهم بالثغور والمسالح ، على تخوم أعدائهم المجاورين لهم ، وكان من أشهر الثغور الأموية هذه المدن « واسط شيراز ، المحفوظة ، الرملة ، عسكر ، مكرم ، جُرجان » وغيرها .

ولما آلت الخلافة إلى «الرشيد» جعل لهذه الثغور إدارة مستقلة ، وسماها «العواصم»(١٠٠) وجعلها تابعة للجيش ، كما ذكر « ابن الأثير » فى حوادث ١٧٠ هـ وقسم الثغور إلى ثغور شامية وثغور جزرية ، فكان أشهرها كالآتى :

١ — الثغور الشامية وهى الواقعة فى شماله الغربى ، وهى من الشمال إلى الجنوب « طرَسوس ، أدَنة أو أطنة ، المصِّيصة ، الهارونية » وغيرها .

٢ — الثغور الجزرية المنسوبة إلى جزيرة العراق لتاخمتها لها ، وهى «مَرْعَش ثم الحدَث ، ثم حصون متتابعة إلى سميساط وملَطية(١٠١) .

١ — نظام العمل بالثغور :

جرت عادة الخلفاء منذ عمر بن الخطاب » أن يرسلوا الجنود بعائلاتهم للإقامة بالثغور التى يقيمونها ، وأن يكثّروا لهم الأرزاق والمرتبات ، بخلاف من كان يذهب متطوعاً للرباط ، حِسبة فى سبيل الله ، وكان القادة يرتبون لهؤلاء المرابطين ، غزوات دائمة على الحدود (كالدوريات) المنظمة ، وكان أكثرها يتم صيفاً لملائمة الجو للعرب ، وتسمى «الصوائف» وبعضها كان يتم شتاء وتسمى «الشواتى» والغرض منها تأمين التخوم ، وجمع المعلومات عن الأعداء ، ولتمرين الجند الدائم على القتال العملى فى الأراضى المختلفة ؛ لتزداد خبرتهم الحربية ، وهذا معنى قولهم « وشتّى فلان بأرض الروم(١٠٢) » ومعنى قولهم : « وكان فلان بأرض الروم مرابطاً بها »

وتدل المراجع التاريخية على أن هذا النظام ، الذى كانت تخرج فيه القوات فى غزوات كشفية منظمة — سواء قاتلت أم لم تقاتل — ظل معمولاً به فى الدولة

(١٠٠) الكامل جـ ٦ ص ٤٠ وتاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٧٣ ونقل الدكتور «العدوى» أن « الرشيد » أسس أقليماً مشابهاً للإقليم البيزنطى على الحدود الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، والمراد بالعواصم المدن الجنوبية التى تعتصم من العدو ، والثغور هى الحصون المواجهة للثغرات التى فى أرض العدو ، ويتقدم منها . (الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ط نهضة مصر ص ٩٦) .

(١٠١) الجندية ص ص ٤٨ ، ٦٦ والمرجع السابق .

(١٠٢) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ص ١٢٤ ، ٢٥ .

الأموية، حتى جاء الخليفة الورع «عمر بن عبد العزيز» فأبطلها لكراهيته إراقة دماء المسلمين ، ولأنه كان يفضل اكتساب الأعداء بالملاينة ، والاحتفاظ بالحصون فى حال جيدة، على المجازفة بالمسلمين، والتوغل فى بلاد الأعداء ولذا نراه بعد ولايته يأمر «مسلمة ابن عبد الملك» بالعودة من بلاد الروم، وكان مقيما بها للغزو الدائم(١٠٣) ، ويذكر الدكتور «حتى»(١٠٤) أنه كان وقتها يحاصر القسطنطينية، فأطاع أمر الخليفة وفك الحصار ، وأنه منى أثناء عودته بالعواصف التى أغرقت سفنه، وكانت حسب روايته ١٨٠٠ سفينة، لم ينج منها إلى ثغور الشام إلا خمسة (كذا) .

وكما أمر الخليفة هؤلاء بالرجوع ، أمر كذلك المرابطين فى حصن «طُرنْده» بالقفول عنها إلى « ملطْية » فتُركت خراباً، بعد أن رابط بها المسلمون ثمانية عشر عاماً(١٠٥) ، وذلك تطبيقاً لسياسته القائمة على الملاينة .

استمر عمل هذه الحملات بعد « عمر بن عبد العزيز » وصارت مبدأ معمولا به ، حتى لقد رتب هشام بن عبد الملك أبناءه للصوئف : واحد منهم لليمنى والآخر لليسرى(١٠٦) ، وكذلك كان يفعل « الرشيد » وخلفاء الدولة العباسية ، فى الفترة التى عرضنا لها ، وما كانوا يقطعونها إلا عند اشتغالهم بالفتن الأهليه ، وإخماد ثورات الخوارج ، بل كان الخليفة أحياناً يضطر لأن يصالح الإمبراطور الرومى على مال يدفعه له ، فى نظير كف حملاته الشتوية على المسلمين ، كما فعل معاوية » أثناء نزاعه مع « على » وكما فعل « عبد الملك » أثناء فتنة « ابن الزبير » فإنه صالح ملك الروم ، على أن يؤدى ألف دينار كل يوم جمعة(١٠٧) ، وروى « ابن الأثير » أن المهدى فى عام ١٦١ هـ — ٧٧٨ م أبطل الصائفة لتجهزه لرد هجمات الروم(١٠٨) .

(١٠٣) ابن الأثير فى الكامل جـ ٥ ص ١٨ .

(١٠٤) تاريخ العرب — تعريب نافع . المجلد ١ ص ص ٢٥٤ — ٥٥ ، وروايته تثير بعض الشك، وبخاصة أنه لم يذكر مرجعه .

(١٠٥) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٤٢.

(١٠٦) الكامل جـ ٥ ص ص ٧١ ، ٧٢ وتواليها .

(١٠٧) أبو المحاسن : جـ ١ ص ص ١٨٣ ، ٨٥.

(١٠٨) الكامل جـ ٥ ص ٢٢ وما بعدها.

وقد كانت هذه الحملات مناوبة بين المسلمين والروم ، مما جعل الحدود الشمالية فى حركة مد وجزر بينهما ، فكان المسلمون يقومون بالصوائف ، فينتزعون من الروم ما أخذوا ، ويبنون ما خربوا ، وكان الروم ينشطون شتاء حيث ينكمش المسلمون ، الذين يكرهون البرودة ، منتهزين فرصة خلو الثغور من معظم قواتها ، لأن المتطوعين منهم كانوا يعودون إلى بلادهم ، إذا نزل الثلج واشتد المطر (١٠٩) ، وكان هذا التدريب المخرب على الحدود ، منظراً مألوفاً لدى سكانها من الفريقين (١١٠) .

ومن هنا يظهر أن المسلمين لم يقضوا تماماً على قوة الروم، ولكنهم استطاعوا بدفعتهم الحماسية ، ودهشة الأمم لتلك الدفعة ، أن يخرجوهم من الشام ومصر ، ومن إفريقية بعد جهاد شاق طويل ، ولكنهم ظلوا محتفظين بقوتهم بحراً وبراً خلف جبال « طوروس » وكثيراً ما حاولت الدولة الرومية القضاء على المسلمين فى أيام ضعفهم ، وظلت قائمة حتى قضى عليها الأتراك العثمانيون ١٤٥٣ م .

٢ ــ جبال طوروس والتوسع الإسلامى :

إن الدكتور "Oman" ينسب عدم توسع المسلمين فى آسيا الصغرى ، إلى مهارة الروم الحربية ، وفهم التكتيكى فى استخدام ممرات « طوروس » الضيقة لصد المسلمين المهاجمين ، وزعم أن المسلمين ما كانوا يقصدون من اجتياز تلك الجبال إلا الحصول على المغانم ، ثم العودة بها بسرعة ، بحيث لا يقيمون لمحاصرة المدن أو فتحها ، وزعم أن جيوش «هرون الرشيد» ، والمعتصم » التى فتحت « هرقلة وعمورية» والتى كانت تعد بعشرات الآلاف ، ما كانت تقصد إلا جمع الغنائم (١١١) ، وقد نسى الدكتور أن المسلمين ما كانوا يقصدون التوسع لذاته ، وأن خليفتهم « عمر بن الخطاب» كان يتمنى أن يكون بينه وبين أعدائه جبل من نار ، فلا يخلص إليهم ولا يخلصون إليه ، وقد جعلت الطبيعة بين المسلمين وأعدائهم فى الشمال جبال « طوروس » وهى جبال يكسوها الجليد ، الذى هو عند العربى أشد من النار وقعاً

(١٠٩) أبو المحاسن جـ ١ ص ٢٤٢ .

(١١٠) Dr. Oman. p. 215.

(١١١) A History of The Art of War. p. 210.

لأن العربىّ لا يطيب له المقام إلا فى مناخ بلاده، ولذا كانوا يتفرقون إذا حل الشتاء إلى بلادهم ، وقد عرف تلك العادة لهم الإمبراطور « ليو » والدكتور نفسه ، فإنه بعد أن ذكر إعجابه بتفوقهم الحربى ، وثباتهم فى مراكزهم أمام أشد الهجمات عنفاً قال: « إن الجو البارد المطير كان مكروها من الجندىّ الشرقى ، ولذا كان يضعف إذا هجم البرد، فلا يُظهر ثباته وشجاعته المعهودين ، فتوجد الفرصة لمهاجمته بكل سهولة(١١٢) .

وإذا كان الدكتور يعرف هذا — والعرب طبعاً يعرفونه — فهل يريد للعرب أن يقاوموا طبائع الأشياء فيقيموا فى بلاد لا تناسبهم؟أو يطلب منهم البقاءشتاءً بها لتضيع شجاعتهم أمام عدوهم ؟ إنهم أدرى الناس بالبلاد والعوامل الجغرافية التى تناسبهم .

ويؤيد هذا أن الناظر فى خط انتشار الفتح الإسلامى ، يظهر له أنه كان يمتد شرقاً وغرباً، فى حدود المنطقة الحارة التى تقع فيها بلادهم ، فهى تُحدّ من الجنوب بخط عرض ١٠° شمالى خط الاستواء ، ومن الشمال بخط عرض ٣٢° تقريباً ، وتوسعهم لمْ يجاوز تلك المنطقة شمالا أوجنوباً إلا قليلا فى بلاد الأندلس ، حيث وصلوا إلى جبال البرانس التى وقفت أمامهم وقفة جبال « طوروس » ولذا فإن ما يقال عن « عمّورية » يقال عن وقعة « بلاط الشهداء » . التى يدعى الغربيون أنها أنقذت الغرب من توسع المسلمين ، ناسين طبائع الناس وطبائع البلاد ، فلم يثبت فى التاريخ أنهم أقاموا فى جهة تخالف كثيراً جوّ بلادهم ، إلا فى حالات فردية لا يقاس عليها .

وأما هذه الغزوات التى ذُكرت فما كان يقصد بها النهب ؛ لأن المسلمين وقتها كانوا أغنى بكثير من الروم ، وكان الإمبراطور الرومى يكلف نفسه كثيراً من المظاهر ، ليقابل سفراء العباسيين فى مثل الأبهة التى يقابلون فيها سفراءه ، وإنما كان المقصود منها تأديب الروم إذا أغاروا على الحدود ، أو نقضوا عهداً أبرموه ، أو منعوا جزية كانوا يؤدونها. فما بعث «معاوية» حملته إلى الروم ، التى حاصرت عاصمتهم ، إلا انتقاماً لمن قتلوه من المسلمين فى العام السابق عند حصن «الطوّانة(١١٣)»

---

(١١٢) نفس المرجع ص ٢١٢ ، ٢١٤ .

(١١٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣ .

وكذلك يحدثنا التاريخ أن حملة « هرون » كانت لتأديب «نقفور» Necfoor الذى نقض عهده، وقطع الجزية المتفق عليها، مع الإمبراطورة السابقة له ، وكذلك كانت حملة المعتصم لرد عدوان الروم على الحدود الإسلامية، وانتهاك الحرمات فيها .

وفوق هذا يحدثنا « المسعودى »(١١٤)، بأن الرشيد كان يضيق صدراً بالإقامة فى بلاد آسيا الصغرى ، وأنه لما استطال مدته فى حصار «هرقلة» لجأ إلى الحيلة للإسراع بفتحها ، ونجحت حيلته وتم له فتح المدينة ، ثم عاد إلى بلاده غانماً والحيلة أنه أمر النجارين ببناء مساكن خشبية للجيش ؛ ليعرف المحاصرون أنهم لن يرحلوا عنهم ، فلما رأوا ذلك بادروا بتسليم المدينة للرشيد. ولا يعاب على ظافر أن يغنم من عدوه بعد قيامه بتأديبه ، وتلقينه درساً فى الوفاء بالعهد واحترام الكلمة ، وإنما الذى يعاب هو إخضاع الحقائق العلمية للأهواء والأغراض .

(١١٤) نفس المرجع جـ ١ ص ٣٣٢ .

الفصل الخامس

تنظيم القوات استراتيجيًا وتكتيكيًا

١ ــ التمهيد للفصل :

يعالج هذا الفصل فن حشد القوات ، وتدبير كل القوى اللازمة للقتال ، سواء أكانت تلك القوى مادية أم معنوية ، وسواء أكان ذلك قبل المعركة بفترة طويلة ، أم فى المعركة ذاتها ، ففى كلتا الحالين تظهر دراية الحكام ، وبراعة القواد ، وعلى مقدارهما يكون النصر أو الفشل فى المعارك المختلفة .

ولقد أُطلق فى الاصطلاح الحديث كلمة « الاستراتيجية "Strategy" » على فن تحريك القوات واختيار مواقعها المناسبة ، قبل الاشتراك فى المعركة ، وتوزيعها على ميادين القتال توزيعاً يناسب أهميتها ، وإعداد حاجاتها التى تكفيها زمناً طويلا ، ومراعاة ذلك حتى فى فترات السلام ، كما أطلقت « التكتيكية "Tactics" » على فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة ، وطريقة تنظيمها فى حالة الهجوم أو الدفاع أو غيرهما[1] ، طبقاً للخطة الموضوعة بمعرفة القيادة العامة .

أما قدامى المؤرخين من العرب ، فإنهم كانوا يطلقون على كل هذه المعانى المتقدمة كلمة « التعبئة » ويقصدون بها تنظيم الجيوش ، وصفّ الكتائب فى المعركة أو قبلها ، فتعبير « عبأ » عندهم مساو لتعبير « نظّم » ؛ لأنهم ما كانوا يعرفون هذا التقسيم الحديث ، وإن عملوا بمقتضاه فى حروبهم ، فسنرى الآن استراتيجيتهم الإسلامية ، وتكتيكهم الإسلامى .

وبهذه المناسبة يصح أن نعرف أن كلمة « التعبئة » فى الاصطلاح الحديث ، معناها حصر كل القوى الموجودة فى الدولة وقت الحرب ، وعمل مقارنة بين الجيش المقاتل وكفاية المواد اللازمة له ، سواء أكانت تموينية أو غيرها ، استعداداً للقتال ، وتوفيراً لمستلزماته كلها ، وذلك بحصر الكفايات ، وتوجيه كل إلى الناحية الخاصة به بحيث لا ينقص الجيش المحارب شيء .

---

(١) وكتب الحرب الحديثة Mr. West : Dictionary. Strategy.

القسم الأول

التنظيم الاستراتيجى للجيوش الإسلامية

ا – توجيه القوات من مركز القيادة :

من المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ « المدينة » معسكراً له بعد الهجرة ، وأقام بها يبثّ سراياه فيما حولها ، وعلى الطريق التجارى إلى « مكة » لتهديد تجارة قريش ، وجمع المعلومات الكافية عن تحركاتها ، ولتأمين تخومه بعقد المعاهدات مع القبائل المجاورة لها ، وكان أحياناً يخرج فى تلك الغزوات بنفسه ، بعد أن يستخلف على المدينة أحد أصحابه ، فيعقد المعاهدات لتأمين طريق الدعوة ، فما كان يعنيه أن يقاتل فى غزوته أولا يقاتل، وأحياناً أخرى كان يرسل بعض أتباعه « كعمرو بن العاص ، أوخالد بن الوليد، أوحارثة بن زيد ، أو أسامة بن حارثة » للغاية نفسها[٢] ، فقد كان كل همه أن ينشر أمره فى الجزيرة وخارجها ، وأن يظهر بحسن توزيع أتباعه القلائل ، أنه قوى الشوكة مرهوب الجانب؛ ليفكر أعداؤه فى مهادنته ، فتتحقق له أهدافه ، من أقرب الطرق وأسلمها ، وتتحقق لدينه الجديد السيادة ، دون أن تراق فى سبيلها الدماء .

أما خليفته « أبو بكر » فقد كان بارعاً فى فن تحريك القوات ، وحسن جمعها واستخدامها ؛ فقد فوجىء عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالثورة على حكومته ، والخروج من البدو على سلطان المدينة المركزى ، ولكنه استطاع أن يعيد الأمر إلى نصابه ، بحسن توزيع القلة التى كانت معه على الجهات العدة .

وذلك بأنه أنفذ إلى الشام جيش « أسامة » الذى جهزه الرسول قبل وفاته ، لتأمين الحدود الشمالية للجزيرة ، ثم فاجأ القبائل التى علم بتجمعها لمهاجمة المدينة ليلاً ، فخرج إليهم ووضع فيهم السيف وهم نائمون وقت السحر ، فهبوا مذعورين ثم ولوا منهزمين .

---

(٢) تراجع فى ذلك كتب المغازى والسير ، وبخاصة « سيرة ابن هشام » فإن بها كثيراً من هذه المعاهدات ، التى تمت بين الرسول والقبائل ، والتى تظهر مهارته فى تحريك قواته داخل الجزيرة العربية ، لأغراض استراتيجية هامة .

وقد ظل يحاور القبائل الثائرة بمن معه ، حتى عاد جيش « أسامة » من الشام فتركه حتى استراح ، ثم ضمه إلى القبائل والقوات التى اجتمعت عنده كطلبه ، وأحكم تنظيمها ، فقسمها أحد عشر لواء ، وجعل على كل لواء قائداً ، وسيرهم إلى جهات الجزيرة المختلفة ، وأظهر هو أنه سائر إلى « خيبر » ليخيف الثوار المجتمعين عندها ، فأدب بعض القبائل ثم عاد إلى المدينة بعد مدة ، وبفضل ذلك التنظيم أعاد مانعى الزكاة إلى حظيرة الإسلام ، وثبت دعائم حكومته ، وقضى على حركات مدّعى النبوة فى الجزيرة العربية[٣] .

وكذلك كان «أبو بكر» خلال فتح الشام ، يقيم فى مركز القيادة العامة بالمدينة ، ثم يوجه منها الجيوش ويعين لكل قائد مهمته ، ويأمر القادة بالتناصر والتعاون وجعل القيادة العليا لمن يجتمعون فى إقليمه منهم ، وكان بالكتب والرسل ، يحرك القوات من جبهة إلى جبهة حسب الحاجة ، وهو فى مركز قيادته ، ومن أمثلة ذلك أنه لما رأى طول وقفة المسلمين أمام الروم بالشام ، كتب إلى « خالد » بأن ينتقل بقواته إليها ، فاجتاز بادية الشام بحركته السريعة الخاطفة ، حتى ظهر يوم «اليرموك» أمام الروم ، وقاد بنجاح تلك المعركة الفاصلة ، التى قضت على سلطانهم فى «سورية» ثم تبعها جلاؤهم عن مصر أيام عمر .

أما «الفاروق عمر» فإنه يعد من أبطال الفن الاستراتيجى ؛ يشهد لذلك أنه أمر بتأسيس « البصرة والكوفة » فى مواقع هامة ، تتحكم فى طرق المواصلات المؤدية إلى الجزيرة من بلاد الفرس وغيرها ، وأقام فى هاتين المدينتين وغيرهما من الأمصار الإسلامية ، قوات مرابطة ، ترد العدوان عند وقوعه ، وكانت هذه القوات تتنقل بكتب « عمر » بين مختلف الأقاليم ، ويحركها بأوامره وهو مقيم بالمدينة ، ويراقب تنفيذ تلك الأوامر عن طريق الرسل والكتب[٤] ، بل إنه كان يكلف قواده أن يصفوا له أرض العدوّ ، وصفاً يجعله كأنه يعاينها ويبصرها ، وأن يذكروا له أعداد أعدائهم ، والقائد الذى يتولى مصادمتهم ، ويكشفوا له وجه الصواب فى رسم خطته ، بكثرة التفصيلات التى تهمه ، فكان يبعث الأوامر للقواد بالتقدم أو التأخر

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨ ، وهيكل فى « الصديق أبو بكر » ص ١١٣ وتواليها إلى ص ١٢٥ .

(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ص ٨٧ ، ٨٨ ، ومواضع أخرى .

ويرسل إلى كتائب عدة، ويأمرهم بالتلاقى فى موقع يعينه لهم، ويأمرهم إذا وصلوه أن يعيدوا تنظيم قواتهم[٥] ، فكان هو الجهاز المحرك من مقره .

وقد وضع « عمر » بذلك المثل لمن جاء بعده ، فنسج على منواله خلفاء الدولتين من بعده ، فراعوا فى تأسيس مدنهم مواقعها الاستراتيجية ، بحيث تكون محصنة بالأنهر ونحوها ، وبحيث تتحكم فى طرق اقتراب العدو . وبحيث يكون من السهل امدادها بالميرة والطعام وغيرها[٦] ، كما راعوا فى تحريك جيوشهم حاجة الميادين المختلفة ، وناسبوا بين أعدادها وخطورة المهمة المكلفة بها ، والشواهد التاريخية فى هذا الباب لا تحصى ، وبخاصة فى حروب « المهلب بن أبى صفرة . والحجاج ابن يوسف ومروان بن محمد ، وعيسى بن على ، وهرثمة بن أعين » وغيرهم من مشاهير القواد المسلمين .

هذا وقد عرف المسلمون أثناء تحركاتهم بالحذر والحيطة ، فكان معظمهم إذا سار إلى عدوه ، يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقه ، ويحافظ على ذلك عند النزول أيضاً للراحة ، ومن ثم كثر فى كتب المؤرخين قولهم : « وكان خالد لا يسير إلا على تعبئة » وذلك طبعاً ليكون مستعداً لرد أى هجوم جانبى أو خلفى يقوم به العدو ، وقد نصح أهل الحزم من المجربين بالتزام نظام التعبئة عند السير للعدو ، ولو لم يكن هناك ما يخاف منه[٧] ، وعدوا تركه — إلا لضرورة — خطأ كبيراً .

وقد عمل المسلمون أيضاً بتحقيق مبدأ «سلامة القوات» الذى يعد حديثاً من أهم مبادئ الحرب ، فكانوا إذا نزلوا ليلا فى رحلتهم ، أقاموا حول معسكرهم خندقاً تصعب مهاجمته ، ويضمن لهم ميزة دفاعية ، بحيث لا يؤتى إلا من وجه واحد[٨] ، وقد روى «ابن الأثير» عند ذكر الحرب التى كانت بين «الحجاج وابن الأشعث» أن كلا من المتقاتلين كان يدنى خندقه من الآخر عند الزحف[٩] للقتال ، بل لقد بالغ بعض القادة

---

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٢ .

(٦) انظر ياقوت : معجم البلدان ، فى بناء بغداد .

(٧) مخطوط الهرثمى ، ورقتا ١٣ ، ١٤ ف ٨٤٤ .

(٨) فون كريمر ص ص ٣٠٦ ، ٣٣٠ ، ٣١ والكامل للمبرد طبعة مصطفى محمد جـ ٢ ص ١٤٩

(٩) الكامل جـ ٤ ص ٢٢٧ ط ١٣٠١ هـ .

فى تطبيق تلك الخطة كما روى « الهرثمى » « فقد سار أحدهم من الشام للمحاربة بالهند » فخندق فى أول منزلة بالشام ، ثم لم يزل يسير وينزل بالتعبئة والخنادق ، إلى أن أظهره الله بعدوه[١٠] فى الهند » .

هذا وقد طبق « خالد بن الوليد » فى تحركاته الاستراتيجية ، مبدأ المفاجأة "Surprise" الذى تهتم به الجيوش الحديثة، فكان يقف بعيداً عن أرض المعركة ، ثم يقسم كتائبه إلى فرق ، ويعين لكل فرقة طريقاً تسلكه ، يؤدى إلى أرض المعركة كما يعين لهم ليلة اللقاء التى سيكون لهم فيها الهجوم ، فعل ذلك عند خروجه من اليمامة إلى العراق ، وعند اجتماعه مع قادته « بالمضيَّح » لمهاجمة أعدائه ، فى ليلة وساعة محدودة — وكذلك فعل فى معركة « الحفير » التى انتصر فيها على « هرمز »[١١]

وإن اهتمام الرسول وخلفائه ، بالاستيلاء على « دُومة الجندل » ليدلنا على دقة فهمهم لأهمية المدن (الاستراتيجية) لأن تلك القرية كانت تتحكم فى الطريق إلى العراق ، كما تتحكم فى الطريق إلى الشام ، وقد عرف المسلمون أنها لولم تخضع لسلطانهم ، لبقى أمرهم فى العراق تحت رحمة المقادير ، ولما استطاعوا فتح الشام[١٢].

وإن نظرة واحدة إلى مواقع الثغور الإسلامية ، التى أقاموها على تخوم بلادهم لتقفنا على ما كان لدى المسلمين من فن استراتيجى ، فإنهم كانوا يقيمونها على أبواب الطرق ، متحكمة فى أماكن اقتراب العدو ، مراعين أن تكون بعيدة عن البحار ، قريبة من الصحراء التى يحسنون القتال فيها ، وأن تكون محصنة بثنيات الأنهار ، ومنعطفات الجبال ، أو بالخنادق يحفرونها ، أو بغير ذلك من المواقع الطبيعية أو الصناعية ، التى تضمن لمواقعهم ميزة استراتيجية ملحوظة .

مما تقدم يدرك المرء ما امتاز به المسلمون ، من فن حربى فى تحركاتهم ، جعلهم ينقلون الجيوش المؤلفة ، بخيلها ومتاعها عبر الصحراء ، وفى سهول « العراق والشام » ، وخلال ممرات جبال « إيران وطوروس » وغيرها ، فى خفة تسترعى الأنظار ، وتحمل الدارس على الاعتراف لهم بالإجادة فى ذلك الفن .

---

(١٠) مختصر فى سياسة الحروب ورقة ١٤ .

(١١) انظر الطبرى ج ٤ ص ص ٤ ، ٢٤ ، وهيكل فى « الصديق أبو بكر » ص ٢٢٠ .

(١٢) الدكتور هيكل : الصديق « أبو بكر » ص ٢٤٢ .

ب ـ كتمان السرّ فى العمليات الحربية :

جرت العادة قبل خوض المعارك ، أن يهيئ القائد الأذهان إليها ، ولكنه يكتم عن الناس سرّها ، ويحاول معرفة الكثير من أسرار عدوه ، فبقدر معرفة القائد قوات عدوه ومدى استعدادها ، وستر أسرار قواته عنه ، يكون ظفره به ، أو هزيمته أمامه .

وقد عرف الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية حفظ السر ، فكتمه فى معظم حروبه حتى عن ألصق الناس به ، ولم يصرح لأحد بقصده إلا فى غزوة « تبوك » لبعد الشقة ، وثقل المئونة الداعيان للاستعداد ، ولصعوبة إيصال الأخبار إلى أهل تبوك لبعدها الشديد ، ولكنا نراه يكتم أمر فتح مكة عن أصحابه ، فقد سأله بعضهم كما روى « الطبرى » عن وجهته يومها فأجابه بقوله : « حيث شاء الله »[١٣] . ويروى « ابن هشام » ما يفيد أنه أول أمره كان يكتم أمر الفتح ، حتى عن زوجه المفضلة « عائشة » وأبيها « الصديق »[١٤] ، وروى « أبو يوسف » أنه قال لعائشة يومها : « جهزينى ولا تعلمى بذلك أحداً[١٥] »

وإن قصة الرسالة التى كتبها « حاطب بن أبى بلتعة » إلى قريش بخبر الفتح لدليل على عناية الرسول بكتمان الأسرار ، فإنه لما علم بالرسالة ، أرسل من استردها من حاملتها ، وأحضر إليه « حاطباً » ليحاسبه ، فاعتذر له مؤكداً إسلامه فعفا عنه ، ثم قال لأصحابه : « خذوا العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها فى بلادها[١٦] » ، ولعل حاطباً علم بأمر الفتح بعد تمام الاستعداد له وقرب موعده ، فقد سبق أنه كان سرياً أول أمره ، ويظهر أن خبره عرف بالاستعداد له بعد .

وقد عمل الرسول قبل ذلك بمبدأ السرية ، فى العام الثانى من الهجرة ، فإنه لما خرج بأصحابه ودنا من « بدر » أمر أصحابه أن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبل حتى لا يعلمَ بهم أحد[١٧] .

---

(١٣) الطبرى جـ ٣ ص ١١٥ .
(١٤) سيرته جـ ٤ ص ٣٩ .
(١٥) الخراج ص ١٣١ .
(١٦) صحيح البخارى ـ شرح القسطلانى جـ ٥ ص ١٤٢ وابن هشام جـ ٤ ص ٤١ .
(١٧) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٥٨ .

بل إنه قبل «بدر» أبدع مبدأ لم يُشهر إلا فى الجيوش الحديثة، وهو مبدأ (الأوامر المختومة) وذلك أنه يحدث أحياناً أن يوجه القائد حملة، ومعها كتاب مختوم، ثم يأمرها ألا تفضَّه إلا فى مكان معين — فى البحر كان ذلك أو فى البر — فإذا قرأ القائد الكتاب، وجد فيه الأمر الجديد السرى فقام بتنفيذه، وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى العام الثانى الهجرى، فإنه أرسل الصحابى «عبد الله بن جحش» قائداً على اثنى عشر مهاجراً فى مهمة أخفاها عنهم، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا يفضَّه حتى يسير يومين فى اتجاه معين، فلما مضى يومان قرأ الكتاب فإذا فيه «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين «مكة والطائف» فترصُد لنا عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم[١٨]»، فقام الرجل من فوره بإنفاذ الأمر الجديد.

أما خلفاء الرسول فقد ملئت وصاياهم إلى قادتهم، بنصائح كثيرة تحض على كتمان السر، ومعرفة أسرار العدو، وأهمها وصية «أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان» حين أرسله إلى الشام، ووصيته «لخالد بن الوليد» فى قتال أهل الردة، ووصية «عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقاص» وهذه الوصايا مشهورة ومدونة فى كتب التاريخ والأدب، فليرجع إليها من شاء[١٩].

وقد عمل أيضاً بهذا المبدأ خلفاء الدولتين: الأموية والعباسية، وهو مبدأ يطابق الطبيعة البشرية، فلا داعى للاستشهاد عليه بأقوال الخلفاء، ويصحّ الاكتفاء هنا بما أورده «الهرثمى» فى مخطوطه، فهو يعتبر موضحاً لمذهب من كانوا قبله: «قالوا ما استطعت أن تحترس فى كتمان سرك فى حربك من ثقاتك فافعل، فإن فى ذلك بإذن الله إمضاءَ تدبيرك، وقطعَ مكيدة من يكيدك، واكفف لسانك عن فلتة كل منطق، ينكشف به ما تضمر من أمرك، أو تخفيه من سرك، واعلم أنه قد يُستدل بلحن المنطق على مَصون السر ومكنون الضمير، ولا تستهيننّ فى

---

(١٨) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٧٦.

(١٩) ابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ١ ص ص ١٥٢ — ١٥٦ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٨٣ وما بعدها.

إظهار سرك بصغير لصغره ، ولا بأعجمي لعجمته ، فربّ سرّ مصون قد أذاعوه واطلعوا عليه [٢٠]» .

جـ — التجسس والجواسيس :

أعمال التجسس لازمة لكل جيش ، سواء أكان ذلك قبل الاشتباك الحربى أم فى خلال الحرب ، فبها يعرف القائد نيات عدوه ، ويحصل على معلومات تفيده فى وضع خطته ، وهى مهمّة عند الأمم كلها ، والمسلمون بوصفهم أمة من الأمم عرفوا قيمة التجسس فى حروبهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى بدر بعث « طلحة بن عُبيد الله وسعيد بن زيد » إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة ، يأتونه بأخبارها ، ومنهم عمه « العباس » ، وبشير بن سفيان العتكى [٢١] » ولما نزل قريباً من بدر خرج هو بنفسه ومعه صديقه « أبو بكر » يستطلعان الأخبار متنكرين ، فلما أمسى بعث « عليا والزبير وسعداً » للغاية نفسها كما روى « ابن هشام » [٢٢] .

وكانت عادته عليه السلام أن يكثر من العيون فى غزواته كلها [٢٣] ، لأنه كان يحب أن يعرف عن عدوه أكبر قدر مستطاع من المعلومات ، ولذا أمر « زيد ابن ثابت » أن يتعلم لغة اليهود [٢٤] وكتابتهم فتعلمها ، ولا ريب فى أن معرفة لغة الأعداء تخدم صاحبها فى الحروب أجل الخدمات .

هذا وتدل الظواهر على أن المسلمين أول أمرهم ، لم يكونوا ماهرين فى التجسس رغم تشجيع الرسول له ، فقد رأينا أنه كثيراً ما أرسلهم ، ليعلموا أخبار القوافل التجارية ويحددوا زمان ومكان مرورها ، ولكنها كانت تفلت منهم فى كل مرة ، ولو كانت معلوماتهم عنها يوم بدر وافية ما أفلتت منهم كغيرها ، ولكن الله أراد أن تكون تلك المعركة التى غيرت وجه التاريخ .

---

(٢٠) مختصر فى سياسة الحروب ف ٨٤٤ . ورقة ١١.

(٢١) انظر تراجمهم فى الإصابة لابن حجر ، والإدريس فى التراتيب الإدارية جـ ١ ص ص ٣٦، ٦٢ ، ٦٣ .

(٢٢) سيرته بهامش الروض الأنف ص ٦٥.

(٢٣) شرح القسطلانى على البخارى جـ ٥ ص ١٦٣ .

(٢٤) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٤٢ ، وفجر الإسلام ط ٢ جـ ١ ص ١٦٨ .

يضاف إلى ذلك أنهم يوم «حنين» فوجئوا بكمين الأعداء، فوقع الخلل فى صفوفهم، ولو أن طلائعهم وعيونهم جدّوا فى البحث، لعرفوا مكانه، ولما أصيبوا به، وقد حاولوا مرة بيَات عدوهم ليلا، فعلم بخبرهم فأعد لهم كميناً، وقعوا فيه وهُزموا به[٢٥].

أما الرسول نفسه فكان يهتم بأمر الجواسيس، وقد وضع لهم منهجاً يعد من أحدث المناهج فى زماننا، وذلك أنه كان ينهاهم عند خروجهم أن يحدث أحدهم حدثاً ينبه إليه، أو يقتل أحداً إلا إذا أجبر على ذلك، لأن فوز الجاسوس بالمعلومات النافعة، أهم فى نظر القيادة الحكيمة من قتل عدة فوارس، ففى يوم الخندق أرسل «حذيفة بن اليمان» عيناً على قريش، ونهاه عن أن يحدث شيئاً حتى يعود إليه[٢٦]، وأرسل مرة أخرى «عبد الله بن أبى حدرَد الأسلمى»، ليقيم متنكراً فى «هوازن» حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم ففعل[٢٧].

وقد نهج أصحاب الرسول نهجه، فاهتموا بأمر العيون والجواسيس، وكان أبرزهم فى ذلك «عمر الفاروق» الذى كان يبث عيونه فى كل مكان، وينهى الأعاجم عن دخول «المدينة» خشية التجسس على المسلمين، لأن أيامه كانت أيام حروب مستمرة، وروى «المسعودى[٢٨]» ما يفيد أنه كان يحتاط لذلك، بأن ينهى الأعاجم عن التشبه بالمسلمين فى لباسهم ومركبهم، وزاد القاضى «أبو يوسف[٢٩]» أنه كان يلزمهم بلبس الزنارات فى أوساطهم مثل الخيط الغليظ، وأن يجعلوا قلانسهم طوالا، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس، مثل الرمانة من خشب وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية، ولا يحذوا حذو المسلمين، حتى لا يلتبس الأمر على الناس.

وقد صنع ما صنع «عمر» طائفةٌ من المسلمين المعروفين بالحذر، فالقائد «عمرو بن العاص» كان فى حروبه مع الروم، يحتفظ بطائفة من الجواسيس

---

(٢٥) ابن الأثير فى الكامل جـ ٦ ص ١٣٨ ومواضع أخرى.
(٢٦) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٣٥.
(٢٧) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٢.
(٢٨) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٩.
(٢٩) الخراج ص ٧٢.

يتكلمون الرومية، فكان يرسلهم إلى الروم متنكرين، فيقيمون بينهم ويعودون إليه بأخبارهم[٣٠]، وكذلك كان « خالد وسعد » وغيرهما، وقد نشطت حركة التجسس أيضاً أثناء الحرب الأهلية، التي كانت بين « على ومعاوية » حيث كان لكل منهما جواسيس خاصة، تنقل أخبار صاحبه إليه[٣١].

برع المسلمون بعد ذلك فى التجسس، واهتموا بالجواسيس، واشترطوا فيهم الأمانة وحفظ السر، وتشدد « عمر بن عبد العزيز » فى تنفيذ قانون « الفاروق » على الأعاجم لذلك، وكان يتهم المتساهل فيه من عماله بالضعف[٣٢]، ثم مضى العمل بذلك بعده.

وما أوشك القرن الثانى على نهايته، حتى كان التجسس من أجل الأمور خطراً عند المسلمين، فبفضل الجواسيس ومهارتهم، استطاع بهم أبو مسلم الخراسانى أن يبث الفرقة بين قواد الأمويين، ويتغلب عليهم، واستطاع كذلك قائد المأمون « طاهر بن الحسين » أن يوقع الخلاف بين جند « الأمين » ويجعل بعضهم يقاتل بعضاً وينصرفون عنه[٣٣]، ثم صار القادة يبالغون فى كتمان أمر الجواسيس، بحيث لا يعرف بعضهم بعضاً، فكان القائد يلقاهم فرادى فى سرية تامة، فإن شغله شاغل، جعل لكل جاسوس رجلاً خاصاً يتصل به من أوثق خاصته[٣٤]، على الطريقة المتبعة فى أحدث الجيوش الآن.

وكان القادة أحياناً يظهرون لعدوهم ما يحب أن يعلمه عنهم، ليكيدوا له ويغرروا به، كما وضح « الهرثمى » فى قوله : « لقد تحتاج فى بعض الأحوال، أن يعرف عدوك، بعض أحوالك، وتدبيرك لما تحاول من مكايدته، فتلطف فى ذلك بإظهاره لجواسيسه، ليوصلوه إليه على ما يظهر لهم فيه[٣٥] ». وكان بعض القادة يستدعى صدق جواسيسه ببذل المال كما ذكر « الهرثمى » فيعطى من يأتيه منهم بما يكره من الأخبار،

---

(٣٠) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٨.
(٣١) نفس المرجع جـ ٥ ص ٢٢٩.
(٣٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٣.
(٣٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٩٢.
(٣٤) مخطوط الهرثمى ورقة ١٣.
(٣٥) نفس المرجع.

أكثر ممَّن يأتيه بما يحب منها ، ليلزموا الدقة والصدق فى الأخبار التى يجمعونها .

معاملة الجواسيس :

اعتاد المسلمون إذا عثروا بجاسوس عدوّهم ، أن يعاملوه بلطف ويستميلوه إليهم ، ليحصلوا منه على أخبار تنفعهم ، فقد عثر المسلمون يوم « بدر » ببعض عيون قريش فعذبوه ، فنهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم استدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ، فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم ، فأجابه بأنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فاستنتج الرسول أن القوم يتراوحون بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ فكان الأمر كما قدّر الرسول ، وفى فتح « قيسارية » قتل جنود « عمرو بن العاص » جاسوساً رومياً ، فغضب عليهم وقال لهم «هلا أتيتمونى به لأستخبرَه ، فكم عينٍ تكون علينا ، ثم ترجع فتصير لنا[٣٦] » وقد كان بعض قادة المسلمين يصيرون جاسوس العدو جاسوساً لهم ، إما بإعطائه المال أكثر مما يعطيه عدوهم ، وإما بالأمانى الحسان ، وإما باستغلال نزعة خيِّرة فيه ، تجعله يقبل الإسلام ويخلص فى خدمته .

أما فى حالة اليأس من الجاسوس ، وعدم الانتفاع به ، فكان المتبع أن يُقتل ، خشية أن يصل إلى أصحابه بما حمل معه من أسرار ، فقد رأى الرسول مرة بعض عيون المشركين فقال لأصحابه : «اطلبوه فاقتلوه[٣٧] » فنفّذوا أمره ؛ وذلك خشية الفرار بالأسرار الحربية. وأصاب عيناً لهم فى غزوة «بنى المصطلق» فسأله عليه السلام عن قومه فلم يذكر شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر « عمرَ » بأن يضرب عنقه ففعل[٣٨] ، وروى المبرِّد أن «المهلب» كان يقتل جواسيس الخوارج الذين يطلبون غرته[٣٩]

وهكذا رأينا المسلمين يستخدمون الجواسيس على نطاق واسع ، ولم يعتمدوا فى ذلك أبداً على العنصر النسائى ، ليشتروا النصر فى الحروب ، بالهزائم فى العروض والأخلاق ، على النحو الذى نراه فى الجيوش الحديثة من التجسس الدنس ، الذى يعتمد على السلاح النسائى ، فى التغرير برقاق الأخلاق ، ضعاف الوطنية .

---

(٣٦) الواقدى فى فتوح الشام ج ٢ ص ١٠.

(٣٧) شرح القسطلانى على البخارى ج ٥ ص ١٦٨.

(٣٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩٤.

(٣٩) الكامل فى الأدب ج ٢ ص ٢٤٤.

القسم الثانى

التنظيم التكتيكى

ا ــ نظام الطلائع :

من ألزم الأمور للجيش المحارب ، إذا نزل بأرض العدو ، أن يقدّم بين يديه بعض أفراده طليعة له؛ ليختبر أرض المعركة ، ويعرف مواقع العدو ويجمع المعلومات الممكنة عنه ، ويضمن سلامة الطريق الذى يسلكه من كمين معدٍّ له ، أو أى عائق يعوق تقدمه ، وهذا هو عمل « دوريات الاستطلاع » فى العصور الحديثة ، الذى نصح به الدكتور « أومان » قديماً فى قوله : « إن النجاح يكون فى الغالب مؤكداً ، إذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالأعداء ، وقد تحل الهزائم والكوارث إذا فقد ذلك الاتصال[٤٠] » ؛ فهى كانت تقوم بعمل الجواسيس تقريباً ، ولكن فى ميدان المعركة فقط ، حيث تباشر القتال إذا لزم الحال .

وفى العصر الحديث تقوم الطلائع بعملها ، مستخدمة السيارات أحياناً ، حاملة سلاحاً خفيفاً ، ليسهل رجوعها للجيش بسرعة إذا دعت الحال ، والقائد يختار أفرادها عادة ، من المعروفين بالثبات والذكاء وسرعة التصرف ، وكذلك كان الوضع عند المسلمين ، فإنهم كانوا يختارون للطلائع ، كل جندى عرف بالشجاعة والنجدة ، ويحملونهم على سوابق الخيل ، جيدة الحوافر والظهور ويرسلونهم متخففين من كل ثقل يعوقهم ، ليس مع أحدهم إلا قوسه وجُعبته ، بها عشر نشابات أو عشرون ، وقد سمّطوا حقائبهم خلفهم[٤١] ، وذلك طبعاً لتتحقّق لهم خفة الحركة المطلوبة .

وقد عمل الرسول من قبل بهذا المبدأ ، فكان يختار لطلائعه « خالداً » وأمثاله ممن عرف بالنجدة وخفة الحركة ، مع اليقظة وسرعة البديهة ؛ ثم صارت تلك عادة

(٤٠) A History of the Art of War. P. 211.

(٤١) مخطوط الهرثمى ورقة ٣٤.

المسلمين دائماً، فخالد كان يعطل قوة من جيشه ويوفدها أمامه للاستطلاع [٤٢]، وكثيراً ما أوصى «على» أصحابه بذلك فى نصائحه الحربية لهم، وقد عرف عنه قوله : « واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم وعيونَ المقدمة طلائعهم [٤٣]» .

ولقد اتبع قادة المسلمين جميعاً ذلك النظام ، جرياً على عادتهم من الحذر والاحتراس أثناء السير ، فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا بعد إذكاء العيون ، ومعرفة المكان كما يعرفه أهله ، وتحصينه بالحراس والخنادق [٤٤] ، وكان الجيش لا يتقدم إلى موقع آخر ، إلا إذا جاء الخبر من الطليعة بسلامة المنطقة التى سيرحل إليها .

ومما يصح ذكره هنا أنه كان لبعض القادة ، حيل مبتكرة يعرف بها صدق الطلائع ، ومدى قيامها بواجبها ، وهو فى مقر قيادته ، فكان « قتيبة بن مسلم » إذا بعث طليعة جاء بلوح فنقش عليه نقشاً، ثم شقه نصفين بطوله، فيحفظ نصفه عنده ، ويعطى الطليعة نصفه، ويأمرهم بدفنه فى موضع يصفه ويعيّنه لهم فى منطقة عملهم ، ثم يبعث بعدهم من يستخرجه ليعلم مدى صدقهم [٤٥] ، بعد أن يطابق بين النصفين .

وكان غيره من حكماء القادة يستدعى صدقهم ، بالأموال والهبات وحسن المعاملة ، فيغدق عليهم العطايا والمنح ، ويكرم منزلهم عنده ويقدمهم .

أما عدد الطليعة فلم يشر إليه أحد إلا الهرثمى ، فإنه نصح بألا تقل الطليعة عن ثلاثة : أحدهم يأتى بالخبر ، واثنان يتقدمان إلى العدو ، بحيث يكون بينهما مسافة ميل فى تقدمهم ، ليحفظ كل واحد منهم ظهر صاحبه ، ونصح لهم بأن يكون تطلعهم على المرتفعات ، وألا يُجروا خيلهم فى الأرض التى يثور غبارها ، وألا يدخلوا أكثر من ثلثى الطريق بينهم وبين عدوهم [٤٦] ، إلى كثير من النصائح التى هى من عمل الجيوش الحديثة ، فليرجع إلى مخطوطه طالب الزيادة .

---

(٤٢) طه الهاشمى ص ١٨٢ .

(٤٣) نهج البلاغة – شرح محمد عبده جـ ٢ ص ١٣ .

(٤٤) الخضرى – تاريخ الدولة العباسية ص ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ والطبرى جـ ٣ ص ١٥ .

(٤٥) الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ص ٣ ، ٤ حوادث سنة ٩٦ هـ .

(٤٦) مخطوطه السابق ورقة ٣٤ .

ب – طبيعة الأرض واختيار الموقع :

إن قدراً كبيراً من نجاح القائد يتوقف على مهارته فى اختيار مواقعه ، بحيث يكون جيشه فى موقع حصين ، يضمن سلامته فى حال الدفاع والهجوم ، ولم يَغفل المسلمون قديماً عن تلك الحقيقة المهمة فالرسول عليه السلام فى «بدر» نزل على أقرب بئر من المشركين ، وردم ما خلفه من الآبار ، ليشرب ولا يشرب المشركون ، وناهيك بفعل العطش فى الصحراء القاتلة بحرّها ، وفى يوم « أحد » استغل طبيعة الأرض فأسند ظهر قواته إلى جبل « أحد » وكلف الرماة برد أية حركة التفاف خلفى ، وجعل مَيدان المعركة فى السفح المنبسط أمامه ، لو طبقت خطته كما وضعها لا نتصر يومها نصراً مبيناً .

ولعل دفاعه عن « المدينة » بأصحابه القلائل ، أمام عشرة آلاف من الأحزاب بطريقة الخندق ، يُعد مفخرة حربية له ، لأنه اختار جعل الخندق فى الجهة الشمالية المكشوفة ، واستغل الحرّتين الشرقية والغربية كموانع طبيعية ، ثم إن إخراج رماله ناحية المسلمين ، أتاح لهم موقعاً دفاعياً ممتازاً ، يرمون من خلفه الأعداء ، وتقع سهام الأعداء فيه فى رماله .

وكثيراً ما كان قادة المسلمين يحصنون مواقعهم بالجبال ، يسندون إليها ظهورهم وبالأنهر وفروعها يحتمون بمنعطفاتها ، وبالبحيرات والمستنقعات تحيط بهم ، بحيث لا يقاتلون عدوهم إلا من وجه واحد أو وجهين(٤٧) ولعل قالة عمر المشهورة « يا سارية الجبل » ليست فى حاجة إلى بيان ، للدلالة على العمل بقاعدة الاحتماء بالجبال ، والانحياز إلى المرتفعات لحماية الجيش .

ولمعرفة المسلمين بالأثر الذى يترتب على اختيار الموقع ، اعتادوا أن يقاتلوا أعداءهم على أدنى حجر من أرضهم ، كما نصحهم « عمر » فإن انتصروا لم يصعب عليهم التقدم ، وإن كانت الأخرى ، تفرقوا فى الشعاب والأودية ، التى همْ بها

---

(٤٧) الكامل جـ٣ ص ١٥ ، جـ ٤ ص ١٩٠ ، ونهج البلاغة جـ ٢ ص ص ١٢ ، ١٣ ، ومخطوط الهرثمى ورقة ١٩ ، وفى وصية مروان بن محمد لولى عهده كثير من حقائق الفن الحربى الذى عرف به المسلمون.

أعلم من عدوهم ، فانتشر الجند على جوانب الصحراء فكانوا مسالح ينظر بعضها إلى بعض ، ويغيث بعضها بعضاً[٤٨] ..

فلما مضت عجلة الفتح فى اندفاعها ، حتى بلغت سفوح الجبال التى تفصل سهل العراق عن هضبة إيران ، آمن « عمر » بسلطان الموانع الطبيعية ، واعتقد أن هذه الجبال يصح أن تكون فاصلا طبيعياً ، يقف المسلمون عندها ، وقال قولته المشهورة « ودِدت لو أن بيننا وبين الأعاجم سداً وفى رواية جبلاً من نار . فلا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد[٤٩] . ولكن إرادة الطبيعة كانت أقوى من إرادة « عمر » فإن الفرس بعد هزيمتهم فى القادسية تحصنوا فى (جلولاء) ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز ، لتحكمها فى طريق القوافل الممتد بين « العراق وكَرْمنْشاه » وصاروا يفاجئون المسلمين بالانحدار عليهم منها ، مع وديان الأنهر المنحدرة من الجبال ، إلى دجلة وشط العرب وخليج العرب ؛ ولذا أدرك المسلمون أن الاحتفاظ بالسهل ، يقتضيهم انتزاع ذلك المعقل (جلولاء) من أيدى الفرس كما تقضى بذلك تضاريس البلاد ففعلوا ، لعلمهم بأن المتحصن فى الأرض الوعرة تصعب مهاجمته فيها[٥٠] .

ولتقدير العوامل الاستراتيجية عند « عمر » اشترط على قواده أن يعسكروا بمكان فيه ماء حتى لا يهلكوا ، ولا يفصله عن المدينة ماء ؛ ليسهل إمدادهم فيه ، وليسهل رجوعهم منه إلى بلادهم ، بحيث لا يركبون البحار ، وعلى هذا الأساس أقيم معسكر « البصرة » فى مواجهة طريق هجوم الفرس من الجنوب ، ومعسكر « الكوفة » فى مواجهة طريقهم من الشمال ، وعلى هذا الأساس أيضاً أقيمت الثغور الأخرى فى مصر والشام وغيرهما ، بحيث تكون فى مواقع استراتيجية هامة نافعة .

هذا وقد كان المسلمون يستفيدون من بعض الأخطاء الحربية التى يقع فيها بعضهم ، ويبنون عليها مبادىء ثابتة يعملون بها ، فقد أخطأ القائد « أبو عبيدة ابن مسعود » بعبوره نهر الفرات للفرس فى معركة « الجسر » رغم معارضة مشيريه له ، فهُزم جيشه وقتل هو ، وداسته « الفيلة » وعندها عهد « عمر » إلى أصحابه ألا يعبروا

---

(٤٨) الأستاذ حسونة : الجغرافية التاريخية الإسلامية . ط لجنة البيان العربى ص ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤٩) نفس المرجع ص ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٥٠) الأستاذ حسونة ، وابن الأثير فى الكامل ج ٦ ص ١٣٩ .

بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر[٥١] : ولذا رأينا قادته يعملون بنصحه ، فلم يَعبر « المثنى » للفرس فى معركة « البُويب » عندما خيروه ، ورفض «خالد» العبور للروم فى موقعة « الفِراض[٥٢]. وكذلك ترك « سعد » أمر العبور لرستم لما خيرَّه ، ثم نهى رستم عن القنطرة لما حاول العبور فوق نهر العتيق[٥٣]، فطمَّه هذا وعبر إليه .

ومما يدل على عناية المسلمين باختيار المكان الصالح للمعركة، أن « الهرثمى » عقد الباب السادس عشر من مخطوطه « فى اختيار موضع المصاف للقاء الزحف » بيَّن فيه كيف يحمى القائد ظهر قواته ، وكيف يختار لقلب الجيش جبلا أو أرضاً صلبة ، إلى غير ذلك من النصائح التكتيكية، التى تدل على أن المسلمين كانوا ينظمون قواتهم، طبقاً لما تمليه عليهم أرض المعركة وتضاريس البلاد .

ويصح أن نتخذ هنا بعض المعارك الإسلامية مثلا يوضح لنا تقدم التكتيك الإسلامى ، وبراعة المسلمين فى استغلال طبيعة الأرض عند اختيار مواقعهم .

---

(٥١) نفس المرجع ص ٢٨ والهامش ٤ من هذا الفصل .

(٥٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٧٢ .

(٥٣) تاريخ الطبرى ص ٢٦ .

دراسة تكتيكية لبعض المعارك الإسلامية

يصح هنا أن نتناول بعض المعارك الإسلامية بالدرس والتحليل ؛ لنقف منها على مدى الفن ا لحربى ، الذى كان يتقنه المسلمون ، ونوع التنظيم الذى كان مفضلا عندهم ، سواء فى حالة الهجوم أم فى حالة الدفاع .

وأول معركة يصح بحق أن تسمى معركة حربية ، هى معركة « أحد » التى أقبلت فيها قريش بأحلافها ، تصول وتتيه فى عُدتها وعددها ، تريد التخلص من « محمد » والقضاء على دعوته ، فردهم الله لم ينالوا خيراً ، بعد أن لقن المسلمون على أيديهم درساً قاسياً ، فى وجوب طاعة القواد وتنفيذ أوامرهم .

أولا — مسرح المعركة فى أحد :

خرج المشركون من مكة فى ثلاثة آلاف ، على أكمل استعداد وأتم أهبة يحمل لواءهم «طلحة بن أبى طلحة» من بنى عبد الدار ، وهم أصحاب اللواء دائماً وكان قائد الميمنة الفارسَ المحنك «خالد بن الوليد» وكان قائد الميسرة قرنَه «عِكرمة بن أبى جهل» ومعهم مئتا فارس ، تحت إمرة خالد قد دربوا خير تدريب .

قدم هذا الجيش فى خيلائه ، فنزل شمالى المدينة ، على بعد ميلين[1] عند جبل «أحد» ويلاحظ أن الجيش لم يأت من الجهة الجنوبية مع أنها هى القريبة من طريق قدومه ، كما لم يأت من جهة أخرى غير الشمالية ؛ وذلك لأن المدينة تحيط بها الحرات البركانية من تلك الجهات ، فتكوّن سلسلة من الموانع الطبيعية التى يصعب عبورها ، أو مهاجمة المدينة من ناحيتها ، فليس للمهاجم إلا القدوم من تلك الجهة .

علم الرسول عليه السلام بمسير هذا الجيش ، من رسالة بعث بها إليه عمُّه العباس الذى كان لا يزال بمكة ، وتقول بعض الروايات : إن بعض بنى خزاعة هو الذى كاتبه فى ذلك[2] ، وهنا عقد الرسول مجلسه الحربى المعتاد ، من أشراف الأنصار والمهاجرين ، وجمع بين الشباب والشيب لأخذ الرأى ، ودار نقاش

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ . ص ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠.

طويل، تغلبت فيه حماسة الشبان على رزانة الشيوخ وحكمتهم، فقرروا الخروج للقاء المشركين خارج المدينة، وبعد الاستعداد للقاء، سار بهم الرسول حتى وصل أرض المعركة ، فنزل بهم ليلته ، ثم أصبح فصلى بهم الصبح فى العتمة قبل القتال ، ثم شرع فى تنظيمهم .

الترتيب قبل الالتحام :

ارتاد الرسول أرض المعركة عند نزولها ، فوجد جبل أحد كثير الوديان يؤلف قوساً كبيراً مواجهاً للسهل الذى نزلت به قريش، فنزل الرسول بقواته على عدوة الوادى، مسنداً ظهرهم إلى انحدار الجبل؛ ليكون حماية لهم من الخلف[٣] ، وجعل وجوههم إلى المدينة ، بحيث يستقبلون السهل الذى به قريش[٣] ، ويشرفون عليه وهم فى سفح الجبل ، وبحيث تكون المدينة تحت أعينهم ، فإن قصدها أحد بسوء تمكنوا من إدراكه ومنعه من دخولها .

فحص الرسول أرض المعركة فحص القائد المجرب، فوجد بجانبه مما يلى الخلف، بعض التلال المنقطعة عن الجبل، وخشى أن يؤتى المسلمون من قبل ذلك التل ، بحركة التفاف خلفية ، وبخاصة أن المشركين كانوا يفوقونه كثيراً فى الخيالة ، كما كانوا يفوقونه فى المشاة ، فبادر بعمل تنظيم محكم .

استدعى الرسول خمسين من الرماة ، وأمّر عليهم « عبد الله بن جُبير » وأمرهم بالوقوف على ذلك التل المسمى « جبل عينين » على أن ينضحوا خيل المشركين بنبالهم كلما أقبلت ، وأكد لهم أمره بألا يغادروا مواقفهم ، سواء أفاز إخوانهم أم هُزموا .

بعد أن فرغ من ذلك الاحتياط اللازم ، شرع يرتب قواته لتواجه نظائرها من قوات العدو ، فاستدعى « الزبير بن العوام » وقال له: « استقبلْ خالد بن الوليد فكنْ بإزائه[٤] » ، وأمر جماعة أخرى بأن تكون بإزاء خيل المشركين لترقب حركاتهم وتصد هجماتهم .

---

(٣) ابن الأثير فى الكامل جـ ٢ . ص – ٧٢ – المطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ .

(٤) السيرة الحلبية جـ ٢ . ص ٢٣٥ .

وإن نظرة فاحصة إلى ذلك التكتيك ، تظهر لنا براعة الرسول عليه السلام فى استغلال طبيعة الأرض ، والانتفاع بالجبل ومنحنياته ، وتظهر لنا أيضاً أنه أعد لكل شيء عدته ، ورتب قواته أحكم ترتيب ، بعد أن صفى جنده فرد بعضهم واختار منهم أقوياء الأبدان ، أقوياء الإيمان الذين يثقون به ويثق بهم .

بدأت المعركة فى أول أمرها بالمبارزة ، جرياً مع العادة العربية ، وذلك لما خرج بعض المشركين داعياً للمبارزة ، فخرج إليه « عبد الله بن الزبير » فقتله ثم دعا للمبارزة أيضاً صاحبُ لواء المشركين ، فبرز له « على بن أبى طالب » فقطع رجله وسقط على الأرض ، ثم انصرف عن قتله ، لأنه تلقّاه بعورته ، وناشده الله والرَّحِم[٥] ، فكرم وجهه أن ينظر إلى عورته ، وسيفه أن يريق دمه .

التقى بعد ذلك الجمعان ، وتزاحف الجيشان ، وهم يصيحون صيحة الحرب ، ودارت المعركة على قطبها كأشد ما يكون القتال ، وبُللت الرمال والصخور بدماء القتلى من الفريقين ، وبرقت للمسلمين أولى بوارق النصر بانكشاف أعدائهم ، فوضعوا السيوف فى أقفيتهم ، وأخذت نساؤهم تصعد فى الجبل هاربات مولولات ، وقد شمّرن عن سوقهن ، وبدت[٦] خلاخلهن استعداداً للجرى الطويل ، ولما رأى المسلمون ذلك رجعوا عن الفارين إلى المغانم يجمعونها ، وإلى الأسلاب يستكثرون منها ، وتعجلوا الحكم على أعدائهم بالهزيمة .

هنا حدثت الزلة الكبرى ، التى كانت سبباً فى ضياع النصر من أيدى المسلمين ، ذلك أن معظم الرماة ، لما رأى المسلمين منصرفين إلى جمع المغانم ترك موقفه وبادر لمشاركتهم ، وأنساه إغراء المال نهى الرسول السابق ، ولم يستمع لصوت القلة الذين حافظوا على مواقفهم ، وهنا انتهز « خالد بن الوليد » تلك الفرصة ، فرصة إخلاء الجبل من الرماة ، وأظنه حاول اقتحامه خلال المعركة فردوه بنبالهم ، وأظنه كان ينسحب وعيناه مسمرّتان بذلك الجبل ، فلما رأى خلوه من الرماة إلا قليلا منهم ، أسرع بخيله مستديراً من الوادى المنخفض ، بحيث يستره التل فلا يراه أحد ، وبتلك الحركة البارعة فاجأ المسلمين من الخلف ، وهم لا يزالون فى نشوة النصر ،

---

(٥) ابن الأثير فى الكامل جـ ٢ . ص ٧٣.

(٦) المصدر نفسه ، والأغانى طبعة الساسى جـ ١٤ . ص ١٧.

فكانت المفاجأة سبباً فى اختلال صفوفهم ، وشيوع الرعب بينهم ، ولولاة قلة فدائية ، من رجال ونساء ثبتت حول الرسول عليه السلام ، لكانت العاقبة وخيمة ، وبهذه الحركة الخالدية تغيرت نتيجة المعركة ، من نصر للمسلمين كان محققاً إلى تحاجز بين الفريقين ، وتواعد على اللقاء فى بدر من العام[٧] القابل .

من هذا العرض السريع للمعركة ، رأينا أن الرسول عليه السلام فعل من الاحتياط ما يفعله القائد المحنك ، ولو أن قائداً معاصراً كان فى مكانه ما زاد على ما صنع شيئاً ، ولو سارت المعركة وفق الخطة التى رسمها ، لكان النصر للمسلمين محققاً ، وقد كان قاب قوسين أو أدنى ، ولكن الله سبحانه أراد تأديب المسلمين لمخالفتهم أوامر قائدهم الأعلى .

بقى لنا بعد ذلك أن ندرس معركتين ، من معارك الفتوح العمرية التى تعد من أهم المعارك ، لضخامة جيوشها ، ووفرة السلاح المستخدم فيها ، ولأنها من المعارك الفاصلة ، فى تاريخ الفتوح الإسلامية ، وهما اليرموك والقادسية .

ثانياً ــ معركة اليرموك ١٣ هـ ــ ٦٣٥ م .

نهر اليرموك عبارة عن نهر صغير ، ينبع من مرتفعات (حَوْران) ثم ينساب فى ممر ضيق متعرج ، وقد حُفر فى هضبة من الحجر الجيرى ، مغطاة بطبقة من البازلت ، ثم هو يتصل بنهر الأردن على بعد $6\frac{1}{2}$ كيلومتر جنوبى بحيرة (طبرية) وهو قبل اتصاله بالأردن ، يدور على شكل نصف دائرة تقريباً ، بحيث يحتضن جنوبىُّ القوس سهلا منبسطاً ، له باب واحد من ناحية الجنوب ، أما بقية مدخله فمعلق بخندق طبيعى يسميه الأستاذ «حسونه[٨]» (وادى الرقَّاد) كما هو موضح بالرسم المرفق .

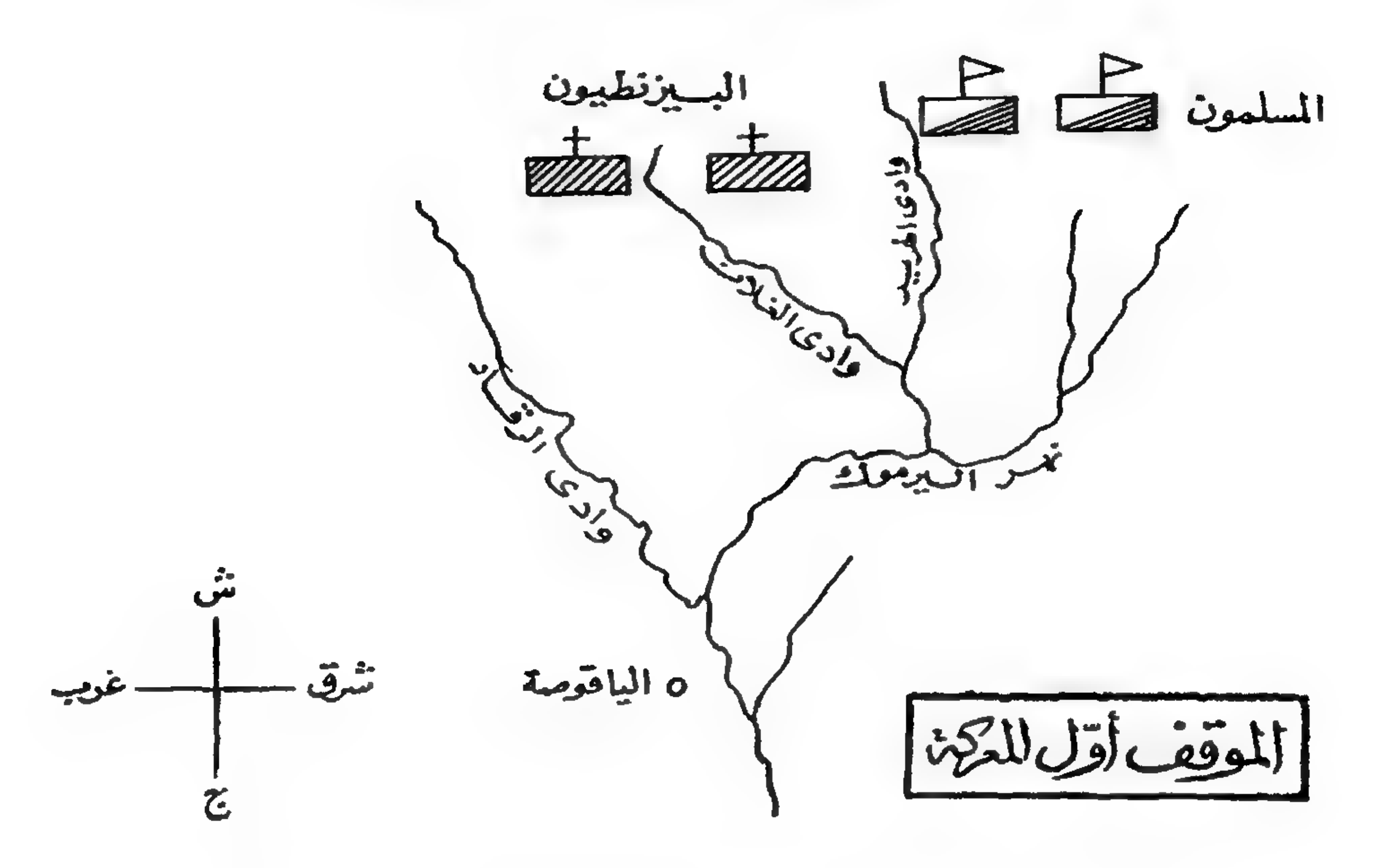
هذا تصوير تقريبى لأرض المعركة ، وفيها نزل الروم بقواتهم شمالى نهر اليرموك ولما رأى المسلمون مواقعهم ، عسكروا هم إلى الشمال الشرقى من النهر ، معتزمين القيام بحركة التفاف وضغط ، بحيث يحصرون الروم بين النهر والخندق (وادى الرقاد)

(٧) انظر الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ص ٧٣ ، ٧٤ وكتب السيرة فى غزوة أحد.

(٨) الجغرافية التاريخية الإسلامية ص ص ٣٠ ، ٣٣ طبعة لجنة البيان العربى.

وقعة اليرموك

نقلاً عن الجغرافية التاريخية للأستاذ حسونة



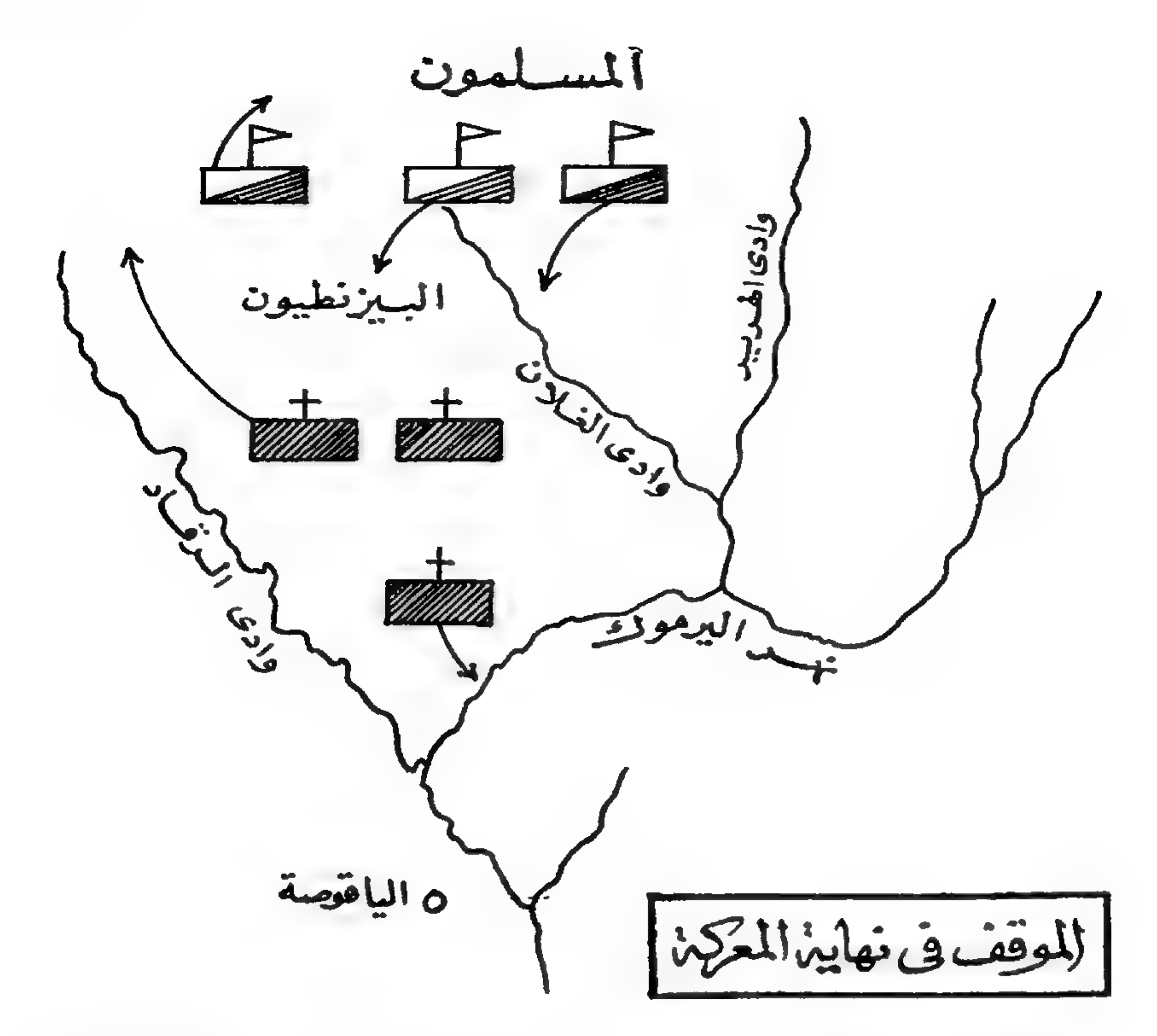
وقد أدرك « خالد بن الوليد » بفطرته الحربية ، خطأ الروم فى اختيار موقعهم لما رآه، فقال مبشراً إخوانه بالنصر: « حصَرت الروم أنفسهم وقلما يأتى محصور بخير ». وقد ذكر الأستاذ « الخضرى » أن المسلمين نزلوا بحذاء الروم وعلى طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم ، فصاروا كأنهم محصورون(٩) .

ظل الجيشان متواقفينَ هكذا فوق ثلاثة أشهر ، لا يخرج الروم من مواقعهم، ولا يخلص المسلمون بوسيلة إليهم، لأن الواقوصة تحميهم من ورائهم ، والخندقَ يحميهم من أمامهم(١٠) ، حتّى قدم « خالد » إليهم بتكليف من الخليفة « أبى بكر » لينقذ الموقف الذى لا تُعرف نهايته، ولينسىَ الروم به وساوس الشيطان ، على حد تعبير الخليفة نفسه .

---

(٩) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ . ص ١٩١ ط ٦ . سنة ١٣٧٠ هـ .

(١٠) محاضرات الخضرى جـ ١ . ص ١٩١ .



وجد «خالد» إخوانه يحاربون متساندين، كل منهم يقود جيشه مستقلا فناقشهم فى توحيد الإمارة ، بحيث تكون بينهم مناوبة ، واتفقوا على أن تكون له إمرة اليوم الأول ، فبادر أولا بتقسيم الجيش إلى كراديس أى كتائب منظمة ، وكان مما قال لهم فى تعليله : « لأنه ليس أكثر فى رأى العين من الكراديس[١١] » ولهذه الكثرة من الأثر النفسى ما لها فى الحروب .

أعاد خالد تقسيم الجيش الإسلامى إلى كراديس ، وجعل على كل قسم من الجيش بطلا مشهوراً من أبطال المسلمين، وهم الذين يسمَّون (أمراء التعبئة) ، فجعل « أبا عبيدة » أميراً على كراديس القلب ، — وجعل « عمرو بن العاص وشُرحبيل بن َحسنة، على الميمنة » وجعل على الميسرة « يزيد[١٢] بن أبى سفيان » وكذلك اختار أمراء الكراديس من الأبطال البارزين ، أمثال : « القعقاع بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، وضرار بن الأزور وغيرهم » .

(١١) ابن الأثير فى الكامل جـ ٢ . ص ٢٠٠ .
(١٢) المصدر نفسه ص — ٢٠١ — .

سير المعركة :

بدأت المعركة كالعادة بالمبارزة، ثم زحفت الجموع إلى الجموع بعد أن خرج الروم من خنادقهم، ودارت المعركة على قطبها، وباب السهل مسدود بجماعة شداد من المسلمين ، كان خالد قد رصدهم لذلك الغرض ، ولما حمى وطيس المعركة ، هجم خالد بقلب الجيش، وقام بحركة ضغط على الروم؛ ليفصل بين فرسانهم ومشاتهم [١٣]، ثم طوق الفرسان بحيث لا يستطيعون التقهقر شمالا نحو باب السهل، فانحازوا أمام ذلك الضغط العنيف إلى الجنوب، حيث اليرموكُ شرقاً والخندق غرباً.

هنا أدرك الروم حرج مركزهم ، فحاولت خيلهم الإفلات من باب السهل الذى تسده قوات المسلمين ، فلما رأى عبقرى الحرب فى وجوههم الرغبة فى النجاة ، لم يشأ أن يحرجَهم بسد الطريق عليهم، فيحملهم على التضحية ، فأشار إلى جنده أن ينحازوا جانباً، ويفسحوا لهم طريق الخلاص، فما إن أفرج لهم المسلمون حتى بادروا بالفرار ، تاركين مشاة الجيش يتلقَّون صدمة المسلمين .

وبعد فرار الخيالة شدد خالد ضغطه على المشاة ، فلم يثبتوا له وتفرقوا بدداً ، وهوى أكثرهم فى اليرموك جماعات ، كأنما هدُم بهم حائط — كتعبير ابن الأثير واندقت أعناق الآخرين فى الخندق (الياقوصة) كما يكتبها الأستاذ « حسونة » فتهافت فيها من الروم ١٢٠ ألف جندى، كما فى رواية الطبرى وابن الأثير»[١٤] وتم النصر للمسلمين، بفضل سلامة تنظيماتهم، واستغلال طبيعة الأرض خير استغلال واستخدام نظام الكراديس على خير وجه .

ثالثاً — معركة القادسية ١٤ هـ — ٦٢٦ م .

قبل المعركة : عرف الخليفة « عمر » بتجاربه أن الحدود الشرقية للجزيرة، لن تكون آمنة إلا بفتح العراق ، لأنه وكر الفرس الذى لا ينفكُّون يهجمون منه ، فجمع القواتِ الإسلامية من كل صوب ، وأرسلها مع « سعد بن أبى وقاص »

---

(١٣) المصدر نفسه ص ٢٠١.

(١٤) انظر المعركة فى الكامل جـ ٢ . ص ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ومحاضرات الأستاذ الخضرى جـ ١. ص ص ١٩١ ، ٩٢ ، ٩٣.

وأمره أن يحيطه علماً بجميع تحركاته ، وأن يصف له المواقع كأنه يراها ، فلما علم برحيله من (زَرود) كتب إليه : « أن ابعث إلى فرْج الهند رجلا ترضاه يكون بحياله ، ويكون ردءاً لك من شيء إذا أتاك من تلك التخوم ، فبعث « المغيرة بن شعبة » فى ٥٠٠ جندى ، فكان بحيال (الأُبلَّة من أرض العرب[١٥] ، وهذا تدبير فى غاية الحكمة ؛ لحماية المسلمين من ذلك الطريق الموصل لبلاد الفرس .

أما من ناحية الفرس فقد استقر رأيهم ، على أن يخرج « رستم » للعرب بعد تردد منه طويل، فخرج فى ١٢٠ ألفاً، كلهم متبوع كما قال الطبرى[١٦] أى معه خدمه، ثم جعل رستم يتقدم فى بطء شديد، ليطاول العرب فيضجَروا من الغربة، فقد روى « الطبرى » أنه كان بين خروجه من المدائن إلى أن لقى « سعداً » أربعة أشهر ، ثم جعل لا يتقدم ولا يقاتل ، رجاء أن يضجروا بمكانهم وأن يجهَدوا فينصرفوا[١٧] .

عرف « عمر » أن الفرس سيطاولون المسلمين ، فأراد أن يفوِّت عليهم غرضهم وأن يصنع مثل صنعهم، فأمر المسلمين أن يتركوا حدود أرضهم(العراق) وأن يطاولوهم أبداً حتى يُنغضوهم[١٧] ، فنزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة[١٨].

وقد كانت نصيحة عمر هذه خير نصيحة ، لأنها صادرة عن رجل عارف بطبائع الناس وبخاصة الفرس، أهل المكر والخديعة ، وليس أدلّ على صدق نظره . مما رواه « ابن الأثير » عن رجل هو أعرف الناس بالفرس ومكرهم لوثيق صلته بهم ، وكثرة اشتباكه فى المعارك معهم وهو البطل « المثنى بن حارثة » فقد أوصى المسلمين عند موته « أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم، وأدنى حجر من أرض العرب، ولا يقاتلوهم بعُقر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم ، إلى أن يردَّ الله الكَرة عليهم[١٩]» .

---

(١٥) تاريخ الطبرى طبعة ليدن ١٨٩٠ جـ ٤ ص٢٢٢٣ والصفحات مسلسلة فى الكتاب كله .

(١٦) المصدر نفسه جـ ٥ . ص ٢٢٥٠ . .

(١٧) أى يخرجوهم من أرضهم إلى الحدود .

(١٨) تاريخ الطبرى المتقدم جـ ٦ . ص ٢٢٥٦ .

(١٩) الطبرى المتقدم جـ ٦ . ص ٢٢٥٧ .

وعملا بدقة التنظيم، وإحكام التعبئة، لمَّا كان «سعد بشراف» على مراحل من (القادسية) عبأ قواته، وأمرَّ الأمراء، وجعل على كل عشرة عريفاً، وجعل على الرايات رجالا من أهل السابقة، ولم يرحل عنها إلا بكتاب «عمر»[٢٠] فكان أمراء التعبئة يلُون الأمير، والذين يلون أمراء التعبئة أمراءُ الأعشار، والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والقواد، ورءوس القبائل[٢١].

يؤخذ مما تقدم أن كلاً من الجيشين كان يسير على حذر، ويتقن النظم، ويتخذ الحيطة؛ لعلمه بأنه مقدم على معركة حاسمة، سيكون لها شأن فى التاريخ.

أرض القادسيَّة:

يصح أن نسوق أولا وصف الأستاذ «حسونة» لها، لينير السبيل أمامنا، ويعيننَا على فهم نصوص الطبرى وابن الأثير عنها، فقد قال فى وصف موضعها: «أنها كانت يوم أتاها سعد، يحفُّ بها من الشرق خُور من الفرات، يسمى (ترعة الحصوص)، ويُطيف بها من الغرب (خندق سابور) وهو إذ ذاك غدير، وكان يحمى ميمنة المسلمين مستنقع كبير، لا يمكن عبوره بجيش كثير العدد أما ظهرهم فكانت تحميه الصحراء[٢٢].

أما وصفها فى مصادرنا القديمة، فإنه يتجلى فى كتاب «سعد» إلى الخليفة بعد أن نزلها حيث يقول: «إن القادسية بين الخندق والعتيق، وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر، فى جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين: أما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى (الحُضوض) يطلع بمن يسلكه بين الخورنق والحيرة، وأن ما عن يسار القادسية إلى (الوَلجَة) فيض من فيوض مياههم[٢٣].»

والذى يُفهم من المصادر المختلفة، أن المسلمين نزلوا بالقادسية قبل الفرس، وكان «سعد» قد جعل على مقدمة جيشه «زُهرة بن عبد الله» فلما انتهى إليها،

---

(٢٠) ابن الأثير فى الكامل — ج ٢. ص ٢٢١.

(٢١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢٢) انظر الجغرافية التاريخية الإسلامية ص ٣٣. وخندق سابور هذا كان قد حفره فى برية الكوفة، ونظم عليه المسالح، ليكون حامياً لأهل السواد من عرب البادية، محاضرات الخضرى ج ١. ص ٢٠٦. والخصوص فى الطبرى بضادين لا صادين.

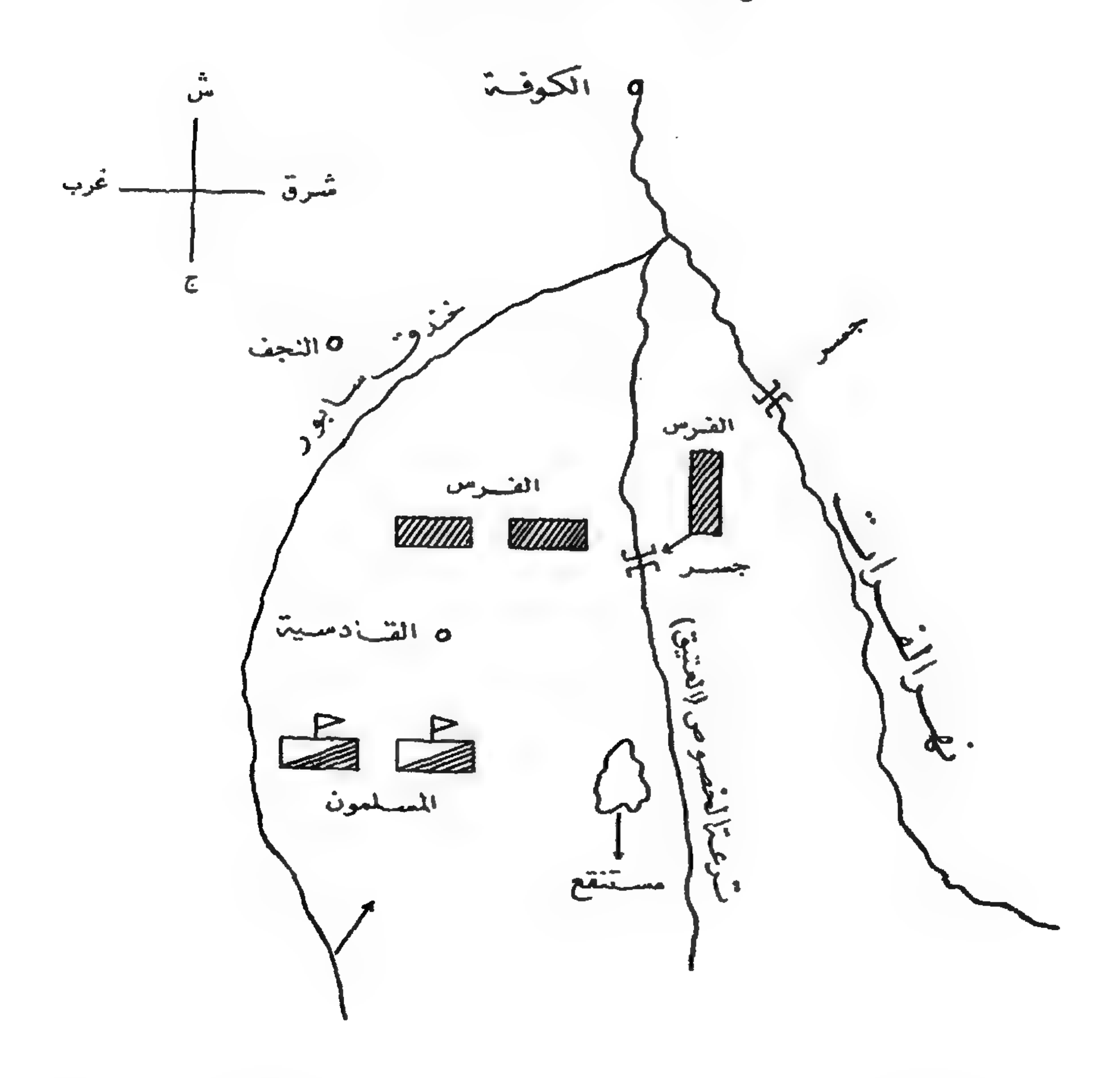
(٢٣) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٢٣.

نزل بقواته بين العتيق والخندق ، بحيال القنطرة[٢٤] ليستولى عليها ، ويضمنَ عدم عبور الفرس عليها ، ثم توالى نزول الناس وأقام سعد شهراً ، ثم كتب إلى الخليفة ، بأن الفرس لم يوجهوا إليه أحداً، ولم يسندوا حرباً إلى أحد .

بعد ذلك جاء (رستم) وعلى مقدمته (الجالينوس) فنزل هذا بحيال (زهرة) من دون القنطرة ، فلما وصل (رستم) نزل على العتيق بحيال عسكر سعد ، ونزل الناس

وقعة القادسيّة

عن الأستاذ حسّونة بتصرف قليل



---

(٢٤) الطبرى ج ٤ ص ص ٢٢٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ والنهر المسمى هنا الخضوض أو بالحاء المهملة هو ترعة الحصوص عند الأستاذ حسونة كما سبق .

فما زالوا يتلاحقون حتى أعتموا من كثرتهم ، فبات بها تلك الليلة ، والمسلمون ممسكون عنهم [٢٥] .

ويزيد « ابن الأثير » الموقف توضيحاً ، فيذكر أن صفّ المشركين كان على شفير العتيق ، وأن صف المسلمين كان مع حائط قُديْس والخندق ، ثم يقول : « فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق [٢٦] » .

فلما أصبح رستم من ليلته التى باتها بالعتيق ، أصبح راكباً فى خيله ، ثم صعد نحو القنطرة ، وأرسل للمسلمين رجلا يقول لهم : إن رستم يقول لكم : أرسلوا إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا [٢٧] ، فتردد السفراء بينه وبين سعد ، وانتهت السفارات بالموافقة على القتال ، فأمر كل قائد أتباعه بأن يقفوا مواقفهم .

وقبل بدء المعركة أرسل رستم إلى سعد يقول له : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ فقال لهم سعد : شأنكم والعبورَ إلينا ، فأرادوا العبور إلى القنطرة فنهاهم عنها سعد قائلا : لا ولا كرامة ، هذا شىء قد غلبناكم عليه ، فلن نردّه عليكم ، فباتوا يُسكّرون العتيق ، ويردمونه بالقصب والرمال والبراذع [٢٨] ، ليعبروا فوق ذلك الجسر المصنوع فى الصباح .

وبعد أن عبر الفرس فى الصباح نظموا أنفسهم ، وأخذوا مصافهم ، وجلس رستم على سريره وقد نصبت له مظلة كبيرة ، وعبأ فى القلب ثمانية عشر فيلا ، عليها الرجال فى الصناديق الخشبية ، وكل فيل يحمل عشرين رجلا ، والقنطرة بين خيله وخيل المسلمين ، وكل منهما متأهب لخوض غمار المعاركة .

أما المسلمون فقد نظموا صفوفهم جنوبى القنطرة ، بحيث تبدأ صفوفهم من أصل حائط (قُديس) وهو القصر الذى كان يشرف سعد من فوقه على الجند ، لمرضه بدمامل كانت تعوق حركته ، ثم جعل القادة يخطبون جندهم استعداداً للقاء .

---

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٢٣٠ والكامل جـ ٢ . ص ٢٢١ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ٢٢٦٦ والكامل جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٢٧) انظر الكامل جـ ٢ . ص ٢٣١ .

(٢٨) تاريخ الطبرى جـ ٦ . ص ٢٢٦٧ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ص ٢٢٨٥ ، ٨٦ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣٠ .

دوران المعركة :

بدأت الحرب مبارزة جرياً على العادة فى ذلك الوقت[٣٠] ثم لما كبر « سعد » التكبيرة الرابعة — وهى علامة الهجوم العام— كانت الصدمة الهائلة، فتقدم الفرسان إلى الفرسان ، ودارت رحى الحرب تطحن الرجال، وتُنهى الآجال، واستمرت المعركة أياماً ثلاثة .

فى اليوم الأول لقى المسلمون من الفيلة عنتاً شديداً ، لأن خيلهم لم تتعود رؤيتها، فكانت تحجُم عنها، والرماة فى الصناديق الخشبية فوق ظهورها، يمطرون المسلمين وابلا من سهامهم[٣١] القاتلة ، ويحتمون بها من سهام المسلمين .

كان سعد يشرف على المعركة من أعلى القصر ، ويلقى بالرِّقاع فيها أوامره إلى نائبه «خالد بن عُرفطة» وهو يبلغها لمن يليه من القواد، فلما أبصر فعل الفيلة بالناس فتح باب التطوع لقتالها ، فتطوع لذلك « طلحة بن خويلد الأسدى » وأبلى معه بنو أسد خير البلاء فى ضرب خراطيم الفيلة بالسيوف ، وتأخير هجومها ، وكذلك صنع « عاصم بن عمرو التميمى » « أخو القعقاع » فإنه جعل الرماة يرمون ركبان الفيلة ، وكلف جماعة أن يستدبروا الفيلة فيقطعوا أحزمتها ، ويُلقوا الصناديق من فوقها ، وخرج هو يحميها بفرسانه الأشداء[٣٢] ، فخففت تلك التضحية من وطأة الفيلة على الناس ، لأن توابيتها كسرت فلم تزاول عملها كاملا .

وفى ثانى أيام المعركة استؤنف القتال ، ولكنه لم يكن فى عنف اليوم الأول ، لأن الفيلة قد عُطلت عن العمل ، ريثما يصلحون صناديقها[٣٣] ، ومما قوَّى فى ذلك اليوم عزائم المسلمين ، وأوهن عزائم الفرس ، أن أمداداً كثيرة قدمت للمسلمين من الشام ، قد غطت بأسنتها الشمس ، كما فى تعبير المسعودى[٣٤] ، وذلك أن « هاشم بن عتبة بن أبى وقاص » قدم من الشام مدداً لإخوانه ، وكان على

---

(٣٠) المصدر نفسه ص ٢٢٨٧ .
(٣١) المصدر نفسه ص ٢٢٩٧ ، ٩٨ .
(٣٢) ابن الأثير فى الكامل جـ ٢ . ص ٢٣٠ .
(٣٣) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٣٠١ — والكامل جـ ٢ ص ٢٣١ ، ٣٢ .
(٣٤) الكامل جـ ٢ . ص ٢٣٣ .

مقدمته «القعقاع بن عمرو» فى ألف جندى، وقد صيَّر هذا قوته أضعاف عددها الحقيقى ، بأن قسم الألف عشرات ، ثم أمرهم بالسير إلى المعركة وكلما بعدت عشرة تلتها عشرة أخرى، وكان الذين يصلون المعركة، يكبرون ويحملون بعنف . ليقَـوّوا قلوب إخوانهم ، ويوُهموا الأعداء بأن المدد متتابع .

وفى هذا اليوم أخذ المسلمون فكرة الفيلة ، فاستبدلوا بها الجمال ، وذلك أن أبناء عم القعقاع حملوا على الفرس بإبل عالية ، وقد ألبسوها الجلال والبراقع ، ثم وجهوها لخيل الفرس التى لم تألفها ، فنفرت منها خيلهم ، كما نفرت خيل العرب من الفيلة ، وركبتها خيول المسلمين[٣٥] .

مضى اليوم الثالث على ذلك المنوال ، ثم شدد المسلمون الضغط فى الليلة الأخيرة ، المسماة فى كتب التاريخ (ليلة الهرير) وواصلوا القتال فى نهارها ، لعلمهم بأن النصر لمن يطول صبره فى النهاية ، ولكنهم لم يصنعوا هنا ما صنع خالد باليرموك، فلم يفسحوا للفرس الطريق للفرار، وحصروهم بين الخندق والنهر ، فأخرجوهم وحملوهم على الاستماتة، ولعل ذلك الإحراج كان هو السبب فى إطالة المعركة ، ومن هنا نعلم أن الخطة فى اليرموك كان أحكم منها فى القادسية ، ولذا لم يطل القتال هناك كما طال هنا .

فلما طال القتال ، ودام الضغط العنيف ، اختلفت صفوف الفرس ، وكانت فيلتهم وبالا عليهم ، ذلك أن الطبرى يروى أنه كان أمام الفيلة فيلان يعلمانهما ، فانبرى لها الأخوان البطلان « القعاع وعاصم » وبعض بنى أسد ، ففقئوا عينيهما ، وقطعوا مشفريهما ، فصاحاً صيحة الخنزير ، ثم ولى أكبرهما فوثب فى العتيق فتبعته الفيلة، وخرقت صف الأعاجم، فعبرت العتيق فى أثره، فأتت المدائن فى توابيتها وهلك من فيها[٣٦] .

وعند الحطْمة النهائية طارت مظلة رستم، فوقعت فى نهر العتيق وتنادى الفرس للعبور وتفرقوا، تأخذهم سيوف المسلمين من كل جانب ، فهجموا على النهر فغرق فيه عدد كبير منهم ، وبخاصة المقرنون بالسلاسل ، وتم الأمر بنصر المسلمين

---

(٣٥) مروج الذهب جـ ٢ . ص ص ٣٢١ ، ٢٢ ومحاضرات الخضرى جـ ١ . ص ٢١ .
(٣٦) الكامل حـ ٦ . ص ٢٣٣ .

نصراً مبيناً ، فتح أمامهم السبيل إلى سواد العراق ، فتقدموا تباعاً حتى فتحوا عاصمتهم (المدائن) وقضوا على ملكهم الذى بذلوا فى تدعيمه السنين الطوال .

ويحسن هنا أن نختم تلك الدراسة ، بتحليل بعض المعارك فى البلاد الجبلية الوعرة ، التى لم يألف المسلمون ارتيادها كثيراً ، ومن تلك الأمثلة بلاد (بخارى) ومكانها الآن (الباكستان) الحديث ، وكان قد اشتد فيها بأس الأعداء ، وكثر نقضهم للعهود مع المسلمين اعتماداً على حصانة جبالهم ، وشدة البرد شتاء فى بلادهم ، وبخاصة على من يحاصرهم ، وقد تمكن أخيراً القائد البطل « قتيبة بن مسلم الباهلى » من فتح عاصمتهم ، وتثبيت قدمه فى بلادهم ، وكان العضدَ الأيمن للحجاج فى بلاد المشرق كلها[٣٧] .

---

(٣٧) الطبرى جـ ٥ . ص ٢٣٢٦ .

فتح مدينة بخارى

لقد لقِىَ قتيبةُ فى إقليم بخارى كثيراً من المشقة ، وعنيفاً من المقاومة التى كانت تحرجه فى كثير من الأحيان ، ولكنه لطول مكثه بتلك البلاد عرف مسالكها ودروبها ، وعرف كيف يتجنب غدر الأعداء فيها ، وعلْم القائد بأرض المعركة خير معين له فيها .

يروى « ابن الأثير » أن قتيبة لما أراد حصار المدينة ، كتب للحجاج بخبرها فطلب إليه أن يصورها له رسما ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه : أن تبْ إلى الله جل ثناؤه مما كان منك ، وائتها من مكان كذا وكذا ، لنقط عينها له فى كتابه ، وكان مما قال له أيضاً محذراً من الجبال ، ومنعطفات الوديان : « وإياك والتحويط ودعنى من ثنيات الطريق[٣٨] . وذلك لأن العربى يجيد القتال فى الأراضى المنبسطة ، أكثر من البلاد الجبلية ، ومع ذلك استطاع المسلمون فتحها بالحكمة والشجاعة .

تقدم قتيبة لحصار المدينة — وليس أمامى من النصوص ما يسعف برسم صورة واضحة لها — فتلقاه أهلها بالمطاولة والصبر ، لأنهم كانوا قد استنجدوا بجيرانهم من الأتراك والصُّغد ، فهم على يقين من قدومهم لنصرتهم ، وفكّ حصار المسلمين عنهم .

فلما جاء المدد خرج المحصورون للقتال ، يريدون أن يطْبقوا على المسلمين بينهم وبين المدد المعسكر حولهم ، وهنا جال المسلمون جولتهم المعروفة ، وأسرعوا بالانسحاب لتحاشى الإطباق عليهم ، وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم كما يقول « ابن الإثير »[٣٩] . وظن الأعداء أنهم قد هزموا المسلمين .

ولكن هذا الانسحاب كان براعة حربية ، ومهارة مدبرة ، يُحمد عليها قتيبة فبه يستطيع أن يعيد تنظيم صفوفه ، ويعدل خطته لتناسب الحال الطارئة ، وفعلا عدل خطته ، وركّزها فى أن يترك الحصار ، ويطوقَ الترك بجناحى جيشه ، فى الوقت الذى يضغط قلب الجيش عليهم ، فلما فعل ذلك انهزم الترك ، وارتدوا على مواقفهم الأولى ، ثم ثبتوا على مرتفع من الأرض ، يفصله عن « قتيبة » نهر صغير ، ووقفوا

---

(٣٨) انظر الكامل جـ ٤ . ص ٢٥٧ .

(٣٩) الكامل جـ ٤ . ص ٢٦٠ ومحاضرات الخضرى جـ ١ . ص ص ١٧٣ ، ٧٤ .

يتحينون الفرصة للهجوم ، ومعاودة الكرة مرة أخرى .

هنا تجلت شجاعة بنى تميم ، وكانوا طليعة قتيبة ، وتجلت مهارة زعيمهم « وكيع » وسرعة بديهته ، وإحكام خطته ودقتها ، وأعاد للأذهان موقف القعقاع يوم عبور دجلة .

فإنه أمر فرقة من أبطاله الفدائيين فاقتحموا النهر سباحة بخيولهم ، ليعرفوا الطريق المؤدى إلى الترك فى غفلة منهم ، ثم عقد للباقين جسراً خشبياً عبروا عليه ، وبعد أن عبر الجند واستراحوا قليلا ، تقدموا للعدو وهو فى غفلة عنهم .

ثم كانت خطة قتيبة فى قتال الترك تتلخص ، فى أنه أمر قائد الخيالة بأن يناوشهم القتال ليشغلهم عنه ، فى الوقت الذى يتقدم فيه بالجيش كله ، وهم عنه مشغولون ، فيصدمهم الصدمة القاضية فى هجومه الخاطف ، وقد تم له ذلك فعلا فهجم عليهم من حيث لا ينتظرون ؛ لأنهم كانوا يحاربون خيالته ، وأخذتهم رماح المسلمين وسيوفهم ، فلاذوا بالفرار بعد أن جُرح ملكهم وجرح ابنه ، وأخيراً تم لهم فتح المدينة[٤٠] بفضل حُسْن القيادة ، وسرعة تعديل الخطة ، حسب ما تمليه ظروف المعركة.

ومهما يكن الأمر فالتنظيم الحربى ، وتخطيط المعارك ، ليس له قاعدة مطردة يسير القائد عليها ، ولا يتجاوزها إلى سواها ؛ وإنما هى قواعد اجتهادية ، يغلب تطبيقها ويكثر دورانها فى المعارك ، والواقع أن الموقف قد يوحى للقائد أحياناً بخطة لم تكن فى حسابه ، وقد توجهه المصادفات وجهة غير التى كان يقصدها ، بل إنه قد يدع خطتَه جانباً ، ويعمل بوحْى من ظروف المعركة وطبيعة الحال ، وقد يربح قائد بالمصادفة ، ويخسر إذا طبق عملياته الحسابية الدقيقة .

وعلى هذا فالتكتيك الإسلامى عبارة عن عادات حربية متعارفة ، كانت تفُضل فى كثير من الحالات ، وكان يفضل عليها غيرها فى بعض الحالات ، وقد أثبتت الأيام أصالتها ونجاحها ، لأن نجاح الدولة يعنى نجاح النظم التى اتبعتها ، وسلامة الوسائل التى طبقتها ، وقد لمسنا نجاح المسلمين فى إقامة دولتهم الخالدة ، فدل ذلك على سلامة ونجاح تنظيماتهم الحربية وغيرها .

---

(٤٠) المصدر الأول نفسه .

(٤١) نفس المصدر والصفحة .

جـ - نظام الصف للمعركة :

ورث المسلمون عن المناذرة والغساسنة ، تقسيم الجيش إلى خمسة أقسام : المقدمة والجناحين والقلب والساقة ، ولذا قال أهل « خيبر » لما فاجأهم الرسول بجيشه « محمد والخميس » لتألفه من خمس فرق ، وكان القائد فى العادة يتخذ مركزه فى القلب ، لا يتركه إلا عند المرور على المقاتلين لتحريضهم ، أو عند اختلال صفوفه حيث يباشر القتال بيده ، وعلى هذا النظام رتب الرسول أصحابه فى فتح مكة[٤٢] أما فى « بدر » حيث كانوا قلة ، فقد سواهم صفوفا ، وجعل لهم ميمنة وميسرة[٤٣] فقط ، بلا مقدمة ولا مؤخرة .

وكان النظام المتبع عند المسلمين ، أن يصفوا كل جزء من أجزاء الجيش صفوفا منتظمة ، كأنها صفوف الصلاة ، بحيث لا يتقدم أحد من مركزه أو يتأخر إلا بأمر القائد ، فإن فعل عرّض نفسه للعقاب البدنى وغيره[٤٤] ، وقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمسك بيده عصا قصيرة ، يسوى بها صفوف أصحابه ، وكان « علىٌّ » يرتبهم فى الصفوف كأنما يغرسهم فى الأرض غرسا ، فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص[٤٥] .

وينبغى أن يتدبر المرء هنا التشابه التام بين نظام المقاتلين فى الميدان ، ونظام صلاة الجماعة بالمسجد ، ففى كلتا الحالين تسوّى الصفوف بدقة ويسود الصمت ، ولا يرتفع الصوت إلا بالتكبير ، وتسدّ ثغرات الصف الأول من الصف الذى يليه ، ويخضع المصلون لإشارة الإمام خضوع الجند لأمر القائد ، إلى غير ذلك من غضّ النظر ، وذكر الله واستشعار خشيته ، وهى أمور تبيح للمرء أن يفهم ، أن المشرع قد يكون راعى فيما راعى عند فرضية الصلاة ، أن تكون تمرينا يوميًّا مستمراً على وقفة الميدان ونظامه ، وإذا كانت الصلاة أساس القوة الروحية فالقتال أساس القوة المدنية ، وبهما معا تقوم وتتقدم الحكومات الإسلامية .

هذا ، والذى يفهم من المراجع المختلفة ، أن نظام القتال بالصفوف كان

---

(٤٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٩ .

(٤٣) حتى – تاريخ العرب تعريب نافع ص ٢١٣ .

(٤٤) فون كريمر : ص ٣٢١ ومخطوط الهرثمى ورقة ٤ .

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٠ .

مفضلا عند المسلمين ، وأنهم ظلوا يعملون به إلى أن أبطله «مروان بن محمد» واستبدل به نظام « الكراديس[٤٦] » ويكفى أن الله امتدح الثابتين فى صفوفهم ، وسمى بعض سور القرآن « سورة الصف » وقد خص « ابن خلدون » فى مقدمته العرب والبربر بطريقة (الكرّ والفرّ) وخص العجم جميعا بطريقة (الزحف صفوفا) وهى الطريقة المفضلة عنده[٤٧] ، ولكنه اعترف فى موكضع آخر[٤٨] بأن المسلمين أولا كانوا يقاتلون زحفا ، وعلل ذلك بأنهم أرادوا أن يقاتلوا أعداءهم بمثل نظامهم ، وأنهم كانوا مستميتين فى جهادهم ، والزحف عنده إلى الاستماتة أقرب ، وقد جعل هذا الغموض الدكتور « كريمر » ينقل عنه ، أن العرب اتبعوا فى القتال طريقتين : طريقة الكر والفر وطريقة الزحف جميعا[٤٩]. أى أنهم عملوا بالنظامين ، ولكن كيف يعملون بهما ؟

ويمكن إزالة هذا الغموض ، إذا فهمنا أنه يقصد بالعرب العرب الجاهليين ، أو عرب (بنى هلال) الذين حاربوا البربر فى زمانه ببلاد المغرب ، كما يمكن فهم عبارة « كريمر » على أن الطريقتين كانتا تستخدمان فى المعركة الواحدة ، بمعنى أنهم كانوا يزحفون صفوفا ، وقد صفوا خلفهم أمتعتهم ورواحلهم ، فإذا اختلت الصفوف لأى سبب ، انسحبوا إلى رحالهم ، فأعادوا تنظيم صفوفهم للقيام بهجوم جديد ، وهذا ما كان يسمى عندهم (الكرة بعد الفرة) أو (الرجعة بعد الجولة) والغرض من الجولة ، أن تُعرف القبيلةُ المتسببة فى الفرار ، لأنهم كانوا يصفون جندهم على أساس قبلى ، فيعين القائد لكل قبيلة مركزها ، ويجعل زعيمها قائدها ، لتتبارى القبائل فى إظهار بطولتها[٥٠] ، وتخزى أن يهزم الجيش بسببها .

وإذا عرفنا أن المسلمين كانوا يفضلون نظام الصف ، فيحق لنا أن نعرف عدد هذه الصفوف ، والسلاح الذى كان يستخدم فى كل صف .

---

(٤٦) حتى تعريب نافع تاريخ العرب : الكتاب ٣ ص ص ٤٨ ، ٤٩ ، وابن خلدون جـ ٢ ص ٢٢٩ وقد ذكر أنه أبطل زمن « مروان بن الحكم » فى قتاله « الضحاك بن قيس » ولعله خطأ مطبعى والمقصود « مروان بن محمد » .

(٤٧) المقدمة ص ص ٢٢٦ ، ٢٧ .

(٤٨) نفس المرجع ص ص ٢٢٨ ، ٢٩ .

(٤٩) V. Kremer. p. 321.

(٥٠) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٩ ، والكامل جـ ٢ ص ١١٩ .

يذكر الدكتور « أومان » أن البيزنطيين كانوا يرتبون قواتهم فى صفين ، خلفهما صف ثالث لحراسة الجانبين ، بينما تعوّد العرب أن ينظموا أنفسهم فى صف واحد طويل[٥١] ، ولكن الذى يفهم من المصادر العربية ، أن المسلمين كانوا يستخدمون صفين أو ثلاثة فكثيراً ما نجد فيها قولهم « وسوى الرسول أصحابه صفوفا » وكذلك « ومشى خالد بين الصفوف يحرّض القوم » فذكرها بصيغة الجمع قد يشير إلى أكثر من صف واحد فى المعركة .

يضاف إلى ذلك ما صرح به « الطبرى »[٥٢] من أن كل قسم من أقسام الجيش بالقادسية نظم فى ثلاثة صفوف : فى الأول وقف الفرسان ، وفى الثانى وقف الرّجالة أصحاب الرماح والسيوف ، وفى الثالث وقف الرماة ، ويفهم من هذا الترتيب أن الفرسان كانوا يقفون أماماً وإلى الجانبين ، وذلك لتمكين الرماة من مزاولة عملهم ، وللقيام بحماية الجانبين ، فقد روى « البلاذرى » أن المسلمين اعتادوا أن يجعلوا على الخيالة أميراً خاصًّا ، يعهدون إليه بحماية الجانبين[٥٣] بينما كان يقوم بحراسة فرسانه رماة من العدائين الإفريقيين أشباه العراة ، الذين يلازمونهم فى الجولات القصيرة جريا على الأقدام ، وفى الحملات البعيدة على الخيل يركبونها ، متخففين من السلاح إلا من القوس[٥٤] .

وقد نظم «أبو عبيدة» جنده يوم اليرموك فى ثلاثة صفوف أيضاً ، ولكنه لم يجعل الفرسان فى صف واحد كما صنع « سعد » وإنما فرقهم على الصفوف الثلاثة[٥٥] ، بحيث يقفون على الأجناب ؛ لمنع أى حركة التفاف من العدو ، أو ليقوموا هم بحركة التفاف سريعة عليه ، عند سنوح الفرصة لذلك ، وكذلك اعتاد القائد الأموى «عتّاب ابن ورقاء » عندما كان يحارب « شبيبا » الخارجىّ ، أن يصفّ جيشه ثلاثة صفوف ، فيجعل أصحاب السيوف فى صف ، وأصحاب الرماح فى صف ، والرماة فى صف ، ولكن «ابن الأثير» الذى روى هذا الخبر فى حوادث ٧٧ هـ ، لم يوضح لنا من كان

---

(٥١) تاريخ فن الحرب ص ٢١٣ .
(٥٢) تاريخه جـ ٤ ص ١٣٠ .
(٥٣) فتوح البلدان ص ٣٦٤ .
(٥٤) V. Kremer pp. 330-33.
(٥٥) الواقدى : فتوح الشام جـ ١ ص ١٣٥ .

من القوات فى الصف الأول ، ومن كان فى الصفوف التالية ، كما وضح الطبرى فى روايته السابقة .

هذا ، والذى عليه المؤرخون قديماً وحديثاً، أن العرب لم يبطلوا نظام الصف إلا فى عام (١٢٨ هـ — ٧٤٦ م) حيث أمر « مروان بن محمد » باتباع نظام الكراديس ، الذى كان متبعاً عند الفرس والروم ، ولكن النصوص تدل على أن المسلمين اتبعوا ذلك النظام قبل ذلك التاريخ ، لأنهم كانوا يحاربون أعداءهم بنفس نظامهم « فخالد بن الوليد » يوم اليرموك قسم جيشه إلى كراديس ، معتقداً أنه ليس أكثر فى رأى العين منها [٥٦] ، لأن الكراديس تقف فى صفوف ، بينها مسافات متباعدة ، وقد عمل بهذا النظام أيضا ، « خالد بن سعيد » فى فتح الشام ، مقلداً فيه الروم كما عمل به « سعد بن أبى وقاص » يوم القادسية[٥٧] » .

ولعل تفصيل «الهرثمى» وشرحه لنظام الكراديس ، ومطابقة ذلك للنظام البيزنطى ، يدلنا على أنه كان تكتيكاً شائعاً بين المسلمين فى القرن الثانى ، فقد ذكر أن كل كردوس كان ينظّم صفوفا ، بحيث يكون بين جناحى الميمنة والميسرة ، طريقان لمرور الخيل ، ولمرور أصحاب المبارزة ، فيكون بين الصفوف فرجة عند صاحب الميمنة ، وفرجة عند صاحب الميسرة ، وفرجة عند صاحب القلب[٥٨] .

ويمكن التوفيق بين هذه النصوص وإجماع المؤرخين السابق ، بأن المسلمين ظلوا يستخدمون نظام الصف ونظام الكراديس معا ، يفضل بعض القادة هذا ، ويفضل بعضهم ذاك ، إلى أن جاء « مروان بن محمد » فأبطل نظام الصف رسمياً وبصفة عامة ، وصار إلى الكراديس ، وهو النظام الذى كان شائعا فى زمنه .

ومع هذا ، وبعد أن عرف المسلمون فضل نظام الكراديس ، وتناسى كثير منهم نظام الصف وحمل النساء معه ، رأينا بعض القادة يلتزم الصفوف ولا يهملها ، فإبراهيم الإمام « كان فى حروبه يلتزم ذلك ، ويعدّ نظام الكراديس بدعة ، ويقول : «لا نصفّ إلا صف الإسلام» وكانت النهاية طبعاً هزيمته أمام نظام الكراديس[٥٩] .

---

(٥٦) الطبرى جـ ٤ ص ٣٣ والكامل جـ ٢ ص ١٧٢ .

(٥٧) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٣٠٥ وتاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٦٧ .

(٥٨) أنظر مخطوط الهرثمى ورقة ٢٠ والدكتور « أومان » ص ١٧٩ .

(٥٩) الكامل جـ ٥ ص ٣٢٩ وتاريخ التمدن جـ ١ ص ١٦٨ .

وكذلك كان قواد « الأمين » يرتبون قواتهم صفوفا ، بحيث تقف الكتائب بين كل منها والأخرى رمية قوس ، فأخفق نظامهم هذا أمام نظام الكراديس ، الذى كان يلتزمه «طاهر بن الحسين » قائد المأمون ، وبذا ساد هذا النظامُ فى الجيوش الإسلامية خلال القرن الثانى بوجه عام ، وإن كان نظام الصف ظلّ معمولا به قليلا .

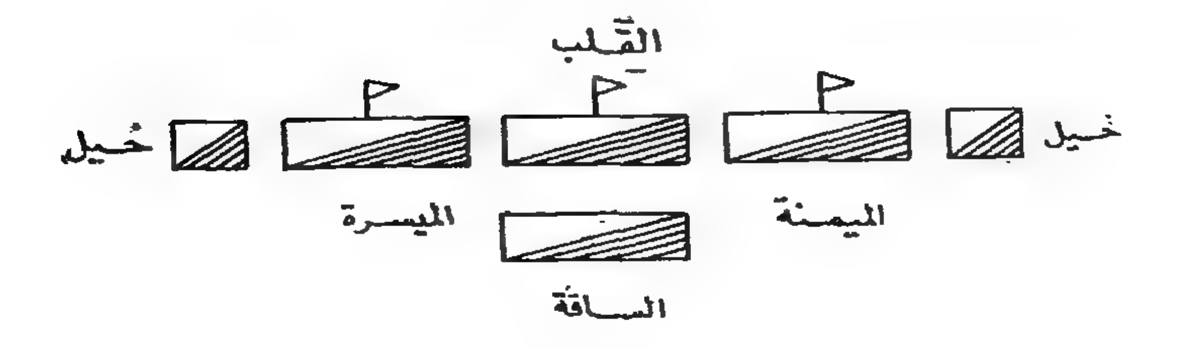
التشكيل العام للكتائب :

إنما تعرف مهارة القائد التكتيكية ، بحسن توزيعه لقواته فى الميدان ، واختيار نوع الصف المناسب لأرض المعركة ، وفى الحروب الحديثة يصفّ بعضُ القادة جيشه على شكل حرف (T) وبعضهم يصفه على شكل هلال (ب) وبعضهم يصفه على شكل رأس السهم (↑) وهى تشكيلات لا تعتبر فى الواقع حديثة ، فإن المسلمين استخدموها فى القرن الثانى الهجرى ، بدليل أن « الهرثمى » وهو من قواد ذلك القرن ، شرحها فى كتابه المخطوط[٦٠] ، فقسمها ثلاثة أنواع ، وسماها صفوفا .

١ — الصف المستوى

وهو الذى يكون فيه الجناحان والقلب فى خط مستقيم ، وهذا أوفقُ الصفوف وأنسبها للعرب ، ولم يذكر فيه قوات احتياطية خلفية ، كالتشكيل الحديث ، وإنما تقف فيه القوات بعضها بجانب بعض .

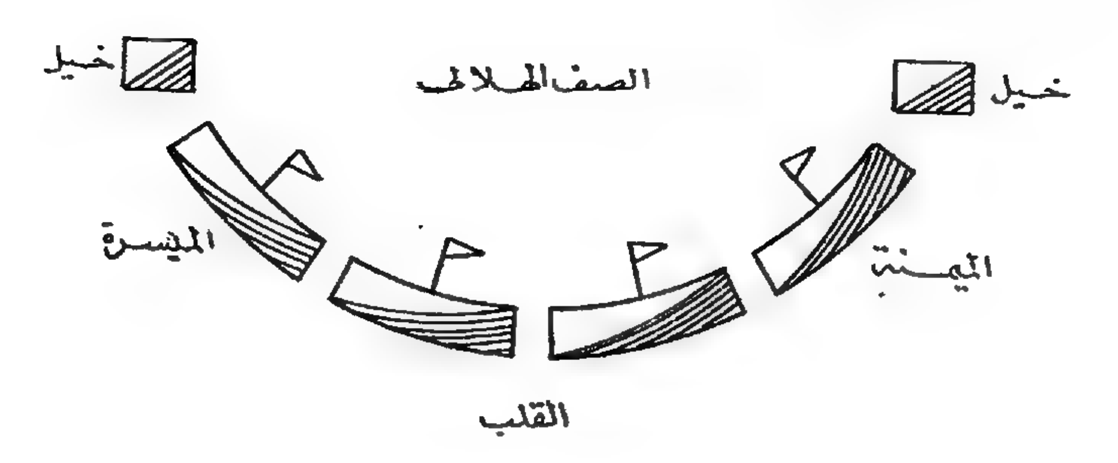
الصف المستوى



(٦٠) مختصر فى سياسة الحروب : الورقات ٢٠ — ٢٥.

٢ ـــ الصف الهلالى :

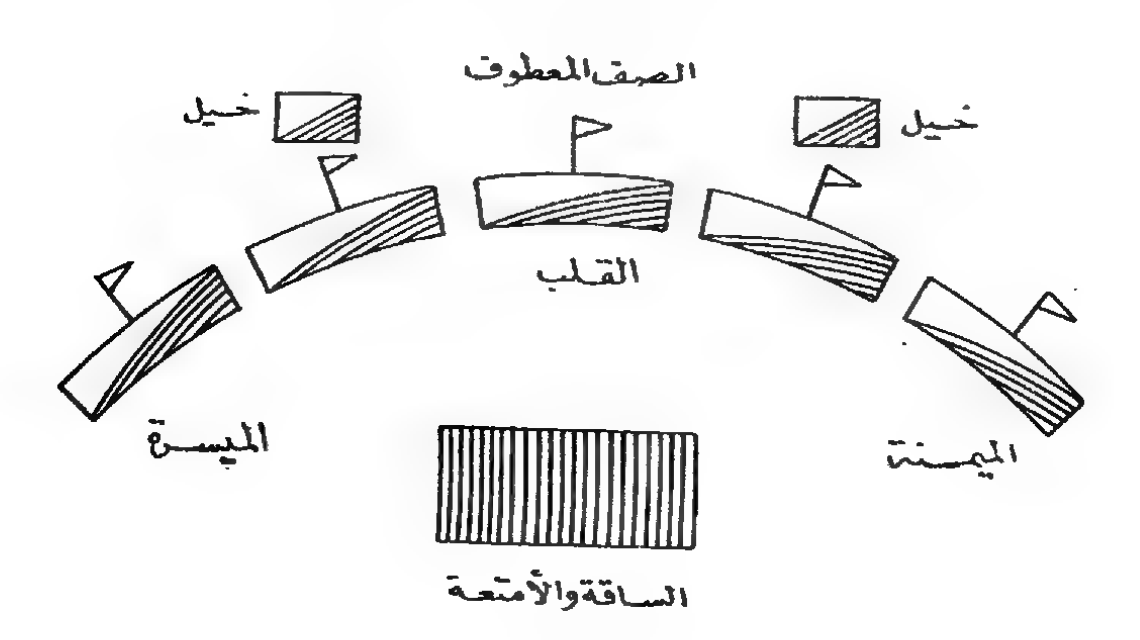
وهو الخارج الجناحين الداخل الصدر ، وهو أوثق للقلب وأضعف للجناحين ، ولذا كانوا يـُصيرون مع كل طرف من الجناحين الخارجين ، كردوسا من الخيل المقوية له ، تساعده وتحميه .



٣ ـــ الصف المعطوف :

وهو الداخل الجناحين الخارج القلب ، وهو أضعف للقلب وأقوى للجناحين (وهو رأس السهم الحديث) ولذا كان يكرهه العرب ، ولا يتخذونه إلا عن ضرورة ، وفى هذا النظام يجعلون أهل البأس والنجدة ، فى الميمنة والميسرة ؛ ليكون ذلك تقوية للقلب ، فإن لم يمكن ذلك ، عمدوا إلى تقوية القلب بكردوسين من الخيل ، بحيث يكونان أمامه قليلا ، يرُدان عنه أى هجوم .

وكان يخصَّص فى مؤخرة كل تشكيل من هذه التشكيلات ، مكان للأمتعة ، ومكان للصلاة ، عليها حراس أشداء فى العدة والسلاح ، وجماعة من الفرسان لافتراص غـِرّة العدو ، أو سدّ الخلل إن كان عند الجولة .



د ــ العمل عند اللقاء فى المعركة :

اعتاد المسلمون فى معاركهم ألا يبادروا بالهجوم ، عملا بنصح الرسول فى قوله « لا تمنَّوا لقاء العدو فعسى أن تُبتلَوا بهم » وكان الخلفاء يعاقبون من يتسرع فى الحرب ، فقد غضب « أبو بكر » على « شرَحبيل وعِكرمة » لتسرعهما فى حروب الردة ، كما غضب على « خالد بن سعيد » لتسرعه فى حرب الروم والشام وهزيمته بسبب هذا التسرع ، ووجه إليهم لوماً قاسيا ، ونهاهم عن القدوم عليه(٦١) لئلا يضعفوا روح الجند ، وكان « عمر بن الخطاب » يَحْرِم المتسرعين إلى القتال من الإمارة ، وكان يقول : « إن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكِّيث ، الذى يعرف الفرصة والكف(٦١) » فالمراد بالتريث هنا انتهاز الفرصة لا التوانى والغفلة .

فإذا اضطر القائد إلى القتال ولم يجدْ عنه مندوحة ، نظم قواته طبقا لحالتى الشمس والريح ، فلا يجعلهم يقاتلون والشمس فى عيونهم ، أو حين هبوب الريح فى وجوههم ، فإن استطاع أن يجعل موقعه بحيث تهبّ الريح من خلفه ، وإلا استدار منحرفاً بحيث تهب على جانبه(٦٣) .

وفى المستطاع تقديم وصف إجمالى للمعركة الإسلامية ، على ضوء ما يؤخذ من المصادر المختلفة وصفاً يبين كيفية الزحف ، وإلقاء الأوامر ، والعمل عند الهجوم والعمل فى حالتى النصر أو الفشل :

١ ــ إلقاء الأوامر المختلفة :

كان قائد المعركة يتخذ موقفه فى قلب الجيش ، فيقيم فى عريش أو خيمة على مرتفع من الأرض ، منه يلقى الأوامر ، ويراقب سير المعركة ، ويصلح الأخطاء التى يراها ، ولا يشترك فى القتال إلا عند الضرورة ، ولم يعرف قادةُ المسلمين الأسرّة يجلسون عليها ، إلا عن طريق « معاوية » الذى كان يتشبه بالفرس والروم ، حيث كان يصفّ حول سريره حراساً معقَّلين بالعمائم ، كما كان يصفهم كسرى مقرّنين بالسلاسل(٦٤) ، وكما كان يفعل رستم إذا جلس فى طيارته ، يحيط به الفرسان لحراسته .

---

(٦١) أنظر الكامل جـ ٢ ص ١٧٠ والصديق لهيكل ٢٦٥ .

(٦٢) الطبرى جـ ٤ ص ٥٧ والكامل جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٦٣) الكامل جـ ٤ ص ٢٠١ والهرثمى ورقة ٢٥ .

(٦٤) الكامل جـ ٥ ص ١٨٩ .

أما الأوامر فكان القائد يلقيها بصوته المرتفع ، إذا كان أصحابه يسمعون صوته ، وإلا أناب عنه من يبلغها لهم ، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصنع فى بدر وغيرها[٦٥] ، فلما كثرت جنود المسلمين ، صار القائد أو نائبه يلقى الأوامر فى صورة تكبيرات ثلاث ، بينها فترات زمنية متباعدة لإصلاح الشأن ، والاستعداد بالسلاح وغيره ، وعند التكبيرة الرابعة يكون الهجوم العام[٦٦] للجيش ، وساد العمل بالتكبير فترة من الزمن .

فلما كثرت الجيوش ، وصارت الأصوات لا تسمعها كلها ، اصطلح بعض القادة ، على أن يهزّ اللواء العام للجيش ثلاث هزات : فى الهزة الأولى يقضى الرجل حاجته ويتوضأ ، وبعد الثانية يعدّ الجندى سلاحه ويصلح من شأنه ، وبعد الثالثة يكون الهجوم العام[٦٧] ، والتقدم للعدو .

أما الأوامر الوقتية التى كان يصدرها القائد ، بتقدم طائفة أو تأخر طائفة ، أو إصلاح خطأ ، فكان القائد يلقيها إلى رسله ونوابه شفوية ، أو مكتوبة فى بعض الرقاع ، ليبلغوها إلى قواد الكتائب ، فكانت الرسل لا تفتر بينه وبينهم طول المعركة ، ومراقبته لهم لا تنتهى إلا بانتهائها[٦٨] .

٢ — بدء المعركة وإدارتها :

إذا ظهر العدو متقدما فى أرض المعركة ، أمر القائد المكبرين بالتكبير ، وأمر أصحاب الطبول بالضرب[٦٩] عليها ، ليعد كل إنسان نفسه ، ويأخذ مكانه من الصف[٧٠] ، فإذا تواقف الجيشان للقتال ، بدأت المبارزة كالعادة بين الأبطال من الجانبين ، تحميسا للقلوب وتشويقا للقتال ، فإذا زحف العدو أمهله رماة المسلمين ، حتى يكون فى متناول السهام ، ثم أمطروه وابلا من سهامهم ، وهم جاثون على ركبهم جماعات جماعات ، بحيث تخرج سهامهم مجتمعة ، كأنها صادرة

(٦٥) البخارى — شرح القسطلانى جـ ٧ ص ١٣٧ .
(٦٦) الطبرى جـ ٤ ص ص ٧٤ ، ١١٦ ، ٢٣٢ والكامل جـ ٢ ص ١٨٥ ، ٨٦ .
(٦٧) البلاذرى ص ٣٠٣ والطبرى جـ ٤ ص ١١٦ .
(٦٨) الطبرى جـ ٤ ص ١١٣ والكامل جـ ٥ ص ١٨٩ .
(٦٩) V. Kremer. p. 333.
(٧٠) مخطوط الهرثمى ورقة ٢٦ .

عن قوس واحدة[٧١] .

فإذا أكثبهم العدو وقرب منهم، أشرعوا رماحهم فى صدره ، بحيث تؤلف سوراً شائكا يمنع تقدمه ، وهنا تشتبك الرماح ، فيشرع الرجال الرماح فى صدرو الرجال ، وقد حصّنوا بالدروع الواقية ، ثم يعتلجون ويتدافعون فلا ، يزحزح أحدهم الآخر إلا إذا تغلب قوى على ضعيف ، أو ثقيل على خفيف ، أو تقصفت الرماح من شدة الضغط عليها ، ولقد روى شاهد عيان ، أن الرماح كانت لصلابتها ، تكوّن جسراً بين الصفين ، يحمل الخيل لو سارت عليه .

ثم عند صدور الأمر بالهجوم العام ، يصير الجند إلى التصافح بالسيوف يتعقبون بها الرءوس والأطراف والمفاصل ، فى حين ترفع أمامها الترس والدروع الحديدية فتسمع لوقع الحديد على الحديد صوتا كأنه صوت الحدادين[٧٢] ، فإذا دام الالتحام واختلط المتقاتلون ، طلب كل جندى أية وسيلة ، يتغلب بها على خصمه ، فقد يضربه بالدبوس أو البلطة ، وقد يطعنه بالخنجر ، وقد يصير بهما الأمر إلى المعانقة ، والضربات المعجزة ، حتى يصرع القوى الضعيف ، فيقتله أو يأسره[٧٣] .

وعمل الخيالة عند البدء فى المعركة ، يكون بالقتال والكر ، عن طريق المبارزة أو غيرها ، فإذا حمى الوطيس ، فوظيفتها حماية جانبى الجيش ، أو تهديد أجناب العدو ؛ لأن الخيل لا عمل لها مع الرجالة كما روى « ابن الأثير » [٧٤] ومن عملها أيضاً محاولة القيام بحركة التفاف حول العدو ، أو إحباط تلك الحركة من فرسانه إذا حاولوا القيام بها ، ومن عملها أيضا التقاط الفارين ، وتتبع المهزومين فى نهاية المعركة ، حيث تكون سرعة الخيل عاملا فعالا ، لا تقابل به سرعة الرجالة ، التى لا تسعف الفارين .

أما كتائب المشاة فى المعركة فهى بين كرّ وفرّ ، ومدّ وجزر ، يتقدم أحدهم فى ثبات ، سيفه فى يمينه وترسه فى شماله ، وقد كشر عن أنيابه وعض على نواجذه ، وقطب عن جبينه ، ونظر ببعض عينه ، وأخفى صوته إلا همهمة فى الصدر ، أو تلمظا

---

(٧١) شرح القسطلانى ج ٥ ص ٩٤ وعيون الأخبار ج ١ ص ١٠٧ .

(٧٢) الطبرى ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٧٣) نفس المرجع ص ٢١٠ ، ج ٤ ص ص ١٢٥ ، ٩١ ، كريمر ص ٣٣٠ .

(٧٤) الكامل ج ٥ ط ١ ص ٢٥٨ .

بالشفاه ، أو تهامساً بالحديث ، فكثرة الضّجة عندهم من أسباب الفشل[٧٥] ، ولأن الصمت يساعد على الضبط ودقة التنفيذ ، فإذا أُجبرت القوات على الرجوع ، أو أمرها به قائدها ، رجعت بانتظام بحيث تكون صدورُ الجند إلى العدو ، منحرفين بأجسامهم ، مختلسين النظر إلى الخلف ، حتى يعودوا إلى مواقفهم[٧٦] ، يشملهم الوقار والسكون ، ولا ترتفع أصواتهم بالتكبير إلا عند حدوث حدث جلل ، كهجمة عنيفة ، أو قتل قائد الأعداء ، أو فرارهم نهائياً ، أو فتح حصنهم ، حيث يكون للتكبير أثره في خلع القلوب ، وإضعاف روح المقاومة ، فلا يكون كأصوات الفرس الدائمة التي تفزع من يجهلها ، ولا تضير من تعوّدها[٧٧] ، لأنها لا غاية لها ، ولا هدف منها .

٣ ـــ خاتمة المعركة :

فإذا دنت المعركة من نهايتها ، زاد ثبات المسلمين ، واشتد ضغطهم على عدوهم متحلين بالصبر الطويل ، فإن انهزم أمامهم ، أسرعت فرقة (المجرّدة) بتعقب الفارّين بالرماح والسيوف ، وقد تخففت من الدروع وكل ما يثقلها ، وبقية الجيش يأخذ في جمع الغنائم والسبايا وتسليمها إلى صاحب الأقباض ، فإذا لجأ الأعداء إلى حصونهم ، فلا يشغلون أنفسهم بحصارها ، إلا بعد التقاط الخارجين عنها ، ليأمنوا جانبهم وقت الحصار[٧٨] وقد كانوا يجدون صيدا ثمينا عند المطاردة ، في المقرّنين بالسلاسل من الفرس أو الروم ، حيث يقتلون منهم ما شاءوا ، لأن الواحد منهم كان إذا هوى عند الفرار ، هوى بإخوانه المربوطين معه في سلسلته ، فقد جرت عادة الفرس والروم أن يربطوا رماتهم جماعات في سلاسل حتى لا يفروا ، وكان هذا النظام وبالا على الجيش وعليهم عند الهزيمة ، لأنهم كانوا يعوقون حركته وحركتهم[٧٩] .

(٧٥) عيون الإخبار جـ ١ ص ص ١٠٨ ، ١٠ والطبرى جـ ٤ ص ٧٣ ، جـ ٥ ص ٣٠٢ ، وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٠ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٣٠ .

(٧٦) مخطوط الهرثمى ص ٢٨ ، نهج البلاغة ط الحلبى جـ ٢ ص ١٦ .

(٧٧) الكامل جـ ٥ ص ٧٦ .

(٧٨) الطبرى جـ ٣ ص ١٣٣ ، جـ ٤ ص ص ٦٤ ، ٢٤٠ .

(٧٩) البلاذرى ص ص ٣٣ ، ٣٠٣ ، وتاريخ الطبرى جـ ٤ ص ص ٥ ، ٦ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ويبدو أن ذلك النظام كان يستعمل بكثرة عند الروم ، لضعف الوطنية فى جنودهم ، الذى كانوا يجلبون

أما إذا شعر المسلمون بِرُجحان كفة عدوهم ، لكمين من جنده فاجأهم ، أو لمفاجأتهم بسلاح جديد لم يألفوه كالفيلة يوم القادسية ، أو لخطأ حربىّ وقع منهم ، كما حدث فى معركة (الجسر) فإنهم كانوا فى تلك الحال يقدمون الفدائيين الانتحاريين منهم ، فيعقرون دوابهم ويترّجلون عنها ، ويكسرون أغماد سيوفهم حتى لا تُحدثهم نفوسهم بالعودة ، ثم يجثون على ركبهم[٨٠] ، وقد أشرعوا الأسنة فى نحور أعدائهم ، ليغطوا انسحاب إخوانهم ، حتى لا تكون هزيمتهم منكرة ، وكانوا يطلقون على هذه الجماعة « كتيبة الموت »[٨١] المعدة لعظائم الأمور ، كأنهم الفدائيون حديثا ، وقد فعلت هذه الجماعة الفدائية الأعاجيب فى معركة (الجسر) عند تغطية انسحاب المسلمين ، وفى عبور نهر دجلة بالخيل لفتح (المدائن) .

فإذا انسحب كل من الفريقين بانتهاء المعركة ، انصرف كل منهما ما أمكنه إلى نقل الجرحى ، ودفن الموتى ، وإحصاء المفقودين فى المعركة ، وقد ذكر « المسعودى » [٨٢] طريقة كانوا يتبعونها فى الإحصاء إذا كثر قتلاهم ، وهى أن يبحثوا عن القتلى ، ويغرسوا بجوار كل قتيل قصبة من القصب الفارسى (الغاب) ، ثم يجمعون القصب بعد ذلك ويعدّونه ، فإذا كان اسم القتيل مسطورا فى الديوان عرفوه ، وإلا لم يُعرف ضاع اسمه كغيره من المتطوعين ، الذين كثيراً ما كان يجهل الناس مصيرهم .

وهنا يصح التعرض إلى تهمة ، وجهها للعرب « الدكتور أومان »[٨٣] فإنه زعم : أن العربى إذا لم يلتحم فى قتال عادى ، فإنه يفعل كل ما يستطيع ليقىَ فرسه من الضرر ، وأنه لا يثبت لحظة واحدة ، إذا رأى حصانه — الذى يعتز به فوق كل شىء — يرمُى بالسهام من مسافة بعيدة ، وفى الحق أن العربى كان يعتز بفرسه ، وقد يزيد اعتزازه به إذا رأى الروم يرمونه بسهام مسمومة غادرة ، كما كانوا يفعلون فى

من مستعمرات مختلفة ، فهم لا يدافعون عن وطنهم الأصلى .

(٨٠) مخطوط الهرثمى ورقة ٣٠ .

(٨١) الطبرى ج ٣ ص ٦٧، ج ٤ ص ص ٦٨ ، ٦٩ والكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٨٤ والكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٨٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٤٦ .

(٨٣) Dr. Oman p. 214.

معاركهم ، وكما نقل المستشرق « كريمر »[٨٤] عن الإمبراطور الرومى (« ليو » ولكنهم كانوا عند الشدة يضحون بأرواحهم فضلا عن خيلهم ، التى كثيراً ما كانوا يقتلونها بسيوفهم—مع اعتزازهم بها ؛ لأنهم يعتزون بالجهاد أكثر منها ، راجين الفوز بالنصر أو الشهادة ، فكيف نقول بعد هذا إن حفاظهم على خيلهم ، كان يحملهم على الفرار من وجه عدوهم ؟

هـ — بعض الحيل لكسب المعركة :

إنما تظهر مهارة القائد الحربية بسرعة خاطرة ، وحسن تصرفه فى حل المشكلات ، وقد كان كثير من قادة المسلمين يصنع العجائب إذا اختلت صفوفه ، أو أراد أن يستعجل النصر ، ويصح أن نكتفى هنا ببعض الأمثلة الإسلامية ، حيث لا يتسع المجال للكثير منها : فمن ذلك موقف « خالد بن الوليد » فى معركتى « مؤتة وعقرُباء » ذلك الموقف الذى يشهد له بالبراعة الحربية ، والفن التكتيكى الناجح ، فإن المراجع تذكر أنه لما آلت إليه القيادة فى معركة «مؤتة» بعد أن قُتل ثلاثة قواد قبله ، ورأى قلة أصحابه أمام جموع الروم الزاخرة ، بنى خطته على الانسحاب المنظم ، فثبت بقواته أمامهم حتى المساء ، ثم بات يعدّل مواقف الجند ليلا ، فنقل الميمنة إلى الميسرة ، والميسرة إلى الميمنة ، وجعل الساقة فى موضع القلب ، والقلب فى موضع الساقة ؛ ليظن الروم من تغير الأشكال أن مدداً أتى المسلمين ليلا ، ثم إنه رصد جماعة خلف الجيش ، يجرون بخيلهم فى دائرة واسعة ، ويكثّرون الجلبة ويثيرون الغبار ، ليوهموا العدو بأنهم مدد قادم للمسلمين . ثم اندفع هو فى « فرقة الموت » إلى صفوف الروم ، بينما كان بقية المسلمين ينسحبون ، معتمدين على أنه يغطى انسحابهم ، فخاف الروم الكمين ولم يتعقبوه ، ونجا بأصحابه بفضل ذلك التكتيك الرائع[٨٥] الذى استحق به أن يعدّ منتصرا ، ولذا قال الرسول فيه وفى أصحابه لما اتهمهم الناس بالفرار : « ليسوا بالفُرّار ، ولكنهم الكُرّار ، وهذا القول يذكرنا

---

(٨٤) V. Kremer. p. 331.

(٨٥) العقاد عبقرية خالد ص ٨٤ ، وطه الهاشمى فى خالد ص٦٥ ، وهنا يصح أن يقارن بانسحاب خالد ، انسحاب المارشال « ناى » بالجيش الفرنسى فى أوائل القرن ١٩ أمام الجيش الروسى وبانسحاب الإنجليز أمام الألمان فى معركة « دنكرك » فى الحرب العالمية الثانية الذى يعدونه نصراً لهم .

بانسحاب القائد الألمانى « روميل » أمام قوات الحلفاء فى الحرب الثانية ، بشمال إفريقية ، فإنه كوفئ على انسحابه البارع ، ونجاته بقواته .

١ — الكمائن :

هذا وقد أتقن قادة المسلمين استخدام الكمين فى حروبهم ، وأول من أجاد استخدامه وعمم استعماله هو القائد العبقرى « خالد » وبخاصة فى معركة « الوَلجة » بالعراق[٨٢] ، وقد أجاد استخدامه أيضا « عمرو بن العاص » وبخاصة فى معركة « عين شمس » بمصر ، حيث خدع الروم بأن خبأ لهم كميناً فى جبل المقطم ، وخبأ كميناً آخر إلى يسارهم عند « أم دنَين » (الأزبكية الحالية) فلما حمى وطيس المعركة ، انقض كمين الجبل على ميمنة الروم ، فانحازوا يسارا ، فلقيهم كمين اليسار ، فحُصروا بين قوات العرب الثلاث ، فاختل نظامهم ، وحلت بهم الهزيمة[٨٣] .

وكان ممن يجيد الكمين أيضا «مروان بن محمد» الأموى ، وتبعه فى ذلك كثير من قادة المسلمين[٨٤] ، وكان لهم شروط فى جندى الكمين ودابته ، فهم يشترطون أن يكون بمنخفض من الأرض منيع ، وألا يكون بفرسه علة ، أو خلق يَستدل به العدوّ على مكان الكمين[٨٥] ، وهذا يدل على أنه كان من تكتيكات المسلمين المهمة ، التى كانوا يتبعونها فى حروبهم ، ويعتمدون كثيراً عليه .

٢ — الإيهام بالمدد :

وقد كان كثير من قادة المسلمين يخترعون الحيل ، لتقوية الروح المعنوية فى جندهم ، كإيهامهم بقدوم الأمداد لهم ، وهو أمر مرعىّ فى الحروب الحديثة ، ويكفينا هنا مثل إسلامى عن « القعقاع بن عمرو » فإنه كان على مقدمة « هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص » لما جاءه الأمر بعد اليرموك بالانتقال إلى العراق ، مددا للمسلمين هناك ، فلما دنا من العراق فى الألف الذين كانوا معه ، علم بأن معركة القادسية فى

---

(٨٢) الطبرى جـ ٤ ص ٨ والكامل جـ ٢ ص ١٦٢ .
(٨٣) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٨ ؛ وبتلر فى فتح العرب لمصر — تعريب أبو حديد ص ٢٠٤ .
(٨٤) الكامل جـ ٥ ص ص ١٣٩ ، ٣٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، جـ ٦ ص ٨٩ .
(٨٥) مخطوط الهرثمى ورقة ٣٥ .

ثانى أيامها، فلجأ إلى حيلة حربية تقوى روح المسلمين ، وتُضعف روح الفرس ، وذلك بأن قسم أصحابه أعشارا ، وسرّحهم أمامه ، فكان كلما بلغ عشرة مدّ البصر ، أرسل فى أثرهم عشرة أخرى ، وكلف كل جماعة منهم تصل إلى المعركة أن يكبروا ويحملوا على العدو ؛ ليعلم الفرس تتابع الإمداد فيضعفوا ، بينما يقوّى بذلك المسلمون ، ثم إنه لم يكتف بهذا ، بل بات طول ليلة اليوم الثالث ، يعيد أصحابه ليلا ، إلى المكان الذى قسّمهم فيه أمس ، وقال لهم : « إذا طلعت الشمس فأقبلوا علينا مئات ، كلما توارت عن الأنظار مئة تبعتها الأخرى ، فإن أدركنا « هاشم » برجاله فذاك ، وإلا جدّدتم للناس رجاء فى المدد ، فإن الرجاء يزيدهم إقداما فى الحرب ، وإيمانا بالفوز [٨٦] : وقد نفذت فكرته وجاءت بأبلغ النتائج .

وممن عرف بهذه الحيل فى العصر الأموى « المهلب بن أبى صفرة » لدرجة أن جنده كانوا إذا رأوه قادما ، قال بعضهم لبعض : « لقد غدا عليكم المهلب ليكذب لكم ، وذلك لما شهر به من تلك الحيل .

٣ — تضليل العدو :

يحدث أحياناً فى الحروب الحديثة ، أن يجمع القائد قوات كثيفة فى جبهة ما لينخدع بها عدوه ، فيظن أن الهجوم سيبدأ منها ، فيحشد قوات كبيرة تقابلها ، ويهمل نوعاً ما مواقعه الأخرى ، فيسرع هذا بالهجوم على تلك النقط الضعيفة فى سرعة خاطفة ، فيتم له النصر فى غفلة من عدوه ، وكذلك كان يصنع الألمان بكثرة فى الحرب العالمية الثانية ، وقد عمل بهذا التكتيك من قبلهم بقرون طويلة ، القائد الإسلامى « أبو مسلم الخراسانى » فى حروبه مع الأمويين ، فقد روى « ابن الأثير » أنه أمر قائده فى بعض معاركه — مع عبد الله بن على الخارج على المنصور — أن ينقل أكثر الميمنة إلى الميسرة ، تاركاً فى الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ، فلما رأى ذلك أهل الشام ، أعروا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم ، بإزاء ميسرة أبى مسلم ، فانتهز هو هذه الفرصة ، وحمل بالقلب ومن بقى معه فى ميمنته على ميسرتهم ،

---

(٨٦) الطبرى جـ ٤ ص ص ٢٠ ، ١٢٥ والكامل جـ ٢ ص ص ١١٩ ، ٢٠٤ وتاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٣٢٣ . ويقول المختصون إن الجنرال « ويفيل » طبق هذا التكتيك فى الحرب الأولى بفلسطين فنجح نجاحاً باهراً .

فهزمهم[٨٧] ، ونجح فى تضليلهم .

وكان يكثر استخدام القادة لهذا التكتيك ، فى حصار الحصون ، وقد طبقه الخليفة «هرون الرشيد» فكان يأمر البنائين بالبناء خارج الحصن؛ ليوهم من بداخله أنه مقيم دائما ، وأنه لن يبرح إلا إذا سلموا فيبادروا بالتسليم، وكان بعض القادة يطوف بالحصن مع بعض جنده ، فى كل يوم أو اثنين ، ويكثر الإشارة إلى بعض المواضع فى الحصن، ويتكلم بما يرغّب أهله فى التسليم، ويظهر لهم بعض ما يعمله الصناع من آلات الحصار[٨٨] وغيرها ، ليكون ذلك أسرع فى تسليمهم .

٤ — الاستطراد :

وهو أن يُظهر القائد الهزيمة أمام عدوه ليتبعه ، فيبعده عن حصونه، وتطول خطوط مواصلاته ، ثم يكرّ عليه مرة واحدة ، ويصدمه بكل قوته فيهزمه[٨٩] .

وكان قادة الروم قديماً يتبعون ذلك الأسلوب ، قبل المجازفة بالاشتباك الحربى ، كما قرر « نورمان بينز » الذى يقول عنهم : « فالهرب المصطنع والمباغتات ، والهجمات الليلية والكمائن ، والمفاوضات التى لا يُقصد بها إلا كسب الوقت ، كل هذه وغيرها كانت وسائل مقبولة فى الحرب عندهم، وكان الجندى الذى يعتمد على القوة ، حيث كان الدهاء كافياً لكسب النصر ، لا يعتبر إلا مغفلا[٩٠] » .

ولم يكن المسلمون فى القرن الأول ، بأقل شأناً من الروم فى ذلك الأسلوب ، بل إنه كان عندهم مبدأ حربيا معمولا به، فقد استخدمه بعض قادة المسلمين ، فى الربع الأول من ذلك القرن، كما يروى « الطبرى وابن الأثير والواقدى » فقد ذكروا أن « النعمان بن مقرّن » حارب الفرس فى وقعة « نهاوَند » ٢١ هـ — ٦٤٢ م فاعتصموا منه فى خنادقهم، وطال مُقامه عليهم ، لأنهم كانوا لا يخرجون إلا إذا سنحت لهم الفرصة ، فلما أراد أن يستعجل النصر لئلا يطول مُقامه فى برد الشتاء ،

---

(٨٧) الكامل حوادث سنة ١٣٧ هـ جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٨٨) مخطوط الهرثمى ورقة ٤٣ .

(٨٩) بهذا التكتيك قهرت « روسيا » نابليون قديماً والألمان فى الحرب العالمية الثانية .

(٩٠) الإمبراطورية البيزنطية — تعريب حسين مؤنس ويوسف زايد ص ١٧٩ .

جمع قواده فى مجلس حربى وناقشهم ، فكان فيما قال لهم : « إنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم[٩١] » . وبعد التداول أمر « القعقاعَ بن عمرو » قائدَ الفرقة الخفيفة الفدائية (المجرّدة) أن يُنشب القتال معهم ، ثم يظهر الفرار أمامهم ، ليطمعهم فيه ويُخرجهم من خنادقهم ، ففعل ما أمر به وخرج الفرس وراءه من خنادقهم وقد قرنوا كل سبعة فى قران ، فلما انقطعوا عن حصونهم ، أمر النعمان جنده بالثبات وأن يلزموا الأرض ، ويستتروا من الرمى بالتروس ، ولا يقاتلوهم حتى يأمرهم . فلما كان وقت الزوال ، وقف على الرايات يحرضهم ، ثم أمرهم بالهجوم العام ، فحملوا عليهم مرة واحدة ، ودار القتال عنيفًا حتى أبادوهم ، وتبالغ بعض روايات الطبرى ، حيث تذكر أن الفرس كانوا يومها مئة ألف وزيادة ، قتلوا جميعا .

والذى يدل على أن الاستطراد كان معروفًا لديهم ، قول النعمان لقوداه « إنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم » كما يدل على ذلك أيضا أن « عمرو بن العاص » استخدمه فى حصار حصن « بابليون فى مصر » فقد ذكر الدكتور « بتلر[٩٢] » أن خطته فى الحصار ، بنيت على أنه يجعل الروم يخرجون إليه ، فيقاتلونه فى السهل ، وهم بعيدون عن الحصن ، وذلك طبعًا لا يكون إلا بالاستدراج ، والتظاهر بالهزيمة ، ومناوشتهم بالرمى ومداومة القتال .

ويقوى هذا المعنى أن «الهرثمى» نصح لقواد المسلمين بأن العدو إذا استطردلهم فلا ينخدعوا ويحملوا عليه ، بل ينتظروا حتى يسكن الوهج ويثبت لهم[٩٣] .

مما تقدم يتضّح أن المسلمين لم يكونوا دون غيرهم فى تكيكاتهم الحربية ، وأنهم كانوا يخترعون الحيلة ، يرفعون بها روح جندهم ، ويحطمون بها روح عدوهم ، بإظهار كثرة عددهم ونحو ذلك ، فكما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر من إشعال النيران ليلا لهذا الغرض ، فى فتح مكة وغيره ، كان كثير من قادة المسلمين يفعلون ذلك أيضا ، وقد أكثر من استخدام تلك الطريقة « طاهرُ بن الحسين » أثناء حربه مع قواد « الأمين » فإنه كان يجمع الفلاحين ، وأهل القرى

---

(٩١) انظر التفصيل فى الطبرى جـ ٤ ص ٢٤١ والكامل جـ ٥ ص ١٢٩ وفتوح الشام جـ ٢ ص ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٩٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٢ .

(٩٣) مختصر فى سياسة الحروب ورقة ٣٠ .

من المدنيين ، فيضعهم على المرتفعات ، وقد نشروا أعلامهم ، وأوقدوا بالليل نيرانهم ، ليكثروا فى عين عدوهم[٩٤] .

بل لقد كانت الحيلة الحربية ، تدعو القائد أحياناً إلى القيام بأعمال تشبه المعجزات ، فقد روى «أبو المحاسن»[٩٥] أن القائد «أسد بن خالد القسرى» غزا جبال الطالقان فى أوائل القرن الثانى ، وكان أهلها قد خرجوا بأموالهم ، إلى منخفض يحيط به جبل شامخ ، ليس إليه طريق مسلوك ، فأعمل القائد حيلته ، فأحضر بعض صنادين الخشب ، ووضع بها الجند ، ثم ربطها بسلاسل قوية ، ودلاها عليهم من فوقهم ، فظفر بهم وعاد سالما غانما .

وهذه الرواية على ما يبدو عليها من مسحة قصصية ، تقفنا على ما عرف به المسلمون من افتنان فى الأساليب الحربية ، وطرق أبواب الحيل لاستعجال النصر والفوز .

و ــ الشارة والشعار فى المعارك :

عرفنا أن الجيش الإسلامى كان يُبنى على الأساس القبلى ، وكان لهذه القبائل شعار تتميز به ، ويتعارف به أفرادها : والشعار قسمان : شعار فعلى وهو الشارات للفرد والجماعة ، وشعار قولى وهو ألفاظ خاصة كانوا يتصايحون بها عند القتال ، ويتعارفون بها فى المعارك ، وتقوم مقام (كلمة السر) فى الجيوش الحديثة[٩٦] ، التى بها يعرف الجندى أخاه .

يروى «ابن هشام»[٩٧] أن شعار المهاجرين كان «يا بنى عبد الرحمن» وشعار الخروج «يا بنى عبد الله» وشعار الأوس «يا بنى عبيد الله» وروى «الطبرى»[٩٨] أن شعار خالد وأصحابه يوم (عقرُباء) كان «يا محمداه» وذكر «الإدريسى»[٩٩] أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شعاره «يا كل خير،

---

(٩٤) الحسن فى آثار الأول ص ١٩٧ .

(٩٥) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٦١ .

(٩٦) كلمة السر اصطلاح يضعه قائد الجيش ليليا ليكون رمز التخاطب بين قواته ، ويبلغه لهم فى حينه .

(٩٧) سيرته جـ ٤ ص ٥١ .

(٩٨) تاريخه جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(٩٩) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٢٧ .

كما كان نداؤه « يا خيل الله اركبى » وكان نداؤه للمتأخرين «« يا أصحاب سورة البقرة » وروى «الواقدى»[١٠٠] أن شعار أبى عبيدة يوم اليرموك كان كلمة «أمت أمت » كما ذكر شعاراً آخر لعبس وشعاراً لليمن ، وشعارا لحمير والدارم وغيرها من القبائل المختلفة .

وهكذا كان لقبائل المسلمين صيحات خاصة ، يتنادون بها ويتعارفون فى الظلام ، وعند الاختلاط ، بحيث تكون عندهم معروفة[١٠١] ، وعند غيرهم مجهولة بالإضافة إلى شعارهم العام وهو التكبير ، الذى كان شعار كل مسلم .

هذا وقد عرف المسلمون الشارات فى أول حروبهم ، فقد كان شعارهم يوم بدر (الصوف الأبيض) يعلقونه فى نواصى الخيل وأذنابها ، وذكر « ابن هشام »[١٠٢] أن بنى سُليم» كانوا يُعرفون بأنهم إذا خرجوا للقتال وضعوا رماحهم بين آذان خيلهم ، وأن الأوس والخزرج كانوا يعرضونها على خيلهم ، أغفالا من العلامات ، وهذه العبارة الأخيرة تفيد أن ــ التسويم بالعلامات كان معروفا لديهم ، وأن بعضهم كان يعتبر ترك العلامة علامة .

ويؤيد هذا المعنى أن وفد « بنى سليم » لما جاءوا لعرض إسلامهم على الرسول ، اشترطوا عليه أن يجعل لواءهم أحمر ، وأن يجعل شعارهم مقدما ، فأجابهم إلى طلبهم[١٠٣] . .

أما الشارات فقد كانت كذلك تميز القبائل بعضها عن بعض ، كما كانت تميز الفرق الإسلامية المختلفة ، روى « ابن الأثير »[١٠٤] أن الشيعة كانوا يتميزون بالعمائم الخضراء ، ومثلهم أتباع « عبيد الله بن عمر » الذين كان يسميهم (المخضرة) كما اختار الخوارج اللون الأحمر فى أعلامهم ، واختار الأمويون اللون الأبيض والعباسيون اللون الأسود .

---

(١٠٠) فتوح الشام جـ ١ ص ١٣١ .

(١٠١) انظر مخطوط الهرثمى ورقة ٣٦ .

(١٠٢) سيرته جـ ٤ ص ص ٩٨ ، ٩٩ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٨٧ .

(١٠٣) طبقات ابن سعد بنقل الإدريسى فى التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٢٣ .

(١٠٤) الكامل جـ ٥ ص ١٣١ ، جـ ٦ ص ص ١٢٠ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ومروج الذهب جـ ٢ ص ٣٩٠ أما الأعلام والرايات وألوانها فقد سبق الحديث عنها . انظرها من ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ص ٦٥ من هذا الكتاب .

ولم تكن الشارات قاصرة على القبائل أو الفرق الإسلامية فحسب ، ولكن كان بعض الأفراد يجعل لنفسه شارة يعرف بها ، على خلاف عادة الجاهليين ، من الاختفاء بالقناع ، حتى لا يعرف أحد مكانهم ، وكان اللون الذى يغلب على شارة الأفراد هو اللون الأحمر ، الذى يشير للدماء ويهيج النفوس للقتال ، فقد عُرف « الزبير بن العوام » بأنه كان يلبس عمامة حمراء أو صفراء ، ويحمل رمحه على عاتقه[١٠٥] ، وقد اتخذ العمامة الحمراء شعارا له فى الحرب كثيرٌ من الأبطال مثل « خالد بن الوليد وأبى دُجانة والفضل بن العباس »[١٠٦] وغيرهم .

وكان بعض الفرسان يجعل شاراته فى طريقة لفِّ العمامة أو غيرها ، فقد عرف « مُصعب بن الزبير » بأنه كان يعتمّ (العقْداء)[١٠٧] أى يعقد عمامته فى قفاه ، كما كان يعرف البطل « حمزة بن عبد المطلب » بريشة نعام حمراء ، كان يغرزها فى صدره دائما[١٠٨] ، وقد كان « عبد الله بن جبير والنعمان بن مقرّن » يعْلمان نفسهما ببياض ثيابهما[١٠٩] ، ويروى « ابن الأثير » أن بعض الفرسان قال يوما لقَباء عليه أبيض : « ما أحسن حمرة الدماء على بياضك » فأصيب بجراح صيرته إلى ما يُحب وهى الشهادة[١١٠] .

والخلاصة أنه كان للقبائل والفرق الإسلامية شارات مميزة ، وصيحات خاصة يتعارفون بها ، أما التكبير فكان المسلم يجهر به عند فتح الحصون ، أو ظهور بارقة النصر ، فإذا صاح بثلاث تكبيرات متواليات ، فمعنى ذلك هجوم ليلى من الأعداء[١١١] ، وتقابلها فى هذه الأيام (نوبة كبْسة) وهذه الشارات بطبيعة الحال ، لم تكن دقيقة شاملة لكل فرقة ، كما كانت الحال فى جيش الروم ، وكما هى الحال فى جيشنا الحديث ، ولكنها على أى الحالات كانت شارات مميزة ، يتعارفون بها فى غالب أمرهم عند الاختلاط ، كما أنه لم يكن لكل فرقة شارة خاصة ، أو لون مميز لها ، ومن الجائز أن يكون ذلك قد حدث فيما بعد ، كما هو حاصل فى الجيوش الحديثة .

---

(١٠٥) نفس المرجع جـ ٢ ص ١٧ والبيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ٩٩ .
(١٠٦) الطبرى جـ ٣ ص ص ١٦ ، ٢٤٣ والكامل جـ ٢ ص ٦٣ .
(١٠٧) الجاحظ فى البيان جـ ٣ ص ٧١ .
(١٠٨) نفس المرجع ص ٧٠ .
(١٠٩) الأغانى جـ ١٤ ص ١٤ . ١٣٣ الكامل جـ ٣ ص ٥٥ .
(١١٠) الكامل جـ ٣ ص ٥٥ .
(١١١) مخطوط الهرثمى ورقة ٣٧ .

الخاتمة

ويصح قبل الفراغ من هذا البحث ، بيان بعض العادات الحربية ، التى كان يُفضلها المسلمون :

فمنها أنهم كانوا لا يسارعون بالهجوم على عدوهم ، فإذا بدأهم هو اندفعوا إليه بكل قوتهم صابرين ، فإذا أفلحوا فى اندفاعهم ، وإلا تراجعوا قليلا ، لإعادة تنظيمهم واستئناف القتال . ومنها أنهم كانوا يفضلون القتال فى الصباح الباكر ، أو فى آخر النهار حيث يعتدل الجو ، وهى عادة تقضى بها طبيعة بلادهم الحارة : وتمسكهم بعادة رسولهم عليه السلام ، الذى كان لا يغزو حتى يُصبح ، فإن فاته أول النهار ، انتظر حتى تحضر صلاة العصر ، وتهب الأرواح ويطيب القتال (١١٢) .

ومنها أنهم كانوا يتجنبون القتال ليلا ، ويقولون إذا دخل الليل « جاءكم المدد » فإذا نزلوا فيه بأرض الأعداء ، أمضَوا ليلهم فى موقع حصين إلى أن يطلع الفجر (١١٣) ، وذلك بأن يستديروا ، بحيث تتصل الميمنة بالميسرة ، فى شكل دائرة تحيط بالنساء والأثقال ، وتحيط الخنادق والحراس بالدائرة (١١٤) ، بينما يسمر الجند فى تناقل الأشعار والقصص حتى يناموا ، وما كانوا يقاتلون ليلا إلا إذا أجبروا على ذلك ، كأن يستمر الأعداء فى قتالهم ، كما حدث (ليلة الهرير) بالقادسية ، وكما حدث كثيرا فى قتال الخوارج (١١٥) ، كما كانوا يُجبرون عليه إذا بيتهم عدوهم أو عملوا هم على بياته ليلا ، لإنهاء المعركة بسرعة . وكثيراً ما صنع خالد ذلك .

ومنها أنه كان لهم فى أول القتال جولة ، ثم يصبرون بعدها ويضمون صفوفهم ، ويثبتون فى شجاعة نادرة ، كانت تستدعى إعجاب أعدائهم ، والنصر فى النهاية للصابرين ، كما كانوا يرددون فى نصائحهم .

وفى النهاية لا يسع المرءَ إلا الإعجابُ بهذه التكتيكات الإسلامية ، التى لا تبعد كثيراً عن التكتيكات الحديثة ، والتى حققت لهم النصر فى فتوحهم المختلفة ، فأثبتت بذلك صلاحيتها ونجاحها ، وسلامة الأسس التى بُنيت عليها ، ولو كانت نظم أعدائها أدق منها ، ما انهارت أمامها بتلك السرعة المدهشة النادرة .

---

(١١٢) انظر البخارى شرح القسطلانى جـ ٥ ص ص ١١٥ ، ٢٢ وتاريخ الطبرى جـ ٤ ص ص ٢٣٢ ، ٣٥ ، ٤١ ومروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(١١٣) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٧٧ وفون كريمر ص ٣٣٠ .

(١١٤) مخطوط الهرثمى ورقة ٢٥ . (١١٥) الكامل جـ ٤ ص ص ٦٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ .

القسم الثالث

الحروب البحرية فى الإسلام

هذا الموضوع يستحق أن يكون لتفرعه بحثاً مستقلا بذاته ، وقد وُضعت فيه الرسائل العلمية فعليا ، وألفت فيه الكتب ، التى تذكر تطورات الأسطول الإسلامى وأعداد سفنه وما يتعلق بها ، فى تفصيل يروى الأوام .

ولما كان الغرض هنا توضيح معالم الفن الحربى فيها ، ولما كان ذلك الفن لا يختلف كثيراً عن الحروب البرية ، كان من المناسب — إتماما للفائدة — ذكر كلمة موجزة ، عن البحرية الإسلامية ، بعد التمهيد بكلمة عن تاريخها فى الفترة التى تتعرض لها الرسالة .

١ — نشأة البحرية الإسلامية وتطورها :

لم يعرف المسلمون ركوب البحر إلا قليلا ، أيام كانوا يتقلبون فيه للتجارة على سفن الروم ، التى كانت تمر ببلادهم فى الجاهلية ، ثم تكرر ركوبهم البحر فى زمن الرسول ، أيام أنْ هاجروا على ظهره من الحجاز إلى الحبشة مرتين ، هاربين بدينهم الجديد من عسف قريش وتعنتهم .

أما الغزو فى البحر فلم يحدث فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت بعض الآثار تذكر أنه تنبأ للمسلمين بركوبه ، ولم يحدث كذلك زمن صاحبيه من بعده أبى بكر وعمر ؛ لأن العرب بدو بطبعهم يهابون البحار ، ويفضلون سفينة الصحراء على سفينة الماء ، ولذا كان « عمر بن الخطاب » ينهى قواده عن ركوب البحر ، ويعده حصناً طبيعياً بينه وبين أعدائه ، ولم يخالف نهيه هذا إلا رجلان ، لقيا منه العقاب على مخالفتهما بركوب البحر للقتال .

أما أحدهما فهو « العلاء بن الحضرمى »[١] الذى كان يحارب المرتدين بالبحرين ، ثم بقى بها مجاهدا ، فلما تقدم عليه فى فتح فارس منافسه « سعد ابن أبى وقاص » أراد أن يصنع فى الجهاد صنعه ، وأنسته المنافسة وثقته بالنصر نهى الخليفة السابق ،

(١) يسميه الأستاذ نعمان ثابت « أبو العلاء الحضرمى » فى كتابه الجندية . . . ص ١٦٧ ؟ ؟

فندب أهل ولايته (البحرين) وعبر بهم خليج العرب لقتال الفرس[٢] فما كان منهم إلا أن أحاطوا به بعد عبوره، وحالوا بينه وبين سفنه وحصروه، فلما علم الخليفة بالحصار الذى ضُرب حوله ، أسرع لنجدة المسلمين ، الذين كان أحدهم أحبَّ إليه من ١٠٠,٠٠٠ دينار[٣]، فأرسل إليه والىَ العراق سريعاً، فأنقذه من مركزه الحرج ، ثم عاقبه الخليفة على مخالفته تلك، بأن عزله من الولاية وتوعده ، وأمره بأثقل الأشياء عليه ، وهو أن يتوجه إلى منافسه سعد ليعمل تحت قيادته ، وكان يطمع أن يكون مقدَّما عليه[٤] ، ولكن تسرعه قعد به عن ملاحقته .

وثانى الرجلين كما يروى « ابن خلدون »[٥] هو القائد « عرفجة بن هرثمة » سيد قبيلة بجيلة ، فإن الفاروق أغزاه بلاد عُمان ، فبلغه أنه ركب البحر ، فأنكر عليه ذلك وعنَّفه .

وروى لنا (الكامل)[٦] أن المسلمين ركبوا البحر فى عام الرمادة (١٨ هـ — ٦٣٩ م) حيث أصيب أهل المدينة بمجاعة ، فاستنجد الخليفة بوالى مصر « عمرو ابن العاص » فقام بإصلاح خليج أمير المؤمنين ، وكان يرسل فيه الطعام من مصر إلى المدينة وداوم ذلك حتى كان سعره بالبلدين واحدا .

هذه هى المرات الثلاث التى ركب فيها المسلمون البحر زمن « عمر » وقد طلب منه « معاوية » أيام ولايته له على الشام ، أن يأذن له فى الغزو بحرا ، ليرد هجمات البيزنطيين ، التى كانت تتوالى على السواحل الشامية ، فنهاه الخليفة نهياً مشددا ، وأنذره بعقاب أشد من عقاب سابقيه من المخالفين ، وكان مما قال له : « تا لله ، لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوت الروم ، فإياك أن تعرض لى وقد تقدمتُ إليك ، وقد علمتَ ما لقىَ العلاءُ منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك[٧] » .

أمام هذا النهى الحازم ، لزم « معاوية » جانب الصمت ، فلما آلت الخلافة

---

(٢) الإدريسى فى التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٧٠ .
(٣) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٣٢ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ص ٢١٢ ، ١٣ ، والكامل ج ٢ ص ص ٢٢٧ ، ٢٨ .
(٥) المقدمة ط المهدى ص ٢١١ .
(٦) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٣٥ .
(٧) الطبرى ج ٥ ص ٥٢ ، والدكتور بتلر ص ٤٠٧ .

إلى قريبه الأموى « عثمان بن عفان » أعاد الإلحاح عليه، وظل يزين له اقتناء السفن، ويبينُ شدة الحاجة إليها ، حتى أذن له فى استخدامها ، ولكنه اشترط عليه أن يجعل الغزو فى البحر اختياريا، فمن اختار ركوبه حمله وأعانه، فبنى « معاوية » السفن بأيدى صناع من الروم فى الغالب، وصار يردُّ بها على الأسطول البيزنطى، فغزا جزيرة قبرص (٢٨ هـ — ٦٤٩ م) فصالحه أهلها على جزية قدرها ٧,٢٠٠ دينار كل عام ، وكانت هذه أول غزوة بحرية للمسلمين ، وكان نصرهم فيها مشجعاً لهم على متابعة الغزو بحرا[٨] فى غيرها .

وهنا يذكر « نعمان ثابت » رواية، تبدو عليها مسحة المبالغة، ومؤداها أن جزيرة قبرص منذ ذلك الحين ، أصبحت قاعدة المسلمين فى البحر الأبيض ، تموّن أساطيلهم (كذا) وتبلّغ إليهم أخبار عدوهم ، إلى أن نقض أهلها عهدهم مع المسلمين، بأن أعاروا الروم بعض سفنهم (٣٢هـ — ٦٥٣ م)فأعاد «معاوية» غزوها فى ٥٠٠مركب، وفتحها عنوة؛ وبذا سيطر على البحر سيطرة كاملة[٩]. وفى هذا نظر، فإن معاوية فى ذلك الوقت ، لم يكن قد بنى بعدُ أسطوله ، فضلا عن الأساطيل الضخمة ، كما تذكر الرواية .

ولكن الأمر الذى يجعلنا نقبل دلالة مثل هذه الرواية ، ما رواه المؤرخون من انتصار الأسطولين الشامى بقيادة « معاوية » والمصرى بقيادة « عبد الله بن سعد » على الأسطول البيزنطى بقيادة « قسطنطين بن هرقل » فى المعركة المشهوره » ذات الصوارى » (٣٤ هـ — ٦٥٥ م) التى كانت ضربة قاضية للأسطول البيزنطى[١٠] فى البحر المتوسط ، وإنهاءً لسيادته فيه .

ومما يزيد هذه الروايات قوة ، أن العلامة « نورمان بينز » ذكر تاريخ الأسطول البيزنطى، فبين أنه كان قويًّا أيام الإمبراطور(جستنيان) لدرجة أنه كان يعتبر البحر المتوسط بحيرة رومية (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ثم بين أن الأسطول اعتراه الضعف فى عهود الأباطرة الذين خلفوا جستنيان ، وأن غزوات المسلمين البحرية للسواحل

---

(٨) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٧٤ .

(٩) الجندية ... ص ١٦٩ .

(١٠) انظر الطبرى جـ ٥ ص ص ٦٩ ، ٧٠ والتراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٧١ وحتى تعريب نافع مجلد ١ ص ٢٥٠ .

البيزنطية ، كانت من أسباب اهتمام الروم بإعادة تقوية أسطولهم ، وهو يقول فى هذا المعنى : « ولم تبدأ روما فى بناء أسطولها ثانية ، إلا حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية واضطرت روما بسبب السياسة العدوانية التى انتهجها « معاوية » إلى الشروع فى بناء الأسطول ، بكل ما لديها من جدّ وعزيمة[١١] » .

وعلى هذا فليس من الغريب جدا ، ما نقله بعضهم عن « خِطط الشام » من أن البحر المتوسط كان أمام المسلمين كاليابسة ، وأن أسطول « معاوية المؤلف من ١٧٠٠ سفينة ، وأسطول مصر الذى كان يقاربه فى العدد[١٢] صارا يؤلفان أسطولا ضخما ، يجوس خلال ذلك البحر فى صوائفه وشواتيه المعروفة ، التى كانت تقلق بال الروم ، وتُقض مضاجع أهل الجزر الواقعة فيه .

ويساعد هذا ما رواه «أبو المحاسن» [١٣] من أن الأسطول الإسلامى كان يضيِّق الخناق على الأسطول البيزنطى ، لاستيلاء المسلمين على المراكز البحرية المهمة ، وهى جزر « قبرص ، وصقلية ، ورودوس ، وكريت » التى منها تحرك الأسطول الإسلامى لغزو « القسطنطينية » فى حرب السنوات السبع (٥٣ — ٦٠ هـ ٦٧٤—٦٨٠ م) ولم ينسحب من مياه البسفور وبحر إيجه ، إلا بعد موت الخليفة « معاوية »[١٤] (٦٠ هـ — ٦٨٠ م) .

بعد معاوية ظل الأسطول الإسلامى فى نموّ مطرد ، وظلت صوائفه وشواتيه تُقلق الروم فى كل عام ، وتهدد سواحلهم كما يهددون سواحل المسلمين ، ثم عاد لمحاصرة عاصمتهم أيام « سليمان ابن عبد الملك» متعاونا مع الجيوش البرية ، بقيادة أخيه « مسلمة » الذى فك الحصار عنها بأمر الخليفة « عمر بن عبد العزيز »[١٥] الذى كان يفضِّل السلام ويرى الخير فيه .

وقد يكون من المفهوم أن انتشار سلطان المسلمين ، كان عاملا على التقرب إليهم ، من أصحاب الحرف الصناعية ، فى الأمم المغلوبة ، ومن الطبيعى أن يستغلّ

(١١) الإمبراطورية البيزنطية تعريب مؤنس وزايد ص ١٨٤ .
(١٢) خطط الشام بنقل ثابت فى الجندية ص ١٦٧ .
(١٣) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٤٤ .
(١٤) نورمان بينز ص ١٨٤ ، وحتى تعريب نافع مجلد ١ ص ص ٢٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .
(١٥) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٠٠ ، وحتى السابق .

المسلمون أصحابَ الصناعة البحرية فى بناء السفن ، وبخاصة عمالَ الروم الذين كانوا خبراء فيه؛ فهذا « حسان بن النعمان» عامل إفريقية من قِبل « عبد الملك » يبنى بتونس دارا لصناعة السفن ، والآلات البحرية[١٦] ، وقد صنع صنعَه أيضاً بتونس « موسى بن نصير » فبنى بها داراً لصناعة السفن[١٧] ، ثم اهتم حكام الأقاليم الإسلامية بالسفن ، اهتمام هذين القائدين ، حتى شمخت أساطيل المسلمين ، ولم يعد للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم ، على حد تعبير « ابن خلدون »[١٨] المعروف بتعصبه على العرب .

هذا ، ولقد كان النمو السريع للأسطول الإسلامى ، من أسباب سيادته فى البحر المتوسط زمناً طويلا ، كما قرر العلامة « جوستاف لوبون »[١٩] فى قوله عنه: وظل يغزو شواطئه وجزره ، فى نشاط دائم ، وما كان يفتُر إلا أيام الفتن ، والحروب الداخلية ، حيث يشتغل الخلفاء بحماية سلطانه[٢٠] .

والذى يفهم من كلام « نورمان بينز » أن نشاط الأسطول أيام العباسيين ، كان أقل منه أيام الأمويين ، فهو يقول : « وقد لا يظهر خطر هذه السياسة (أى السياسة البحرية) فى القرن الثامن؛ لأن الخليفة فى بغداد، لم يواصل النشاط البحرى الذى كان لخلفاء دمشق[٢١] » . ولكن هذا الهدوءَ النسبى لم يمنع الأسطول العباسى ، من حمل الجيوش عبر البحر المتوسط ، لتأديب ناقضى العهود فى جزره ، فقد نقضت « صقلية » عهدها (١٣٢ هـ ؛ ٧٥٠ م) فسار لتأديبها « عبد الله بن حبيب » وظفر منها بما لم يظفر به أحد قبله[٢٢] ، وفى عهد « الرشيد » نقض أهل قبرص عهدهم ، فغزاهم عامله على سواحل مصر والشام « معتوق بن يحيى » — فأدبهم وغنم منهم ، وسبى[٢٣] سبياً كثيراً ، ومن قبل الرشيد سيَّر « المهدى » جيشا

(١٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١١ .
(١٧) نعمان ثابت ص ١٧٠ ولم يشر إلى مرجعه .
(١٨) المقدمة ص ٢١٢ ونعمان ثابت ص ١٦٨ .
(١٩) حضارة العرب — تعريب زعيتر ص ٢٩٥ .
(٢٠) ابن الأثير فى الكامل جـ ٥ ص ص ٥٦ ، ٥٧ ، ١٩٥ .
(٢١) الإمبراطورية البيزنطية ص ١٨٥ .
(٢٢) ابن الأثير فى الكامل حوادث سنة ١٣٢ هـ جـ ٥ .
(٢٣) أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ١٨ .

فى البحر إلى بلاد الهند ، كما روى « ابن الأثير » فى جمع كثير من الجنود والمتطوعة[٢٤] ، غازيا فى سبيل الله .

من هذا العرض السريع نفهم ، أن الأسطول الإسلامى ، انتزع من الأسطول البيزنطى معاقله فى البحر المتوسط ، وأنه كانت تُبنى الدور لصناعة سفنه وصيانتها ، وأنه كان من القوة بحيث جعل الذين كانوا يسمون جنده قراصنة ، يعترفون بقوته ونشاطه ، ويقررون أنه « اضطر البابا أن يلتجئ إلى « شارلمان » ليحمى قورسقه من العرب[٢٥] » كما قرروا أن المسلمين كانوا يقومون إلى جانب الحملات البحرية بحملات برية عليهم ، وأنه « لم يكن لدى أمرائهم — على ما يظهر — قوى كافية ، للقيام بهجوم بحرى وبرى على بلادهم[٢٦] » كما كان المسلمون يفعلون بهم .

ب — المعركة البحرية وسلاحها :

لا يكاد المرء يجد كبير فرق ، بين معارك المسلمين البرية ومعاركهم البحرية ، لأنهم أمة صحراوية الأصل ، يعيشون فى بحر زاخر من الرمال ، سفينتهم المفضلة فيه الجمال ، ويحسبون فيه حساب الرياح والعواصف والأنواء ، وقد أتقنوا فى رحبات صحرائهم طريقة الكر والفر ، والمبارزة بالرماح من فوق صهوات الجياد ؛ ولذا كانوا يحوّلون كثيراً من معاركهم البحرية إلى معارك برية ، بأن يقرنوا سفنهم بسفن الأعداء كما سنرى ، ويجعلوا من ظهورها ميدانا للتراشق بالسهام ، والتطاعن بالرماح ، والتصافح بالسيوف .

وقد كانت الحروب البحرية عند المسلمين أشقّ وأصعب ، لأن حاجتها للفن الحربى أكثر ، وذلك لأمور أجملها « الحسن بن عبد الله[٢٧] » فيما يلى : —

١ — أن المجال فى البحر ضيق ، ولا تكاد السهام أو الحجارة تخطئ ، وكل رشق فيه ينكئ ويصيب .

---

(٢٤) الكامل جـ ٦ ص ص ١٧ ، ١٤٧ .
(٢٥) نورمان بينز ص ١٨٥ .
(٢٦) نفس المرجع ص ١٨٦ .
(٢٧) آثار الأول ص ص ٢١٥ ، ١٦ .

٢ — قد تنقلب الرياح بما لا يهوَى القائد ، فتغلبه على امره ، وقد تسكن عند حاجته إليها ، فيكون الضرر والإحراج، على خلاف البر الذى يكون القائد فيه حرّ الحركة .

٣ — أن القائد لا يمكنه فى البحر الهرب أو الفرار، والا الاستتار بالحصون والأسوار، إن اقتضت المصلحة ذلك .

٤ — لا يستطيع القائد البحرى استخدام الأسلحة الثقيلة بكثرة ؛ لأن المنجنيق والعرّادة ثقيلة الحمل على السفن ، وهى فوق ذلك تحتاج أعداداً كثيرة من الجند لإدارتها ، فيزيد عدد السفن بزيادة الجند .

ولهذه الاعتبارات المتقدمة ، كان يُشترط فى أمراء البحار ، أن يكون أحدهم عارفاً بمسالك البحر ومذاهبه ، وعلامات الرياح وتغيرات الأنواء ، ملما بالحركات البحرية من المدّ والجزر وغيرها ، كما يجب عليه أن يكون خبيراً بالسفن ليختار الجيد منها ، ويكثّر تقويتها ، ويدّخر فيها آلاتها ، حتى إذا تلف شيء منها وجد ما يخلفه ، كما يجتهد فى تغييرها ، وإحكام ما يلاقى الماء منها ، فإنه الأصل الذى يعوّل عليه فى البحر[٢٨] ، وإلا كانت سفنه عرضة للغرق .

وقد لا يكون فى هذه الحقائق مبالغة ، إذا علمنا أن أمراء البحار البيزنطيين المعاصرين للمسلمين ، كانوا كما قرر « نورمان بيتز » يدرسون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر ، وخصائص الرياح والمد والجزر ، وكانوا يهتمون بالخطط والحركات البحرية ، وفن الاستطلاع والإشارات، اهتماماً يعادل اهتمام زملائهم المحاربين فى البر[٢٩] .

١ — إدارة المعركة :

لا تكاد المراجع التاريخية تذكر تفصيلات للمعارك البحرية وإن أوفى تفصيل لها على إجماله ، هو ما ذكره « الطبرى وابن الأثير »[٣٠] عن وصف المعركة

---

(٢٨) المرجع نفسه .

(٢٩) الإمبراطورية البيزنطية ص ١٩١ .

(٣٠) انظر تاريخ الطبرى جـ ٥ ض ص ٦٩ ، ٧٠ والكامل جـ ٣ ص ٥٧ .

المشهورة « ذات الصوارى » ٣١ هـ – ٦٥٣ م ، وهى المعركة البحرية الحاسمة ، التى انتزع بها الأسطول الإسلامى السيادة من الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ، كما وردت تفصيلات أخرى فى كتاب « آثار الأول » الذى أشار فيه صاحبه ، إلى مؤلفات للأوائل فى هذا الفن ، ولكنه للأسف لم يذكر أسماءها ولا أسماء مؤلفيها ، ولعل الزمن عفّى عليها فيما عفى ، ولم أوفّق فى الحصول عليها ، وأرجو أن يدلنا عليها بعض الباحثين إن وجدها .

والذى يفهم من الوصف الذى ذكره هؤلاء المؤلفون ، أن كل قائد فى الأسطولين المتحاربين ، كان يقوم بالاستطلاع البحرى ، فيرقب فى البحر حركات صاحبه ، ويحدد مكانه أولا ، ثم يدنو منه بحذر ، متحيّنا هدوء الريح ، ليصرّف سفنه حسب خطته ، ويجتهد ألا تهب الريح عليه فتوقع الخلل فى سفنه ؛ ليتمكن من تدبير ما يجرى منها بالريح ، وما يجرى بالمجاديف ، وينسق العمل بينهما[٣١] ، فإذا دنت السفن من السفن ، حاول المسلمون بقدر المستطاع أن يحوّلوا المعركة إلى معركة برية ، وقد ظهر قصدهم هذا واضحا فى أول معاركهم « ذات الصوارى » فإنهم خيروا الروم بين البحر والبر ، فاختار الروم البحر ، ولا مجال هنا للتخيير ، ما دامت سفن الفريقين فوق صفحة الماء ، ولذا رأيناهم لما اختار الروم البحر ، يُدنون سفنهم من سفن الروم ، ويربطونها بها بالقوة ويصلون بينها بالألواح ، ثم يتقاتلون على ظهورها ، كقتالهم على البر بالسيوف والخناجر وغيرها ، وحسبنا أن نقرأ ما كتبه « الطبرى »[٣٢] فى وصف المعركة ، بالرواية عن شاهد عيان ففيه غناء : « قال بعض من حضر المعركة : التقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت ٥٠٠ مركب ، وكانت الريح علينا ، فأرسينا ساعة وأرسوا قريبا منها[٣٣] وسكنت الريح علينا . . . فقلنا ، إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ، وإن شئتم فالبحر ، فاختاروا البحر ، فدنونا فربطنا السفن بعضها إلى بعض ، حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على

---

(٣١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٢١٢ .
(٣٢) تاريخه السابق .
(٣٣) فى الكامل جـ ٣ ص ٥٧ أنهم باتوا أمام أعدائهم ليلة .

سفنهم وسفننا ، وتقاتلنا أشدّ القتال ، ووثبت الرجال على الرجال ، يضطربون بالسيوف على السفن ، ويتواجئون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطوحت الأمواج جثث الرجال رُكاما ، وتم النصر فيها للمسلمين » .

فهذا الوصف على ما قد يكون فيه من مبالغة ، تَظهر في تحوّل مياه البحر إلى دماء ، يوضح لنا ميل المسلمين إلى مزاولة الحروب البرية التي يجيدونها ؛ ولذا رأيناهم فيما بعد يزوّدون سفنهم بكلاليب أو (باسليقات) وهي سلاسل من الحديد ، في رءوسها كرات حديدية أيضا ، يرمونها على سفينة العدو ، ثم يجذبونها إليهم بقوة الرجال ، ليتصل الجنود بالجنود ، ويتقاتلون على ظهرها بالطريقة السابقة(٣٤) .

٢ ــ أسلحتها :

أما سلاح المعارك البحرية ، فمعظمه من السلاح الخفيف ، ولم يُستخدم المنجنيق فيها إلا بعد أن ضخمت حجوم السفن ، وزادت أعدادها ، فكانت تخصص له مركب لحمله وحمل حجارته ، وحمل الجنود الذين يعملون عليه ثم ، يقوم برمي مراكب العدو بالحجارة ، والقوارير المملوءة بالنفط(٣٥) ، أو الجرار المملوءة بالجير الحيّ المدقوق ، الذي يُعميهم إذا أصاب عيونهم ، ويلتهب عليهم في هواء البحر المشبَّع بالبخار(٣٦) ، كما كان يرمي القدور المملوءة بالصابون ، التي كانت تجعل أقدامهم تزلَق فوق خشب السفن ، فلا يستطيعون القتال ، ويكونون عرضة لسلاح المسلمين(٣٧) .

هذا ولم يحدد صاحب (آثار الأول) التاريخ الذي استُخدم فيه المنجنيق بحرا ، ولكن المفهوم من تطبيق الحروب البرية في البحر ، يفيد أنه استخدم في أواسط الدولة الأموية ، حيث زاد الحجاج في حجوم آلات القتال ، واهتم بها وبينائها ، كما صنع كثير من الخلفاء الأمويين فيما بعد .

ومن الأسلحة البحرية الفتاكة ، التي ذكرها صاحب (آثار الأول) سلاح

---

(٣٤) آثار الأول ص ٢١٦ .

(٣٥) كأنها زجاجات مولوتوف المستعملة في الجيوش الحديثة .

(٣٦) وهذه تشبه قنابل الغازات المسيلة للدموع وغيرها .

(٣٧) انظر « الحسن بن عبد الله » في آثار الأول ص ص ٢١٥ ، ١٦ .

يسمى « اللجام أو الفأس » وهو عبارة عن كتلة طويلة من الحديد مدببة المقدم كسنان الرمح ، يحملها الجند فى سفينتهم ، ثم يدفعونها على سفينة العدو ، لتصدمها به فى مقدمها فتخرقها لتغرقها ، أو يحمله الرجال بينهم ، وينطحونها به نطحة قوية كما هو الحال فى استعمال رأس الكبش — المستعملة فى حصار الحصون فيخرقونها ويتسرب الماء إلى جوفها ، فتغرق ويطلب الأمان من بها[٣٨] .

وإن الشبه التام بين هذا السلاح ورأس الكبش ، الذى كان يستخدم فى حصار الحصون وخرق الأسوار ، يجعل المرء يميل إلى أن كلاً من السلاحين ، ظهرا على مسرح التاريخ معا ، أو أن اللجام تأخر قليلا عنهما ، فإن الراوى لم يحدد تاريخ ظهوره أو استعماله .

٣ — طرق الوقاية منها :

مما لا جدال فيه أن كل محارب ، يعمل جاهدا على حماية نفسه من طعنات عدوه ، وقد سبق أن عرفنا الآلات ، التى تقاوَم بها السهام والرماح والسيوف ، ولكن السلاح الذى يخشى خطره فى البحر هو النفط (زيت البترول) ؛ وذلك لسرعة اشتعاله فى القار الذى كانت تطلى به السفن؛ ومن ثم كان المحاربون يجتهدون فى دفعه بوسائل عدة : إما أن يعلقوا حول سفنهم اللبود المبللة بالخل والماء ، فلاتشتعل النار فيها ، وإما بأن يبللوها بالخل الممزوج بالشبّ والنطرون ، وإما بأن يطلوا سفنهم بالطين المعجون بالنطرون[٣٩] .

كما كانوا يقاومون (الكلاّب) إذا رُمى إلى سفنهم ، بفأس حادة من الفولاذ ، يضربون بها سلسلته فتقطعها ، فلا يستطيع الأعداء الوصول إليهم[٤٠] ، وهذا يحدث طبعاً إذا علموا ضعفهم أمام عدوهم ، وفضلوا الترامى عن بعد بالسهام والحجارة ، وإلا فإنهم يحاولون جذبهم إليهم .

ومن عجيب أمرهم أنهم عرفوا وسائل التمويه والإخفاء Camoflage التى

---

(٣٨) نفس المرجع ص ٢١٦ .

(٣٩) انظر الحسن بن عبد الله فى آثار الأول ص ٢٣٦ .

(٤٠) نفس المرجع ص ٢٣٦ .

تستخدمها الجيوش الحديثة ، فى طلاء السيارات ومواقع المدافع بلون يوافق لون أرض المعركة ، حتى تخفى على الأعداء رؤيتها ، فكان القائد البحرى إذا اشتد به الخوف ، لجأ إلى الاختفاء، بأن يصنع لسفنه قلوعا زرقاء توافق لون الماء، كيلا يظهر من بعد[٤١] ، فيتم له مبدأ (المباغتة) .

وبعد فهذه كلمة عابرة ، عن الفن الحربى فى الحروب البحرية ، ذكرتها فى هذا الفصل إتماماً للفائدة ، ولبيان أن المسلمين كانوا يعتمدون على القوة البحرية ، اعتمادهم على القوة البرية ، ولا أدرى أى السلاحين كان عندهم مفضلا ؟ فإن النصوص لا تسعف بهذا ، ولكن الذى يفهم من كلام « نورمان بينز » عن الروم ، أن الخدمة البحرية عندهم ، كانت أقل امتيازاً من الخدمة البرية ،وكان الجندى البرى عندهم يتقدم البحار دائما ، ويغلب على الظن أن الأمر كان بالعكس عند المسلمين ؛ لمشقة الحروب البحرية بالنسبة لهم ؛ ولأنهم كانوا لا يجندون فى الأسطول ، إلا من يختار الخدمة فيه ،فى الوقت الذى كانوا يجندون فيه الجندىَّ البرى على وجه الإلزام .

---

(٤١) نفس المرجع ص ٢١٦ .

الفصل السادس

غنائم الجند ورواتبهم

تمهيد — الجهاد والعامل المادى :

شُرِع الجهاد أصلا لإعلاء كلمة الله ، ونشر مبدأ التوحيد فى العالمين ، وقد كان بعض المسلمين يطالِب به أيام قلّتهم ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرهم بكف أيديهم ، فلما كتبه الله عليهم لقدرتهم عليه ، سارعوا إلى بذل النفس والمال فى سبيله ، ينفِق سراتهم من أموالهم ، ويجود فقراؤهم بدمائهم ، فلما شغلهم أمر الجهاد عن أمور دنياهم ، أباح الله لهم المغانم التى ينالونها من أعدائهم ، ليقوّوا بها على الجهاد ، وليُضمّ إلى ثوابهم الأخروىّ الآجل ، ثوابهم الدنيوى العاجل ، روى « البخارى » مرفوعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما من غازية تغزو فى سبيل الله فيصيبون الغنيمة ، إلا تعجلوا ثلثى أجرهم ، ويبقى لهم الثلث ، فإن لم يصيبوا غنيمة تمّ لهم أجرهم[1] » .

إذن فالجهاد فى الإسلام واجب شرعى ، مقدم على الغنائم والمكاسب ، وهذا هو ما عناه الرسول ، عندما سأله سائل عن عمل يعدل الجهاد فقال له : « لا أجده »[2] وإنما أبيحت المغانم ، لإعداد السلاح والخيل للعدو ، والتقوية بها على حربه ، يوضح هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثل الذين يغزون من أمتى ، ويأخذون ما يتقوّون به على عدوهم ، كمثل أم موسى ؛ ترضع ولدها وتأخذ أجرها[3] » . ولا شك أن الإرضاع واجب طبيعى ، فيكون الأجر منحة زائدة عن أصل الواجب .

ولا يصح لمنصف أن يُغفل إغراء العامل المادى فى جهاد المسلمين ؛ فما كانوا جميعا فى درجة واحدة من الإيمان واليسار ، حقاً إن بعضهم كان يبغى الجهاد رغبة فى الثواب الأخروى فقط ، غير ناظر إلى عرَض الدنيا ، ولكن منهم من كان يبغى

---

(١) إرشاد السارى جـ ٥ ص ٣٣ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن قتيبة فى عيون الأخبار جـ ١ ص ١٣٤ .

ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، وهؤلاء هم الذين عجب « ابن مسعود » لأمرهم، لمّا رأى تسابقهم للغنائم يوم أحد ، ذلك التسابق الذى كان سببا فى كسرتهم فإنه قال : « ما شعرتُ أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها ، حتى كان يومئذ[٤] » . والقرآن نفسه ينطق بهذا المعنى ، فى قوله تعالى من سورة آل عمران : « وعصيتم ، من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة » .

بل لقد كان فيهم ضعيف الإيمان ، الذى يجعل المال همّه الأول ، فلا يخرج للغزو إلا إذا أخذ أجره مقدّما ، غير ناظر إلى ثواب الآخرة ، يروى « ابن رشيد » أن الصحابىّ « عبد الرحمن ابن عوف » كلفه الرسول بالخروج فى بعض السرايا ، فطلب بعض فقراء المدينة للخروج معه ، فاعتذر له بأمر عياله وحاجتهم ، فأعطاه ثلاثة دنانير لقاء الخروج معه ، فلما عادوا من غزوهم سأله نصيبه من المغنم ، فاستفتى « عبد الرحمن » الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر الرجل، فأفتاه بقوله : « تلك الثلاثة دنانير ، حظُّه ونصيبه من غزوه ، فى أمر دنياه وآخرته[٥] » .

مما تقدم نعلم أن الأجر المادى للمحارب ، كان ممثلا فى الغنائم ، وسلَب القتلى الذين يقتلهم ، عملا بقول الرسول : « من قتل قتيلا فله سلبه » ، وظلت الحال كذلك إلى أن وضع « عمر » الديوان، وحدّد الأرزاق والأعطيات للناس بوجه عام، وللجند بوجه خاص إلى جانب مغانمهم ، ثم وُضعت بعد ذلك للجند المرتبات الشهرية، زمن الدولتين الأموية والعباسية، على زيادة فيها ونقص منها ،حسب الحالة الاقتصادية ، كما سيفصّل فى هذا البحث ، ولكن الذى يعنينا الآن ، معرفة مصادر المال للجندى قبل وضع الديوان .

توزيع الغنائم بين الجنود والدولة

لم يكن لتوزيع الغنيمة قبل « بدر » قاعدة ثابتة ، فقد وزّعت غنائمها بالتساوى بين الجند، بعد أن تنازعوها ،والرسول نفسُه أخذ كواحد منهم ،وكذلك أخذ الثمانية

(٤) أبو الفرج فى الأغانى ط الساسى ج ١٤ ص ١٥ . وسورة آل عمران آية ١٥٢ .
(٥) ابن رشد فى بداية المجتهد ج ١ ص ٣١٣ .

الذين تخلفوا عن المعركة[٦] بإذنه، ولا يصح أن يكون قاعدة إسلامية رأىُ « عبد الله بن جحش » الذى غنم مالا قبل بدر فى بعض سراياه فقال لأصحابه: « إن لرسول الله خمسَ ما غنمتم[٧] » قبل أن يفرض الخمس، فقد يكون ذلك موافَقة من رأيه للتشريع، الذى نزل به القرآن، لبيان أمر المغانم التى تنازع الصحابة فيها، فقد حدّد القرآن نصيبَ الدولة التى يمثلها الرسول، ونصيب المقاتلين فى قوله تعالى: « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن الله خمسَه وللرسول، ولذى القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل[٨] » . فالآية نصت على أن الخمس حق الدولة، ولم تنص على الباقى .

ولكن سكوتها عن الأخماس الأربعة الباقية، دليل على أنها من حظّ المقاتلين، كما أن تفصيل الجواب، هنا يعد إجمالا لما ذُكر فى أول السورة « يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول » . وهو يفيد بأن الأنفال هى المغانم، وأن الاختلاف فى الأسماء فقط .

ومن هنا نرى أن الإسلام وضع لتقسيم الغنائم قواعد ثابتة سيأتى تفصيلها، ونفذها حكامه بدقة فائقة، فى الوقت الذى كان الروم يجهلون فيه تلك القواعد، كما صرح بذلك الدكتور « فون كريمر[٩] » عند مقارنته بين النظامين، العربى والرومى .

ا ـ حظ الدولة من الغنيمة :

كان نصيب الدولة الممثّلة فى الرسول أو خلفائه، يكاد ينحصر فى نوعين يتصرف فيهما الحاكم كما يشاء، وهما: خمس الغنيمة والفىء .

١ ـ أما الخمس فقد بينتْ آية الأنفال توزيعه، وجرى العمل بذلك التوزيع أيام الرسول، فكانت الغنائم تجمع ثم تقسم خمسة أقسام: للجند أربعة منها، ثم يقسم الخمس الباقى خمسة أقسام أيضا كما فى الآية: (١ـ الله والرسول. ٢ ـ ولذى القربى

---

(٦) البخارى شرح القسطلانى جـ ٥ ص ١٨٩، وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٢ .

(٧) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٤٦ .

(٨) سورة الأنفال : آية ٤١ .

(٩) The Gient. p. 332.

٣ ـ واليتامى ٤ ـ والمساكين ٥ ـ وابن السبيل) وروى « أبو يوسف » أن العمل جرى بذلك فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[١٠]، وبعضهم قال بتقسيمه (الخُمس) أربعة أقسام، باعتبار اليتامى والمساكين قسما واحدا، وبعضهم عدّ هذين مع ابن السبيل قسما واحدا ، وقصره بعضهم فى حال الغنى على اليتامى والمساكين وابن السبيل[١١]، ومن هنا نعلم أن حظ الدولة من الغنيمة ، هو خمس الخمس أو ربعه حسب الخلاف المتقدم فى تقسيمه ، وهو قدْر متواضع جدا ، إذا قيس إلى مرباع الجاهلية الذى كان يأخذه القائد، ومع هذا كان الخمس يُنفق فى حاجات المسلمين ، بعد اكتفاء الرسول بالضرورى منه لمعاشه وأهل بيته، يفسر ذلك لنا قوله عليه السلام عندما طالبه أصحابه بأن يُقسم غنائم حنين. « والله ليس لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس (لشعرة بعير كانت فى يده) والخمس مردود عليكم[١٢]» . أى ينفَق فى مصالحكم العامة .

٢ ـ وأما الفئ : فهو ما يقع فى أيدى المسلمين بلا قتال أثناء طريقهم للغزو ، ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب ، كما بينت الآية السادسة من سورة الحشر[١٣] ، وهذا حق للدولة ليس للجند فيه نصيب ، يرصده الرسول لإغاثة الملهوفين، ومساعدة الفقراء والمحتاجين ، بعد أن يحجز منه نفقة أهله سنة ، روى كثير من المؤرخين وأصحاب السير . أن أموال « بنى النضير » التى جلوْا عنها، كانت فيئا خالصا للرسول فكان يبيع نخلها، فيعزل منه نفقة أهله سنة، ثم يجعل ما بقى فى شراء الخيل والسلاح عُدّة فى سبيل الله[١٤]، وجاء كذلك فى المصادر الموثوق بها ، أنه مما كان خالصا للرسول، ، ثلاثة حصون من « خيبر » وقرية « فَدَك » التى قاسم اليهود على ثمارها لقاء زراعتها ، لعدم توافر الزُّراع عنده ، ولاشتغال أصحابه بالجهاد ، وكذلك كانت

---

(١٠) الخراج ص ١١ .

(١١) نفس المرجع .

(١٢) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٣٦ .

(١٣) قال تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » . وقد عرفه «الماوردى » فى الأحكام السلطانية ص ١٢ بقوله : « مال الفئ ما أخذ عفواً ، ومال الغنيمة ما أخذ قهراً » .

(١٤) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٤١ والطبرى جـ ٣ ص ١٦٣ والإدريسى .

أموال « بنى قينُقاع » فيئاً خالصاً له عليه السلام[١٥] ، يضعه حيث يشاء ، ولكن « الحلبي »[١٦] يروى أن الرسول خمسها كالغنيمة تماما ، لأن آية الحشر التى نزلت فى « بنى النضير » لم تكن قد نزلت بعد ، وهذا هو الأقرب للمعقول ، ويظهر أن الذى عدّها فى الفىء ، نظر إلى أن قاعدته تنطبق عليها ؛ لأن المسلمين لم يقاتلوا فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أعداؤهم من الرعب الذى ألقىَ الله فى قلوبهم[١٧] ، ولم يعتبر الحصار ومتاعبه قتالا ، وهل الحصار إلا قتال شديد ؟

ويظهر أن اختصاص الرسول بالفىء ، كان مقصورا عليه خاصة دون خلفائه ، لأنه لم يكن يتقاضى من بيت المال مرتباً مثلهم ، ولأن حكمته فى التصرف كانت فوق حكمتهم ؛ ولذا رأيناه يعمَد إلى أموال « بنى النضير » التى جعلها الله له ، فيقسمها على إخوانه المهاجرين ، الذى ضحّوا فى سبيله بأموالهم وأرواحهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا من اشتكى منهم فقرا « كأبى دُجانة » مثلا ، وإن كان قد استرضى نفوسَهم أولا بقوله لهم : « إن إخوانكم المهاجرين ليست لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال ، التى أفاء الله علىّ مع أموالكم بينكم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة ، فقالوا : بل اقسم هذه فيهم ، واقسم لهم من أموالنا ما شئت[١٨] » . وكان قد سئل فى تخميسها من قبل فقال : « لا أخمّس شيئاً جعله الله لى دون المؤمنين ، وذلك عملا بآية الحشر السابقة .

وبهذه المناسبة يصح التنبيه ، إلى أن الفىء بهذا المعنى السابق ، من تحديد المفسرين والمؤرخين ، وإن كان يستعمل أحيانا فى معناه الأعم ، فيشمل كل ما يكسبه المسلمون من عدوهم ، ما عدا الأرَضين ، يروى صاحب « الخراج »[١٩] أن « عمر بن الخطاب » كتب إلى قائده سعد : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجْلب الناس عليك به إلى العسكر ، ومن كُراع أو مال ، فقسمه بين

---

(١٥) انظر الكامل جـ ٢ ص ٩٣ ، وإرشاد السارى جـ ٥ ص ٢٢٨ وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٢٠ .

(١٦) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(١٧) تفسير « ابن كثير » ط ١٣٥٦ هـ - ١٩١٧ ص ٣٣٥ .

(١٨) الطبرى جـ ٣ ص ٩٣ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ص ٢٨٢ ، ٨٣ .

من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار بعمالها ، ليكون ذلك فى أعطياتُ المسلمين » . ولعله قد لوحظ فى اسم الفىء معنى الرجوع للمسلمين ، أو التفيؤ بنعمة الإسلام ، كما ذكر الدكتور « الريس » فى كتابه عن الخراج[١٩] .

بل إن الفىء عند « أبى يوسف » يشمل خراج الأرض أيضاً ، حسب المفهوم من قوله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل[٢٠] » ولأن هذا التوزيع نفسَه ، هو توزيع خمس الغنائم ، الذى فُصّل فى سورة الأنفال « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى[٢١] » الآية ، مما يشعر بأن الفىء أعم من الغنيمة ، وأوسع منها مفهوما .

وقد سميت المغانم أيضا بالأنفال ، وبها سميت سورتها ، ولكنا نعرف أن النفَل فى اللغة الزيادة فى كل شىء ، والنفل الزائد عن الفرض ، ويقال : نفَّله القائد كذا ، أى أعطاه مالا زائداً على سهمه لإجادته القتال ، ومن هنا يصح أن نفهم أن الله سماها الأنفال فى السورة ، للإشارة إلى أنها زائدة عما فُرض الجهاد لأجله ، من إفساح الطريق لكلمة التوحيد ، فلا ينبغى أن يتنازع فيها المجاهدون ، ويصح أن نستأنس هنا بما نقله « ابن رشد » من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعث سرية إلى نجد فغنموا إبلا كثيرة ، فكانت سهمانُهم اثنى عشر بعيرا ، ثم نفِّلوا بعيرا بعيرا[٢٢] ، أى أخذ كل منهم بعيرا زيادة على سهمه من الغنيمة .

هذا وتشير بعض المصادر ، إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يصطفى لنفسه بعض أشياء من الغنيمة ، فيذكر « ابن سعد »[٢٣] أنه اصطفى من غنائم بدر سيفَه المسمى « ذا الفقار » وجملا كان لأبى جهل ، ويذكر صاحب « تاريخ الخميس »[٢٤] وغيره ، أنه اصطفى من غنائم خيبر السيدة « صفيةَ بنت حُيى » فلما

---

(١٩) أبو يوسف ص ص ١٣ ، ١٤ .

(٢٠) سورة الحشر : آية ٧ .

(٢١) الأنفال : ٤١ .

(١٩) التاريخ المالى للدولة الإسلامية ص ١١١ ط مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ وفيه بحث قيم عن الغنيمة والفىء والخراج والجزية .

(٢٢) بداية المجتهد جـ ١ ص ٣١٦ .

(٢٣) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١ .

(٢٤) الديار بكرى ط ١٣٠٢ هـ جـ ٢ ص ٦٢ .

أسلمت أعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، وتُغالى بعض المراجع فتذكر أن ذلك كان يؤخذ من الغنيمة قبل قسمها ، فقد روى « النويرى[٢٥] » أن « خالد ابن الوليد » لما أرسل من تبوك إلى دُومة الجندل ، غنم أموالا كثيرة » فعزل للنبي صلى الله عليه وسلم صفيا خالصا ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ما بقى بين أصحابه » .

وهذا نص يخالف روح التشريع الإسلامى ،الذى يحرّم على المسلم أخذ شىء من الغنيمة قبل قسمها، فى قوله تعالى : « وما كان لنبى أن يغُل ومن يغلُلْ يأت بما غلّ يوم القيامة ، ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[٢٦] .

وليس من المعقول ولا من العدل، أن يحرِّم الرسول شيئاً على أتباعه ثم يُحله لنفسه ، وإلا فما استأهل الرسالة ، وإنما المعقول إن صحت روايات الصفايا ، أنه كان يختار ذلك لنفسه، من سهمه الذى يخصه، بحيث يُحسب فيه عند التوزيع ، فقد كان كواحد من أصحابه ، وعلى هذا الأساس وَزع غنائم بدر ، قبل نزول سورة الأنفال ببيانها .

ب ــ حظ الجندى من الغنيمة :

كان نصيب الجندى الإسلامى قبل وضع الديوان ، ينحصر فى ثلاثة أنواع :

١ ــ أسهمه التى تُقسم له من الغنيمة .

٢ ــ النفل الذى يُخصّ به إذا أجاد القتال .

٣ ــ السلب الذى يأخذه من قتيله .

١ ــ أما عن توزيع الأسهم : فإن الغنائم كانت تجمع بعد تتبع المنهزمين ، ثم توضع فى يد شخص أمين حاسب، يسمى « صاحب الأقباض، أو صاحب النفل »[٢٧] وجرى العمل بذلك منذ عرف المسلمون القتال ، وكانت أمانة الجند وخشيتهم للغلول من المغنم ، تدفعانهم إلى تسليم كل ما جمعته أيديهم إلى « صاحب الأقباض » حتى الإبرة، بخلاف ما عُنى لهم فيه، كالأكل بالمعروف وعلف الحيوان، قال القاضى « أبو يوسف » : « ولا بأس بأن يأكل المسلمون مما يصيبون من المغانم

---

(٢٥) نهاية الأرب جـ ١٧ ص ص ٣٥٦ ، ٥٧ .

(٢٦) سورة آل عمران : آية ١٦١ .

(٢٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٨٧ والإدريسى فى التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٨٠ .

من الطعام ، ويعلفون دوابهم . . . وإن احتاجوا أن يذبحوا من الغنم والبقر ، ذبحوا وأكلوا ، ولا خمس فيها يأكلون ويعلفون ، كذلك كان أصحاب الرسول يفعلون[٢٨] » .

وبسبب هذا التيسير بلغت أمانة الجند زمن الفتوح ، حدًّا استدعى إعجاب الخليفة « عمر » لمّا رأى نفائس الفرس التى أرسلوها إليه ، يروى « الطبرى » أن بعض الجند جاء لصاحب الأقباض ، بحُقّ فيه أحجار كريمة لا تقدَّر بمال ، من غنائم عاصمة الفرس (المدائن) فسأله : هل أخذت منها شيئا ! فقال : « والله لولا الله ما أتيتكم به »[٢٩] وهى إجابة تحمل فى طيها الأمانة وتقوى الله فى أسمى صورهما .

ولقددعت أمانة الجند بعضَ من شهد (القادسية) أن يبالغ فى تقديرها فيقول : « والله الذى لا إله إلا هو ، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية ، أنه يريد الدنيا مع الآخرة[٣٠] » . وهذا قسَم بطبيعة الحال فيه ما فيه ، لأن التاريخ نفسَه لا يؤيده ، وطبائع البشر تعارضه .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الغنيمة كانت تجمع ، ثم يقوم المكلف بها بتقسيمها خمسة أقسام ، فيحجز قسما لبيت المال وهو حق الدولة ، ثم يقسم الأربعة الباقية بين الجند المقاتلين أسهما ، والذى عليه إجماع الأئمة « مالك والشافعى وأحمد » أن الأسهم كانت توزع ، بحيث يأخذ الراجل سهماً واحدا ، والفارس ثلاثةَ أسهم : سهم له وسهمان لفرسه[٣١] . وخالف أبو حنيفة فجعل للفارس سهمين فقط .

وقد علّق « ابن رشد » على تأييد هذا الإجماع بقوله : « وغيرُ بعيد أن يكون تأثير الفارس بالفرَس ثلاثة أضعاف تأثير الراجل ، بل لعله واجب »[٣٢] وقد يكون أراد من ذلك الوجوب ، أن يؤكد أن الفرس عليه المعوّل فى مراحل المعركة الثلاث : فعليه العماد عند بثّ العيون والطلائع قبل الاشتباك ، وعليه العماد عند الكرّ والفر ، وحماية الأجناب خلال المعركة ، ثم عليه العماد عند مطاردة الفارّين

---

(٢٨) الخراج له ص ١٢٢ ط بولاق سنة ١٣٠٢ هـ .

(٢٩) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٧٦ .

(٣٠) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٧٦ .

(٣١) ابن رشد فى البداية جـ ١ ص ٣١٤ ، والشعرانى فى الميزان جـ ٢ص١٧٣ ، والكلبى فى نسب الخيل ط ليدن ١٩٢٨ م ص ٢ فقد قال فيها فى بيان حض الرسول على اقتناء الخيل : « وفضلها فى السهمان على أصحابها ، فجعل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً ، فارتبطها المسلمون وأسرعوا إلى ذلك » .

(٣٢) بداية المجتهد له جـ ١ ص ٣١٤ .

فى حال النصر ، أو النجاة بصاحبه من الموت فى حال الهزيمة ، أما الراجل فغناؤه عند الاشتباك الفعلى والمبارزة ، وهو ثلث المراحل الرئيسية للمعركة .

على أنه مما يؤيد إجماع الأئمة ، أن عمل الرسول وأصحابه والتابعين كان موافقا ، له ، فأصحاب المغازى والمؤرخون ، مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما قسم غنائم « بنى قريظة » جعل للفارس ثلاثة أسهم : سهماً له وسهمين لفرسه وللراجل سهما واحدا[٣٣] .

وروى « الطبرى » أن سهم الفارس من جند « العلاء » يوم « دارين » بلغ ستة آلاف ، وسهم الراجل ألفين ، كما روى أنه بلغ فى معركتى (ذات السلاسل والثنى) للفارس ألف درهم ، وكان الراجل على الثلث من ذلك[٣٤] ويظهر أن هذا التفريق كان للتشجيع على اقتناء الخيل ، وزيادة العناية بها ؛ ولذا كان بعض الصحابة ، يصحب معه أكثر من فرس فى معاركه كلها .

ومما يزيد إجماع الأئمة قوة ، أن تلميذ أبى حنيفة ، الذى جعل للفارس سهمين فقط ، خالفه فى رأيه ، وقرر فى كتابه « الخراج »[٣٥] أن يجعل للفارس ثلاثة أسهم : سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم ، وإن كان قد رجع إلى رأى أستاذه أخيرا ، بقصد التوسعة فى الفتوى على الخليفة المستفتى « هرون الرشيد » ليفعل أىّ الأمرين شاء .

ومما يدل على ارتفاع أسهم الخيل ورغبة الناس فى اقتنائها لذلك ، أن بعض الفرسان كان يحارب على فرسين بالتناوب ، ثم يأخذ لهما أربعة أسهم ولنفسه سهما واحدا ، كما فعل « الزّبير بن العوّام » فى فتح « خيبر » وقد صنع الصنيع نفسه فى فتح الشام ، وأراد أن يأخذ الأسهم الأربعة ولكن « أبا عبيدة » منعه ، عملا بفتوى الخليفة[٣٦] عمر ، وربما كان ذلك لأن الإسلام صار عزيزا ، وليس محتاجاً إلى تكثير الخيل ، ولأن فتح هذا الباب ، قد يؤدى إلى تعداد الخيل للفارس الواحد أكثر من

---

(٣٣) الطبرى ج ٤ ص ١٨٧ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٤٦ والكامل ج ٢ ص ٧٧ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢١٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٣ وذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ١٦٢ أنه كان مع الرسول فى (خيبر) ٢٠٠ فارس أعطاهم ٦٠٠ سهم و ١٢٠٠ راجل أعطاهم ١٢٠٠ سهم فكانت جميع السهام ١٨٠٠ سهم .

(٣٤) تاريخه ج ٣ ص ٢٦٠ ، ج ٤ ص ٧ .

(٣٥) أبو يوسف ص ١٠ ، ١٢١ .

ذلك ، فيتحول الغرض من الجهاد ، إلى الاستكثار من الخيل لجمع المال ، وهى نظرة حكيمة عادلة من الخليفة .

ولعل هذه الحادثة ونظائرَها ، هى التى جعلت « الطبرى وابن سعد »[٣٧] يقرّران أنه لم يكن يسهَم للخيل إذا كانت مع الرجل ، إلا لفرسين ، وبذلك قال الإمام « أحمد » ولكن « ابن رشد » نقل إجماع الأئمة الثلاثة ، على أنه لا يسهم إلا لفرس واحد ، وهو الحكم الذى يساير تطور الإسلام ، ويراعى مقتضىَ الحال فى معارك المسلمين .

وقد دعت العناية بالفرسَ ، إلى اختلاف الفقهاء فى حكمه ، فقد فرّقوا بين العربى منه والهجين ، وقال بعضهم : « لا يُسْهم إلا للفرس العربى فقط » كما روى « ابن رشد » كما فضلوه على البرذون والبعير ، فيرى الإمام « أحمد » أنه يأخذ سهمين ، والبرذون سهما واحدا ، والبعير كذلك ، مع أن الثلاثة متفقون على أنه لا يسهم للبعير ، وهناك خلافات فقهية فى هذا الصدد ، حُشيت بها كتب السنة والفقه ، لا داعى للإكثار منها هنا ، وليرجع إليها من يريد التوسعة .

٢ — وأما النَّفَل : بتحريك الفاء وجمعه أنفال ، فهو شىء من المال غير محدود ، يعطيه القائد مكافأة لمن أجاد القتال ، زيادة على سهمه ، تشجيعاً له واستحثاثا لغيره ، ويكون ذلك فى أشهر الأقوال من خمس الغنيمة قبل قسمها[٣٨] ، فقد بعث الرسول سرّية إلى نجد فغنموا إبلا كثيرة ، فكان سهم كل منهم اثنى عشر بعيرا ، ثم نفّلوا بعيرا بعيرا[٣٩] ، والوقائع التاريخية فى ذلك كثيرة .

٣ — أما سلب القتيل : فهو ما معه من فرس وسلاح وملابس ونفائس ، وقد جرت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأن يجعل سلب القتيل لقاتله ، فإن نازع القاتلَ فيه أحد قضى بينهما ، فقد تنازع شابان يوم بدر فى سلب « أبى جهل » فقضى الرسول بقسمته بينهما ، لما عاين سيفيهما ، وثبت عنده اشتراكهما فى قتله ،

---

(٣٦) الواقدى فى فتوح الشام جـ ١ ص ١٤٣ .

(٣٧) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥٨ والطبقات جـ ٢ ص ١١٠ .

(٣٨) الطبرى جـ ٣ ص ١٣٦ وإرشاد السارى جـ ٥ ص ٢١٤ .

(٣٩) ابن رشد فى بداية المجتهد جـ ١ ص ٣١٦ ، والماوردى فى نهاية الأرب ص ١٣٣ وقد بالغ فذكر أن فارساً قتل عشرين وأخذ أسلابهم ؟

ويومها أيضا قضى « لأبى قتادة » بسلب قتيله لما أخذه غيره ، فأخذ الدِّرع وباعها بسبع أواق اشترى بها بستانا[٤٠] .

وقد كانت الأسلاب تُدفع لأصحابها بالغة ما بلغت ، لدرجة أن بعض المسلمين يوم القادسية باع سلب قتيله باثنى عشر ألف درهم (أى بحوالى ٤٨٠ جنيها) على أن الدرهم يساوى فرنكا تقريباً كما سيأتى بيانه ، وهو مبلغ يصح أن يكون وحده ثروة ، ولكن إذا زاد السلب زيادة غير معقولة ، فمن حق الأمير أن يخمسه بين الجند كالغنيمة ، وقد ظهر ذلك فى أسلاب الفرس والروم ، الذين كانوا يخرجون للمعارك بالأسورة الذهبية ، ويحلون سلاحهم بكرام الجواهر وغيرها ، يروى « ابن رشد » عن بعض حروب الفرس ، أن البراءَ بن مالك « قتل مرزُبانا » فارسيا وأخذ سلبه الذى قُدر بثلاثين ألفا (١٢٠٠ جنيه تقريبا) فلما بلغ ذلك الخليفة « عمر » قال فى أصحابه : « إنا كنا لا نخمس السلب ، وإن سلب البراء بلغ مالا كثيرا ، ولا أُرانى إلا خمسته[٤١] » وبذا وضع الخليفة مبدأ تخميس السلب إذا بلغ حدًّا كبيرا ، أو زاد زيادة غير معقولة .

حـ ــ حظّ النساء والأتباع والذميين :

اعتاد المسلمون كثيرا أن يخرجوا للحرب بنسائهم ، آخذين معهم بعض العبيد والغلمان ، لنقل الأمتعة ورعى الماشية ، وكان كثير من النساء والعبيد والأطفال ، يؤدون للجند خدمات جليلة ، إما بالاشتراك فى القتال ، وإما بتمريض الجرحى ونقلهم ، ودفن الموتى ، كما سبق بيانه فى الفصل الثانى ، عند الكلام على القوات المدنية الملحقة بالجيش ، وكان بعض الذميين أيضاً يشتركون مع المسلمين فى القتال ، لأغراض ليس هنا مكانها ، فكان هؤلاء وأولئك يأخذون قدرا من الغنيمة ، وهو شىء يقدره القائد ولا يبلغ به سهم المقاتل ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطى النساء اللاتى يحضرن معه القتال ، أقل من سهم الرجال[٤٢] ، وكان « عمر » يعطى

(٤٠) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٩١ ، وتاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٧ ، وشرح القسطلانى جـ ٥ ص ٢٢٣ .

(٤١) بداية المجتهد جـ ١ ص ٣١٢ .

(٤٢) البخارى شرح القسطلانى جـ ٥ ص ص ٨٤ ، ٨٥ والطبرى جـ ٣ ص ٩٦ والحلبى جـ ٢ ص ٣٦٣ .

العبيد من الغنيمة شيئاً لا يبلغ السهم ويقول : « ليس أحد إلا وله فى هذا المال حق ، إلا ما ملكت أيمانكم » . وحكى « أبو بيوسف» أن الذمىّ والعبد والمرأة ، يُرْضَخ لهم من الغنيمة ، أى يأخذون قدرا لا يبلغ السهم(٤٣) ، بل إن الأئمة غيرَ مالك مجمعون على أنه « يُرْضَخ لمن حضر الغنيمة من مملوك وصبى وامرأة وذمىّ، بشىء يجتهد الإمام فى قدره ، ولا يبلّغه له سهما(٤٤) » .

المرتبات بعد وضع الديوان
(١٥ هـ — ٦٣٧ م)

١ — فى عهد «عمر بن الخطاب» الزاهر ، أدرك المسلمون أن لا بقاء لدولتهم ، إلا بالقضاء على مصادر القوة التى تهددهم من حولهم ؛ ومن أجل ذلك تقدمت الجيوش الإسلامية فى البلاد شرقا وغربا ، تفض الحصون المنيعة، وتحوى كنوز الفرس والروم ؛ حتى تدفقت الأموال على المدينة كأنها السيل، فهذا المال من أخماس الغنائم ، وذلك من الزكاة بأنواعها المختلفة ، والثالث من الجزية المفروضة على الذميين ، والرابع من خراج الأرض المنزرعة ، إلى غير ذلك من عشور التجارة والمكوس ، وغير ذلك من مصادر الخير ، التى كانت تدرّ على الدولة مالا وفيرا ، وكان الخليفة يرى أن لكل مسلم فى هذا المال حقاً ، وأنه ملزَم أمام إلزامهم بالجهاد ، أن يضمن لهم رزقهم ورزق عيالهم ، لتصلهم حقوقهم مكرّمين ، وقد أثر عنه فى ذلك قوله : « لئن بقيتُ ليأخذنّ الراعى بصنعاء ، حقّه من ذلك الفىء ودمه فى وجهه ، وقوله « أما والله ، لئن بقيتُ لأرامل أهل العراق ، لأدعهُن لا يحتجن إلى أحد بعدى(٤٥) » .

بدافع من ذلك الغرض السامى ، وضع الخليفة ديوان المسلمين بصفة عامة ، وديوان الجند بصفة خاصة ، ولم يعبأ باعتراض « أبى سفيان » الذى قال له : « إنك إذا فرضت للناس ، تركوا التجارة واتكلوا على الديوان » فأجابه قائلا :

(٤٣) الخراج له ص ١٢٢ .
(٤٤) الشعرانى فى الميزان جـ ٢ ص ١٧٤ ، والرضخ عطاء غير مقدر .
(٤٥) أبو سيف فى الخراج ص ص ١٢ ، ٢١ .

« لا بد من هذا فقد كثر فىء المسلمين[٤٦] » .

هذا وقد اختلف الباحثون فى تقدير المرتبات السنوية ، التى كانت تمنح للجند فى عهده، فيرى الدكتور «كريمر »[٤٧] أن الحد الأدنى للمحارب، كان يتراوح بين ٦٠٠ ، ٥٠٠ درهم سنويا، ويرى الأستاذ « زيدان »[٤٨] أن مرتبات الجند كانت تتراوح بين ٥٠٠ ، ٣٠٠ درهم سنويا ، غير ما كان يدفع لنسائهم وأولادهم، وما فرض لهم من الحنطة ، وهو (جريبان)[٤٩] لكن واحد من الشهر ، وأن رواتب الضباط كانت تتراوح بين ٥٠٠٠، ٤٠٠٠ درهم سنويا، وقد ذكر الرواتب أيضا « جوستاف لوبون »[٥٠] وجعلها تتراوح بين ١٠٠٠ درهم و ٣٠٠ درهم ولم يميز بين مرتبات الجند ومرتبات الأمراء (الضباط) .

ولكن الذى يرجع إلى ما كتبه « الطبرى وابن الأثير وابن خلدون »[٥١] وغيرهم من المؤرخين عن وضع الديوان ، يجد تفصيلا كثيراً ، حسبنا منه أن نعرف أن الفاروق رتب أسماء الجند فى دفاتره ، وقدر أرزاقهم حسب السابقة فى الإسلام ، والقرابة من رسول الله ، ثم البلاء فى الفتوح الإسلامية ، فكانت الأرزاق على الوجه الآتى فى الترتيب التنازلى :

١ — أهل بدر ، لكل منهم ٥٠٠٠ درهم سنويا .

٢ — من جاء بعد بدر إلى (الحديبية) ٤٠٠٠ درهم .

---

(٤٦) الكامل جـ ٣ ص ٤٥٧ .

(٤٧) Orient under the Caliphs. p. 316.

(٤٨) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٤٤ .

(٤٩) الجريب وحدة مساحية كالفدان، والمقصود ما ينتجه من الحبوب، وهو كما فسره (الماوردى) فى الأحكام السلطانية ص ١٢٣ ونقل عنه (زيدان وثابت) يساوى ١٠ — ١٠ = ١٠٠ قصبة ، والقصبة ٣٦ ذراعاً، فيكون الجريب= ٣٦٠٠ ذراع مكسرة (مربعة) هذا هو الجريب المقيس أما الجريب المكيل فقد قدره صاحب القاموس بأربعة أقفزة كيلا ، وإذا كان القفيز عنده يساوى ٨ مكاكيك ، والمكوك صاع ونصف ، والصاع أربعة أمداد متوسطة، فالقفيز إذن = ٤٨ مدا = ٢ كيلة، والجريب =٨ كيلات لأنه أربعة أقفزة، فيكون للفرد فى الشهر من الحنطة ١٦ كيلة، وهو قدر كبير إن صح هذا الحساب . وذكر الماوردى أن مساحة القفيز ١٠ قصبات فى قصبة (٣٦٠ ذراعاً) وأن العشير قصبة فى قصبة فتكون مساحته ٣٦ ذراعاً أنظر الخراج فى الدولة الإسلامية للدكتور الريس (ص ص ٢٦٤ وتواليها، ٢٩٤ وتواليها .

(٥٠) حضارة العرب ص ١٦٩ .

(٥١) انظر الطبرى والكامل — حوادث سنة ١٥ هـ ومقدمة ابن خلدون ص ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

٣ — لمن بعدها إلى أن أقلع « أبو بكر » عن أهل الرّدة ٣٠٠٠ درهم .
٤ — أهل الشام وأهل القادسية ٢٠٠٠ درهم .
٥ — الذين بعد القادسية واليرموك ١٠٠٠ درهم .
٦ — من جاءوا بعد ولم يشهدوها وهم (الروادف) من ٥٠٠ إلى ٢٠٠ درهم .

ونحن إذا علمنا أن الفاروق ، كان يسند الإمارات والقيادات إلى السابقين الأولين ، وينحيّ عنها من مسته شائبة فى حركة الردة ، استطعنا أن نفهم أن مرتبات الضباط العظام كانت تتراوح بين ٥٠٠٠ و ٤٠٠٠ فى العام كما ذكر الأستاذ « زيدان » .

وإذا علمنا أيضا أنه ألزم الجند بالجهاد ، منذ القادسية واليرموك ، وأنه حدد لهم المرتبات ، ونهاهم عن التجارة والزراعة ، وعاقب المشتغلين بها ، وضمن لهم أرزاق عيالهم ، إذا علمنا هذا استطعنا أن ندرك أن مرتبات عامة الجند ، كانت تتراوح حسب طبقاتهم بين ١٠٠٠ و ٢٠٠ درهم ، ولا يدرى المرء بعد ذلك ، كيف حدد الدكتور (كريمر) الحد الأدنى بمبلغ ٥٠٠ أو ٦٠٠ درهم؟ ولعله أخذ المتوسط بين ألف درهم ومئتى درهم ، وهما الحدان الأعلى والأدنى لمرتبات عامة الجند بعد القادسية .

وإذا فرضنا أن متوسط المرتب لعامة الجند كان ٥٠٠ درهم فى العام ، استطعنا أن نقدر مرتب الجندى فى ذلك الوقت ٤٢ فرنكا فى الشهر ، لأن الدكتور « كريمر »[٥٢] يذكر أن الدرهم كان وقتها يساوى فرانكا على الأقل ، وبذا يكون مرتب الجندى الشهرى حوالى (٢٠٠ قرش) وهو مرتب كان فى وقته يزيد أضعافا عن مرتب الجندى البيزنطى المعاصر ، الذى كان يتراوح بين ١٢ — ١٨ دينارا فى السنة[٥٣] أى من ١٢٠ — ١٨٠ درهماً ، على أن الدينار يساوى ١٠ دراهم فى المتوسط ، فيكون مرتبه الشهرى (حوالى ٥٠ قرشا) أى ربع مرتب الجندى العربى ومع ذلك كان لا يحصل على مرتبه ، إلا كل ثلاث سنوات أو أربع ، كما قرر « زيدان » وكما قرر « نورمان بينز » الذى ذكر أن مرتبات الجنود البيزنطيين ، كانت تتأخر عن مواعيدها باستمرار ، وكانت حاجيات الجند غير كافية ، بشكل لا يشرف ، وهذا اعتراف له قيمته من مؤرخ غربى منصف .

---

(٥٢) الشرق فى حكم الخلفاء ص ٣١٦ .
(٥٣) زيدان — تاريخ التمدن ج ١ ص ١٤٦ .

وبمقارنة مرتبات القادة والضباط ، بمرتبات الخليفة والأمراء ، نجد أن الفرق بينهما قليل ، مما يدل على أن الفاروق عمر ، كان يعمل على التقريب بين الطبقات ونشر روح الديموقراطية والاشتراكية بينهم ، فقد كان متوسط مرتب الضباط ٤٠٠٠ درهم ، وكان مرتب الخليفة « أبى بكر » ٦٠٠٠ درهم ، ثم تقاضى الفاروق من بعده المقدار نفسه ، فلما زاد المال باتساع الفتوح ، عرض عليه بعض الصحابة أن يزيدوا فى مرتبه ، ولكنه رفض اقتراح الزيادة غاضبا(٥٤) ، واكتفى بمبلغ ٢٠٠ جنيه سنويا أى حوالى ١٧ جنيها فى الشهر ، عاملا بمبدأ الزهد والقناعة ، لأنه مرتب يقارب مرتب والى مكة «عتّاب بن أسيد» الذى استعمله الرسول عليها ، ورزقه دينارا فى اليوم (أى ١٠ دراهم أو ٤٠ قرشا ، أى حوالى ١٢ جنيها فى الشهر) كما روى « ابن هشام » فانظر الفرق بين مرتب الخليفة ، ومرتب عامل على مدينة واحدة ؟ ! .

ومما يدل على أن عمر كان عازما التسوية بين الجند ، ما رواه « الطبرى »(٥٥) من قوله : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف : ألفا يجعلها الرجل فى أهله ، وألفا يزوّدها معه ، وألفا يتجهز بها ، وألفا يترفق بها ، فمات قبل أن يفعل » . وروى عنه أيضاً أنه كان يفرض للأسراء الذين يشتركون فى الحرب ، أعطيات تعادل أعطيات سادتهم(٥٦) ، بلا تفرقة بين الطبقات .

ومع أن الجند كانوا يتقاضون مرتباتهم تلك السخية ، التى لم تصل إليها مرتبات الروم أو جنودنا المعاصرين ، فإن الخليفة « عمر » كان لا يستكثر عليهم سهمانهم وأسلابهم المناسبة ، وما جلبته لهم سيوفهم ، فقد كتب مرة إلى بعض قواده ، أن أعط الناس أعطياتهم وأرزاقهم ، فقال له : « إنا قد فعلنا وبقى شىء كثير » . فكتب إليه مشتدا عليه « أنه فيؤهم الذى أفاء الله عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر ،

---

(٥٤) انظر الطبرى جـ ٤ ص ص ٥٤ ، ١٦٤ ، والسيرة الحلبية جـ٢ ص ١٨٧ ، وقارن مرتب الخليفة بمرتب (يزيد بن الحكم) الذى ولاه (الحجاج) من قبله على فارس فإنه أجرى له عشرين ألف درهم أى حوالى ٨٠٠ جنيه سنوياً ، ٦٦ جنيه شهريا .

(٥٥) تاريخه جـ ٤ ص ١٦٣ .

(٥٦) نعمان ثابت : الجندية ص ٨٩ ، وفى لسان العرب أن العطية تجمع على عطايا وأعطية ، وتجمع هذه على أعطيات (مادة عطا جـ ١٩) وقال فى مادة (رزق جـ ١١) أن الرزق العطاء ، وأرزاق الجنود أطماعهم ، وارتزق الجند أخذوا أرزاقهم ، وفى الخراج لأبى يوسف ص ١١٥ ومحاضرات الخضرى جـ ٢ ص ٨٩ أن الأرزاق هى المرتبات ، ومن هنا يظهر أنها مترادفات لشىء واحد .

فاقسمه بينهم[٥٧] » .

لهذا أثرى الجند فى عهده رضى الله عنه ، وصار الجهاد من أربح الحرف كسبا ، فأقبل الناس عليه ، فى الوقت الذى أقبلت عليهم البلاد المفتوحة بخيراتها وكنوزها فامتلأت أيديهم بنفائس الفرس والروم ، وصاروا يزهدون فيما دون تلك النفائس من مال ، ويجلى لنا تلك الحقيقة واضحة ، قول « المثنى » لجنده لما انتصروا فى معركة « البُوَيب من مال » وأقبلوا على الغنائم يجمعونها : « لا تأخذوا إلا الذهبَ والفضةَ ، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر كل منكم حمله على دابته »[٥٨] وقد يكون القائد قصد من هذا — غيرَ إظهار يسارهم — ألا يُثقلوا أنفسهم بالغنائم ، التى تعوق حركتهم فى المعارك ، وتجعلهم حراصاً عليها ، دائمى التفكير فيها ، والدفاع عنها دون من ينالها بسوء ، فيشغلهم ذلك عن القتال الحق .

ولعل ثراء الجند الملحوظ ، كان ضمن الأسباب التى منعت الخليفة « عمر » عن قسمة الأرض المفتوحة بين فاتحيها ، فإنه كان يتركها بيد أهلها يزرعونها ، ويأخذ منهم خراجها[٥٩] ، ليكون ثمرة باقية فى أيدى المسلمين ، ولهذا السبب أيضاً استرد من قبيلة « بجيلة » رُبع سواد العراق ، بعد أن زرعوه ثلاث سنوات ، وكان قد وهبه لهم فوق سهامهم لقاء حربهم مع « المثنى » هناك[٦٠] ، وفاءً منه لهم بشرطهم ، ولكنه راجع نفسه ، وخشى أن يستقر الجند فى أراضيهم ، فيتكاسلوا عن الجهاد ، كما خشى أن يتفاسد الناس بالتنازع على المياه ، وأن تضيق الأرزاق على ذرية المسلمين اللاحقين ، فمنع توزيع الأرض ووقفها لمصالح الناس ، والإنفاق عليهم من غلاتها ، أخذاً من قوله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » . . .

٢ — وفى عهد الخليفة الغنىّ « عثمان » زاد غنى الجنود ، لأن عجلة الفتح مضت فى اندفاعها ، فانضم إلى الدولة الناشئة أقطار غنية مثل « إيران وأذربيجان وأجزاء من أرمينيا[٦١] » وغيرها ، فأتى المال لعثمان فيضاً من كل وجه ، حتى اتخذ له الخزائن

(٥٧) الكامل ج ٣ ص ٤٥٣ .
(٥٨) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٧٩ .
(٥٩) إرشاد السارى ج ٥ ص ٢٠٨ .
(٦٠) الطبرى ج ٥ ص ٤٩ ومروج الذهب ج ٢ ص ٣١٨ .
(٦١) فيليب حتى ، تعريب نافع ج ١ ص ٢١٧ .

وجعل عليها الحراس ، فزاد أرزاق الناس ، ورفع مرتب كل جندى ١٠٠ درهم عن ذى قبل[٦٢] ، وقد استكثر تلك الزيادة « سعيدُ بن العاص » وناقشه كثيراً فى إنقاصها ، ولكنه لم يقبل ذلك منه وأمضاها .

وتبعاً لثراء الحكومة أثرى الجند كثيراً فى عهده ، وأقبل المحبون للمال على جمعه ، حتى بلغت ثروة بعض كبار الجند فى عهده حدا خياليا ، لا يكاد يصدقه الباحث المدقق ، فقد روى « القسطلانى » شارح البخارى[٦٣] ، أن « الزبير بن العوام » كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، وكان له أرض بالمدينة تسمى (الغابة) بيعت فى دينه بعد وفاته ، بمبلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ درهم ، وكان له بها إحدى عشرة دارا ، ودارا فى كل من البصرة والكوفة ومصر .

هذا مثل من أمثال كثيرة ، تركت إيرادها تخففا ، وهو يوضح لنا أن الضباط والجند فى عهد «عثمان » بلغوا من اليسار حدا ، لم يحلم به جنود جيش من الجيوش ، قديماً أو حديثا ؛ وذلك لوفرة المرتبات ، ونفاسة الغنائم التى كانت تقسم على المحاربين .

٣ ــ أما فترة حكم الأمام « علىّ » فلا يصح أن تجعلها مقياساً لتشريع ثابت ، لأنها كانت مملوءة بالحروب الأهلية ، والمنازعات والقلاقل ، التى تتنافى عادة مع استقرار الأحوال ، وبخاصة فيما يتعلق بالمرتبات ، ويغلب على الظن أن العطاء فى تلك الفترة ، ظل خاضعاً لقواعد الفاروق غالبا ، رغم السخاء المالى الذى عرف به «معاوية » ليجمع الناس حوله ، ورغم الاقتصاد الورع الذى عرف به « على » فقد ذكر عنه بعض الباحثين[٦٤] أنه سوّى بين الجند فى العطاء ، ولكنه لم يذكر مرجعه ، ولم يوضح لنا مقدار ذلك العطاء ، ومن هنا نعرف أن المرتبات كانت تابعة للعوامل الاقتصادية والدينية فى هذا الاضطراب ، كما تبعت العوامل السياسية والإقليمية أيضا .

---

(٦٢) الطبرى جـ ٥ ص ٤٥ والنجوم الزاهرة جـ ١ ص ٨٧ .

(٦٣) إرشاد السارى جـ ٥ ص ص ٢١١ ، ١٢ .

(٦٤) الضابط « نعمان ثابت » فى الجندية ص ٩١ .

المرتبات فى الدولة الأموية
(٤١ – ١٣٢ هـ ، ٦٦١ – ٧٥٠ م)

انتهى أمرُ النزاع بين «على ومعاوية» بقتل الأول غيلة بأيدى الخوارج ، وتمام الأمر للثانى ، وبخاصة بعد تنازل (الحسن) عن الخلافة له ، وقد كان جل اعتماد « معاوية » على عرب الشام . وبخاصة القبائل اليمنية ، التى كثيراً ما كان أفرادها يدلون عليه بنصرته ، ويمنون عليه بمساعدته ، والذين استغلوا حاجته إليهم ، فاشترطوا عليه شروطا قاسية ، واشتطوا فى مطالبهم ، ففرض لهم عطاء مضاعفا ، وعمل على إشباع نهمهم المالى بالمنح والعطايا ، حتى جعلهم حكومة داخل حكومته ، بحيث لا يقطع فى أمر من أمورهم إلا بعد مشورتهم(٦٥) ، ووفى لهم بشروطهم كلها .

هذا ، وقد عرف عهد «معاوية» بكثرة الأحزاب المناوئة له ، كالشيعة والخوارج وغيرهم من المطالبين بالخلافة ، لدرجة أنه شُغل بأمر هذه الأحزاب شغلا جعله يهادن الإمبراطور البيزنطى ، الذى كان ينتهز فرصة الاضطرابات الداخلية ، فيغير على الحدود الإسلامية ، وأمام هذه المخاوف الداخلية والخارجية ، كان الخليفة بحاجة إلى جند كثيف ، يقوم بهذه الأعباء ، فاضطر أن يرفع مرتب الجندى إلى ١٠٠٠ درهم فى العام تقريبا ، أى (٤٠ جنيها) فقد روى زيدان وغيره ، أن عدد الجيش فى عهده كان ٦٠ ألفا ، وكان يكلف الدولة ٦٠ مليون درهم(٦٦) ، على الرغم من أن بعض الجنود لم ترفع مرتباتهم ؛ لرأيهم الحسن فى « على بن بن أبى طالب(٦٧) » .

استمرت الحال كذلك فى عهد « مروان بن الحكم » كما كانت أيام أسلافه ، فلم يكن يُقضُّ مضجعه إلا هؤلاء اليمنية ، الذين كانوا ينتهزون كل فرصة ليطالبوا بزيادة أجورهم ، والذين هددوه بالتخلى عنه ، إن ألغى امتيازاتهم الممنوحة لهم من قبل(٦٨) ، والتى كان بمقتضاها يتقاضى أحدهم ٢٠٠٠ درهم مرتبا سنويا (٨٠

---

(٦٥) المسعودى فى مروج الذهب جـ ٣ ص ٩٥ وتاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ص ١٤٤ ، ٤٥ .

(٦٦) فون كريمر ص ٣١٧ وتاريخ التمدن جـ ١ ص ١٤٤ .

(٦٧) الأغانى جـ ١٤ ص ١٣ .

(٦٨) المسعودى جـ ٣ ص ٩٥ ، وفون كريمر ص ٣١٨ ، وقسم التجنيد فى الفصل الثانى من هذه الرسالة .

جنيهاً تقريباً) .

فلما كانت أيام ابنه « عبد الملك » قوى أمر منافسه على الخلافة « عبد الله ابن الزبير » فى الوقت الذى اشتد فيه ساعد الشيعة والخوارج ، ولما رأت الدولة الرومية ذلك النزاع زاد تحرشها به ، فوجد الرجل نفسه أمام عدة ميادين ، فصالح الروم على جزية يدفعها لهم على أسابيع ، وأكثر من حشد الجنود ليقابل بها الثورات الداخلية ، وكانت المرتبات لا تزال على ارتفاعها ، فهجر كثير من الناس مزارعهم ، والتحقوا بالجيش رغبة فى المرتبات ، وأسلم بعض الذميين تهرباً من الجزية ، التى كانت ترفع عن الذمى بمجرد إسلامه[٦٩] . فأدى هذا إلى نقص فى الميزانية العامة فى زمنه .

لذلك كله ، ولضخامة الجزية التى كان يدفعها للبيزنطيين ، وقعت اضطرابات ملحوظة فى مالية الدولة ، جعلته يؤجل مرتبات الجند عن أوقاتها مرارا[٧٠] ، وقد حاول أن يصلح ماليته ، بضرب النقود الفضية والذهبية فى دمشق ، كما حاول « الحجاج » أن يعيد كثيراً من الموالى إلى مزارعهم ، وأن يفرض عليهم الضريبة العالية التى كانوا يدفعونها قبل إسلامهم ، لما عرف أن بعضهم كان يتهرب منها بإسلامه[٧١] ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وزادت من تذمر الناس ، وبخاصة لأخذ الجزية ممن أسلم ، ومعاملته كغير المسلم .

ولم تكن حال الخزانة فى عهد « الوليد الأول » بأحسن منها فى عهد والده ، لأن أمر الحملات الحربية كان بيد « الحجاج » الذى عرف بالإسراف فى الإنفاق عليها ، حتى لامه « عبد الملك » فى ذلك ، ولذا كثيراً ما كانت تؤجل مرتبات الجند ، وكثيراً ما كانوا يشغبون على الدولة لذلك ، حتى لقد ضيق الشاميون على الوليد ابن عبد الملك يوما ، وتشددوا فى طلب مرتباتهم ، فاضطر نساؤه أن ينفضن الطيب من شعورهن ، فبيع فى الأسواق ودفع من ثمنه أعطيات الجند[٧٢] ، وهذا جزاء إسرافه فى المبانى والإنفاق عليها ، وإسرافه فى أنواع الترف والرخاء ، الذى أدى إلى ذلك الارتباك المالى .

---

(٦٩) فيليب حتى – تعريب الأستاذ نافع مجلد ١ ص ٢٧٢ .

(٧٠) فون كريمر ص ٣١٩ .

(٧١) فيليب حتى تعريب نافع جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٧٢) ابن قتيبة فى عيون الأخبار جـ ١ ص ١٧٠ .

ولما آل الأمر إلى الخليفة الورع « عمر بن عبد العزيز » حاول أن يعالج روح التذمر التى فشت بين المسلمين الجدد ، فأعاد المبدأ القديم الذى وضعه « عمر ابن الخطاب » من قبل، وهو ينص على أن المسلم عربياً كان أو مولى ، لا يدفع جزية ما ، فأقبل كثير من البربر والفرس على الإسلام؛ ليتمتعوا بتلك الامتيازات المالية ، وصار كثير منهم عرباً بالولاء ، ليحصلوا على حقهم من الأعطيات ، فقلّ لذلك دخل الدولة ونقصت ميزانيتها[٧٣] ، فلما شكا إليه بعض ولاته نتيجة سياسته ، أجابه قائلا : « تا لله إنه ليسرنى أن أرى كل واحد يصبح مسلماً ، حتى نُضطر أنا وأنت إلى فلح الأرض بأيدينا وكسب « قوتنا »[٧٤] وقد ذكر « المقريزى » أن « ابن شُريح » أحد ولاته ، كتب إليه « أن الإسلام أضرّ بالجزية » فأجابه بقوله : « ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابيا »[٧٥] .

لهذا السبب المتقدم ، ولما كان ينفقه القواد على الحملات البحرية وتحصين الثغور ، حدث نقص ظاهر فى الميزانية ، تبعه اضطراب فى دفع مرتبات الجند[٧٦] ، كان يؤدى إلى تأجيلهما ، فعمل الخليفة على علاج تلك الحال ، بضم أطراف الجيوش المتناثرة وضغط النفقات، والعدول على الفتوح ، إلى ملاينة الأعداء ، لدرجة أنه أمر القواد الذين كانوا يحاصرون « القسطنطينية » بفك الحصار ، والعودة بالمسلمين سالمين[٧٧] ، فرضخوا لأمره ، كما أمر بإخلاء بعض الثغور المتطرفة فى بلاد الروم ، وإعادة الجنود منها ، وأقبل على محاسبة الولاة والقادة على إسرافهم ، وألحّ فى مطالبتهم بالأموال المتأخرة عندهم من الأخماس والضرائب ، فمن كان يجحد شيئاً منها ، أو يتأخر عن الدفع ، كان يلقى به فى غيابة السجن ، ويأخذه بألوان التعذيب ، حتى يؤدى ما عليه للدولة ، كما فعل مع القائد المشهور « يزيد بن المهلب »[٧٨] وغيره .

ولكن ذلك المجهود الذى بذله «عمر» والذى بذل مثله خلفه « هشام بن عبد

---

(٧٣) نفس المرجع السابق (حتى) .
(٧٤) انظر بتلر فى فتح العرب لمصر ص ص ٢٠٢ ، ٢٠٤ .
(٧٥) نفس المرجع ص ٢٠٣ ونورمان بينز فى الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٩ .
(٧٦) فون كريمر ص ٣١٩ .
(٧٧) فيليب حتى تعريب نافع ص ٢٥٤ .
(٧٨) ابن الأثير فى الكامل جـ ٥ ص ص ١٤ ، ٢٠ .

الملك » لم يعالج كثيراً ذلك الفساد الذى فشا فى الدولة ، بسبب النهم للمال ، والإقبال على جمعه بشتى الوسائل ، لدرجة أن الجند الذين يحرم دينهم الغلول والخيانة ، والذين عُرف أجدادهم بالأمانة ، كانوا يسرقون من الغنائم بطرق غريبة ، فقد روى « ابن الأثير » أن بعضهم كان يذبح الهرّة ويرمى أحشاءها ، ثم يحشوا جوفها بالدنانير ويَخيط عليها ، ثم يلقيها فى الطريق ، ويُسلم ما بقى معه فى بيت الأقباض ، فإذا خرج للطريق أخذ الهرّة وأخرج الدنانير من جوفها ، كما يروى أن بعض السفن الإسلامية ، غرقت بعد فتح جزيرة « سِردانية » فلما أخرجت جثث الغرقى من الجند ، وجدوا أكثرهم قد ربط الدنانير على وسطه (٧٩) ، ولم يدفعها لصاحب الأقباض ، رجاء أن يخلص بها .

ومن المحتمل أن يكون ذلك الشّره المالى ، قد سرى إلى الجند من قادتهم وولاتهم ، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون ، وقد عرفنا كيف كان الولاة والقادة يستقلون بالبلاد ، و يحتكرون خيراتها ، معرضين أنفسهم للحساب والعذاب ، ويصح أن نكتفى هنا بمثل أورده « الطبرى » عن والى العراق « خالد بن عبد الله القسرى » الذى استغل خصب البلاد ووفرة خراجها ، فاختص نفسه بمبلغ ١٣ مليون درهم ، بعد أن بعثر بإسراف مقداراً ، يبلغ ثلاثة أمثال ذلك المقدار (٨٠) ، وكان من أثر ذلك أن سجنه « هشام » وعذبه ، ولقى نفس المصير الذى لاقاه أمثاله من المستغلين ، الذين كانوا يجعلون الولاية مكسباً .

ولا يتوقع المرء إزاء هذا الفساد المستشرى ، والارتباك المالى وسرقة المغانم ، أن ترتفع مرتبات الجند عما كانت عليه فى صدر الدولة ، بل إن ضعف الخلفاء فى نهايتها أمام وطأة الخوارج ، جعلتهم يستجيبون لرغبة الجند ومطامعهم المالية ، فصاروا يسرفون فى بذل العطايا والمنح لهم ، ليساعدوهم على الخوارج ، لدرجة أن بعض القواد ، كان يعطى الجندى الذى يقتل خارجياً ، عطاء سوى ما أخذه من الشام ، وفوق ذلك يعفيه من الخروج للغزو فى الهند (٨١) ، والمرابطة فى الثغور النائية .

ولم تذكر المراجع العربية مقادير المرتبات فى تلك الفترة بوضوح ، وإنما الذى

---

(٧٩) الخبران مفصلان بالكامل ج ٤ ص ٢٣٣ .

(٨٠) عن فيليب حتى تعريب نافع ج ١ ص ٢٨٨ .

(٨١) الكامل ج ٥ ص ٨٣ .

عرف عن الخلفاء الأمويين ، أنهم كانوا إذا مات واحد وتلاه آخر ، زاد فى أرزاق الناس عشرة دراهم ، ولا يترجم لنا عن شعور الشعب نحو الخلفاء الأمويين مثل تلك العبارة، التى كانوا يقولونها إذا مات أحدهم « عَيرٌ بعيرْ وزيادة عشرة »(٨٢) .

ويؤيد هذا المعنى أن « الوليد بن يزيد » لما ولى الخلافة ، أراد إشباع نهم الجند ، ليضمن طاعتهم ، ويأمن شغبهم، فزادهم فى العطاء عشرة دراهم، وخص أهل الشام بعشرة فوق العشرة(٨٣) ، ويذكر « كريمر » أن الزيادة كانت بنسبة ١٠٪ ، ولكنّ « يزيد الثالث» كان غير مؤمن بأحقية تلك الزيادة ، ولذا رأيناه بمجرد تسلمه زمام الحكم، يبادر بإلغائها ورد العطاء إلى ما كان عليه أيام « هشام » ولذا لقبه الناس (بالناقص)(٨٤) لنقصه من العطاء رفقاً بخزانة الدولة .

على هذا النظام القلق سارت مرتبات الجند ، حتى قامت الدعوة للعباسيين زمن « مروان بن محمد » فزاد الأمر قلقاً ، وسارت الأموال تبذر بلا حساب ، فى سبيل دعم العرش الأموى المترنح ، ولكن إرادة القضاء كانت فوق إرادة المال ، فكان سقوطه فى موعده المقدور له .

المرتبات فى الدولة العباسية لنهاية القرن الثانى
(١٣٢ — ٦٥٦ هـ ، ٧٤٠ — ١٢٠٨ م)

قامت الدولة العباسية على أكتاف الخراسانيين ، بزعامة « أبى مسلم » وكان الناس فى ذلك الوقت قد بعدوا عن عهد الخلافة ، وزادت شراهتهم للمال ، ولما لمس القائد الخراسانى ذلك المعنى ، احتاط له حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره ، من عصيان الجند وشغبهم، فجعل من نصوص بيعته لأتباعه « ألا تسألوا رزقاً ولا طُعماً، حتى يبتدئكم به وُلاتكم »(٨٥) .

وأغلب الظن أن المرتبات لم يكن لها ضابط فى تلك الفترة ، وأن منح الجند كانت تدفع من الأراضى التى يغلبون عليها ، ومن أموال الأمويين التى يصادرونها ،

---

(٨٢) القاموس المحيط مادة (العير) وهو الحمار .

(٨٣) انظر الكامل جـ ٥ ص ١٠٦ وفون كريمر ص ٣١٧ .

(٨٤) الكامل جـ ٥ ص ١١٦ ومحاضرات الخضرى ص ٢٠٢ وكريمر ص ٣٢٠ .

(٨٥) نفس المرجع ص ١٥٣ .

فلما تم الأمر إلى « أبي عبد الله السفاح » ابتهج لهزيمة « مروان الثانى » وأمر لمن شهد وقعة « الزّاب » بمكافأة قدرها ٥٠٠ دينار (حوالى ٢٠٠ جنيه) ورفع أرزاقهم إلى ٨٠ درهماً شهرياً ، وللفارس ضعفها ١٦٠ درهماً (حوالى ٦٤٠ قرشاً) كما جاء فى الكامل ج ٥ ص ١٧٠ .

وبمرور الزمن استكثر العباسيون من الجنود الأعاجم ، لأن دولتهم مدينة لهم بوجودها ، ولأنهم أكثر الجند سمعاً وطاعة ، ولأنهم أقنع بالرواتب القليلة ، التى كانوا يألفونها فى بلادهم ، فأقبلوا ألوفاً على الخدمة فى جيش الإمبراطورية الفتية ، حتى صارت جيوشها تعدّ بمئات الألوف ، فاضطُر الخلفاء إزاء هذا النموّ السريع ، أن ينقصوا مرتبات الجند ، وروى « فون كريمر » أن هذا النقص بلغ أكثر من نصف المرتبات الأموية[٨٦] .

ويمكن أن يقال فى تحوّط ، إن وقوف عجلة الفتح نوعاً ، تبعها قلة الاحتياج إلى الجند ، وأصبحت مهمة الجيش فى الغالب : إخماد الثورات وضبط النظام ، وإعادة فتح البلاد المنتقضة ، والاشتراك فى حفلات استقبال السفراء الروم وغيرهم ، فكانت الحاجة ووظيفة الجيش داعية إلى إنقاص مرتباته .

ويقوى هذا المعنى أن الخليفة « المأمون » فى عام ٢١٠ هـ — ٨١٨ م كان يدفع للراجل ٢٠ درهماً شهرياً ، وللفارس ٤٠ درهماً[٨٧] (أى ٨٠ قرشاً ، ١٦٠ قرشا) مع أن الغلاء فى عهده بلغ حدا لا يطاق ، فقد بلغ القفيز من الحنطة بالهارونى من أربعين درهماً إلى خمسين[٨٨] ، أى مرتب شهرين للراجل (حوالى جنيهين) ، وهذا المرتب مع ذلك الغلاء ضئيل جداً .

يضاف إلى هذا ما لوحظ على العباسيين ، من أنهم كانوا يجعلون الفارس ضعف الراجل فقط ، بخلاف سابقيهم ، وذلك طبعا اقتصاد فى النفقة وتوفير لبيت المال ،

---

(٨٦) الشرق فى حكم الخلفاء ص ص ٣٣٦ ، ٣٩ ، وزيدان ج ١ ص ص ١٤٥ ، ٤٦ ولعل قناعة الموالى بالأجور القليلة ، كانت ضمن الأسباب ، التى جعلت « المعتصم » يستغنى عن الجنود العرب نهائياً ، ويمحو أسماءهم من ديوان الجند ، ويعتمد على أخواله الأتراك .

(٨٧) الكامل ج ٥ ص ٢٨٨ وكريمر ص ٣٦٦ .

(٨٨) نفس المرجع ج ٦ ص ١٤٣ . والقفيز كما فى الهامش (٤٩) من هذا الفصل = ويبة حديثة = ٢ كيلة فإذا كان ثمنه = ٢ جنيه ، فثمن الكيلة جنيه وهو ثمن مرتفع جداً .

كما فعل « المأمون » مع ملاحظة أن مستوى المعيشة فى عصره الذهبى ، استدعى أن ترتفع قيمة الذهب بنسبة الثلث ، فالدينار الذى كان يساوى عشرة دراهم فى عهد « عمر » زادت قيمته عن ١٥ درهماً زمن المأمون[٨٩] ، فإذا أضيف هذا إلى غلاء الأسعار ، عرفنا ضآلة المرتبات العباسية ، بالنسبة للمرتبات الأموية .

وعملاً بمبدأ البذل عند الحاجة ، كان الخلفاء يزيدون مرتبات المرابطين فى الثغور عن سواهم من الجند ، نظراً لبعدهم عن ديارهم ، وتعرضهم لرد غارات الأعداء فى الحين بعد الحين ، وقيامهم بالحملات التمرينية ، التى كانت تنظم صيفاً وشتاء (الصوائف والشواتى) ففى عام ١٣٩ هـ – ٧٥٧ م أعاد « المنصور » بناء مدينة (ملطية) بعد أن خربها الروم ، ورتب فيها حامية قوامها ٤٠٠٠ جندى ، وبنى لهم بها مساكن دائمة ، بحيث يخصص لكل عشرة أو خمسة عشر حجرتان ، ومنح كل جندى فوق مرتبه الثابت ، مكافأة قدرها عشرة دنانير ، كما كان يطعمه فى العام بما يساوى ١٠٠ دينار ، وفى نفس العام جدد أيضاً سور « المصيصة » وسماها (المعمورة) ووضع بها ١٠٠٠ جندى[٩٠] ، وعاملهم معاملة إخوانهم غالبا .

ولما جاء « هرون الرشيد » جدد الثغور ، وأقام على خرائب « طرسوس » معسكراً كبيراً ، فيه حامية قوية ، ومنح جنودها مكافأة سنوية فوق راتبهم ، قدرها عشرة دنانير[٩١] .

أما ولده « المأمون » فقد جدد ثغر « طوانة » وشحنه بالمقاتلين ، ورتب لكل فارس منهم ١٠٠ درهم شهرياً ، ولكل راجل ٤٠ درهما[٩٢] .

ومن هذا يظهر أن مرتب المرابطين بالثغور ، كان ضعف مرتب جنود الجيش أو يزيد ، فقد عرفنا أن مرتب الفارس فى جيشه كان ٤٠ درهماً ، ومرتب الراجل ٢٠ درهما ، وهذا هو الشأن فى الجيوش الحديثة ، حيث يتقاضى المغتربون فيها ضعف المقيمين أو يزيد .

وقد كان بعض الخلفاء إذا أعوزه المال ، يمنح المرابطين أرضاً زراعية بدل

---

(٨٩) فون كريمر ص ٣٣٩ .

(٩٠) انظر أبو الفدا ط الأولى جـ ٢ ص ٣ وفون كريمر ص ٣٤٩ .

(٩١) نفس المرجع .

(٩٢) الكامل جـ ٦ ص ١٦٢ .

مرتباتهم ، ويظهر أن هذا كان تقليداً للنظام البيزنطى ، الذى كان يمنح الأرض فى نظير الخدمة العسكرية ، وكان منحها يتضمن إلزاماً بالخدمة فى الجيش ، يتوارثه الابن عن أبيه ، كما فصلّ (نورمان فى كتابه ص ١٧٥) ، ولكن عقلاء المسلمين وبعض العلماء ، عرفوا الخطر الذى تنطوى عليه تلك الخطة ، من ربط المالك بأرضه ، وانشغاله بها عن الجهاد ، وهو ما خشيه « عمر » فنصحوا للخلفاء بتركها ، فأقلعوا عنها ، بعد أن تبين لهم ضررها .

ويجب أن نذكر فى هذا المقام ، أن الحاجة للجند عند الشدائد ، كانت تستدعى إغداق المال عليهم بلا حساب ، لدرجة أن الخليفة كان يضطر أحياناً ، أن يدفع لهم قبل الخروج للقتال ، مرتب عامين أو ثلاثة ، كما فعل « الأمين » وكثيراً ما كان « المأمون » يعمل على إرضائهم ، إذا تمردوا عليه لتأخر مرتباتهم (٩٣) .

وكذلك كان الولاة بالأقاليم ، يستميلون الجند بالمال لينصروهم ، فقد حدث فى عام ١٩٦ هـ — ٨١٢ م أن ثار أهل طرابلس على والى إفريقية « عبد الله بن الأغلب » فلجأ إلى المال يجمع به البربر ، فكان يدفع للفارس أربعة دراهم كل يوم ، وللراجل درهمين ، فاجتمع له منهم جمع كبير ، زحف بهم إلى المدينة وفتحها ، ولا شك أن مبلغ ١٢٠ درهماً فى الشهر (٤٨٠ قرشا) مرتب عظيم جداً للفارس ، ولكنه كان فى حالات طارئة ، أما فى الحياة العادية ، فكان مرتب الجندى فى الغالب خاضعاً لحال الخزانة ، إلا الجندى المرابط ، الذى كان يعطى عناية خاصة .

الخلاصة

نستطيع أن نخرج من هذا التفصيل ، لمرتبات الجندى الإسلامى بصورة مجملة بما يأتى : —

ا — كان دخل المحارب فى فجر الإسلام ، وقبل وضع الديوان يكاد ينحصر فى أسهمه من الغنيمة ، ومن سلب قتلاه ، ومن الأنفال التى قد يخصّ بها إن كان من أهل البلاء .

ب — كان متوسط أجر الجندى فى ديوان « عمر » يساوى ٦٠٠ درهم فى العام

(٩٣) انظر فى هذا الكامل جـ ٦ ص ص ١١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٣١ ومواضع أخرى .

أى ما يعادل ٥٠ فرنكاً فى الشهر (أى ٢٠٠ قرش) هذا إلى جانب دخله السابق المذكور فى (ا) .

حـ ــ أن مرتب الجندى ارتفع فى الدولة الأموية ، فكان متوسطه بوجه عام ١٠٠٠ درهم سنوياً ، أى ٤٠٠٠ قرش بالعملة المصرية ، فيكون مرتبه الشهرى ٣٣٤ قرشاً تقريبا ، هذا بغض النظر عما كان يعترى المرتبات من زيادة أو نقص ، حسب الظروف السياسية والمالية وغيرها .

د ــ أن المرتبات كانت قليلة ، فى أول عهد « السفاح » ثم رفعها بعد معركة « الزّاب » إلى ٨٠ درهماً شهريا للمشاة ، ١٦٠ درهماً للفرسان (٣٢٠ قرشا و ٦٤٠ قرشا) . ثم أخذت المرتبات بعد ذلك فى التناقص ، لقلة الحاجة إلى الجند ، وكثرة الجيوش وضخامة أعدادها ، حتى صارت أيام « المأمون » إلى ٢٠ درهماً للراجل و ٨٠ للفارس .

هـ ــ أن المرابطين فى الثغور على الحدود ، كانوا يتقاضون أجوراً مضاعفة ، ويتمتعون بامتيازات فى المأكل والمسكن ، تكافئ ما يلقونه من خوف واغتراب ، وتعرّض للأخطار ، وهذا هو الشأن فى الجيوش الحديثة تتفاوت المرتبات فيها ، بتفاوت المواطن أمناً وخوفاً ، وقرباً وبعدا ، وغير ذلك من الاعتبارات الأخرى .

خامسا ــ نظام الأسر ومعاملة الأسرى :

تنتهى الحرب عادة بجمع الغنائم ، وسوق الأسارى ، ولما كان هؤلاء يحسبون ضمن الغنائم ، ويوزّعون على المقاتلين توزيع الأسهم ، كان من المناسب ذكر كلمة عن الأسرى ، ومعاملتهم عند المسلمين ، وبيان مكانهم من التشريع الإسلامى .

ا ــ نظام الأسر :

كان النظام المتبع فى الحروب الإسلامية ، أن يؤخذ الأسير بعد هزيمة قومه ، فيشد كتافه بربط يديه خلف عنقه ، ثم يوضع مقيداً فى محبسه ، حتى يفصل القائد فى أمره ، وأول ما عرف المسلمون أخذ الأسرى فى معركة « بدر » وكان للرسول صلى الله عليه وسلم فى معاملتهم طرق عدة :

(١) أن يطلق صراح الأسير فى فداء يدفعه ، أو يدفعه عنه أهله وكانت تلك

الطريقة معروفة فى الجاهلية، وأقرّها الرسول فى الإسلام، وكان ممّن أطلقه يوم بدر بعد دفع الفداء عمه « العباس بن عبد المطلب » ومعه بعض أبناء إخوته، ويومها جعل فداء الأسير الذى يحسن الكتابة، أن يعلمها عشرة من غلمان الأنصار، فإن تعلموها خلى سبيله، فكان ممن تعلم الكتابة يومها، الصحابى العالم « زيد بن ثابت »(٩٤) وغيره.

أما عن مقدار الفداء فقد روى « ابن هشام »(٩٥) أن أغلى ما فُدى به قرشىٌّ يوم بدر، كان أربعة آلاف درهم (حوالى ١٦٠ جنيها) وذكر « الماوردى »(٩٦) أن فداء الأسير المعتاد يومها كان ٤٠٠٠ درهم، ولكن النص الأول أوثق، وهو يشير إلى أنه كان فى الفداء ما دون ذلك؛ لأنه جعل ذلك المقدار الحد الأقصى للفداء، وأحياناً كان يفدى أسير من المسلمين بإطلاق أسير من الأعداء، وأول فداء من هذا النوع كان فى سرية « عبد الله بن جحش » حيث عاد منها بأسيرين من قريش، فبعث قومهما فى فدائهما: فامتنع الرسول حتى يقدمَ رجلان من رجال السرية، كانا تخلفا فى طلب بعير لهما، ومن الجائز وقوعهما فى أيدى قريش، فلما حضرا فدى الرسول الأسيرين وأطلقهما، وكذلك أطلق الرسول من أسرى بدر « عمرو بن أبى سفيان » ليفكّ به « سعد بن النعمان » الذى كان قد أسره « أبو سفيان » لما ذهب إلى مكة معتمرا(٩٧).

٢ — أن يطلقَ الأسير بلا فداء إن كان فقيراً، أو رُجى بإطلاقه صلاحه، بعد أن يتعهد بألا يظاهر على المسلمين أحداً، وأن يكف عنهم لسانه، كما منّ الرسول صلى الله عليه وسلم على « أبى عزة الجمحى » الشاعر، بعد أن تعهد ألا يكون ضد المسلمين بشعره(٩٨) فى غزوة بدر.

٣ — أن يُسترقّ الأسير إذا لم يجد فداء، أو كان غير أهل للمنّ عليه،

---

(٩٤) السهيلى فى الروض الأنف ط مصر ص ٩٢، ومحاضرات الخضرى ج ١ ص ١٠٦ ط ١٣٧٠ هـ.

(٩٥) سيرته بهامش الروض الأنف ص ٧٨.

(٩٦) الأحكام السلطانية ص ٤٤.

(٩٧) انظر هذين الخبرين فى سيرة ابن هشام بهامش الروض الأنف ج ٢ ص ص ٦٠، ٨٠.

(٩٨) محاضرات الخضرى ج ١ ص ١٠٦.

فيقوم بخدمة سيده ، ورعى ماشيته ، ورعاية النخيل وتعهدها ، وله حق بيعه إذا اقتضت الحال .

والرق مبدأ مقرر من أقدم العصور ، عرفه قدماء المصريين ، وكانوا يعدّون الرقيق آلة عاملة ، ومظهراً من مظاهر الأبهة والزينة ، وكذلك كانت الحال عند اليونان والرومان ، بل إن الفيلسوف « أرسطو » أيد صحته وأثبت مشروعيته ، وعرّف الرقيق بأنه (آلة ذات روح)[٩٩] .

وكان للرقيق فى الجاهلية أسواق يباع فيها ، واشتهار ذلك ليس بحاجة إلى استشهاد ، ويكفى أن نعرف أن الفارس « زيد بن حارثة » حِبَّ رسول الله ، كان رقيقاً يباع فى الجاهلية ، ثم اشتراه « حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد » التى وهبته بدورها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه ثم تبنَّاه ، وكان من أبرز قادته فى سراياه المختلفة[١٠٠] ، لما عرف به من الخبرة الحاربية والشجاعة .
ويتهمونهم بأنهم ما لاذوا به إلا هروباً من الرق والخدمة .

٤ — كان الرسول إذا وجد فى الأسرى ، من آذى المسلمين وألبَّ الناس عليهم ، بادر بقتله اتقاء شرّه ، فقد قتل من أسرى بدر « عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث » الذى رثته أخته «قُتيلة» بأبيات شعرية ، رق لها قلب الرسول[١٠١] ، وتمنى أن لو كان سمعها قبل قتله .

كانت هذه الطرق المتبعة فى الأسرى ، قبل نزول القرآن فى شأنهم ، ثم نزلت فى بدر آية الأنفال ، تلوم الرسول فى اتخاذ الأسرى للرغبة فى فدائهم : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة[١٠٢] » . ثم بين الله لرسوله حكم الأسرى صراحة فى قوله تعالى حاثًّا على

---

(٩٩) انظر تفصيل هذا فى كتاب « الرق فى الإسلام » لأحمد زكى (باشا) ، واقرأ الأستاذ « عبد الوهاب النجار » فى مقالاته عن الرق فى « صحيفة المعلمين » الأعداد ١ ، ٣ ، ٦ من السنة الثالثة ١٩٢٥ م .

(١٠٠) انظر ترجمته فى الإصابة وترجمة سلمان ومن ذكر معه .

(١٠١) الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ص ٤٧ ، ١٢٦ ومحاضرات الخضرى ج ١ ص ١٠٧ .

(١٠٢) سورة الأنفال آية ٦٧ .

القتال « فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشُدوا الوثاق ، فإما منًّا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها[١٠٣] ». فكان الرسول بعد هذا يمنّ على الأسير ، أو يفديه بالمال ، أو يفادى أسيراً بأسير ، والآية وإن لم تشر إلى الاسترقاق ، إلا أنه مفهوم من الآيات التى تذكر ملك اليمين وتكرره ، مما يشعر بأنها تُقرّ نظام الرق ، مع الترغيب فى الإقلال منه كما سيأتى بيانه ؛ ولذا بقى الرسول يعمل به فى نطاق ضيق ، فقد كان له سبى كثير من « بنى المصطَلق » قسمه بين أصحابه ، وسبى آخر من « بنى قريظة » باعه واشترى بثمنه خيلا وسلاحا للمسلمين .

وظل الرسول كذلك يقتل من الأسرى ، من يخشى أذاه ، ومن يؤلب على المسلمين فقد قتل « أبا عزة » الذى منّ عليه فى بدر ، ثم عاد لقتاله فى « أحد » فوقع فى الأسر ، وقتل كذلك يوم (حنين) الشيخَ الهرم الضرير « دُريد بن الصِّمة » لأنه كان يدبّر لقومه ، ويساعد على المسلمين[١٠٥] برأيه ؛ ولذا نقل الماوردى عن « الإمام الشافعى » قوله فى حكم الأسرى : « الإمام مخير بين القتل والاسترقاق ، والفداء بالمال والمنّ عليهم[١٠٦] » .

فلما كانت حروب الردة بعد وفاة الرسول ، وحروب الفتوح فى العراق والشام أنف المسلمون أن يسترقوا إخوانهم العرب ، واكتفوا بالمفاداة أو القتل ، ومما أثر عن « عمر » فى ذلك قوله : « أنه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً[١٠٧] » .

وقد حدّد هو لفداء العربىّ ستة أبعرة إلا « حنيفة وكندة » فإنه خفف عنهم لقتل رجالهم فى حروب الردّة ، وكان « عمر » معروفاً بالاجتهاد فى تشريعاته فيقضى بما تقضى به الحال ، وهو الذى وضع ذلك المبدأ القائل : « كل أسير كان فى أيدى المشركين من المسلمين ، ففكاكه من بيت مال المسلمين » .

وقد ساعده على إمضاء أحكامه ، أن سبايا الفرس والروم ، تدفقت على بلاد

---

(١٠٣) سورة محمد آية ٤ .

(١٠٤) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٧٩ ومحاضرات الخضرى جـ ١ ص ١٢٤ وفجر الإسلام جـ ١ ص ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(١٠٥) الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ص ٤٧ ، ١٢٦ وفجر الإسلام جـ ١ ص ١٠٢ .

(١٠٦) نفس المرجع ص ص ١٢٥ ، ٢٦ .

(١٠٧) الطبرى جـ ٣ ص ٢٧٦ .

المسلمين ، وكثر الرقيق بكثرة الحروب فى أيدى العرب ، حتى كان الواحد منهم يملك المئات والآلاف من العبيد « فالمسعودى » يروى أن « عبد الله بن الزبير » كان له من الرقيق ألف عبد وألف أمة[١١٠] ، وكان لغيره من الصحابة عبيد يخدمونه فى القتال ، ويحضرون معه المعارك مقاتلين .

فلما اتسعت الفتوح وأصبح للمسلمين أسرى فى أعدائهم ، كما أن لهم أسرى فى أيديهم ، أصبح القائد مخيراً بين قتل الأسير ، أو فدائه بأسير مسلم ، وامتنع الفداء بالمال لغنى الدولة عنه ؛ ولذا قال « أبو يوسف » الذى عاصر القرن الثانى : « الإمام فى الأسارى بالتخيير بين القتل والفداء ، حسب الأصلح للمسلمين . . . ولا يفادَى بهم بذهب ولا فضة ولا متاع ، ولا يفادى بهم إلا أسارى المسلمين »[١١١] .

ب ــ نظام المفاداة فى الإسلام :

كان هذا النظام من النظم المتبعة بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ؛ لأنهما كانتا فى حروب دائمة على حدودهما ، لا تنقطع إلا فى فترات قليلة وكانت هذه الحروب عادة تنتهى بأخذ أسرى من الدولتين ، فكانتا أحياناً تتفقان على أن يفدَى أسير من المسلمين بأسير من الروم ، وتحدّدان لهذا التبادل زماناً ومكاناً ، يتم فيه بصفة رسمية محفلية . يذكر « بن الأثير » حوادث (١٨١ هـ ــ ٧٩٨ م) فيروى أن أول فداء بين الروم والعباسيين حدث فيها ، وكان يمثل الدولتين « القاسم ابن الرشيد ، والملك نقفور » ففودىَ بكل أسير فى بلاد الروم ، وفرح الناس بذلك ، ثم بيّن المكان الذى جرت فيه المبادلة وكيفيتها فقال : « وكان الفداء باللامسَ (نهر) على جانب البحر بينه وبين طرسوس إثنا عشر فرسخاً ، وحضر الفداء خلق كثير ، من أهل الثغور وغيرهم ، من العلماء والأعيان ، وكان عد الأسرى ٣,٧٠٠ وقيل أكثر من ذلك[١١٢] » .

---

(١٠٨) الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ٥٣ وتواليها .
(١٠٩) أبو يوسف فى الخراج ص ١٢١ .
(١١٠) نقل أحمد أمين فى فجر الإسلام جـ ١ ص ١٠٥ .
(١١١) الخراج لأبى يوسف ص ١٢١ .
(١١٢) الكامل جـ ٢ ص ٦٤ حوادث ١٨١ هـ .
(١١٣) نفس المرجع ص ٧٧ .

ويروى « ابن الأثير »[١١٣] » أيضاً ، أن الفداء الثانى كان فى عهد الرشيد (١٩١ هـ) ولم يبق فيه بأرض الروم مسلم إلا فودى ، وكان عدد الأسرى فى هذا الفداء (2050) أسيراً[١١٤] .

ويصح هنا إيراد ما كتبه الأستاذ « الخضرى » عن الفداء الثالث (٢٣١ هـ — ٨٤٦ م) ففيه بيان أوضح لكيفية تبادل الأسرى فى زمنهم ، يقول : « وقد تقابل الفريقان فى يوم عاشوراء ، على نهر (اللامس) وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠ أسيراً ، فوقع الفداء ، كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً ، وقد عقد المسلمون جسرا على النهر ، وعقد الروم جسرا ، فكان المسلمون يرسلون الرومىّ على جسرهم ، ويرسل الروم المسلم على جسرهم[١١٥] » . وذكر من دلائل التسامح الإسلامى ، أنه بقى مع المسلمين بعد التبادل ١٠٠ أسير رومى ، فتفضّلوا على الروم بإطلاقهم بلا مقابل .

حـ — معاملة الأسرى فى الإسلام وغيره :

يجدر بنا قبل بيان تلك المعاملة ، ذكر كلمة عن الرق ومعاملة الرقيق فى الأمم الأخرى؛ ليتضح الفرق بين المسلكين ، ولنعرف مكانة الرقيق فى الإسلام .

الرقيق فى الأصل ناشئ من أسرى الحروب ، والحروب لا تنتهى بين الأمم ، فالرقيق معروف لديها جميعاً ، وقد كان العبد فى أقدم الشرائع وهى شريعة « موسى » عليه السلام ، يُسترقّ ست سنوات ، ثم يعتق بعدها ويعامل بالحسنى ، كما جاء فى الكتاب المقدس « إذا اشتريت عبداً عبرانيا فستّ سنين يخدم ، وفى السابعة يخرج حراً مجانا »[١١٦] وجاء فيه أن « إبراهيم » عليه السلام ، كان صاحب إماء وعبيد ، وأن زوجته « هاجر » كانت فى الأصل أمة مصرية ، وأن « يوسف » عليه السلام بيع عبداً لحاكم مصر ،[١١٧] كما قرر القرآن فى قصته ، ومن تلك القصة القرآنية ، ومن الإصحاح الذى ذكرها ، يفهم المرء أن الشرائع القديمة كانت تجازى

---

(١١٤) الجندية لثابت ص ٧٤ .

(١١٥) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى— الدولة العباسية ص٣٤ والجندية لثابت ص ٧٤ .

(١١٦) العهد القديم ، إصحاح ٢١ من سفر الخروج .

(١١٧) انظر سفر التكوين : آيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ .

السارق بالاسترقاق « قالوا جزاؤه من وُجد فى رحله فهو جزاؤه » وقد نفذ الحكم بأن أخذ يوسف أخاه لنفسه، فى نظير مكياله الذى سرقه، دون أن يجد على ذلك اعتراضاً.

وقد كانت الدولة البيزنطية تعطى السيد حق التصرف المطلق فى عبده، فيميته أو يبيعه كما يشاء[١١٨]، وقد زاد الرقيق فيها زيادة تلفت النظر، لعدم الرغبة فى عتقه، حتى بلغ عدد العبيد فى بعض عصورها، ثلاثة أرباع الأحرار من أبنائها، وظل العبيد يلقون شر المعاملات، حتى جاء الإمبراطور العادل « كلوديوس » فأمر بإعتاقهم جميعاً، حتى احتلوا الوظائف الإدارية وصاروا ينافسون حكام روما، ولكن سرعان ما عادت معاملتهم إلى سابق عهدها، فصار العبد يباع بيع السلع، ويُحرم من كثير من الحقوق المدنية والتعليمية، ولم تستطع الكنيسة إصلاح حاله، أو رفع الظلم عنه[١١٩].

بل إن تلك الدولة كانت تعد تجارة الرقيق من أهم مواردها، فكانت تحصل مكوساً على العبيد والغلمان والخصيان[١٢٠]، لتضاعف ميزانيتها، ومع ذلك كانت تمنعهم من تعلم القراءة والكتابة، وتعاقب من يخالف ذلك منهم عقاباً شديدا، وذلك لاستفادة السادة من جهل عبيدهم[١٢١].

أما الإسلام: فقد عامل الرقيق باللطف والعدالة، وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل على الإقلال منه، بالعفو عن الأسرى أو قبول فدائهم، فكتب المغازى تروى أنه بعد انتصاره على « بنى المصطلق »، وتوزيع السبى بين الجند، تزوج بنت زعيمهم، السيدة « جُويرة بنت الحارث » ليبادر أصحابه إلى إطلاق أهلها، الذين أصبحوا أصهار رسولهم، وفعلاً أعتق المسلمون إكراماً لها، أهل مئة بيت من قبيلتها[١٢٢].

ومرة أخرى جاءه وفد «هوازن» يطلبون سباياهم بعد توزيعها، ويتركون له أموالهم، فأوحى إليهم سراً أن يستشفعوا به لدى المسلمين، عقب انصرافه من الصلاة،

---

(١١٨) محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٩٤، وفون كريمر ص ٣٣٢.
(١١٩) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية – تعريب مؤنس وزايد ط ١٩٥٠ ص ٧٥.
(١٢٠) نورمان بينز ص ١٦٣.
(١٢١) وسترمارك، نقلا عن الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٤٩.
(١٢٢) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٩٨ ومحاضرات الخضرى فى السيرة ص ١٢٤.

فلما كلموه أطلق لهم أسراهم ، ووعد المتمسك بحقه من الجند ، أن يدفع له ست نياق لقاء أسيره الذى يطلقه[١٢٣] ، فأى تحايل شريف على منح الحرية للناس كذلك التحايل ؟

والرسول كثيراً ما أوصى أصحابه بحسن معاملة الرقيق ، فأمرهم ألا يكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم من الأعمال ، وأن يساعدوهم إذا كلفوهم ، وأمرهم أن يطعموهم مما يَطعمون ، ويكسوهم مما يلبسون ، وشجع العبيد على حضور مجالس العلم ، والتزود من المعرفة ، وكان أصحابه ينفذون تعليماته بكل دقة ، فكانوا يؤثرون الأسير على أنفسهم بجيِّد الطعام ، لدرجة كانت تجعله يشعر بالخجل[١٢٤] ، وكان الأسرى ينالون قسطهم وافياً من الطعام والمعاملة الحسنة[١٢٥] ، فى حين يلقى الأسرى فى القرن العشرين ، ما تشيب لهوله الولدان من التعذيب والحرمان .

وفى الوقت الذى نرى فيه الروم يجعلون للسيد حق إهلاك عبده ، ومنعه من التعليم ، نسمع « عمر بن الخطاب » يقول فى جواز أمان العبد المسلم إذا أمّن أحد الأعداء : « عبد المسلمين من المسلمين ، وذمته من ذمتهم ، يجوز أمانه[١٢٦] » فأى سموّ بالرقيق ذلك السموّ ، الذى يجعل كلمته محترمة ، سارية على سادته فى حال القتال ؟

هذا وقد حرص الإسلام الحرص كله ، على تحرير الأرقاء وفك الرقاب ، فقد جعل عتق العبد أحد أبواب ثمانية ، من مصارف الزكاة ، فالعبد يساعَد من أموالها فى سداد أقساطه لسيده ، ليصير بعد أدائها حرًّا ، قال تعالى فى مصارف الزكاة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب[١٢٧] . . الآية » فجعل للعبد الحق فى أن يشترى نفسه من سيده ، بمال يتفقان على قدره ومواعيد دفعه ، وفتح للأمَة سبيل الحرية إذا أولدها سيدها ، وجعل عتق الرقبة كفارة كثير من المخالفات التى يرتكبها المسلم ، وما أكثر المخالفات من النفوس البشرية ،

---

(١٢٣) الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ص ١٢٩ إلى ١٣٢ وكتب السيرة المختلفة .
(١٢٤) ابن هشام بهامش الروض الأنف ص ٧٨ .
(١٢٥) الخضرى : تاريخ الدولة العباسية ص ٢١٢ .
(١٢٦) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٦ .
(١٢٧) الآيات الآتية بترتيب ذكرها فى سورة البقرة ١٧٧ والنساء / ٩٢ والمجادلة / ٣ والتوبة والبلد .

فجعل العتق كفارة القتل الخطأ « ومن يقتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة» وجعله بالتخيير فى كفارة اليمين ، إذا حنث فيه صاحبه « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة » وجعله كذلك كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة » .

بل إنه رغب فى العتق لغير تلك المخالفات ، فجعله طريقاً من طرق شكر الله على نعمته ، قال تعالى يخاطب الإنسان : « فلااقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فكُّ رقبة .

حقيقة إن الإسلام جعل العبد نصف الحر ، فى المعاملات الاجتماعية والشهادة وغيرها ، ولكن هذا الفارق قد يكون هو الوحيد بين العبد وسيده ، ومع هذا فقد رأينا السادة الروم يستفيدون من جهل عبيدهم ، ورأينا السادة المسلمين يُعنون بتعليم عبيدهم وإمائهم حتى لمع نجم الكثير منهم فى ميدان العلوم والفنون ، ويكفى أن نعرف أنه من بين الأرقاء المسلمين ، العلامة « ياقوت » صاحب معجم البلدان والمؤلفات القيمة ، الذى طار ذكره فى الناس(١٢٨) ، كما كان من بين الإماء المثقفات من حذقت الغناء ، وأجادت الموسيقى والأدب ، ودرست علوم الشرع المختلفة ، حتى جذبت لها أنظار الأمراء ، وزاحمت الحرائر فى قصور الخلفاء ، وبخاصة فى الدولة العباسية ، التى كان معظم خلفائها أبناء الجوارى المملوكات .

هذه معاملة الإسلام للأسير بعد استرقاقه ، وقد رأينا معاملة الرسول له حتى فى الميدان ، وهذا لا يمنع المرء من ذكر بعض المعاملات القاسية ، التى كانت تبدر من بعض القادة للأسرى ، وهم القادة الذين كانوا معروفين بالإسراع إلى سفك الدماء « كخالد بن الوليد » الذى قال فيه الفاروق « إن فى سيف خالد لرهقا » والذى أقسم يوماً ، لئن نصره الله على أعدائه ليُجرين النهر بدمائهم « وكيزيد بن المهلب » الذى يروى عنه أنه أعاد فتح « جُرجان فأخذ أسراهم » وصلبهم فرسخين ، إلى يمين الطريق ويساره ، وقاد منهم ١٢,٠٠٠ إلى وادى جرجان ، وقال : من طالبهم بثأر فليقتل ، فكان الرجل من المسلمين ، يقتل الأربعة والخمسة ، وقيل إنه

---

(١٢٨) بتلر فى فتح العرب لمصر ص ٣١ .

قتل منهم ٤٠,٠٠٠ من الأسرى[١٢٩] .

وإذا كنا ندافع عن هؤلاء القادة ، بأنهم كانوا يريدون إرهاب عدوهم القوى ، فكيف بالدفاع عن غيرهم ؟ لقد لوحظ السرف فى الدماء أيضا على « الحجاج بن يوسف » وكان إسرافه ظاهراً فى قتل أسرى « دير الجماجم » التى انتصر فيها على الثائر ، « محمد بن الأشعث » لدرجة أن الخليفة عبد الملك لامه بقوله : « أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذيرك فى الأموال ، ولا يحتمل هاتين الخصلتين لأحد من الناس[١٣٠] .

ويظهر أن بعض القادة الأمويين والعباسيين ، كانت تلعب بهم الأهواء السياسية والنزعات النفسية ، لبعدهم عن زمن الرسالة ، وعهد الخلافة ، فرأيناهم ينكلون بالأسرى ، ويخلفون الوعد والأمان اللذين أوجب الإسلام احترامهما .

فهذا « ابن الأشعث » يسلك سبيل أستاذه الحجاج ، عندما ثار به بعض قادته (١٤٧ هـ-٧٦٥ م) فإنه حاربه حتى قتله وهرب عنه أصحابه ، ولكن « ابن الأشعث » أعطاهم الأمان ليعودوا ، فلما عادوا قتلهم جميعاً[١٣١] وهل الغدر غير شيء هذا ؟ .

بل إن آخر خلفاء بنى أمية « مروان بن محمد » « عُرف عنه فى الناس أنه كان يقتل أسراه جميعاً إلا العبيد ، فكان الكثير منهم يدّعون أنهم عبيد[١٣٢] ، ليتخلصوا من ظلمه .

وأيًّا ما كان الأمر ، فهذه أمثلة فردية ، تشهد بمخالفتها للتشريع الإسلامى العام ، والقواعد التى جرى العمل بها فى صدر الإسلام ، وإنما ذُكرت إحقاقاً للحق ، وليظهر للناس أن المسلمين كغيرهم ، فيهم الفاتك وفيهم المقتصد ، وإن كان الفاتك فيهم ، لم يبلغ ما بلغه المسرفون فى الدماء من الرومان ، أو المغول أو الأتراك أو البيزنطيين .

ونهاية القول أن الإسلام ، كان يرعى حق الأسير ، فلا يلقيه فى المعتقلات حتى يموت جوعاً وعريا ، ولا يكلفه من الأعمال ما يقصم ظهره ، على النحو الذى

---

(١٢٩) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٤ .

(١٣٠) المسعودى فى مروج الذهب جـ ٣ ص ١٤١ .

(١٣١) الكامل جـ ٥ ص ١٢٨ .

(١٣٢) الكامل جـ ٥ ص ص ١٤٥ ، ٤٩ .

تعامل به الأسرى، فى عصر النور والمدنية، وعلى أيدى المثقفين من أبناء الأمم الغربية ، التى تدَّعى أنها حامية الحضارة فى العالمين، ثم تسترقّ الشعوب والأفراد ، وتعترف فى قوانينها بالتفرقة بين السود والبيض ، وتخص الزنوج فى بلادها بمعاملة يأباها الطبع السليم ، والذوق الإنسانى الكريم .

وهكذا نرى الإسلام فى فجره يفك الرقيق ، والعصر الحاضر فى حضارته يسترق الأحرار ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات .

الفصل السابع

السر فى اكتساح الفتوح الإسلامية

إن الناظر فى تاريخ الفتح الإسلامى ليعجب لسرعة انتشاره ، وتوالى انتصارات الجيوش الإسلامية ، بشكل لم يُعهد فى تاريخ الحروب السابقة، فقد اندفعت تلك الجيوش المظفرة، تجوب البلاد شرقاً وغرباً لا يقف لها شىء، وتتهاوى أمام ضرباتها القاصمة حصون الفرس والروم، كما تتهاوى أوراق الخريف، وبسيوف تلك الجيوش فقد الفرس ملكهم، الذى بذلوا فى تأسيسه قرونا طويلة ، كما فقد الروم عزّهم فى شمال « إفريقية » وسقطت معاقلهم السورية بسيوفهم، فغادروها محزونين آسفين ، يظهر هذا جليا فى قولة « هرقل » المشهورة ، التى فاه بها عندما ألقى آخر نظرة له على مروج سوريا « سلام عليك يا سوريا سلام مودّع ،ونعمَ الأرضُ أنت للعدوّ ». وقد كفى لفتح الأندلس الغنية حروب عامين فقط[1].

ولقد دهش المؤرخ « غوستاف لوبون » لسرعة الفتح الإسلامى ، فدفعته الدهشة إلى المبالغة فى قوله عند ذكر الفتح الإسلامى : « وقد كفى لثلٍّ عرش الأكاسرة ، وهدم الدولة الفارسية العريقة فى القدم، حروب شهرين (كذا) وقد خسر الروم فى سبع سنوات « سورية » التى ظلوا حاكمين لها ثلاثمئة سنة[2].

وكيف يملك المرء نفسه من العجب، لقوم لم يمض على وجودهم قرن كامل، حتى بسطوا سلطانهم على نصف العالم القديم بوجه التقريب ، فوصلت فتوحهم إلى بلاد الصين شرقا ، وإلى المغرب الأقصى والأندلس غربا ، وامتدت رقعة ملكهم من جبال « القوقاز » وسهول سيبيريا شمالا ، إلى بلاد النوبة جنوبا، وهو ملك يبدو فى عين المقدّرين إمبراطورية ضخمة ، يحتاج فى تأسيسه إلى قرون طويلة ، فما السر يا ترُى فى هذا الفتح السريع المتواصل ، الذى لم يسمع بمثله فى تاريخ الحروب

---

(١) الجغرافية التاريخية الإسلامية . الأستاذ حسونة ص ٨٧ ط ١٩٥٠ م .

(٢) حضارة العرب تعريب زعيتر ط الحلبي ص ١٥٧ .

إلا نادرا ؟ إن ذلك يرجع فيما يبدو إلى أسباب عدة : بعضها يرجع إلى نفسيّة الفاتحين ، وطبيعة الدعوة الإسلامية ، والدين الجديد، وبعضها يرجع إلى الأمم المقهورة ، والشعوب التى كانت محكومة للفاتحين .

١ ــ أسباب تتعلق بالمسلمين الفاتحين :

أولا ــ إيمان المسلمين بعدالة قضيتهم :

إن إيمان الجندى بعدالة القضية التى يحارب من أجلها ، عامل له أبعد الأثر فى نصر الجيوش واندحارها ، فاليوم الذى يحارب فيه الجندى فى سبيل قضية يؤمن بخسرانها ، هو اليوم الذى تتم فيه هزيمته ، واليوم الذى يحارب فيه مؤمناً إيماناً راسخاً بأنه على حق ، هو اليوم الذى يتم فيه نصره ، وهذا المعنى مقرر فى الأذهان قديماً وحديثاً ؛ ولذا يقول القائد « كرمويل »[٣] : أن أقوى غرض مشترك للجيش ، هو أن يعتقد أفراده أنهم أداة الخالق لتنفيذ أحكامه ، وأية قوة تستطيع الصمود فى وجه القوة الإلهية ؟ ولقد كان المسلمون كذلك ، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم جند الله ، يحاربون لإعلاء كلمته ونشر دينه ، بينما يقاتل أعداؤهم فى سبيل الشيطان ، ولن ينتصر ــ الشيطان يوما على الرحمن ، قال تعالى : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا[٤] » .

وكان المسلمون يعتقدون اعتقاداً راسخاً ، بأنهم الرابحون فى القتال على أية حال ، فأحدهم إما أن يقتل مجاهداً فيفوز بنعيم الجنة ، وإما أن ينصر فيعود بالأجر والغنيمة ، ويكون قد حصّل خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة[٥] » . ولا شئ يشد أزر الجندى كإيمانه بوجهة نظره ، واطمئنانه على مصيره المحمود، فى حالتى النصر أو الغلبة، فما بالك به إذا كان يعتقد أنه من حزب الله ، الذين يُنزل عليهم نصره، ويؤيدهم بروح من عنده ، وملائكة

---

(٣) نقل العقيد (شوقى) فى كتابه فن القيادة ص ١٣٤ .

(٤) سورة النساء آية ٧٦ .

(٥) سورة التوبة ١١١ .

من جنده ، قال تعالى: « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة[٦] » فأراهم معجزة النصر بأعينهم ، وبين لهم كيف تنتصر القلة المؤمنة ، على الكثرة الكافرة ، وبين لهم كيف يفي لجنده بوعده ويحقق نصره ، قال تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه[٧] ».

فهذه العقيدة تخلق فى صاحبها روح التضحية ، وتحمله على إيثار الموت على الحياة ، وتجعل فيه الشجاعة التى تمكنه من ملاقاة عدو يفوقه عددا وعدة ، ولهذا المعنى يقول « دكتور أومان [٨] » فى كتابه « إن العرب الذين قادهم « خالد وعمرو » فى القرن السابع لفتح « سورية ومصر » لم يفوزوا بالنصر لكثرة جيوشهم ، أو لدقة نظامهم ، وإنما للتضحية والشجاعة النادرة ، فهى التى أقدرتهم على أن يواجهوا قوات أوفى منهم سلاحا ، وأدق منهم نظاما » . كما لاحظ هذا المعنى أيضا كثير من المستشرقين والمؤرخين ، ويكفى أن أذكر منهم الدكتور « فيليب حتى[٩] » فإنه يقول فى كتابه : « وملأ قلوبَ العرب شجاعة احتقارُهم التامُ للموت ، الذى قرره فى أذهانهم دينهم الجديد » .

ثانيا — تأصل الصفات الحربية فى المسلمين :

لقد كان العرب منذ جاهليتهم مفطورين على حب الفروسية ، ومزاولة أعمال البطولة الحربية ، وساعدتهم بيئتهم الحربية على تنمية غريزة المقاتلة فيهم ، وقد كانت تلك الغريزة تجد مجالا واسعاً لإشباعها ، فى أيام العرب وحروبهم[١٠] التى كانت لا تكاد تنقطع فى الجزيرة العربية ، فلما جاء الإسلام جمع العرب على كلمته ، ونظمهم فى سلك الأخوة الإسلامية ، وقضى على أسباب الفرقة والتشاحن بينهم ، فلم تجد تلك الغزيزة لها متنفسا ، وكانت كلما حاولت الظهور لرد عدوان قريش ، كفكف الرسول من غربها ، وأمر أصحابه بأن يكفوا أيديهم ، حتى يأذن الله له فى القتال ، فلما أذن الله له فيه بقوله : « أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ،

---

(٦) آل عمـران ١٢٣ .

(٧) آل عمـران ١٢٥ .

(٨) A Hist. of the Art of war. pp. 152-808.

(٩) تاريخ العرب تعريب الأستاذ نافع جـ ١ ص ١٧٦ .

(١٠) أنظر تمهيد الرسالة .

وإن الله على نصرهم لقدير » . نشطت رغبتهم الحربية من عقالها ، ووجدت الفرصة سانحة لاستغلالها ، ووجد المحبون للفروسية المناسبة التي يُشبعون بها نزعاتهم الحربية ، ففي شرعية القتال وثواب الجهاد مجال أيّ مجال ، فاندفعت قوى المسلمين جارفة عارمة ، تأتي على ما يقف في طريقها ، لإعلاء كلمة الله ، وتأديب المتحرّشين بالحكومة الإسلامية ، أو الخارجين عليها لسبب من الأسباب .

وقد ظلت تلك الغريزة تزاول نشاطها ، حتى دان للمسلمين العالم المجاور لهم ، واتسع سلطانهم ، فلما بعدوا عن روح الإسلام الحق ولعبت بهم الأهواء والأحقاد الدنيوية ، صار بأسهم بينهم ، واستغلوا صفاتهم الحربية ، في الثورات الداخلية وإخمادها ، وفي هذا المعنى يقول (جوستان لوبون[١١]) . « لم تكن جزيرة العرب ... قبل ظهور « محمد » إلا ميدانَ حرب دائم واسع ، لما تأصل في العرب من الطبائع الحربية ، فلما جاء الإسلام وألّف بين قلوبهم ، وجهوا جميع قواتهم إلى البلاد الأجنبية فتم لهم النصر ، ولما لم يبق من الأعداء من يحاربونه وجهوا أسلحتهم نحو أنفسهم ، بفضل صفاتهم الحربية المتأصلة فيهم ، فصارت هذه الصفات التي كانت سر عظمتهم هي سبب انحطاطهم » .

ولقد نقل الأستاذ « محمد كرد علي » هذا المعنى عن « لوبون » أيضا ، ولكن في ترجمة مغايرة قليلا للسابقة ، فهو يقول : « إن اعتياد العرب الحروب والغارات في الجاهلية ، كان من قيام أمرهم في الإسلام ، فبعد أن كان بأسهم بينهم ، وجهوا غاراتهم نحو الأجانب ، فكان في ذلك قوتهم ... ولما لم يبق أمامهم أعداء يقاتلونهم ، عادوا يتقاتلون فأدى ذلك إلى انحطاطهم[١٢] » .

مما تقدم نعلم أن طبيعة المسلمين الحربية ، التي انحدرت إليهم من البيئة العربية الجاهلية ، كانت خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين ، وعاملا مهما من عوامل السرعة في الفتح الإسلامي .

ثالثا — تحول العصبية القبلية إلى عصبية دينية :

عُرف العرب من بين الشعوب بحفظ أنسابهم ، والتعصب للقبيلة تعصباً ظاهرا ،

---

(١١) حضارة العرب تعريب عادل زعيتر ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .
(١٢) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٤٤ . ولكنه للأسف لم يشر إلى مرجعه .

فقد عاشوا داخل جزيرتهم فى شبه عزلة عن غيرهم ، بفعل الصحارى التى تشمل بلادهم ، عاشوا فيها قبائل متنافرة متحاربة ، تلازمهم فى القتال روح العصبية القبلية ، فلما جاء الإسلام وضمهم إلى كنفه ، آخى بين المسلمين جميعا ، وأزال الفوارق بين طبقاتهم ، وقضى على العصبية القبلية فيهم ، وأحل محلها التعصب للدين الجديد ، وللدولة الإسلامية بوجه عام ، وربّى المسلمين تربية جماعية ، وأوجد فيهم وعياً عامًّا راقياً ، فبعد أن كان العربى يثور لفرد من قبيلته ، أصبح يثور لأخيه المسلم أيًّا كانت قبيلته ، وبعد أن كانت القبيلة هى وحدة الحياة الاجتماعية ، حلت محلها الحكومة الإسلامية .

فلما وجهت هذه العصبية الإسلامية لمحاربة الشرك والمشركين ، فعلت فعلها كما كانت تفعل العصبية القبلية فى الجاهلية ، التى قضت عليها تعاليم الإسلام أو كادت تقضى عليها ، فقد كانت تحاول أن تخرج أعناقها زمن الرسول وخلفائه ولكن قوة شخصيتهم ، وحسن توجيههم لها نحو الفتوح ، كان يكتم أنفاسها ، ويردها إلى جحرها ، فلما وقفت عجلة الفتوح ، وبعدُ الناس عهداً عن أبطال الصدر الأول ، عادت عصبياتهم للظهور ، وكانت من بين العوامل التى فرقت كلمة المسلمين ، وأضعفت شوكتهم وهنا يقول الأستاذ « محمد مبروك نافع » عند توضيحه لهذا المعنى فى ترجمته لكتاب « الدكتور حتى[١٣] » : « ولم تختف العصبيات إلا فى فترة الفتوح الأولى ، حين اكتسحت الروح الدينية كل شئ ، ولكن عندما استقرت الأمور ، كشفت العصبيات عن نفسها وكانت من بين العوامل الفعالة التى أدت إلى انحلال الحكومات الإسلامية المختلفة وسقوطها » .

وفى الحق أن العصبية كانت سلاحاً ذا حدين ، فإنها لما هُذبت ووجِّهت لصالح المسلمين ، أثمرت خيراً وبركة ، فلما ضعفت الروح الدينية عادت لسابق عهدها ، فأثمرت شرًّا وضعفا ، وأدت إلى تفكك الدول الإسلامية .

وقد كان النصيب الأوفى فى تشجيع العصبية القبلية ، راجعاً للخلفاء الأمويين ، الذين أرادوا أن يَشغلوا الناس بها ، عن النظر فى الخلافة ونظامها ، ويشغلوهم عن ألاعيبهم السياسية : ففى عهدهم هاجت العصبية بين اليمانية والمصرية فى كل مصر

(١٣) للأستاذ نافع فى تعليقه على تاريخ العرب ج ١ ص ٣٥ طبعة ٢ ؛ قارنه بما ورد فى سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٥ ط الحلبى .

من الأمصار ، وكانت السلاح القاتل فى يد « أبى مسلم » الذى قضى به على الأمويين . وكذلك كانت تثور الفتن كثيرا أيام العباسيين ، بين هذين الحيين فى بغداد والكوفة والبصرة ، وفى مصر ودمشق ، وكذلك فى بلاد الأندلس ، حيث كان يستمر القتال بينهما سنوات قد تصل إلى سبع[١٤] ، مما أضعف شأن المسلمين ، وكان سبباً فى القضاء على سلطانهم هناك والفتك بهم .

٤ — سمو الروح المعنوية "Moral"

لقد امتاز المسلمون بروح معنوية ، هى غاية فى السمو والقوة ، سببها رغبتهم فى إعلاء كلمة الله ، والفوز بنعيم الجنة إذا قتلوا ، أو بالثواب والغنيمة إذا سلموا ؛ لذا كان أحدهم يحارب وقد ضمن لنفسه المنفعة ، سواء أكانت عاجلة أم آجلة ، فيقدم إقدام المستميت ، ويحب الموت كما يحب غيره الحياة ، وقد عُرف هذا عن المسلمين بين أعدائهم ، فكان له أثر كبير فى نفوسهم ، فكانوا لا يثبتون أمامهم إلا قليلا ثم يفرون ، بل كثيرا ما كانوا يذهلون لمقدمهم فيسلمون لهم الحصون ، وبخاصة إذا عرفوا أن القائد رجل مظفَّر « كخالد أو عياض أو سعد أو قتيبة » أو غيرهم ممن يماثلهم ، فهذا زعيم « دومة الجندل » يقول لقومه لما علم بقدوم خالد إليهم ، « أنا أعلم الناس بخالد — لا أحدَ أيمن طائراً منه ، ولا يرى قوم وجهَ خالد قلوا أو كثروا إلا انهزموا ، فأطيعونى وصالحوا القوم[١٥] » .

إذن فقد كان المسلمون يحاربون بشهرتهم التى تسبقهم ، كما كانوا يحاربون بسيوفهم أو أكثر ، وكانت هذه الشهرة تقوِّى من روحهم ، وتُضعف من روح عدوهم ، وقد التفت إلى هذا المعنى الفيلسوف « ابن خلدون[١٦] » فقرر أنه « من أقوى أسباب الانتصار ، ورفع روح الجند ، ذيوع الشهرة ، وبعد الصيت ، وتناقل أخبار النصر ، به يُلقى العدو سلاحه ، ويفقد روح المقاومة » ، وكذلك كان الفرس يلقون سلاحهم أمام « سعد » ، وأهل خراسان أمام « قتيبة بن مسلم » لدرجة

---

(١٤) انظر الكامل لابن الأثير جـ ٥ صفحات ٦ ، ١٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، جـ ٦ صفحات ٤٥ ، ٦٧ ، ١١١ وتواليها .

(١٥) الفتوة عن العرب للأستاذ عمر الدسوقى ص ١٨٦ .

(١٦) المقدمة له ص ٢٣٣ .

أن أهل إقليم « صاغان » أتوه بهدايا ومفتاح من ذهب ، وسلموا إليه بلادهم بالأمان[١٧] ، كما كان الروم يلقون سلاحهم أمام « خالد وأبي عبيدة » .

وإن الضربات التي ذاقها الفرس من « خالد » يوم الوَلَجة وأُلَّيس وغيرهما جعلت قواد الفرس يجبنون عن مواجهة المسلمين في القادسية ، فهذه المحاورة التي دارت بين « يزدجِرد » وقائد جيوشه « رستم » تنطق على فرض صحتها ، بأن القائد كان يحاول التهرب من لقاء المسلمين ، وأنه أُرغم على الخروج لهم ، فخرج وقلبه مفعم بالفزع ، كما تفيدنا رواية « ابن الأثير[١٨] » وما ظنك بقائد يخرج لعدوه متردداً ، غير واثق بنفسه ؟ لا شك أن شعوره هذا ينعكس على جنده ، فيقودهم للهزيمة .

ولقد بلغ من فزع الفرس بعد هزيمتهم في القادسية ، « أن كان الجندي المسلم يشير إلى الفارسي فيأتيه فيقتله ، وربما أخذ سلاحه فقتله به ، وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما الآخر[١٩] ، وما ذاك إلا للرهبة التي داخلتهم منهم والهيبة التي جعلتهم يخرجون لقتالهم مقرنين في السلاسل خشية الفرار ، وكثيراً ما كانوا يقولون عن العرب : ما نقاتل إلا شياطين ، وهذا الرعب هو المقصود بقوله تعالى عن الكفار : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله[٢٠] » . وهو المقصود بقوله عليه السلام : « نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر[٢١] » .

وقد تولى الله سبحانه تربية هذه الروح في نفوس المسلمين ، فعمل على تقويتها بتذكيرهم بنصره لهم ، وتأييده إياهم ، قال تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » وقال : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تُقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره ، من يشاء[٢٢] . » ثم هو يشعرهم بأنهم الغالبون مهما تداول النصر بينهم وبين عدوهم ، ومهما نزل بهم من إيلام أو شدة

---

(١٧) النجوم الزهراء لابن تغرى بردى جـ ١ ص ٢١٢ .
(١٨) القصة مطولة بالكامل جـ ٢ ص ١٩١ وتواليها .
(١٩) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٢٠) سورة الحشر آية ١٣ .
(٢١) صحيح البخاري – باب الجهاد جـ ٥ ص ٥٤ .
(٢٢) سوره آل عمران آية ١٣ .

« ولا تهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلوْن إن كنتم مؤمنين[٢٣] » . « ألا إن حزب الله هم الغالبون » .

ولأمر ما كلف الله المسلم أن يثبت أمام عشرة من أعدائه ، ثم خفف عن المسلمين لما علم منهم ضعفهم ، فجعله يثبت لاثنين ، وألزمه الصبر والثبات أمامهما ، وحرّم عليه الفرار منهما مهما كان الموقف ، وكثيراً ما كان يحدث هذا فى معارك المسلمين ، فابن هشام يروى أن « أبا عامر الأشعرى » قتل تسعة من المشركين مبارزة ، ثم حمل على العاشر فاستجار به فعفا عنه فأسلم ، وأكثرُ من هذا ما رواه « الطبرى[٢٤] وابن الأثير » فى حوادث سنة ١٣ هـ من أنه أحصى فى معركة (البُوَيْب) بالعراق مئة مسلم ، قتل كل منهم عشرة من جنود الفرس ، ولذا سُموا أصحاب الأعشار « كما سُمى يوم المعركة « يوم الأعشار » وقد أحصوا إلى جانب هؤلاء عدداً كبيراً من أصحاب التسعة والثمانية .

وأكثر من هذا وذاك أن بعض أبطال المسلمين ، كان يقتل مئة من الأعداء فى المعركة الواحدة ، فقد نقل السيد « رفيق العظم[٢٥] » أن « البَراء بن مالك » كان من أصحاب المئين فى « حرب الهُرمزان » يوم معركة « تستُر » فقد قتل مئة مبارزة فى أثناء مدة الحصار ، ومثله كان « مجْزأة بن ثَور وكعب وغيرهم » .

وكما تولى القرآن تقوية الروح المعنوية ، تولى الرسول كذلك تقويتها فى أصحابه فقد دأب دائماً على تبشيرهم بالنصر والفتح ، حتى فى أشد أوقات الضيق والحرج ، ومن ذلك قوله لأصحابه : « أبشروا بالنصر » عندما لحن له رُساه بغدر بنى قريظة يوم الأحزاب ، كما تولى إضعافها فى أعدائهم ، بإظهار قوته ولو بوسائل مصطنعة ، ومن ذلك خروجه وراء قريش ثانى يوم من « أحد » وعامة أصحاب جرحى ، وأمرهم بأن يوقدوا ليلا ٥٠٠ نار ، حتى يراها المشركون من المكان البعيد ، كما أوقد عشرة آلاف نار[٢٦] ليلة فتح مكة ؛ ليفتّ ذلك فى سواعد المشركين .

وفى سبيل تقوية هذه الروح ، وإثارة الحماسة فى نفوس المسلمين ، كان الله

---

(٢٣) سورة آل عمران ١٣٩ .

(٢٤) الطبرى جـ ٤ ص ٧٥ والكامل جـ ٢ ص ١٦٣ .

(٢٥) أشهر مشاهير الإسلام ص ٣٢٦ .

(٢٦) الطبقات الكبرى لابن سعد طبعة ليدن جـ ٢ ص ٣٥ ، ٩٧ .

سبحانه يُثير عواطفهم، ويستنهض فيهم النخوة العربية،والنجدة البدوية، فذكرهم بإخوانهم المحصورين بمكة، الذين لا يملكون دفع الضيم عن أنفسهم، قال تعالى: « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا[٢٧] » .

كما أثار فى نفوسهم الحقد على أعدائهم، بتذكيرهم بأيام المذلة والقلة، حيث كانت قريش تستقلهم، وتنزل عسفها بهم قال تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون[٢٨] » .

لقد أثمرت هذه التربية الإسلامية ثمرتها فى نفوس المسلمين ، فخلقت فيهم قوة معنوية جبارة ، فبها كنت ترى الأعرج المقطوع يجندل الأبطال ، ويستطيل حياته فى الميدان شوقاً للجنة ، فى حين يفر ضعيف الروح من لمع السيوف ، ويفزع للهيعات ، والفرق بينهما هو الفرق بين روحيهما ، والقوة الدافعة فى كل منهما ، حيث خرج الأول راغباً عن العودة، وخرج الثانى راغباً فيها ، وشتان بين من يفكر فى ولده وماله ، ومن يفكر فى لقاء ربه ونعيم جناته .

وليتضح لنا أثر الروح المعنوية فى الجندى، وكيف كانت تُقدره على الإتيان بالمعجزات ، يصح أن نستمع إلى ما يرويه « ابن هشام[٢٩] » عن « معاذ بن عمرو ابن الجموح » فإنه ذكر فى يوم بدر أن معاذاً ضرب « أبا جهل » ضربة أطنّت قدمه بنصف ساقه ، ثم روى عنه قوله : « وضربنى ابنه « عكرمة » على عاتقى فطرح يدى ، فتعلقت بجلدة فى جنبى ، وأجهضنى القتال عنها ، فلقد قاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى ، فلما آذتنى وضعتُ عليها قدمى ، ثم تمطيت بها عليها فطرحتها . فهذا الرجل الذى يتخلى عن ذراعه بتلك الطريقة ، ولا يمنعه ألمها ، ولا الدم النازف منها عن القتال ، رجل مسحور لا شك بقوة روحه التى طغت

---

(٢٧) سورة النساء ٧٥ .

(٢٨) سورة الأنفال ٢٦ .

(٢٩) سيرته بهامش الروض الأنف ص ٧٢ .

على بدنه ، فجعلته لا يحس بالآلام ، مركزاً همه فى طلب الشهادة كأنه ينشق ريح الجنة ويراها .

وهاك مثالا آخر يبين أثر تلك الروح فى أوسع مجاليه ، وهو مثل فريد فى بابه إذ أنه غير من وجه المعركة يوم أحد، فحولها من هزيمة ساحقة للمسلمين، إلى تحاجز بين الفريقين ، دون أن يهزم أحدهما الآخر، ذلك أن « ابن الأثير وأبا الفرج (٣٠)» يرويان أنه لما أشيع قتل الرسول يوم أحد ، ألقى المسلمون بأيديهم ، وفيهم « أبو بكر وعمر وطلحة وغيرهم » فمر بهم « أنس بن النضر » فسألهم عن سبب كفهم ، فأجابوه بأن الرسول قد قتل، فما كان منه إلا أن أجابهم تلك الإجابة الدافعة، التى تتمثل فى قوله « فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم اندفع أمامهم يقاتل حتى قتل، فوجد به سبعون ضربة وطعنة، وما عرفته أخته إلا بحسن بنانه . فلولا دفعته تلك ، واندفاع المسلمين معه لكانت الهزيمة الساحقة ، ولتغير وجه التاريخ الإسلامى كله .

ولعل بعض الناس يعجب لتقدم « أنس »(٣١) فى هذا العمل المجيد على « أبى بكر وعمر » وهما صهرا رسول الله ووزيراه ، ولكن الدارس لطبائع النفوس والأحداث ، لا يعجب لهذا كثيرا .

ذلك لأن هذين الرجلين كان للرسول عندهما مكانة خاصة وحب خاص، وكانت تربطهما به صلات نسب خاصة أيضا ، وكانا يقدران خطر الرسالة التى كلف أداءها، فقد يذهل أحدهما عند المفاجأة بقتله، ويدهش دهشاً فجائياً يقعده عن التصرف الإيجابى ، ريثما تثوب له نفسه ، ويراجع للتصرف عقله ، ولقد حدث هذا مرة أخرى من « عمر » عند سماعه بوفاة « الرسول » فما سبقهما « أنس » لأنه أثبت منهما إيمانا ، ولا أكثر منهما مضاء ، وإنما لأن عاطفته فى ذلك الوقت كانت تسمح له بالتفكير والعمل — فكان أسرع منهما .

على أن « ابن الأثير » يذكر ما قد يكون باعثاً « لأنس » على هذا العمل ،

---

(٣٥) انظر الكامل جـ ٢ ص ٦٤ والأغانى طبعة المغربى جـ ١٤ ص ١٩ .

(٣١) ينقل الحلبى عن الإمتاع للمقريزى أنه « ثابت بن الدحداح » وأنه قال لهم « إن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يموت قاتلوا عن دينكم فإن الله مظفركم وناصركم ، فنهض اليه نفر من الأنصار فحملوا على المشركين (الحلبية جـ ٢ صفحات ٢٣٩ ، ٤٠ .

فيروى أنه سمع بعض المسلمين يقولون لما أشيع قتل الرسول : « ليْت لنا من يأتى عبدَ الله بن أبىّ بن سلول » فيأخذ لنا أماناً من « أبى سفيان » قبل أن يقتلونا[٣٢] » . فلعله ثار عند سماع تلك القالة ، وأخذته عزة الإسلام فأتى ما أتى مدفوعاً بالغيرة الإسلامية ، والنخوة العربية التى تأبى الذل ، ولا ترضى بالهوان ، ومن الناس من تخونه قدماه عند هول المفاجأة ، ومنهم من تثيره المفاجأة ، وتُهيج أعصابه لحدة مزاجه ، ولعل « أنسا » كان من هذا النوع الثائر ، الحاد المزاج .

يضاف إلى ذلك أن « أنسا » أراد أن يُكفر فى أحد عن تخلفه يوم بدر ، بكل ما يستطيع ، يروى لنا « النووى[٣٣] » أنه قال للرسول : « يا رسول الله : غبتُ عن أول قتال قاتلتَ فيه المشركين ، ولئن أشهدنى الله قتال المشركين ، ليرينّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، انكشف المسلمون فقال لهم : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه الرماة) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، ومثل به المشركون كما تقدم ، فقد وُجد بجسمه سبعون ضربة وطعنة .

٥ — كلمة عن الإمداد الملائكى :

يتعلق هذا الموضوع بالروح المعنوية تمام التعلق ، وقد طال كلام الباحثين فيه ، بعضهم يستند إلى ظاهر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأخبار المؤرخين المتأثرة بهما ، فيقول بأن الإمداد كان حسياً فى معارك الرسول ، وأن الملائكة نزلت وباشرت القتال فعلا فى تلك المعارك ، وبعضهم يرى أن الإمداد الملائكى ، كان لتقوية الروح المعنوية كما قال تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم[٣٤] » . فاستجابة الله دعوة الرسول بإرسال الملائكة ، إنما كانت لتبشير المسلمين بالنصر ، وإدخال الطمأنينة على القلوب ، لتمضىَ قدُماً فى سبيلها معتمدة على ربها ، فتوقع الرعب فى قلوب الأعداء بثباتها .

---

(٣٢) ابن الأثير . الكامل جـ ٢ ص ٦٤ .

(٣٣) رياض الصالحين طبعة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م جـ ٧ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣٤) سورة الأنفال آية ١٠ .

وأظن هذه الآية الماضية تعد جواباً حاسماً يقطع كل خلاف ، فى مسألة الإمداد الملائكى ، فقد نصّت على أنه للبشرى وتطمين القلوب ، تضاف إليها آية أخرى تحدد وظيفة الملائكة ، وتبين مهمتهم ، وهى قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب[٣٥] » . والملائكة أرواح تستطيع بالإلهام أن تقوىَ العزائم ، وتربط على القلوب ، كما توقع الله الرعب بنفس الإلهام فى قلوب الكفار .

وسواء أباشرت الملائكةُ القتالَ أم لم تباشره — وهو الراجح — فالثابت أنهم كانوا سبباً فى نصر المسلمين ، ويكفى فى ذلك شعورهم بأنهم جند الله ، وأن الملائكة تقاتل معهم ، ليمضوا فى المعركة ويصبروا ، والعاقبة دائما للصابرين ، المدفوعين بروحهم المعنوية السامية .

أما كيف كانت مساعدتهم للمسلمين ، وتقويتهم لقلوبهم ، فحقيقة ذلك يعلمها خالق القلوب وخالق الملائكة ، فنحن نجهل طبائعهم ، وعقولنا قاصرة عن تحديد نواميسهم ، وإنما نعرف عنهم أن ملكاً واحداً كان كافيا لإبادة من فى بدر جميعا ، فما الحاجة إلى ألف أو ثلاثة آلاف ؟ وما الحاجة إلى إنكار جهاد المسلمين والله سبحانه يقول : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم[٣٦] » وما دام العذاب بأيدى المسلمين ، فكيف ينسب القتل إلى الملائكة ؟

هذا وليس البحث محتاجاً إلى هذه الروايات المتضاربة ، التى يرويها المؤرخون والمفسر ون عن الملائكة ، ففى نصوص القرآن غناء عنها[٣٧] ، وهى تفيد أن الإمداد بالملائكة كان إمداداً روحيا للتقوية ، ولله جنود السموات والأرض ومنها الرعب والرعد والمطر والبرق والرياح ، وقد فعلت هذه الجنود فعلها يوم الخندق ، وإذا أراد الله نصر قوم بوسائله الخاصة ، فلا نسأل نحن عن كنه هذه الوسائل وحقيقتها ،

---

(٣٥) سورة الأنفال : آية ١٢ .

(٣٦) سورة التوبة : ١٥ .

(٣٧) من أراد التوسعة فى هذا الموضوع ، فليرجع إلى تفسير سورة الأنفال فى كتب التفسير المختلفة وبخاصة تفسير المنار ، وفى ظلال القرآن ، وتفسير السورة للأستاذ مصطفى زيد ، ومجلة « لواء الاسلام » ففيها بحثان عن معركة « بدر » للأستاذين « عبد الوهاب خلاف » والشيخ محمد أبو زهرة فى العدد الثانى من السنتين الثانية والخامسة .

وما علينا إلا الإيمانُ بالروح المعنوية ، التى تفعل فعل السحر فى النفوس ، لا كإيمان « نابليون » الذى جعل نسبتها إلى القوة المادية كنسبة ٣ : ١ فإن تاريخ المسلمين يشهد بخلاف هذه الحقيقة ، ولو كان نابليون » فى جند كجندهم لرفع كثيراً من نسبة الروح المعنوية ، فهى شىء مهم فى الجيوش قديماً وحديثا .

٦ ـــ سماحة المسلمين فى معاملة الشعوب المغلوبة :

من الأسباب التى ساعدت على سرعة التوسع الإسلامى ، ما امتاز به المسلمون من رفق فى معاملة الشعوب المغلوبة ، يتجلى ذلك واضحاً فى المعاهدات التى كانت تعطى لهم ، لتؤمنهم على دور عبادتهم ، وتترك لهم حرية الاعتقاد والعبادة[٣٨] ، وتجعلهم فى أمان من المسلمين ومودة معهم ، ما لم يحملوا السيف فى وجههم ، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، روتها كتب التاريخ عن « عمر » وغيره من الخلفاء ، كما روت الاضطهادات الكنسية التى كانت تروع البلاد وقتها ، وتقض مضاجع الناس فى مصر والشام وغيرهما ، فكان الناس يوازنون بين الحالين ، ويختارون أرحم الحكومتين ، وأرفق المعاملين .

هذه هى الأسباب التى ساعدت على سرعة التوسع الإسلامى ، من ناحية المسلمين أنفسهم ، وهناك أسباب أخرى ساعدت عليه ، من ناحية البلاد المفتوحة . وحالة الشعوب المقهورة ، وهى أسباب عدة أهمها ما يلى :

ب ـــ أسباب تتعلق بالبلاد المفتوحة :

١ ـــ الاتحاد الجنسى بين أهل البلاد والغزاة :

لقد كان العرب المقيمون فى نواحى الهلال الخصيب ، لا يرون بأساً فى غزو بنى عمهم لبلادهم ، فهم أولى بها من المستعمر الدخيل ، والجميع من جنس واحد ، يتكلمون لغة واحدة ، وتجمعهم عادات وتقاليد واحدة ، وفى خضوعهم لبنى جنسهم اطمئنان لنفوسهم ، أكثر من

(٣٨) فيليب حتى – تاريخ العرب مجلد ١ طبعة ٢ ص ١٧٥ .

خضوعهم للجنس الآرى أو الطورانى ، الذى لا يمتُّ بنسب إلى الجنس السامى الذى ينتمى إليه العرب ؛ ولذا رأيناهم أسرعوا فى نبذ سلطان سادتهم القدماء، وانضموا لبنى جنسهم عند قدومهم ، وحملوا لواء الجهاد معهم ، وإن كانوا على غير دينهم ، فساعد ذلك على سرعة التوسع العربى ، وفى هذا المعنى يقول « دكتور حتى » فى كتابه[٣٩] : « وكان الساميون المقيمون فى سوريا وفلسطين ، وكذلك حاميو مصر يعتبرون الغزاة العرب ، أمتَّ بالقربى لهم من سادتهم الأجانب المبغَّضين لديهم . « إذن فالتقارب الجنسى والاجتماعى بين أهل البلاد والفاتحين ، كان لهما دور مهم فى الإسراع بالفتوح الإسلامية ، كما نبها الأذهان للقومية العربية .

٢ ــ خصب البلاد المفتوحة ووفرة خيراتها :

لقد خرج المسلمون من جزيرة العرب القاحلة ، فوجدوا أمامهم مروج الشام والعراق التى تفيض بالخير والخصب ، وجربوا ما تُدره عليهم تلك البلاد من جزية وخراج ومغانم مالية ، فأغراهم ذلك بالتقدم فى بلاد العدو ، وهم قوم يعتمدون فى تنقلهم على الجمل الصبور فى الأسفار ، ولم يعرفوا بعدُ الأسلحة الثقيلة التى تعوق تقدم الجيوش ، فساحوا فى البلاد ليكونوا أولى بخيرها ممن تتثاقل عن طاعة الله ، وبهذا المعنى أغرى « خالد » جنده ، لما دخلوا العراق ورأوا خصبها[٤٠] ، كما أغرى به « أبو بكر » من قبله الجيوش التى حشدها لغزو الشام ، فلقد ذكر « البلاذرى » أنه كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وكل العرب ، فى نجد والحجاز يدعوهم إلى الجهاد ، ويثير فيهم الرغبة فيه وفى الغنائم التى يحصلون عليها من الروم[٤١] » . وكثيرا ما كان ملوك الفرس والروم يجابهون رسل المسلمين ، بأنهم ما أخرجهم من بلادهم إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، بل لقد ادعى بعض المؤرخين ، أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لجمع المغانم .

وقد يكون هذا الادعاء عريضاً مبالغاً فيه ، ولكن الذى يساويه فى معناه أن نغفل من حسابنا بالمرة إغراء الفىء والجزية ، ونُهمل أثر العامل الاقتصادى فى سرعة انتشار الفتوح الإسلامية بوجه عام ، فهو يلازم العوامل الأخرى ويساعدها .

---

(٣٩) نفس المرجع ص ١٧٧ .

(٤٠) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٩ .

(٤١) فيليب حتى تاريخ العرب نقلا عنه .

٣ — ضعف الفرس والروم أمامهم :

لقد برزت الحكومة الإسلامية إلى الأفق الدولى، فى وقت كانت الحروب فيه قد أنهكت نوعاً الدولتين الفارسية والبيزنطية ، فقد دامت بينهما الحروب عدة قرون ، كانت تتغلب فيها الفرس مرة فتستولى على الشام ومصر ، وتتغلب الروم أخرى فتستولى على سواد العراق ، وكان المسلمون يفرحون لانتصار الروم لأنهم كتابيون مثلهم ، وفى سبيل تبشير المسلمين بنصرهم ،بعد هزيمتهم أمام الفرس نزل قوله تعالى : « ألم غُلبت الروم فى أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيَغلبون فى بضع سنين »[٤٢].
وقد تطلبت هذه الحروب الكثيرة فى كل من الإمبراطوريتين فرض ضرائب باهظة ، كانت تثقل كاهل المواطنين ، وتقلل من شعورهم بالولاء[٤٣] ويساعدنا كثيراً على توضيح تلك النقطة قول الدكتور « فون كريمر[٤٤]» بترجمة « خودابخش » : « أما الحكومات المنحلة الآخذة فى التدهور ، فإن الإحساس بالوطنية والشعور بالواجب سرعان ما يضعفان فيها ، ثم يختفيان تماماً ، وكلاهما كان قد انمحى من نفوس البيزنطيين إلى الأبد » .

وكذلك كانت الحال فى فارس؛ فإن الحروب الداخلية المستمرة كانت قد أنهكتها ، وأفسدت أمرها ، ويمكننا أن نقرر صادقين أنها أجهزت فيها على الروح الوطنية والشعور بالواجب ، فقد كانت همة الحكام فى الدولتين ، متجهة إلى تدبير المؤامرات ، وإحكام الدسائس ، للظفر بالحكم والبقاء فيه .

ومما زاد فى ضعف الشعور الوطنى فى كل من الدولتين ، تلك المنازعات والاضطرابات التى كانت تثور حول العرش ، والدسائس التى كانت تحاك فى البلاط الملكى لتنازع السلطة ، مما شغلهم بأنفسهم عن عدوهم الخارجى ، فلم يفيقوا له إلا حين طرق عليهم أبواب حصونهم ، وكانت الدولة منهم إذا أقرت سياستها الداخلية ، قويت فى مقاومته ، فإذا عاد لها الاضطراب ضعفت أمامه فاجتاح أملاكها ، وكثيراً ما كان يحدث هذا .

---

(٤٢) أول آية من سورة الروم ، وبعد نزولها راهن أبو بكر على أنهم سينصرون ، وقد وقع ،
(٤٣) تاريخ العرب « لحتى » تعريب « نافع » مجلد ص ١٧٥ . الطبعة الثانية .
(٤٤) Orient under theC aliphs. p. 315.

٤ – استهانة الفرس والروم بعدوهم الجديد :

لقد كانوا أول أمرهم ينظرون إلى غزوات المسلمين ، نظرتهم إلى غارات الأعراب ، التى ألفوها منهم كثيراً ، والتى كانوا لا يقصدون بها سوى النهب ثم العودة إلى قلب الصحراء ، فلم يأبهوا لها ، وأهملوا حصون الحدود(٤٥) فلم يقووها ، لدرجة أن المسلمين كانوا أحياناً يجدونها شبه خالية ، وبحاجة كبيرة إلى الإصلاح والترميم ، كما حدث فى فتح مصر وغيرها ؛ ولذا بهت الروم حين حاصر العرب دمشق ، ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من آلات الحرب(٤٦) ، ومعدات الحصار ، التى كانوا يعدونها من مستحدثاتهم .

وكذلك كان الفرس يعدون العرب أوشابا من الحفاة العراة ؛ لا يجسرون على غزوهم ، لدرجة أن كسرى لما أتاه كتاب « الرسول يدعوه إلى الله ، كبر عليه ذلك وطلب إلى عامله على اليمن أن يرسله إليه مقيداً مغلولا ، وقد بلغ من استهانة الفرس بالمسلمين ، أنهم كانوا يسمون سهامهم التى يرمونهم بها يوم القادسية (مغازل) فما زالت تلك المغازل بهم حتى أزالت ملكهم(٤٧) ، وقضت على دولتهم التى أمضوا القرون فى تدعيمها .

أما من جانب المسلمين ، فقد كانوا يهابون غزو الدولتين أول أمرهم(٤٨) لأنهم عرفوا قوة جيوشهما ، وسعة ملكهما ، فوجهوا لكل منهما ضربة الخائف القاتلة ، فلما أصابت ضرباتهم تجرءوا على قتالهم ، وهجموا هجوم الواثق من الغلب ؛ فأفزعوا أعداءهم ، وأدهشوهم بجرأتهم عليهم ؛ بعد أن كانوا يرهبونهم .

إذن فاعتداد العرب بقوة عدوهم ، واستهانة عدوهم بقوتهم ، أوجد لهم ثغرة ينفذون منها إلى قلب بلاده ، فإن الروم والفرس كانوا يظنون المسلمين كسابق عهدهم من التفكك والتناحر ، ولكنهم أفاقوا بعد فوات الأوان ، ووقعت عيونهم على الحقيقة المرة ، وأدركوا جيداً أنهم أمام غزو منظم ، من قوم يثبتون أقدامهم فيما فتحوا

---

(٤٥) حضارة العرب « لوبون » تعريب زعيتر ص ١٥١ .

(٤٦) فتوح البلدان للبلاذرى طبعة ليدن ص ٢٦٠ .

(٤٧) تاريخ الطبرى ج ٤ صفحات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٤٨) تاريخ العرب المتقدم (لحتى) ص ١٧٥ .

وينشرون فى البلاد الحكم العادل بدل ظلمهم ، وحرية التدين بدل اضطهادهم وروح المحبة والمساواة بدل تعصبهم ، فلم يملكوا إلا أن دخلهم الرعب منهم ، وأفسحوا الطريق أمامهم ، مولين إلى غير رجعة .

٥ ـ عدالة الضرائب الإسلامية :

مما ساعد أيضاً على سرعة الفتوح الإسلامية ، وجعل أهالى البلاد يتقبلون العرب قبولا حسنا ، ويدلونهم على عورات عدوهم أحيانا ، ما عُرفوا به من الرفق بالناس فى تقدير الضرائب وطريقة جمعها ، فإن الجزية التى كان المسلمون يتقاضونها ، كانت أقل من ضرائب الفرس والروم[٤٩] ، التى كانت كثيرة بكثرة الحروب ، المحتاجة إلى كثرة الجند ، المحتاجين للنفقات والمرتبات الكثيرة ، فجزية المسلمين كانت على أصحاء الجسم ، بحيث يُدفع عن كل غنى أربعة دنانير فى العام ، وعن كل متوسط الحال ديناران ، وعن كل فقير دينار .

هذا إلى خراج الأرض الذى كان يراعى فى تقديره الرفق ، وكان يدفع عيْنا من حاصلات الأرض والماشية ، على أقساط تناسب مواسم الحصاد ، وأحيانا كان يُدفع نقداً باختلاف الأقاليم . « فقد جعل الخليفة « عمر » على كل جريب (فدان تقريبا) من أرض الشعير بالعراق درهمين ، وعلى كل جريب من أرض للكروم والرّطاب ستة دراهم ، وعلى كل جريب من أرض النخل ثمانية دراهم ، وختم على ٥٠٠ ألف إنسان على الطبقات[٥٠] » .

وقد ذكر « ياقوت[٥١] » أن المقوقس تضمّن « مصر » من « هرقل » بتسعة عشر مليون دينار ، وكان يجْبيها عشرين مليونا ، فلما فتحها العرب جعل « عمرو » خراجها أول عام عشرة ملايين دينار ، وفى العام الثانى جعلها اثنى عشر مليونا ولما وليها أيام « معاوية » جباها تسعة ملايين ، وجباها « عبد الله بن سعد » أربعة عشر مليونا ، وهى ضرائب مهما كثرت لا تصل إلى ما كان يُحصله البيزنطيون .

---

(٤٩) نفس المصدر ص ٢١٠ . (تاريخ العرب لحتى) .

(٥٠) التراتيب الإدارية للإدريسى المطبعة الأهلية بفاس سنة ١٩٤٦ هـ ص ٣٩٤ — والجريب يقابل الفدان عندنا الآن وهو يساوى ٣٦٠٠ ذراع مربع كما فى فجر الإسلام جـ ٢٠٦/١ وهى غير الجريب المكيل .

(٥١) ياقوت فى معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٢ .

وعلى أية حال لقد جبى المسلمون العراق بأقل من جباة الفرس ، ، وجبى « عمرو بن العاص » مصر بأقل مما جباها البيزنطيون ، الذين كانوا يعدونها مزرعة لهم ، كما كان الرومان يعدونها ، وأحس الناس بهذا كله فرحبوا بالفاتحين ودخلوا فى دينهم ، وساعدوهم على عدوهم .

هذه الأسباب المتقدمة ، سواء منها ما كان راجعاً إلى طبيعة العربى وروح الدعوة الإسلامية ، وما كان راجعاً إلى حال الدولتين ، وشعور الشعوب المفتوحة نحو الفاتحين ، ساعدت كثيراً على سرعة الفتح الإسلامى ، سرعة لم نعهد لها نظيراً فى تاريخ الفتح ، ومكنت المسلمين من إقامة إمبراطورية ضخمة ، يسودها العدل ، ويدعمها التسامح وحب السلام .

الخلاصة

وخلاصة هذا الفصل ، أن الحرب فى نظر الإسلام ضرورة اجتماعية ، لا محيد عنها ، وهى كذلك عند علماء الاجتماع ، وقد شرعت فى الإسلام لتأمين الدعوة ضد أعدائها ورد عدوانهم عنها ، لتجد سبيلها إلى القلوب عن طريق الرغبة لا الرهبة ، وكان الدافع إليها إفساح الطريق للدعوة ، ومنع الفتنة فى الدين وتنبيه قريش إلى مهادنة الرسول (ص) حفاظا على تجارتها ، ومحاولة تقوية المسلمين بمغانم أعدائهم .

ثم بين هذا الفصل السر فى اكتساح الفتوح الإسلامية ، وذكر لذلك أسبابا :

ا — بعضها يرجع إلى طبيعة الفاتحين وأهمها :

١ — إيمانهم بعدالة القضية التى يحاربون من أجلها .

٢ — تأصل الصفات الحربية فيهم قبل الإسلام .

٣ — تحول العصبية القبلية إلى عصبية دينية .

٤ — سمو روحهم المعنوية .

٥ — سماحة المسلمين فى معاملة الشعوب المغلوبة .

ب — وبعضها يرجع إلى الشعوب المقهورة وأهمها :

١ — الاتحاد الجنسى بين أهل البلاد المفتوحة والغزاة .

٢ – خصب البلاد المفتوحة ووفرة خيراتها .
٣ – ضعف الفرس والروم أمام المسلمين .
٤ – استهانة الفرس والروم بعدوهم الجديد .
٥ – عدالة الضرائب الإسلامية .

لهذه الأسباب مجتمعة، استطاع المسلمون أن يؤسسوا إمبراطورية واسعة، لا تقل شأناً عن غيرها إن لم تزد عليها ؛ لأنها قامت على أسس سليمة واضحة، فلما ضيع أهلها تلك الأسس ، ضاعوا فيمن ضاع ، وهم اليوم يعملون على إعادة مجدهم التالد ، وهو فى طريقه إليهم ، لأنه عرفوا سبيل الإسلام الحق ، وهو سبيل العزة والقوة والكرامة ، سبيل القومية العربية ، والوحدة والاتحاد والتضامن ضد العدو المشترك ، وهو المستعمر الغاصب مهما تنوعت أشكاله وصوره .

خاتمة البحث

هذا عرض سريع للفن الحربى الإسلامى ، قصدتُ منه إبراز معالم ذلك الفن للناس كما سطرها التاريخ ، وكما روتها المراجع الموثوق بها لنعرف أن المسلمين أسسوا مجدهم القديم ، عن جدارة حربية ، ومقدرة فنية ، فى النواحى التكتيكية والاستراتيجية ، لا بمجرد الصدفة والحظ المواتى ، كما يقرر كثير من مؤرخى الغرب المغرضين ، الذين كبرُ على نفوسهم أن يؤسس المسلمون إمبراطورية زاهرة ، كالإمبراطورية البيزنطية وغيرها ، فعزوْا إليهم كثيراً من التهم ، التى لا تستند إلى دليل ، ولا تقوم على حق ، ناسين أنهم ناس من الناس ، يصنعون مثل ما يصنعون ، عندما تتوافر لديهم المؤهلات والبواعث[1] والأسباب .

ومن الغريب أن كثيراً من هؤلاء الباحثين ، اعترف بسرعة التوسع الإسلامى ودهش لتلك السرعة ، ولكنه لم يجد تعليلا لذلك ، إلا اندفاع الغرائز الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية ، التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة ، وأضاف إلى ذلك ضعف الإمبراطوريتين : البيزنطية والفارسية ، وحاول إبراز ذلك الضعف ليهوّن من خطر الفتوح الإسلامية ، وانتصارات المسلمين المدهشة ، وقد تقدم بيان خطأ تلك الفكرة ، بل بيان أن الدولتين كانتا لا تزالان فى قوتهما ، وبخاصة الدولة البيزنطية ، التى ظلت فى حروب دائمة مع المسلمين ، ولم يستطع القضاء عليها إلا الأتراك العثمانيون أخيرا .

والبحث مع هذا جهد متواضع ، حاولت فيه جهد طاقتى ، توضيح ناحية من تاريخ المسلمين غامضة ، وهى تصوير الفن الحربى الذى عرفوا به فى بدء تاريخهم ، فإن تكن الرسالة حققت هدفها ، فذلك غرضى منها وأملى فيها ، وإن كانت الأخرى ، فحسبى أنها فتحت للباحثين أبواباً أرجو منهم أن يطرقوها ،

---

(١) اقرأ فيليب حتى — تعريب الأستاذ نافع ، ودكتور « أومان » فى تاريخ فن الحرب و « نورمان بينز » فى الإمبراطورية الإسلامية ، « وفاز لييف » فى علاقة الإسلام ببيزنطة ، وفون كريمر ، ومن نحا نحوهم من الغربيين ، وقد سبق تحديد الصفحات فى مواضعها من هذا الكتاب .

علهم يوضحون بجهدهم غامضاً ، أو يفصلون مجملا ، أو يضيفون للعلم جديداً لم أستطع الوصول إليه .

هذا وأحسب أنني بهذا البحث العلمي ، قد وصلت إلى نتائج يرضاها الباحثون ، وأظن أنها من الجدّة بحيث تنفع البحث والباحثين ، وتنصف في غير تعصب تاريخ المسلمين الحربي ، الذي أُهملت فيه الناحية الفنية من المؤرخين إلى حد كبير .

ولا أريد هنا إثبات كل ما جاء بالرسالة ، من أفكار جديدة مدعمة بالبراهين فهي منبثة في ثناياها ، واردة في أماكنها منها ، أو في الملاحق التابعة لها ، ويكفي الآن أن ألفت النظر إلى بعض هذه الآراء ، لما لها من أهمية خاصة : —

١ — لقد تعرض القسم الثاني من الفصل الثاني إلى موضوع (التجنيد) فأبطل الرأي الشائع ، الذي يقول بأن التجنيد الإجباري ، بدأ في أواسط الدولة الأموية ، وعلى يد « الحجاج » بالذات[٢] ، وأثبت بالأدلة أن الفاروق « عمر بن الخطاب » هو أول من ألزم الناس بالجهاد ، وعاقب المتخلف منهم عنه ، حيث ضمن لهم أرزاقهم وأرزاق عيالهم ، ورتب لهم المرتبات السنوية ، حتى يستجيبوا لكل نداء من الدولة .

٢ — كذلك أبطل القسم الثالث من هذا الفصل ، الفكرة السائدة بين المستشرقين ، التي تدّعي أن المسلمين لم يكن لديهم جيش ثابت ، وإنما كانوا يجمعون قواتهم عند الحاجة ، ثم يتفرقون بعدها ، وأثبت بالنصوص الصحيحة ، أنه كان لدى « الفاروق عمر » جيش قائم "Standing Army" مستعد لرد العدوان وإحباط حركات التمرد في البلاد المفتوحة ، وأن قوات هذا الجيش كانت تُقيم في معسكرات دائمة ، في الأمصار الإسلامية ، تقوم فيها بالتمرينات اليومية ، ولا غرض لها إلا الجهاد والاستعداد له ، وكان الخليفة يعاقب منهم من يشتغل معه بالزراعة أو التجارة ، أو غيرهما من الحرف .

٣ — ذكر القسم الأول من الفصل الثالث ، الأسلحة الخفيفة ، فأثبت أن القوس ليس عربي النشأة ، وأن العرب لم يمهروا في الرماية به مهارة الفرس والروم ، وإن صارت لهم بعد ذلك أقواس عربية معروفة .

---

(٢) يرى هذا الأستاذ « جرجي زيدان » ورئيس الركن « نعمان ثابت » كما مر بالرسالة .

كما أثبت أن الحربة والنَّيزك ، سلاح ليس بعربى ، وأن الذى كان يجيد القذف به هم الأحباش والنُّوبة والفرس، الذين يُعدون أساتذة العرب فيه .

وتحدث القسم الثانى من ذلك الفصل عن آلات الحصار ، فأثبت أن الدبابة والمنجنيق — وإن لم تكن عربية فى الأصل — كانت تصنع ببلاد العرب ، حيث كان كثير منهم يتعلم صنعها ، وأن المسلمين بعد ذلك أدخلوا عليها كثيراً من التحسينات ، التى ساعدتهم على إجادة فن الحصار ، إجادة مكنتهم من فتح المدن والحصون[٣] ، التى كان أعداؤهم يعتزون بها ، ويعتمدون عليها فى إطالة مدة الحصار .

وهناك غير ما ذكر بعض الردود على المبالغين ، أو إبراز بعض النواحى الخفية فى فن المسلمين ، وبخاصة فيما يتعلق بأعمال الاستطلاع والتجسس وبأعمال التحركات التكتيكية ، ووضع خطة المعركة مناسبة لطبيعة الأرض واستغلال تلك الطبيعة فى إدارة المعارك المختلفة .

ولعلى بعد هذا كلّه ، أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، وتمكنت من أن أقدم للعلم الذى أدين له ، والمجتمع الذى أنتسبت إليه ، بعض الدين الذى فى عنقى ، أو أضيف إلى المكتبة العربية ، شيئاً يصح أن يكون نافعاً ، عن الفن الحربى الإسلامى والله وحده ولى التوفيق ، وبه وحده تكون الاستعانة .

(٣) ترد هذه الوقائع على الدكتور « بتلر » حديثه الذى ذكره عن فتح العرب لحصن «بابليون» فى مصر ، واتهمهم فيه بأنهم كانوا يجهلون آلات الحصار وطرق استخدامها ، وقد سبق نقاشه فى موضعه .

الملاحق

ملحق (١)

الفدائيون فى الإسلام

لم يكن المسلمون قديماً يعرفون هذا الاصطلاح ، وإن كان كثير منهم يصلح لأن يكون فدائياً ، فقد كان أحدهم يخرج للقتال باذلا نفسه لله ، لا يفكر فيما وراءه من أولاد وأموال ، وهذا هو ما كان يعنيه « خالد بن الوليد » عندما يقول لأعدائه : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وأول ما عُرفت الفدائية عند المسلمين ، بمعنى العزم الأكيدعلى الموت مع تحقيق أسبابه ، عرفت ليلة الهجرة ، لما بات الشاب علىّ مكان الرسول عليه السلام ، وهو يعلم مصيره ، ثم عُرفت فى مواطن الشدة ، عند اختلال صفوف المسلمين ، وظهور بوادر الهزيمة عليهم ، حيث كان بعض الأبطال يتعاهدون بالأيدى على الموت ، والثبات إلى النهاية ، مهما كانت النتائج ، وكان لهم فى هذا الباب أفاعيل تشبه المعجزات ، وحسبنا هنا أن نتذكر موقف الفدائى البطل « أنس بن النضر » فى يوم أحد ، الذى غير بحركته الفدائية نتيجة المعركة كما سبق[١] والشواهد التاريخية فى هذا الباب لا تحصى .

ومن الخطأ ألا يُحسب فى الفدائيين ، ذلك الذى كان يتسوّر حصن الأعداء ، فيهبط عند بابه ، فيقتل حراسه ويفتحه لإخوانه ، كما فعل « البراء بن مالك » الذى اعتلى سور (حديقة مسيلمة) وفتح بابها ، فدخلها المسلمون وقتلوا المتنبىّ الكذاب ، ومن معه من بنى حنيفة ، فى حروب الرّدة المعروفة ، وكما فعل البطل « الزبير بن العوام » الذى تسور « حصن بابليون » فى فتح مصر ، وصنع نفس الصنيع الذى كان سبباً فى فتحه ، والتاريخ يذكر كثيراً غير هذين ، صنعوا صنعهم ، فحق علينا أن نعدّهم فى الفدائيين .

ولعله أول ما ظهرت الفدائية فى شكل كتائب ، ظهرت فى أيام معركة « صفين » حيث كان « عُبيد الله بن عمر » يتقدم الصفوف فى أربعة آلاف من

---

(١) انظر الفصل الأول : هامش .

(الخضْرية) معممين بشقاق الحرير الأخضر ، متقدمين للموت[٢] ، ولعلهم اختاروا اللون الأخضر ، لأنه يرمز للجنة ويذكرهم بها .

ثم زادت تلك الحركة وضوحاً على أيدى الخوارج ، الذين كانوا يستميتون فى القتال بدافع من العقيدة الراسخة ، لدرجة أن أربعين منهم هزموا ألفين فى بعض معاركهم ،ولعلهم اختاروا لأنفسهم اللون الأحمر ؛ لأنه يشير للدماء المراقة فى سبيل الله ، ولعل فى تسمية بعض فرقهم (بالشُّراة) ما يشير إلى أنهم شروْا أنفسهم لله، أى باعوها له، وقطعوا أنفسهم عن كل غرض من أغراض الدنيا، غير الجهاد وبذل النفوس فى سبيل الله .

وعلى أيدى الخوارج هؤلاء تخرّج أصحاب « المهلب بن أبى صفرة » فكان منهم الفدائيون الأفذاذ ، مثل ذلك الأزدى الذى قال لأصحابه فى بعض معاركهم مع الخوارج : من يبايعنى على الموت ؟ فبايعه أربعون رجلا ، قُتل معظمهم وجرح بعضهم[٣] .

ومثل ذلك الفدائى الذى حمل وحده على الخوارج ، فاخترق صفوفهم حتى نجم من الناحية الأخرى، ثم كر ثانية ففعل فعلته الأولى حتى عاد لموقفه ، وليس اختراق صفوف الخوارج بالأمر الهين ، ولذا وصفه المهلب بقوله : « أعرابىّ مجنون[٤] » ومن الفدائية جنون .

ثم ظهرت الفدائية بشكل رسمى ،فى فتوح المسلمين للفرس والروم، حيث كان البطل « القعقاع بن عمرو » يقود كتيبة منهم تتقدم الجيش ، وكانت تسمى « كتيبة الموت » وفى طبيعة التسمية غناء عن شرح أعمالها ، وكان لهذه الكتيبة أعمال مجيدة تذكر بالفخر فى معارك « القادسية ونهاوند » وغيرها[٥] .

وهذه الكتيبة الفدائية، هى التى تقدمت أمام جيش سعد فاتح العراق، وقامت وحدها باقتحام نهر دجلة سباحة بالخيل، ثم خرجت على الشاطئ المقابل؛ لحمايته

---

(٢) المسعودى فى مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٩٠ والدكتور كريمر ص ٣٠٥ .

(٣) المبرد فى الكامل جـ ٢ ص ٢٤٣ ط مصطفى محمد سنة ١٣٥٥ هـ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٦٧ ، جـ ٤ ص ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٢٤١ ، والكامل جـ ٥ ص ١٢٩ .

وتمكين بقية الجيش من العبور ، فلما رآهم الفرس خارجين من الماء، وخيولهم تنفض أعرافها ، أسرعوا بالفرار قائلين : « نحن ما نحارب إلا جناً » .

وفى الحقيقة أن الفدائى المخلص، يستطيع أن يفعل فعال الجن ، كما كان « ضرار بن الأزور » يفعل فى فتوح الشام ، وغيره كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم ، وحسبنا هنا التمثيل بالبعض؛ لنعلم أن (الضفادع البشرية) التى تعد من مستحدثات القرن العشرين ، كانت موجودة عند المسلمين فى القرن الأول الهجرى ، فقد كانت لديهم فرقة معدة لعبور الأنهار ، واقتحام الخنادق المائية بالسباحة ، وخوض البرك والمستنقعات، التى كان يتحصن بها الأعداء .

ولنعلم أيضاً أن نظام الفدائيين ، كان معمولا به فى تلك الفترة، حيث كانوا يقومون بأخطر المهمات التى يعجز عنها غيرهم وهم يعلمون أن الموت فى انتظارهم .

ومما يجعلهم ممتازين عن الفدائيين المحدثين ، أنهم كانوا لا يبغون بمغامراتهم تلك أجراً ولا شكراً ، وإنما يقومون بها إرضاء لنزعاتهم الدينية، واستجابة لغرائزهم البطولية ، لدرجة أن أحدهم كان ينكر ذاته ، ولا يحب أن تعرف فعاله ، كذلك الفدائى الذى بات وحده يحرس نقباً فى سور الأعداء أحدثه المسلمون، فلما أصبحوا وجدوه قد أكمله ومكن الجيش من الدخول منه، وبعد الانتصار فى المعركة ، نادى القائد (مسلمة بن عبد الملك) على صاحب هذا العمل ، فلم يخرج إليه أحد ، فعزم عليه أن يقدم له نفسه فى أى وقت ، وذات ليلة جاءه الرجل وقال له : أنا أعرف صاحب النقب ، وهو يشترط عليكم شروطاً :

١ — ألا تذكروا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة أو غيره .

٢ — ألا تسألوه عن اسم أبيه ، أو اسم قبيلته وألا تأمروا له بمكافأة .

فلما أجابه الأمير إلى شروطه قال له : أنا صاحب النقب : ثم انصرف فكان الأمير بعد ذلك يدعو عقب صلاته : « اللهم اجعلنى مع صاحب النقب » ومن الطبيعى كما تذكر الرواية ، أنه أرسل خلفه من تبعه سراً ، حتى عرفه وعرف قبيلته .

فأى إنكار للذات هذا الإنكار؟ وأى فدائية تذكر بعد تلك الفدائية المثالية؟.

ملحق (٢)

جدول زمنى للحوادث البارزة فى تلك الفترة

رقم	الهجرى	الميلادى	أبرز الحوادث
١	٢	٦٢٤	معركة بدر الفاصلة
٢	٥	٦٢٧	معركة الخندق
٣	١٢	٦٣٤	وفاة الرسول عليه السلام
٤	١٣	٦٣٤	بدء خلافة « عمر » ، ومعركة اليرموك
٥	١٤	٦٣٥	بناء البصرة ، معركة القادسية ، فتح بيت المقدس وفتح دمشق
٦	١٥	٦٣٧	تأسيس عمر للديوان
٧	١٧	٦٣٩	تأسيس الكوفة فى عهد عمر
٨	٢٠	٦٤١	فتح العرب لمصر على يد « عمرو بن العاص »
٩	٢١	٦٤٢	وقعة نهاوند وفتح فارس بعدها
١٠	٢٣	٦٤٤	بدء خلافة « عثمان »
١١	٣٦	٦٥٧	معركتا الجمل وصفين بين على ومنافسيه
١٢	٤١	٦٦٢	خلوص الخلافة لمعاوية (عام الجماعة)
١٣	٦١	٦٨٠	مقتل الحسين فى كربلاء
١٤	٦٥	٦٨٥	بدء خلافة « عبد الملك بن مروان »
١٥	٧٣	٦٩٣	حصار مكة وقتل « عبد الله بن الزبير »
١٦	٧٥	٦٩٥	بناء الحجاج مدينة واسط
١٧	٨٦	٧٠٥	خلافة الوليد بن عبد الملك
١٨	٩٥	٧١٤	موت الحجاج خادم الأمويين
١٩	٩٩	٧١٧	بدء خلافة « عمر بن عبد العزيز »
٢٠	١٢٨	٧٤٥	خلافة مروان الثانى آخر الأمويين
٢١	١٣٢	٧٥٠	أبو عبد الله السفاح مؤسس مدينة الهاشمية
٢٢	١٣٦	٧٥٤	أبو جعفر المنصور ، بانى بغداد المدورة
٢٣	١٧٠	٧٨٦	هرون الرشيد ، فاتح هرقلة
٣٤	١٩٣	٨٠٩	محمد الأمين ، بدء النزاع بينه وبين أخيه
٢٥	١٩٧	٨١٣	حصار بغداد الأول فى الحروب الأهلية بين الأخوين
٢٦	١٩٨	٨١٣	تمام الأمر « لمحمد المأمون »
٢٧	٢١٨	٨٣٣	تولية أخيه المعتصم التركى الذى أبطل الديوان العربى

مصادر الرسالة

١ ــ مصادر مخطوطة ومصورة :

ابن سيِّد الناس : (محمد بن أبي بكر اليعمُرى الأندلسي ، ولد بالقاهرة ثم صار معلماً للحديث بالمدرسة الظاهرية . توفى (٧٣٤ هـ .)

١ ــ عيون الأثر ، فى فنون المغازى والسيرَ . دار الكتب المصرية رقم ١٧٥.

ابن كثير : (عماد الدين إسماعيل عمر بن كثير القرشى الدمشقى (٧٧٤ هـ)

٢ ــ رسالة له فى الصيد ، مصورة بالجامعة العربية (ف ٧٧٤) .

الحسامى : (المملوك لاجين الطرابلسى الحسامى (؟) .

٣ ــ تحفة المجاهدين ، فى العمل بالميادين ، مصور بالجامعة العربية (ف ٩٠٢) .

الحسن العباسى : (الحسن بن عبد الله بن محمد ، ينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب ، بدأ فى تأليف كتابه (٧٠٨ هـ) .

٤ ــ آثار الأول فى تدبير الدول ، مخطوط بالمتحف الحربى بالقلعة ، برقم (٣٨٣) عربى . ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ط مصر ١٣٠٥ هـ .

الزرَدكاش : (المملوك التركى أرنبُغا الزردكاش ، أى صانع الزرد (؟) .

٥ ــ الأنيق فى المجانيق ، مصور بالجامعة العربية (ف ٩٧٠) .

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد الشافعى (٩١١هـ) .

٦ ــ غرس الأنشاب ، فى الرمى بالنشاب ، مصور بالجامعة العربية (ف ١٠٥٦) .

السنجارى : (مملوك تركى من رجال الحرب (؟)

٧ ــ هداية الرامى ، إلى الأغراض والمرامى ، مصور بالجامعة العربية نقلا عن خط المؤلف (ف ١٠٥٦) .

الهرثمى : هو صاحب المأمون ، من رجال الحرب (؟)

٨ — مختصر فى سياسة الحروب ، مصور بالجامعة العربية (ف ٨٤٤)
اليوسفى : (هو موسى بن أحمد اليوسفى (؟) .
٩ — كشف الكروب فى أمر الحروب ، مخطوط بالمتحف الحربى بالقلعة ، رقم (١٠٦ عربى) .
اليونانى : (هو طيبغا الأشرفى البكلمشى اليونانى (؟) .
١٠ — بغية الرامى ، مصور بالجامعة العربية عن مكتبة أحمد الثالث بتركيا (ف ٩٧٠) .
مؤلف مجهول : (؟) .
١١ — نظم التعبئة ، مصور بالجامعة العربية (ف ٩٤٦) .

ب ــ مصادر قديمة :

١٢ — القرآن الكريم ، فى سوره التى تعرضت للقتال وما يتصل به .
١٣ — العهد القديم ، من الكتاب المقدس .
ابن الأثير الجزرى : (أبو الحسن بن أبى الكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (٦٢٩ هـ — ١٢٣٢ م) .
١٤ — الكامل فى التاريخ . ط المطبعة الأزهرية (١٣٠١ هـ) .
ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن ، يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (؟)
١٥ — النجوم الزاهرة ، فى ملوك مصر والقاهرة . ط . دار الكتب (١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م) .
ابن حجر : (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى (٨٥٢ هـ — ١٤٤٨ م) .
١٦ — الإصابة فى تمييز الصحابة . ط مصر ١٣٢٣ هـ .
ابن حزم : (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى (٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م) .
١٧ — المحلى فى الفقه . تحقيق الجزيرى ط إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩هـ حـ ٧ .

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (٨٠٦ هـ) .
١٨ — المقدمة ط المهدى ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .
١٩ — العبر ، وديوان المبتدأ والخبر . . . ط دار الكتب المصرية ١٩٣٦م .
ابن رشد : الفيلسوف محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (٥٩٥ هـ — ١١٩٩م) .
٢٠ — بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد ط شركة المطبوعات العربية ؟
ابن سعد : محمد بن سعد كاتب الواقدى (٢٣٠ هـ) .
٢١ — الطبقات الكبرى ط ليدن ١٣٢٥ هـ .
ابن سيده : (أبو الحسن على بن اسماعيل اللغوى الأندلسى (٤٥٨ هـ — ١٠٦٦م) .
٢٢ — المخصص . ط المطبعة الأميرية ١٣١٦ هـ .
ابن عبد الحكم : (المؤرخ الثقة ٢٥٧ هـ) .
٢٣ — فتوح مصر وأخبارها ط مطبعة المعارف الفرنساوية ١٩١٤ م .
ابن قتيبة : (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى (٢٧٦ هـ) .
٢٤ — عيون الأخبار ط دار الكتب المصرية (١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م) .
ابن القيم : (أبوعبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية (٧٥١هـ).
٢٥ — الفروسية ط دار الكتب المصرية ١٩٤١ م .
ابن كثير : (سبق التعريف به فى المصادر المخطوطة) .
٢٦ — تفسيره للقرآن الكريم ط مصطفى محمد ١٣٥٦ هـ .
ابن الكلبى : (هشام بن محمد بن سائب الكلبى (٢٠٤ هـ) .
٢٧ — نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها ط ليدن ١٩٢٨ م .
ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين بن مكارم بن منظور المصرى الأنصارى (٧١١ هـ) .
٢٨ — لسان العرب ط المطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ .
ابن هشام : (محمد بن هشام تلميذ ابن إسحاق (٢١٨ هـ) .
٢٩ — السيرة النبوية ط الحلبى بمصر (١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م) .
أبو الفداء : (الملك المؤيد عماد الدين ، اسماعيل صاحب حماه ، ينتهى نسبه إلى صلاح الدين الأيوبى (٧٣٢ هـ) .

٣٠ ــ المختصر فى أحوال البشر ط أولى بالمطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ .

أبو الفرج : (هو أبو الفرج الأصفهانى (٣٥٦ هـ) .

٣١ ــ الأغانى ط الساسى المغربى جـ ١١ ــ ٢٠ .

أبو يوسف : (الإمام المجتهد ، يعقوب بن إبراهيم الأنصارى ، صاحب أبى حنيفة ١٨٢ هـ) .

٣٢ ــ الخراج ط مصر ١٣٠٢ هـ .

الإدريسى : (محمد الحسنى الإدريسى الفاسى ، عالم معاصر) .

٣٣ ــ التراتيب الإدارية . . . ط فاس ١٣٤٦ هـ .

البخارى : (الحافظ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ٢٥٦ هـ) .

٣٤ ــ صحيح البخارى ــ شرح القسطلانى جـ ٧ ، ٩ ط بولاق ١٣٠٤ ــ ١٣٠٦ هـ .

البلاذُرِى : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (٢٧٩ هـ) .

٣٥ ــ فتوح البُلدان ط ليدن ؟

الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ٢٥٥ هـ) .

٣٦ ــ البيان والتبيين ط ثانية بالقاهرة ١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٢ م .

الجَوَاليقى : (موهوب بن أبى طاهر بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقى ٥٣٩ هـ) .

٣٧ ــ أسماء خيل العرب وفرسانها ط ليدن ١٩٢٨ م .

٣٨ ــ المعرّب من كلام العرب ط دار الكتب المصرية فى ١٣٦٠ هـ .

حاجى خليفة : (مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبى) .

٣٩ ــ كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون ط حلب ١٣٦٠ هـ ــ ١٩٤١ م .

حسان بن ثابت : (شاعر الرسول المشهور) .

٤٠ ــ ديوانه ط مصر ١٣٣١ هـ .

الحسن : الحسن بن عبد الله بن محمد ، ينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب (ألفه ٧٠٨ هـ) .

٤١ ــ آثار الأول فى تدبير الدول ، مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى .

الحلبي : العلامة على بن برهان الدين الحلبي الشافعي ؟
٤٢ — إنسان العيون ، فى سيرة الأمين المأمون، ط ٢ بالمطبعة الأزهرية ١٣٢٩ هـ .
الديارْ بكرى : (المؤرخ حسين بن محمد بن الحسن (٩١٦ هـ — ٩٨٢ هـ) .
٤٣ — تاريخ الخميس، فى أحوال أنفس نفيس، ط أولى ١٣٠٢ هـ — ١٩٢٧ م .
الزمخْشرى : (جارُ الله محمود بن عمر الزمخشرى ٥٣٨ هـ) .
٤٤ — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط مصر ١٣٠٧ هـ .
السُّهيْلى : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى ٥٨١ هـ) .
٤٥ — الروض الأنُف ط مطبعة الجمالية ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م .
السيوطى :
٤٦ — حسْن المحاضرة، فى أخبار مصر والقاهرة، ط مصر ؟
٤٧ — تاريخ الخلفاء ط مصر ١٣٠٥ هـ .
٤٨ — بُغية الوعاة ط الخانجى ١٣٢٦ هـ .
الشريف الرضى : (محمد بن الحسين بن موسى ، ينتهى نسبه إلى الحسْين بن على ٤٠٤ هـ) .
٤٩ — نهج البلاغة — شرح محمد عبده ط الحلبى .
الشعرانى : (الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى الشافعى ٩٧٣ هـ) .
٥٠ — الميزان فى الفقه من جزئين ط مصر ؟
الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير المعروف بالطبرى ٣١٠ هـ) .
٥١ — تاريخ الأمم والملوك ط المطبعة الحسينية ١٣٢٦ هـ .
الفيروز أبادى : (الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر الشيرازى ٨١٦ هـ) .
٥٢ — القاموس المحيط فى أربعة أجزاء ط ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .
القلْقشندى : (أبو القاسم أحمد بن على بن أحمد بن الجمال ٨٢١ هـ) .
٥٣ — صبح الأعشى ط دار الكتب ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م .

الكاسانى : (أبو عبد الله الكاسانى الحنفى) ؟

٥٤ — بدائع الصنائع ، فى ترتيب الشرائع ، ط الخانجى ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م .

الكندى : (الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندى ، ينتهى نسبه إلى محمد بن الأشعث ٢٥٢ هـ) .

٥٥ — السيوف وأجناسها ، رسالة أخرجها القائمقام (العقيد) عبد الرحمن زكى ط جامعة القاهرة ١٩٥٢ م .

الماوردى : (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ٤٥٠ هـ) .

٥٦ — الأحكام السلطانية ط مصر ١٢٩٨ هـ .

المبرد : (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الأزدى ٢٨٥ هـ) .

٥٧ — الكامل فى اللغة والأدب فى جزئين ط ١٣٥٥ هـ .

المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ٣٤٦ هـ) .

٥٨ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ط مطبعة السعادة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

المقريزى : (أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر ٨٤٥ هـ) .

٥٩ — إمتاع الأسماع . . . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

النووى : (الشيخ محى الدين يحيى بن شرف الدين النووى الشافعى ٦٧٦ هـ .

٦٠ — رياض الصالحين ط القاهرة ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨ م .

النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويرى ٧٣٣ هـ) .

٦١ — نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٦ ط دار الكتب ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م .

الواقدى : (أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى ٢٠٧ هـ) .

٦٢ — مغازى رسول الله ط أولى ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

٦٣ — فتوح الشام ط مصطفى محمد . . القاهرة ١٢٨٢ هـ .

ياقوت : (شهاب الدين ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ٦٢٦ هـ) .

٦٤ — معجم البلدان ط أولى ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٦ م .

جـ ـ المراجع الحديثة :

مراجع عربية

أحمد أمين : (الأستاذ الدكتور ، عميد كلية آداب القاهرة سابقا) .

٦٥ ــ فجر الإسلام ط ثانية بمطبعة الاعتماد بمصر .

٦٦ ــ ضحى الإسلام ط أولى بالقاهرة ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م .

أحمد شوقى : (الضابط القائمقام) .

٦٧ ــ فن القيادة . ط مصر ١٩٤٨ م .

أحمد فريد رفاعى : (الأستاذ الدكتور) .

٦٨ ــ عصر المأمون ط دار الكتب ١٩٢٨ م .

جاد المولى : (الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بالاشتراك مع آخرين) .

٦٩ ــ أيام العرب فى الجاهلية ط ثانية ١٣٧٢ هـ ــ ١٩٥٣ م .

جمال الدين حماد : (الرائد أركان حرب) .

٧٠ ــ معارك الإسلام الكبرى ط الحلبى ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ م .

جمال الدين عياد : (الضابط ــ سفير مصر فى لبنان الآن) .

٧١ ــ نظم الحرب فى الإسلام ط . الخانجى ١٣٧٠ هـ .

جميل نخلة المدور : (الأستاذ الأديب المؤرخ) .

٧٢ ــ حضارة الإسلام فى دار السلام، ط بولاق ١٩٣٧ م .

جورجى زيدان : (الأستاذ المؤرخ صاحب مجلة الهلال) .

٧٣ ــ تاريخ التمدن الإسلامى ط مطبعة الهلال ١٩٠٢ ــ ١٩٠٦ .

الخضرى : (الشيخ محمد الخضرى ، أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة القديمة) .

٧٤ ــ محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية حـ ١ ، ٢ ط ٦ ، ١٣٧٠ هـ

٧٥ ــ تاريخ الدولة العباسية ط أولى ١٣٣٤ هـ ــ ١٩١٦ م .

رفيق العظم : (الأستاذ السورى المؤرخ) .

٧٦ ــ أشهر مشاهير الإسلام ط القاهرة ١٣١٩ م .

صلاح الدين : (الرائد ا . ح . صلاح الدين فرحات) .

٧٧ ــ تطور القوات المقاتلة ط المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٩ م .

طه الهاشمي : (الفريق العراقي الباحث) .
٧٨ — خالد بن الوليد . رسالة صغيرة .
فيض الله : (الأستاذ فيض الله الحسني المقْدسي) .
٧٩ — فيض الرحمن ، لطالب آيات القرآن ط بيروت ١٣٢٢ هـ .
عباس العقاد : (الأستاذ الباحث عباس محمود العقاد) .
٨٠ — سلسلة العبقريات (عبقرية محمد وعمر وخالد والإمام) .
عبد الرحمن زكي : (الدكتور القائمقام « العقيد » ، مدير مكتبة الجيش سابقا).
٨١ — السلاح في الإسلام ط الجمعية التاريخية .
٨٢ — الألوية وشارات المُلك ؟
عبد الله المراغي : (الأستاذ الشيخ مدير المساجد بالأوقاف سابقا) .
٨٣ — الجهاد ط مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .
عمر الدسوقي : (أستاذ الأدب العربي بكلية دار العلوم الآن) .
٨٤ — الفتوة عند العرب ط لجنة البيان العربي ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١م .
محمد حسونة : (الأستاذ الباحث المدرس بكلية دار العلوم سابقا) .
٨٥ — الجغرافية التاريخية الإسلامية، ط . لجنة البيان العربي ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .
محمد حسين هيكل : (المرحوم الدكتور الأديب) .
٨٦ — الصدِّيق أبو بكر ط . مصر ١٣٦١ هـ .
٨٧ — الفاروق عمر ط . أولى ١٣٦٤ هـ .
محمد عبد الفتاح : (الرائد ا . ح) .
٨٨ — محمد القائد ط . الحلبي (١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م) .
محمد فرج : (الضابط النقيب) .
٨٩ — محمد المحارب ط دار الفكر العربي ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م .
محمد كُرد علي : (الأستاذ المؤرخ) .
٩٠ — الإسلام والحضارة العربية ط ١٩٣٦ م .
مصطفى زيد : (الأستاذ مدرس الشريعة بكلية دار العلوم الآن) .

٩١ — تفسير سورة الأنفال ط ١٩٥٣ م .
محمود شلتوت : (شيخ الأزهر الحالى) .
٩٢ — القرآن والقتال . ط . دار الكتاب العربى ١٩٥١ م .
محمد ضياء الدين الريس : (الدكتور الريس) أستاذ التاريخ الإسلامى بدار العلوم.
٩٣ — التاريخ المالى للدولة الإسلامية، ط نهضة مصر ١٩٥٧ الأولى .
نعمان ثابت : (الضابط العراقى رئيس الركن) .
٩٤ — الجندية فى الدولة العباسية . ط بغداد ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م .
٩٥ — مجلة لواء الإسلام ا — السنة الثانية العدد ١ ، ٢ .
ب — السنة الخامسة العدد الأول .

مراجع معرّبة

الفرد بتْلر : (الدكتور المؤرخ) .
٩٦ — فتح العرب لمصر — تعريب أبو حديد ط . دار الكتب المصرية ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م .
أميل درمنغم : (المستشرق الفرنسى) .
٩٧ — حياة محمد — تعريب زعيتر ، ط الحلبى ١٩٤٥ م .
جوستاف لوبون : (الدكتور المؤرخ المستشرق) .
٩٨ — حضارة العرب ط الحلبى ١٩٤٥ م تعريب زعيتر .
فيليب حتى : (الدكتور المستشرق السورى أصلا) .
٩٩ — تاريخ العرب — تعريب الأستاذ نافع ط ثانية ١٩٤٩ م .
كمال الدين : (خواجا كمال الدين إمام مسجد بالهند) .
١٠٠ — المثل الأعلى فى الأنبياء — تعريب أمين الشريف ط مصر ١٩٥٢م.
محمد على : (العالم الهندى المسلم مولاى محمد على) .
١٠١ — محمد رسول الله . ط لجنة النشر للجامعيين ١٩٤٥ م .
المودودى : (العالم الباكستانى ، أبو الأعلى المودودى المسلم) .

١٠٢ ـ الجهاد فى سبيل الله ، معرب عن الأردية ط المطبعة السلافية ؟

نورمان بينز : (المؤرخ المشهور) .

١٠٣ ـ الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مؤنس وآخرين ط . مصر ١٩٥٠ م .

مراجع أفرنجية

Eljindi : Dr. Ali Eljindi : Dar-el-Ulume, London.

1. Mortial Poetry among the Arabs in the Jahiliah 1952.

Kamal El-Dien :

2. Islam and civilization, India.

Kremer : Dr. Von Kremer.

3. The Orient under the Caliphs, Translated by Khuda Bukhch, Calacutta 1920.

Oman : Dr. Oman.

4. A history of the Art of War in the Middle Ages.

5. The Byzantine Empire.

Le Strange :

6. Baghdad during the Abbasid Caliphate 1900.

7. The lands of the Estern Caliphate 1930.

S. Lane-Poole :

8. A history of Egypt, The middle Ages, 1924.

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل السابع :

الصفحة

فهرس الرسوم

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١